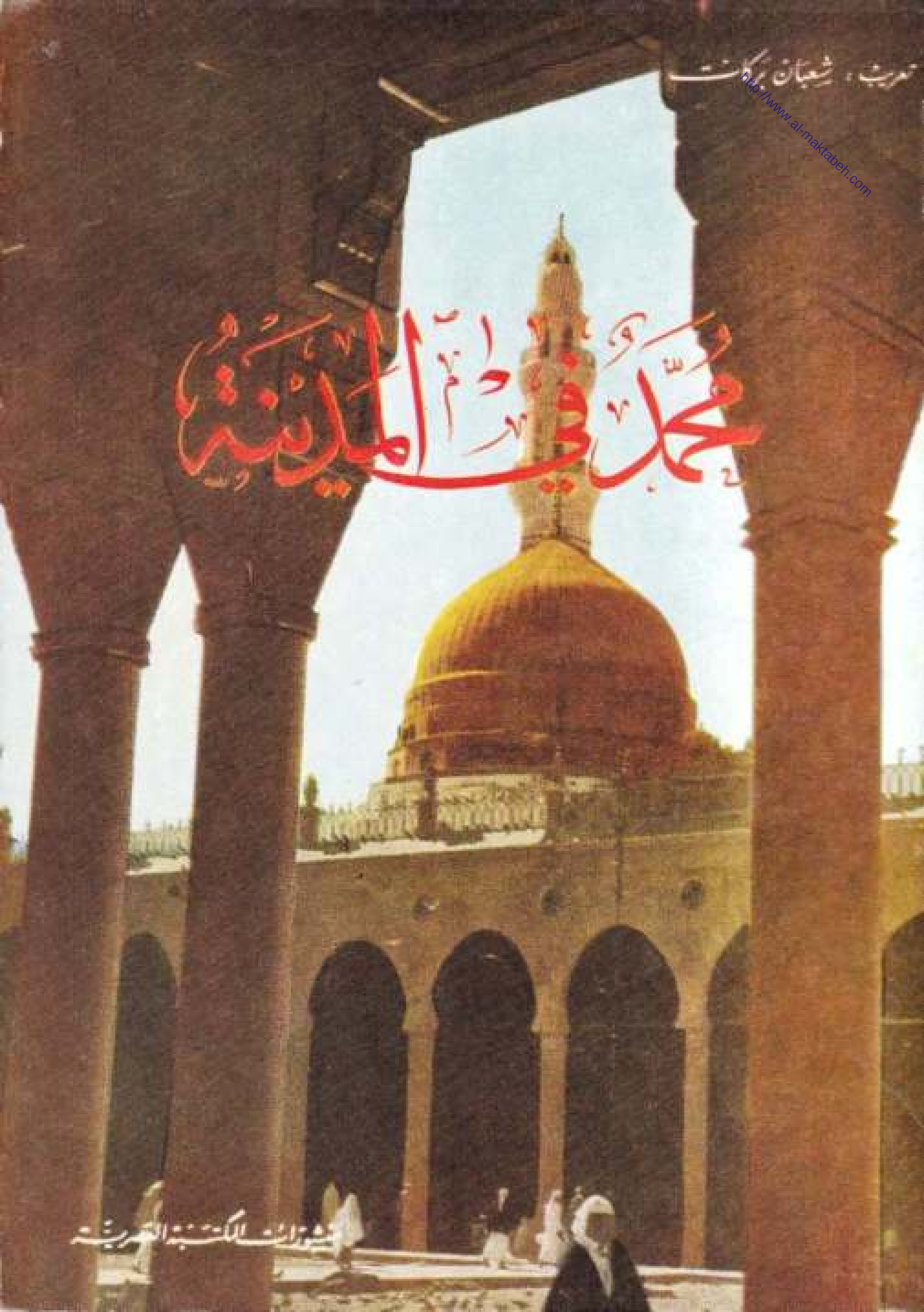

تعريب : شعبان بركات
محمد في المدينة
منشورات المكتبة العصرية

مُحمّد في المدينة

تأليف : مونتجومري وات

تعريب : شعبان بركات

منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت

المطبعة العصرية للطباعة والنشر
صيدا - لبنان - تلفون ٧٢٠٦٢٤

الفصل الأول

تحدي القرشيين

١ ـ الحالة عند الهجرة

تبدأ الفترة المدنية من حياة محمد بوصوله إلى قباء في واحة المدينة في ٤ أيلول سنة ٦٢٢ م (١٢/٣/١) . فقد أصبحت الحياة ، بالنسبة اليه ، مستحيلة في مكة ، بسبب المعارضة التي أثارها ضده ، وكان قد عقد اتفاقاً مع زعماء المدينة . وسندرس طبيعة هذا الاتفاق فيما بعد .

وكان هذا يعني ، من الناحية الدينية ، قبول محمد كنبي ، ومن الناحية السياسية كحكم بين الفئات المتنازعة في المدينة . ويبدو أن الكثيرين كانوا مخلصين في قبوله كنبي ، وإن كان البعض لم ينظر إلى المسالة إلا من الناحية السياسية . وقد سبقه إلى المدينة ، اعتماداً على هذا الاتفاق ، سبعون من أتباعه المكيين حيث أقاموا برعاية أنصاره المدنيين . وهكذا أصبح لمحمد ، عند قدومه إلى المدينة « حاشية دينية قوية » ، كما أصبحت له مكانة سياسية مهمة نوعاً ما في أمته ، وإن كان اتساع مدى سلطته لم يحدد



تماماً . وقد سمي كل من أتباعه في مكة والمدينة بالمهاجرين والأنصار [1] .

وتوجه محمد على فرسه ، بعد أن أقام بضعة أيام في قباء ، نحو وسط الواحة واختار مكاناً لبيته ، وكان يقيم قريباً منه أثناء بناء البيت . وقد أصبح هذا البيت والساحة التي أمامه فيا بعد ، الجامع الكائن في وسط المدينة الحديثة . ولم تكن كثافة السكان أيام محمد ، في هذا الموضع ، أكثر منها في مكان آخر من الواحة .

وكانت المنشآت الاولى نحو الجنوب في العالية . قام محمد إذن وسط أصحابه ، وقد شغل جداً خلال الأشهر الاولى في المدينة ، بتسيير الشؤون الدينية والدنيوية لأمته . وكان نشاطه متعدد الجوانب ، ولا يملك إلا القليل من المعطيات التاريخية ما عدا الشؤون الخارجية والغزوات . فمن الأفضل إذن أن نعالج أولا الشؤون الخارجية ، أي العلاقات مع كفار مكة ، ومع القبائل البدوية . ثم ننظر فيا بعد ، حسب نظام منهجي أكثر منه زمنياً ، في مختلف جوانب الحياة الداخلية لحياة الأمة الإسلامية .

٢ ـ الغزوات الأولى

سميت المحاولات الاولى لجمع المعلومات عن سيرة محمد « المغازي » وإذا لم تكن الفترة المدنية مفعمة بالمغازي ، فإنها لعبت فيها دوراً عظيما . ولذلك كان من الطبيعي تأريخ حادث ما بغزوة من الغزوات . ولقد وقعت

---

(١) ربما كان اسم الانصار مشتقاً من قرآن ٦١، ١٤ . راجع أيضاً ج . هوروفتز Koranische untersuchingen برلين ١٩٢٦ ، ٩٩ .

من بين الأربع وسبعين غزوة ، حسب قائمـــة الواقدي ، سبع غزوات في الثانية عشر شهراً الاولى بعد الهجرة . وأهم هذه الغزوات ضئيلة لأنـه لا يبدو أن شيئاً حدث بسببها ، ومع ذلك فهي أمثلة رائعة على موقف محمد من المكيين ، بعد رحيله عن مكة .

والشيء الجدير بالملاحظة هو أن المسلمين قاموا بالهجوم ، وقدأرسلت هذه الغزوات السبع ، ما عدا واحدة، ضدالقوافل المكية . وساعـــدعلى ذلك الموقع الجغرافي . فقدكان على القوافل المسافرة من مكة إلى سورية أن تمر بين المدينة والساحل ، حتى ولو ظلت ، أقرب ما يمكن من البحر الاحمر ، فقد كان عليها أن تمر على مسافة ١٣٠ كلم من المدينة على الاقل. حتى إذا ما وجدت بعيدة هذه المسافة عن قاعدة العدو ، فإنها تجد نفسها مرتين أبعد عن قواعدها الخاصة . فما كان على المهاجمين إلا الاهتمام بالفرقة المرافقة للقافلة ، ثم يعودون أدراجهم بسهولة ، قبل ظهور أي جماعـــة للمساعدة . وكانت فكرة هذه المغازي ــ كما هو الحال في حروب العرب في الصحراء ــ هي مفاجأة العدو باعداد الكمائن له مثلا . ويبدو في هذه المغازي الاولى أن الفرصة المواتية لم تتح لهم . غير أن عدم سنوحها لم يدفع المسلمين إلى المخاطرة في القيام بهجوم وجهاً لوجـــه ، بل كانوا ينسحبون بكل بساطة .

وكان عدد الرجال المشتركين في الغزوتين أو الثلاث الاولى يتراوح بين ٢٠ ــ ٨٠ رجلا . بينما يقال ان هذا العدد ارتفع إلى ٢٠٠ في غزوات نهاية ٦٢٣ م التي اشترك فيها محمد نفسه .

وكانت القوافل المهاجمة قوية جداً ، واحدة منها تتألف من ٢٥٠٠ جمل يصحبها ٢٠٠ إلى ٣٠٠ رجل . ربما كانت هذه الارقام مبالغ فيها لأنه لم يكن يوجد سوى ٧٠ رجلا في القافلة المهمة التي كانت السبب في معركة بدر ، وربما كان ضعفها هـذا هو الذي حمل القرشيين على الخروج بكثرة .

لو كان مع محمد ٢٠٠ رجل أو ١٥٠ لكان الأنصار من بينهم ، وتجمع المصادر على أن معركة بدر ، كانت الاولى التي يشترك فيها الانصار ، غير أن هذا الاجماع ليس تاماً . ففي المقطع الوحيد الذي يذكر فيه اسم الرواة ، يتملكنا الشك لأن الاسماء الاخيرة في الرواة[؟] متاخرة وهي أسماء أشخاص يظهرون في الخلافات الفقهية ، بالاضافة إلى أنهم جميعاً ينتمون لبني مخزوم من قريش .

ولما كان محمد لديه أقل من مئة مهاجر في معركة بدر ، حيث كانوا جميعاً حاضرين ، فهناك مجال للقول بأن الانصار اشتركوا ، على الاقل، في أكبر الغزوات الاولى .

وقد أتيحت لمحمد بعض الفرص للحصول على رجال غير المهاجرين الأصليين . وانضم اليه مكيون آخرون . فلقد ترك عياش بن أبي ربيعة (من مخزوم) وهشام بن العاص (من سهم) مكة خلال السنة الاولى للهجرة ، وربما كان رحيلها له علاقة بموت الوليد بن المغيرة سيد بني مخزوم الكهل .

وانقلب مقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان (وهما حليفا بني زهرة

وبني نوفل) أثناء غزوة عبيدة . كما مال اليه بعض البدو طمعاً بالمال .

حدث ذلك في السنوات التالية ، قبل معركة بدر . ولكن لا تستطيع هذه المساعدات أن ترفع العدد إلى ١٥٠ . وبالاضافة إلى هذه الحجة التي تعتمد على الارقام ، فإن عمل مجدي بن عمرو من بني جهينة خلال غزوة حمزة وقيامه بالوساطة بين المسلمين ، وبين قوة ضخمة من المكيين ، سببه وجود مدنيين متحالفين مع جهينة [١] ، بين المهاجمين . ولئن خلت هذه الغزوات السبع من القتال، فإنها لم تخل من نتائج إيجابية للمسلمين .

ولا شك أن قدرة محمد على التنقل بصحبة قوة ضخمة و محاولته الهجوم على المكيين الاقوياء قد أثر في البدو . وربما كان بنو جهينة ميالين للانضمام اليه ، لأن بعض أفرادها كانوا حلفاء بعض الانصار .

كما عقدت معاهدات عدم اعتداء مع بني دمرة وبني مدلج . وكانت نصوص هذه المعاهدات تقوم على أن لا تعتدي قبيلة على أخرى وأن لا تنضم لحلف ضد الاخرى ، وأن لا تساعد أعداء القبيلة الاخرى [٢] .

نستطيع أن نرى في كل ذلك نية مبيتة من محمد لتحدي المكيين . ولما كان الانصار قد اشتركوا في الحرب ، فلا بد أنهم كانوا على علم بهذا المخطط ، ولا شك أن زعماءهم اطلعوا على سياسة محمد قبل دعوته إلى المدينة .

---

(١) ابن هشام ٤١٩ ، الواقدي ٢٣

(٢) ابن سعد ٢ ، ١ ، ٢١، ١٧ – ٢٠ ، ص ١٠٥

ولكن من الصعب معرفة نوايا محمد في هذا الوقت : هل كان هدفه سلبياً ، وهو تحطيم تجارة قريش ؟ أم كان ينظر إلى أبعد من ذلك وهو فتح مكة ؟

لا شيء يدل على أن محمداً كان يفكر في الاستيلاء على تجارة مكة من أجل المدينة (وإن كانت إحدى الغزوات اللاحقة تجارية جزئياً) . فلم يكن قد استكمل قوته بعد في المدينة ، ولم يكن لديه رجال يضحي بهم ، وتدل الغزوة الوحيدة في البداية ، التي لم تكن ضد المكيين ، ألا وهي الغزوة ضد كرز الفهري على الاخطار التي كان عليه أن يحذرها باستمرار ، وكانت محاولة لمعاقبة لص استولى على جمال لأهل المدينة كانت في المرعى .

ولقد قلق القرشيون لهـذا التهديد لتجارتهم ، وإن لم يصابوا بالخسائر ، وبالرغم من كل الاحتياطات التي اتخذت ، فقد كان هناك أمل في أن يجد المسلمون يوماً الفرصة التي يبحثون عنها ، وكان يعني هـذا خسارة جسيمة لقريش . ولم يفعل القرشيون ، حتى الآن ، أي شيء غير أن حماسهم في القتال في بدر يدل على هذا القلق .

لا يشير القرآن صراحة إلى المغازي الاولى ، ولكنه يشير إلى موقف المسلمين بالنسبة للقتال المسلح . ونفهم من أقدم النصوص أن المهاجرين كانوا يرغبون في القتال ، لانه يقول بان الله سمح لهم به « إذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من

ديارهم بغير حق ، إلا أن يقولوا ربنا الله »[1] .

ثم نزل الوحي فيما بعد يدعو المسلمين ، مهاجرين وأنصاراً ، للقتال : « وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع علـيم »[2] . ويبدو أن الحماس في إطاعة هذا الامر ، كان خفيفاً لأن هناك عدة اشارات إلى استنكاف الكثيرين عن القتال[3] . نجد عندئذ حافزاً جديداً ، وهو القول بأن الله يفضل المجاهدين على القاعدين وان للمجاهدين « أجراً عظيما » في الجنة[4] .

* وهكذا كان المسلمون يحصرون نشاطهم السياسي والحربي في نطاق ديني .

٣ـ المعركة الأولى

الرواية العادية للمعركة الاولى بين المهاجرين المسلمين والقرشيين الكفار التي وقعت خلال غزوة نخلة هي رواية ابن اسحق عن عروة ، وقد نقلها عن الزهري ويزيد بن رومان . وتقول هذه[5] الرواية ان عبد الله بن جحش ، وهو حليف بني عبد شمس ، أرسل ومعه جماعة من ثمانية إلى عشرة أشخاص وجميعهم من المهاجرين . وقد أرسل معه محمد رسالة مختومة وأمره أن لا يفتحها إلا حين يصبح على بعد يومين من المدينة .

---

(١) ٢٢، ٣٩ــ٤٠ (٢) ٢، ٢٤٤، ٢٤٥

(٣) ٢، ٢١٦ــ٢١٢ (٤) ٩٥ــ٩٧

(٥) ابن هشام ٤٢٣ ـ ٤٢٧ ، الواقدي ٣٤ــ٣٧

ففتحوا الرسالة ووجدوا فيها أمراً بالسير إلى نخلة ، الواقعة على الطريق من الطائف إلى مكة ، وأن ينصبوا كميناً لقافلة مكية . فالتقوا بقافلة مكية في نخلة ، وبددوا شكوك المكيين بالتظاهر بانهم حجاج ، حتى إذا ما سنحت لهم الفرصة بدأوا بالهجوم . فقتلوا أحد المكيين الاربعة المرافقين للقافلة ،هو عمرو بن الحضرمي ، وأسروا اثنين بينما فر الرابع .

وبالرغم من إنذار العدو ، فقد استطاعوا العودة بالقافلة والاسرى إلى المدينة . وهناك ظهر الخوف من مقتل المكي خلال شهر رجب الذي يحرم فيه سفك الدماء . ولم يوزع محمد الغنيمة في أول الامر ولم يقبل الخمس الذي هو من نصيبه ،حتى نزل الوحي [1] ، وبرر فعلهم . وقد جاء إلى المدينة وفد من مكة للاتفاق على فدية الاسرى فوافق محمد على جعلها ١٦٠٠ درهم عن كل شخص بعد عودة المسلمين اللذين انفصلا عن سائر الجماعة .

نلاحظ أولا، في هـــذه الرواية، ان محمداً قد اتخذ جميع الاحتياطات للمحافظة على السر .فهو لم يكتف باعطاء قائد الحملة أمراً مختوماً لايعرفه سوى هو وكاتبه ومستشار أو اثنان من مستشاريه الخلص ، بل أرسل الحملة على طريق نجد ، نحو الشرق تقريباً ، بينما كان الهدف النهائي نحو الجنوب . فعل كل ذلك ليمنع جواسيس مكة من اكتشاف مشاريعه • ربما لأن بعض المحاولات السابقة قد فشلت بعد أن عرف العدو بأمرها ولكن ربما كان ذلك لأن هذه الحملة ستصل إلى نقطة أقرب لمكة منها

---

(١) ٢١٧:٢ - ٢١٤

إلى المدينة ، ولهذا فهي خطيرة على المشتركين فيها ،إذا تسرب أي خبر عنها إلى الخارج ٠

كما أن تردد رجال الحملة حين قراءتهم لأوامر محمد كان الخطر البديهي على الحملة ، وكذلك الشعور بالخزي مما يطلب اليهم فعله ٠ ربما كان العربي شجاعاً حتى الجنون إذا ما أثير ، ولكنه في حـــالة الهدوء يحاول تجنب الاخطار ٠ ولهذا قال محمد لعبد الله بن جحش ، أن يعيد كل الذين لا يرغبون في تنفيذ المخطط ٠ وهذا ما نجده في قصة سعد بن أبي وقاص ، ورفيقه على ظهر البعير عتبة بن غزوان . اما ان يكون بعيرهما قد ضل ، وإنهما في بحثهما عنه قد ابتعدا عن الحملة ، فهذه هي القصة التي روياها بعد عودتهما للمدينة بعد عدة أيام عـــلى عودة الغزاة المنتصرين ٠ وإذا كانت تلك هي القصة التي روياها ، فإن ذلك لا يعني أن القصة صحيحة ٠

وهناك رواية تجعلنا نفهم انهـــا ليست حقيقية [1] ٠ ولا شك أن الاثنين قد أضاعا كثيراً من الوقت ، ومن الغريب أن يحدث ذلـــك ، في أراضي بني سليم ، القبيلة التي ولد فيها عتبة ٠ وقـــد حدث حادث آخر مؤسف فيما بعد أساء لسمعة سعد في الشجاعة ٠ كان سعد ، في معركة القادسية الكبرى، التي كسرت شوكة الامبراطورية الفارسية ، يقود المسلمين وكان مريضاً ، ولذلك قاد قواته إلى اصطبل في المؤخرة٠ ولربما كانت اشارة المصادر إلى إن سعداً كان اول من حارب من أجل

---

(١) طبري ج ١ ، ١٢٧٨ ؛

الاسلام [1] محاولة للتخفيف من هذين الحادثين .

وتتحدث المصادر عن ذلك أكثر من حديثها عن واقد بن عبد الله ، حين قتل عمرو بن الحضرمي ، وكان أول من قتل رجلا في سبيل الاسلام وسبب هذا الفرق ، هو أن واكداً مات في بداية خلافة عمر ، ولم يترك له ذرية ، بينما سعد عاش بعد ذلك أربعين سنة ، وأصبح أحد رجال الدولة المرموقين ، كما خلف خلفاً كثيراً . ويروى كثير من أخبار المعارك على لسانه أو لسان واحد من أفراد عائلته وتحتوي على كثير من عدم الاتفاق .

كان الشيء الأساسي في أوامر محمد المختومة إلى عبد الله بن جحش ، أن يذهب إلى نخلة ، وينصب كميناً لقافلة قرشية . والشيء الثاني (حسب روايات أخرى) أن يرفع تقريراً لمحمد . وهذه إضافة لاحقة تحاول أن تجعل لكلمة « ترصدوا » بمعنى « راقبوا » بدلا من أن « ينصب كميناً » وهكذا ترفع المسؤولية عن محمد بسبب أي معركة دموية ، ومما لا شك فيه أن محمداً أمر بالقيام بهذه المهمة ، مع علمه بانها ربما تؤدي إلى سقوط القتلى من رجاله أو من رجال أعدائه . ولا نعرف ما إذا كان محمد يعلم بان هذه القافلة خاصة ستمر بنخلة في هذا الوقت ، أم انه أرسل رجاله لاحتمال وجود القوافل في هذا الوقت . ولربما قدر أن كل قافلة تسير على الطريق الآمنة بين الطائف ومكة ، تتبعها حراسة ضئيلة ، بسبب الجهود

---

(١) ابن سعد ١٦٦ ، ابن هشام ٣٠١-٩٩

التي بذلت لحماية القوافل إلى سورية ، حين مرورها بمنعرج المدينة .

من الممكن أن يكون محمد قد تصرف اعتماداً على الامكانية هذه ولكنه لا يستحيل انه وصلته معلومات خاصة .

هناك مسالة أهم وهي ما إذا كان محمد ينتظر أن يحدث الهجوم على القافلة خلال شهر رجب المقدس . يعين الواقدي وقت الحادث في نهاية رجب ، ويشير إلى أنه كان يجب على المسلمين ، إذا أرادوا مهاجمة القافلة ، إما أن يهاجموها خلال شهر رجب ، أو بعد أن تكون قد دخلت أرض مكة المقدسة . إذا أمكن قبول هذه الرواية ، فيمكن أن تكون القافلة قد قلبت خطط محمد ، وذلك بوصولها مكة قبل الوقت المعين ، أما القول بأن المهاجمين لم يكونوا يعرفون ما إذا كان الشهر الحرام انتهى أو لم ينته ، فهذه محاولة لغسل العار الذي أصبح مشهورا .

ومما يدعو للشك أنه بينما تقول بعض المصادر بأن ذلك كان في نهاية رجب ، إذا بمصادر أخرى تقول ان ذلك كان في مطلع شهر رجب . ويبدو انها كانت تعلم بأن الحادث وقع خلال شهر رجب والباقي يقوم على الافتراض . وإذا كان الأمر كذلك ، فقد وقع الحادث نحو منتصف الشهر ، وقد انتظرت أوامر محمد نصب الكمين أثناء الشهر الحرام .

وإذا افترضنا أن محمداً كان في نيته خرق الشهر الحرام (وإن كان ذلك غير ثابت) فإنه لا يعني انه كان يفكر بارتكاب امر معيب او غير مشرف ، فلقد كان طابع شهر رجب المحرم مرتبطاً بالديانة الجاهلية التي كان محمد يحاربها . ولهذا كان خرق الشهر الحرام كتحطيم الاصنام .

ولكن ماذا نقول عن تردد محمد في قبول خمس الغنيمة ؟ إذ لا يعقل أن يتخلى عن اصحابه او يخشى قريش ، وإن كان بعض اليهود في المدينة جعلوا يتندرون حول كلمة قاتل ومقتول ، مما يدل على أن الحرب كانت معلنة . واسهل حل هو التفكير بأنه اكتشف بعد الحادث ، ردود فعل قوية حول خرق الشهر الحرام ، اكثر مما كان ينتظر . وربما خشي بعضهم عقاباً تنزله بهم الآلهة ، وهو عقاب ربما اثر بالطائفة جميعها فيما لو قبلوا الغنيمة . كما لاحظ البعض التناقض بين نقض الشريعة الالهية من ناحية ودعوة محمد إلى التضحية في سبيل الله من ناحية أخرى .

ومسالة الشهر الحرام صعبة[1] .يقول بعض المؤلفين المسلمين ،حسب رأي القرآن (٩/٣٦) انه وجد دائماً اربعة اشهر ، وهي : رجب ذو القعدة ، ذو الحجة ، المحرم . غير ان القرآن يتحدث في مكان آخر ، (٢/١٩٤-١٩٠ ، ٢/٢١٧-٢١٤ ، ٢/٥ ، ٩٧/٩٨) عن الشهر الحرام . وقد قيل في ذلك ان كل منطقة كانت لها عادات خاصة ، وإن العدد أربعة هو حل وسط . يمكن ان يفسر هذا ، لماذا كان رد فعل المدينة على حادث نخلة مفاجأة لمحمد . وربما كان المدنيون اكثر تمسكاً بالمعتقدات القديمة من المكيين ذلك لأن هؤلاء مرت بهم تجربة الحرب التي تنتهك فيها الامور المقدسة .

---

(١) راجع م . بلسنر مقالتي : « المحرم » و « رجب » في دائرة المعارف الاسلامية .

والآيات التي وضعت حداً لتردد محمد هي التالية : « يسالونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل» (٢/٢١٤-٢١٧) .

تعترف هـــذه الآيات بأن خرق الشهر الحرام شيء خطير ، ولكنه يذكر المسلمين بأن إهانات القرشيين لله أشد خطورة ، ونتيجة ذلك أن ينزل العقاب بالقرشيين . كلمة « كبير » يمكن أن تعني أيضاً « الكبيرة » (أي الخطيئة) ولكن الآيات ليست تحريماً للقتال في المستقبل (وإن كان بعض المؤلفين المسلمين يفسرونها بهذا المعنى ويقولون ان الآيات نسخت فيما بعد) ولكن هذا تبرير لما وقع في الماضي . وربما جهد محمد ، في السنوات التي تلت حادثة نخلة ، في تجنب إرسال الحملات خلال شهر رجب . ويذكر الواقدي حملتين خلال هذا الشهر في السنة السادسة والثـــامنة للهجرة (٦٢٧ ـ ٦٢٩) ، ولكن يبدو انه لم ترق فيهما دماء الاعداء . وان قتل بعض المسلمين في السنة السادسة . وقد أرسلت عدة حملات خلال الاشهر الحرم الاخرى ، ولهذا يؤكد بعض العلماء المسلمين ، اعتماداً على ذلك ، ان تحريم القتال خلال الأشهر الحرم قد نسخ[1] .

لا شيء يثبت أمام الشك والتخمين اللذين مررنا بهما . ومع ذلـــك فالثابت ، ان القوم اتهموا عبـــد الله وجـــنده بأنهم خرقوا شهر رجب ، ولم يكن بامكان محمد أن يبرهن على أن المسلمين لم يرتكبوا ذلك .

---

(١) راجـــع الواقدي ٢٩-٣١ ، الطبرى ، تفسير ج ٢ ص ١٩٩ (بصدد قرآن ٢/٢١٤-٢١٧) ، ابو جعفر النحاس ، كتاب الناسخ والمنسوخ القاهرة ١٣٥٧/١٩٣٨ ص ٣٢ وما يليها .

وشيء آخر ثابت وهو أن محمداً لم يكن يعبأ كثيراً بالقتال في الاشهر الحرم ، ولكن كان عليه أن يحترم معتقدات قسم كبير من أصحابه ، وأن يتجنب ماينشأ عن ذلك من صدى يهدد سلطته كنبي. ويجب أن نلح على هذه المسألة ، وهو أنه حتى ولو كان محمد ينتظر خرق الشهر الحرام على يد جنده المهاجم ، فليس في ذلك في نظر العربي أي شيء معيب مخجل ، إذا اعتبرنا الهجوم العام ضد الالحاد ، ولقد غضب القرشيون، ليس فقط لفقدهم حياة إنسان وخسارتهم قافلة غنية بل لأن هذه الأعمال كانت تقع تحت سمعهم وبصرهم .

٤ ـ معركة بدر

آذار ٦٢٤ م : ٢/٩ [١]

شجعت غنيمة غزوة نخلة سياسة الغزوات ضد القوافل المكية ، وقد استطاع محمد أن يجمع للحملة التالية ٣٠٠ رجل ، أي بزيادة مئة رجل على كل غزوة سابقة . وقد جاءت هذه الزيادة ، بدون شك من الأنصار ، لأننا نستطيع أن نفترض بأن جميع المهاجرين قد اشتركوا بالحملة الكبرى السابقة . ويقول ابن سعد انه اشترك ٢٣٨ رجلا من الأنصار في معركة بدر و ٨٦ رجلا فقط من المهاجرين [٢] .

ويبدو أن محمداً قد علم في الوقت المناسب ، ان قافلة كبيرة تستعد

(١) ابن هشام ٤٢٧-٥٣٩ ، الواقدي ٣٧-٩٠ ، طبري ١٢٨١ -١٣٥٩ ، كيتاني ج ١ ص ٤٧٢ - ٥١٨ ، ٣ حميد الله ، مغازي النبي محمد ١٩٥٣-١٣١٣ ص ١١- ١٧ . درس محمد عبد الفتاح استراتيجية هذه لمعركة وغيرها في كتابه محمد القائد ، القاهرة ١٩٤٥
(٢) ابن سعد ٢،٣ ، ٣-١

للرحيل عن غزة إلى مكة فقدر انها تستحق الاستيلاء عليها .

ويقال انها ، بالرغم من حراسة ٧٠ رجلا لها (وربما أقل) فإن السلع كانت تساوي ٥٠٠٠٠ دينار . فقد اشترك فيها جميع كبار التجار وأصحاب الأموال في مكة ، أي ان مكة باجمعها كان يهمها أمر عودتها سالمة . وربما كانت مؤلفة من عدد من القوافل الصغيرة التي تجمعت زيادة في الحماية [١] .

وكان أبو سفيان بن حرب ، وهو من رجال مكة الأذكياء ،يتولى شؤون القافلة • ويبدو أنه أدرك مبكراً ان محمداً سوف يحاول مهاجمة القافلة . ولهذا أرسل في الوقت المناسب يطلب من مكة إرسال رجال للدفاع عن القافلة في الموضع الخطر (وتقول بعض المصادر انه لم يرسل رسالته إلا بعد أن علم باستعدادات محمد . ولكان هذا مستحيل بسبب الوقت) .

وقد أجاب المكيون بقيادة أبي جهل على رسالة أبي سفيان بارسال كتيبة قوية مؤلفة من ٩٥٠ رجلا تقريباً ، إذ اشترك فيها جميع المحاربين في مكة بعد أن وعد سيد بني كنانة ، ان كنانة ـ التي كان لها ثار عند القرشيين ـ لن تهاجم مكة حتى ولو خلت من المدافعين عنها . وتدل أهمية الكتيبة على أن أبا جهل حاول ، بدون شك ، تخويف محمد وأنصاره ، والحيلولة بينهم وبين لقائه في الميدان ومنعهم من غزو القوافل في المستقبل .

---

(١) ابن هشام ٤٢١، ٤٢٨ ، الواقدي ٣٤، ٣٩ ، قابل كايتاني ج١-٣ ٤٦٣ رقم ١

وقد علم القرشيون بعد عدة أيام من خروجهم من مكة ان القافلة أفلتت من محمد وانها سالمة. وكان السبب الوحيد للقتال الثار لعمرو بن الحضرمي . وكان عتبة بن ربيعة من عبد شمس ، مستعداً لدفع ديـــة القتيل حفظاً للسلام ،غير أن أبا جهل جعله يخجل بلباقـــة ، فسحب عرضه . وبذلك حمل ابو جهل القرشيين عـــلى التقدم . وكان يأمل ، بدون شك ، أن يتخلص من محمد نهائياً .

تلك هي رواية الخطوات التي قام بها المكيون تنقلها الينا مصادر متعددة. وتحتوي هذه المصادر ، وإن كانت معادية لمخزوم وموالية لعبد شمس ، على جزء من الحقيقة . فلم تكن صفوف القرشيين موحدة ، وقد انسحب من صفوفهم ، قبيلتا زهرة وعدي ، بعد اتخاذ القرار بالتقدم إلى بدر رغم سلامة القـــافلة . إذ أنهما اعتقدتا أن ابا جهل واصدقاءه سيكونون المستفيدين الكبار من تحطيم محمد ، وأخذ الخوف من القتال يسير اعمال المكيين لأن غالبيتهم كانت تعتقد ان المسلمين لن يجرأوا على مهاجمتهم .

لم يكن المسلمون ينتظرون الدخول في معركة عند سيرهم . ويقول أقدم مصدر وهو رسالة عروة لعبد الملك [1] . بان الرسول وأصحابه لم يسمعوا بخروج القرشيين قبل مجيء النبي إلى بدر .

فلو علم المسلمون انه سوف تحدث معركة لامتنعوا عـــن السير . وهناك قصة سقاء مكي اسره رجال محمد واستجوبوه ، وحين اخبرهم بالحقيقة عن جيش أبي جهل الصغير اعتقدوا انه يكذب عليهم فضربوه

---

(١) طبري ١٢٨٤ ، ترجمة كايتاني ج ١ ، ٤٧٢ .

حتى إذا ما روى لهم الأكاذيب عن أبي سفيان صدقوه ، ولم تكتشف حقيقة الأمر إلا حين استجو به محمد بنفسه . ويبدو بهذه الصورة أن محمداً قد حصل على معلومات دقيقة عن القرشيين قبل أن يعرفوا شيئاً عنه ، فاستولى بذلك على زمام المبادرة .

ويتضمن قول القرآن « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين انها لكم » . (اي القافلة او فرقة النجدة) ان محمداً علم بقدم أبي جهل قبل وقت كاف من القتال ، حتى لا يجهل مع من سيكون اللقاء . ويقولون بأن الانصار لم يتعهدوا بالدفاع عن محمد إلا داخل أراضي المدينة ، وان محمداً قبل خوض القتال ، اجتمع بهم وطلب اليهم ما إذا كانوا سيساندونه في هذه الظروف . ونستطيع القول بأن المسلمين حين علموا بمكان القرشيين كانوا قريبين منهم . ولهذا كان كل انسحاب عاراً عليهم . ولكن الاقرب أن نقول بأن محمداً وجد الفرصة سانحة لمهاجمة القرشيين في ظروف مواتية واستطاع إقنـــاع أصحابه بصواب رأيه .

وتاريخ المعركة هو السابع عشر أو التـــاسع عشر أو الواحـــد والعشرون من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة الموافق ١٣ أو ١٥ أو ١٧ آذار سنة ٦٢٢ م . وقد استولى محمد في الليلة السابقة ، بعد أن علم بسير أبي جهل إلى بدر ، على آبار المياه ، ما عدا البئر القريبة من مكة ، حيث أقام رجاله . وهكذا أجبر أعداءه ، الذين كانوا بحاجة للماء ، على القتال فوق أرض وفي ظروف اختارها هو . ولم يقع القرشيون في كمين بل يبدو انهم وجدوا أنفسهم في وضع يستحيل عليهم فيه تجنب القتال

رغم الظروف المعاكسة . وإذا كانت المصادر صحيحة حول التفاصيل فقد علم القرشيون ، في اليوم السابق على القتال ، ان محمداً كان قريباً منهم ، ولكن لم يعلموا مكانه بالتاكيد . وكان وجوده في صباح اليوم التالي على الآبار مفاجأة لهم . ويبدو أنه نشبت مبارزات خاصة بين الأبطال وهي مقدمة لنشوب الحرب الحقيقية عند العرب . كما تبودلت السهام ، ثم حدثت الوقعة العامة التي أسفرت عن فرار القرشيين وقتل ما بين ٤٥ ـ ٧٠ قرشياً ، ومنهم أبو جهل نفسه وعدد من الزعماء الآخرين . ووقع عدد مماثل من الاسرى . وكانت الغنيمة ضخمة ، وقد أعلن محمد ، حتى يمنع التوقف عن مطاردة العدو ، ان توزيع الغنائم سيكون بالتساوي بين الذين اشتركوا في القتال .

وقد عومل أسير أو أسيران بشدة وقسوة معروفتين عند العرب في ذلك العصر . وكانت العادة أن يفعل الانسان ما يريده باسيره . وكان لا ينظر إلا إلى النفع الذي يعود عليه أوعلى قبيلته .

وقد حدث في بدر أن جاء مسلم باسير ، فرآه جماعة من المهاجرين الذين كانوا يكرهونه فوثبوا عليه وقتلوه . وهكذا ضاعت الفدية على الرجل الذي أسره . وقد وضع محمد حداً لهذه الاعمال . وكانت سياسته عامة أن يحتفظ بالأسرى حتى دفع الدية ، أما الذين كانوا من قبيلته أو كانت تربطهم علاقة ما بالمسلمين ، وكذلك الذين لم يكونوا متنفذين ولا أغنياء تدفع دياتهم ، فكان يطلق سراحهم بدون دفع الدية . ولقد أخذ يدرك أهمية اكتساب قلوب المكيين بالنسبة اليه . واستثني عقبة

بن أبي مؤيت من سياسة اللين هذه ، فقتل بسبب عدائه القديم لمحمد لأنه نظم هجاءاً فيه . كما قتل[1] النضير بن الحارث الذي كان قد أعلن أن قصصه عن الفرس تساوي قصص القرآن .

وقد ساعد عدد من العوامل على هذا الانتصار الذي حققه المسلمون. وكان أحد هذه العوامل عدم الوحدة بين صفوف القرشيين كما أشرنا اليه سابقاً . وجعلت الانسحابات المتتالية عدد الجيش البالغ ٩٥٠ رجلاً في البداية يصبح ٦٠٠ – ٧٠٠ رجل . ولم يكن كل هؤلاء الباقين أنصاراً مخلصين لسياسة ابي جهل . كما كانوا شديدي الثقة بأنفسهم . وقد كان لحماس المسلمين ضد مثل هذا العدد أثره الكبير . كما ان ايمانهم بحياة ثانية كان يشجعهم على القتال ، وثقة محمد بالنصر توحي لهم الثقة بالنصر . وقد عادت عليهم قيادتـــه بتفوق تكتيكي . تلك هي اهم الاسباب لانتصار المسلمين . ولا شيء يسمح بالقول بأن صفات الانصار الحربية كانت أعلى من صفات القرشيين . وتذكر قائمة الكفار الذين قتلوا اسم المسلم الذي قتل رجلا خاصة ، ولكن لا يمكن الاطمئنان كثيراً إلى التفاصيل لأن عدد ضحايا علي وحمزة ، لا شك مبالغ فيه . وإذا حسبنا حساب المبالغة نستطيع القول بـان مزارعي المدينـة لم يكونوا محاربين متفوقين على تجار مكة . كما يجب أن نتذكر ان الكفار او الذين قتلوا كانوا اكبر سناً من غالبية المهاجرين ، وربما كانوا يعانون العظش . ولم يكن المهاجرون سوى ثلث الانصار غير انهم قاموا

---

(١) ابن هشام ٨و٤ ، الواقدي ٧٨

كما يجب بنصيبهم من القتال ٠

٥ ـ الحالة بعد بدر

كان فقد الرجال المدربين ، كارثة من الدرجة الاولى على مكة .وقد قتل عدا ابي جهل (من مخزوم) الزعماء التالية اسماؤهم : عقبة بن ابي معيط ، عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة من قبيلة عبد شمس . الحارث بن عمرو ، وطعيمة بن عدي من نوفل ، زمعة بن الاسود وابو البختري ونوفل بن خويلد من اسد ، النضر بن الحارث من عبد الدار منبه بن الحجاج واخوه نبيه من سهم ، وامية بن خلف من جمح [١] . ولم يبق سوى اثني عشر رجلا من ذوي المقدرة والخبرة في مكة .وكان طبعا ابو سفيان سليما معافىً مع القافلة ، واصبح اهم رجل في المدينة .

كان سهيل بن عمرو أسيراً ، ولكنه افتدي، وقد استطاع حكيم بن حزام وآخرون غيره ، الفرار من ميدان القتال . وكان هناك رجال أصغر سناً مستعدين للقيام بدورهم ومع ذلك فقد كانت الكارثة ضخمة .

ولم يكن فقد الكرامة قليلا ، وإن لم يحدث تغيير مباشر في الحالة السياسية ٠ وقد ادرك عرب الحجاز ان هذه المعركة ، لا تعني استبدال المدينة بمكة كقوة مسيطرة في تلك المنطقة ٠ وكان لابد من ادلة اخرى على قوة محمد قبل ان يأتي اليه الناس ، البعيد والداني ، افواجا ٠ ولقد

---

(١) ابن هشام ٥٠٧ ، الواقدي ٨١

اصبح واضحاً بعد الآن ان ابا جهل قدر حق قدره التهديد الذي يمثله محمد وإن كان قد اخطأ في بعض المسائل• والشيء الاكيد ان محمداً يقف موقف المتحدي ، ولا يستطيع المكيون سوى الرد على هـذا التحدي بعد ان دعاهم إلى امتحان للقوى على طول الخط ، وإذا لم يكن اي واحد مـن العدوين ، حين سار ، ينتظر القتال ، فان مصير المعركة لم يكن صدفة •

وكان اعتقاد المكيين بان محمداً سوف يجبن عن مجابهتهم ، يعتمد على تقدير خاطىء لقوة كل من المعسكرين وقيمته في القتال • وهذا صادر عن ثقة غير متناهية بقوتهم ولم يدركوا ان هذه القوة قد تضاءلت بسبب اضطراب العصر عن طريق الايمان بالمال مثلا ، وغيره مـن العيوب التي يحاربها القرآن • وإذا كان محمد ، من ناحية ثانية ، لم ينظم حملة لمنازلة القرشيين ، فقـد اظهر استعداده لمهاجمتهم في ظروف مواتية للمسلمين • حينما صعب عليه تجنب القتـال في بدر - او حينما ساعده الحظ على إقناع الانصار بالقتال ، حافظ عـلى هدوئه واستغل اللحظة إلى اقصى حد • وهكذا بالرغم من ان القتال لم يكن منتظراً ، فقد عكست نتيجته قوة كل من المعسكرين في نطاق معركة صغيرة • وقد اشتركت في القتال طبعاً فئة صغيرة من القوى القرشية • وتبقى معرفة ما إذا كان محمد يستطيع زيادة قواه من الرجـال لصد الجيش الكبير الـذي كان القرشيون متأكدين مـن إعداده لإرساله إلى المعركة ضده •

وقد عزز الانتصار مكانة محمد في المدينة بعد أن تدهورت هذه المكانة خلال الاشهر السابقة حين كان يبدو انه لن يفوز بشيء فلم يكن ، مثلا، أسيد بن حضير ، وهو من الزعماء الذين أسلموا مبكراً ، يؤيد محمداً بحماس للاشتراك في الحملة ولكنه ما كاد يرى محمداً يعود منتصراً حتى اعتذر اليه[1].

وقد انتهز محمد فورة الانتصار للتخلص من بعض جوانب الضعف فقتل شخصان كانا قد هجواه هما أسماء بنت مروان من أمية بن يزيد وأبو عفق من بني عمرو بن عوف على يد رجال من قبيلتيهما او من قبائل قريبة لهما ولم يتبع ذلك الثار لهما[2].

كما هوجمت في نفس الوقت، قبيلة بني قينقاع اليهودية بعد أن أدت خصومة تافهة، لموت مسلم ، وقد حوصرت القبيلة خلال اسبوعين ، ثم استسلمت وابعدت عن المدينة ، ففقد عدو محمد اللدود ، عبد الله بن أبي ، ما يقارب الـ ٧٠٠ من حلفائه[3].

غير ان أهم نتيجة للحرب كانت ازدياد إيمان محمد وأصحابه المقربين اليه برسالته كنبي . بعد سنوات الشقاء والاضطهاد ، بعد الشهور المضنية في المدينة حيث كان يبدو النجاح بعيداً ، يأتي هذا النصر الرائع. كان ذلك انتقام الايمان الذي أيدهم في ساعات الشقاء . فنظروا إلى هذا النصر على أنه معجزة . ومن صنع الله كما يقول القرآن « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » (٨/١٧) . يضاف إلى ذلك ان هذه الكارثة التي ألمت بالكفار كانت العقاب الذي تنبأ به القرآن في السور

---

(١) الواقدي ٣٨ ، ٧٢ (٢) ابن هشام ٩٩٤، الواقدي ٩٠–٩٢

(٣) راجع فيما يلي ص ٢١٨، ٢٥٢

المدنية [1] .

هذا هو الشيء الثابت . ومن الممكن ان تفسر كلمة « فرقان » في بعض آيات القرآن بالمعنى الذي يقول به ريشارد بل [2] . والآية ٤١ من سورة الأنفال ، تتحدث عن « يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان » وهو يوم بدر ، ولما كانت كلمة فرقان لها صلة بكلمة الربانية ، وهي تعني « الخلاص » ، فإنها تعني « نفاذ الحكم » . وإذا كان الأمر كذلك فالفرقان الذي اعطي لموسى هو خلاصه يوم كان يقود شعبه من مصر ، وانتصر على فرعون وجيوشه . وكذلك فرقان محمد هو خلاصه في بدر حين أرهقت الكارثة المكيين . وكانت تلك « الآية » التي اكدت صفته كنبي ، كما توجد اشارة إلى تجربة تشبه تجربة الوحي وقعت لمحمد كما يبدو عند احتدام المعركة تأكد بعدها ان المسلمين يتلقون مساعدة إلهية لا تقهر [3] .

---

(١) قرآن ٨، ٣٠-٣٥ (٢) اصل الاسلام في الجوار المسيحي ، لندن ١٩٢٦، ٨٨-١٠

(٣) الواقدي ٥٤ ، قرآن ٨، ٤٣-٤٥

الفصل الثاني

فشل هجوم مكة

١ ـ محمد يستعد للنضال [1]

أدرك محمد ، بعد انتصاره في بدر ، انه كتب عليه « القتال الشامل » ضد المكيين. إذ ان ازدهارهم متعلق بمكانتهم ، وكان عليهم ان يستعيدوا ما فقدوه في بدر ، حتى يحافظوا على وضعهم والقضاء على سيطرة محمد على طريق الشمال . فلم يكن محمد ينتظر إذن من المكيين سوى ازدياد حدة النضال حتى انه كرس كل قواه لتقوية نفسه وإضعاف أعدائه .

وكانت أخبار بدر ومشاهدة الغنيمة قد أدتا إلى ازدياد قوة محمد ، وأصبح أهل المدينة أكثر رغبة في الاشتراك بغزواتـــه ، وقد استطاع في ذي أمر في أيلول سنة ٦٢٤ م (٣/٣) أن يجمع ٤٥٠ رجـــلا ، كما ان القبائل الصديقة بين المديـــنة والبحر ، اصبحت مستعدة لمساعـــدته

---

(١) ابن هشام ٥٣٩ـــ٥٥ ، الواقدي ٧٣-٧٦ ، ٩٠-٢٠١ .

بصراحة . ولم يخاطر القرشيون، على كل حال ، بارسال قافلة اخرى إلى سورية عن هذا الطريق خلال صيف ٦٢٤ م . حتى إذا ما سار القرشيون نحو الشمال لخوض معركة أُحد نقل رجال من خزاعة معلومات إلى محمد وأصبح البدو المجـاورون للمدينة أكثر ميلا إلى اعتناق الاسلام ، ولا يذكر اسم شخص أو شخصين فقط بل اسم قبيلة بأسرها هي « محارب » التي تبعت زعيمها دعثور بن الحارث[1] .

وقد استخدم محمد هذه القوى الجديدة لخلق احترام للدولة الجديدة في المدينة بين القبـائل البدوية الصديقة في مكة . حتى إذا مـا هاجم أبو سفيان المدينة ليبرهن على أن مكة ليست « خارج الميدان » برهن محمد من جانبه على قوته بمطاردته بصحبة ٢٠٠ رجل .

وقد نُهبت قبيلتا سليم وغطفان القويتان ،اللتان ساعدتا فيما بعـد القرشيين في حصار المدينة ، في غزوة الكدر ، كما استولى المسلمون على عدد كبير من الجمال. كما قاموا بغارة صغيرة بصحبة ٣٠٠ رجل على سليم، وإن لم يغنموا شيئاً ، فقد كان لها تأثيرها .

كان محمد في كل مخططاته مدركاً لأهمية الناحية المثالية وسيطرته في المدينة وكان يستطيع دائماً كسب أعداء إلى جانبه بادخـالهم في الاسلام ، حتى ان احد الكفار الذى جـاء بعد بدر ليبحث في فدية الأسرى تأثر بما شاهده في المدينة فاصبح مسلماً ، رغم انه سعى سابقاً إلى

---

(١) ابن هشام ٤٤٥ ، الواقدي ٩٩ — ١٠١

اغتيال محمد . وقرار محمد (وهو معارض لرأي بعض أنصاره) بحفظ اسرى بدر عامة بانتظار دفع الفدية ليس فقط دليلا على الرحمة وحاجته إلى تحسين حالة المسلمين المالية ، بل هو بداية تحقيق الفكرة القائلة بأنه كي يحقق أهدافه البعيدة التي أخذت تتراءى له فوق الافق ، فإنه سوف يحتاج إلى كفاءات المكيين الادارية ، لهـذا فليست مهمته تحطيم هؤلاء القرشيين بل اكتسابهم إلى جانبه .

وقد أحدث هذا الادراك نفسه لاهمية الجانب الفكري ، مقتل اسماء بنت مروان وأبي عفق اللذين نظما هجاء في محمد ، كما سبب طرد قبيلة قينقاع اليهودية من المدينة ، وكذلك مقتل كعب بن الاشرف فيما بعد .

وكان كعب ابن عربي ينتمي لقبيلة طي البعيـدة ، ولكنه كان معروفاً بانتمائه لقبيلة امه اليهودية بني النضير التي كان أحد زعمائها ، وقد سار إلى مكة بعد سماعه اخبار بدر ، وأخـذ يثير باشعاره الحزن والعنف والرغبة في الثار في نفوس المكيين . ثم عـاد إلى المدينة لأن الشاعر المسلم حسان بن ثابت سخر من العائلات التي كان ينزل ضيفاً عليها . وقد أقر محمد عندئذ طرد كعب وقام خمسة مسلمين شجعـان بتدبير المؤامرة . فكسب أبو نائلة ، أخو كعب في الرضاعـة ، ثقته وشكا اليه الحالة السائدة في المدينة بعد مجيء محمد ، من كراهية العرب عامة وصعوبة السفر ودفع الصدقات ، وما يؤدي اليه من فقر عائلاتهم وفقدان الغذاء ، وهي الامور التي كان يعانيها ألد أعداء محمد في هـذا الوقت . فرضي كعب باطعـام الناس مقابل تسليمه أسلحتهم حفظاً

للسلامة . وقد أتاح ذلك للمتآمرين الفرصة للقاء كعب سراً في الليل مع أسلحتهم فتغلبوا عليه وقتلوه ، فحمل رأسه وألقي به أمام محمد .

تدل هذه الوقائع على انه لا يستهان بمحمد . و قد استفاد الذين ارتضوا به زعيما لهم فوائد مادية ، وأما الذين عارضوه فقد خسروا خسارة جسيمة وكانت هناك أسباب عديدة ، عـــدا دعوة محمد ، تدعو إلى الانضمام اليه .

و مع أن المكيين جمعوا ٣٠٠٠ رجل في أحد فلم يقل أحد قط ان نتيجة المعركة كانت بسبب العدد الكبير الذي تحمله المسلمون ، وإذا أمكن تفسير ذلك جزئياً فإنـــه يسمح لنا بالقول بان محمداً كان لديه حوالي ٢٠٠٠ رجل في ذلك اليوم .

٢ ـ رد مكة على بدر

لم يصدق أهالي مكة ، بادىء الامر ، اخبار بدر ، ثم عم الذعر الذي قضى على كل عمل جدي . وقد تولى ابو سفيان إدارة شؤون المدينة ، ومنع الحداد على الاموات مدة من الزمن ، لكي يمنع المسلمين من التمتع بذلك ، ويحول دون تفرق قوى المكيـين في الوقت الذي كانوا فيه بحاجة إلى تجميع كل قوتهم استعداداً للانتقام [١] ، ولتجنب انهيـــار معنوياتهم انهياراً تاماً . كما اعلن ، لنفس السبب ، انه أقسم أن يبتعد تماماً عن الزيت والنساء طالما انه لم يقد حملة ضد محمد . غـــير ان المشاعر

---

(١) الواقدي ، ٧٣

المكبوتة قضت في النهاية على هذا التحريم الذي أدى مهمته . وقد شجع كعب بن الأشرف ،في اشعاره، التعبير عن الحزن بين المكيين حتى يثير فيما بعد رغبتهم في الانتقام ، استولت هـذه الرغبة وضرورة استعادة مكانتهم على عقولهم بعد أن أفاقوا من هول الصدمة ، وقد اقنع صفوان بن أمية بن خلف من جمح ، الذي قتل والده في بدر ، احد افراد قبيلته عمير بن وهب ان يحاول قتل محمد حين يصل إلى المدينة للمفاوضة حول فدية أخيه (والذي حدث ان عميراً أسلم) . وقد اقترح ابو سفيان ان يخصص للاستعداد للحرب كل ارباح القافلة التي عاد بها سالمة ،ويبدو ان المعنيين بالامر وافقوا على ذلك .

وهكذا قاد ابو سفيان ، بعد عشرة اسابيع من بدر ، فرقة من ٢٠٠ (او ٤٠٠) رجل ضد المدينة . وكان هدفه الاول إعادة الثقة إلى المكيين ، وان يظهر الملأ ان القرشيين لا يزالون في الميدان . ولم يفكر بمثل هذه الفرقة ـ التي هي أقل من المسلمين في معركة بدر ، ـ أن ينزل بمحمد خسائر جسيمة إلا إذا فكر بأن نصف سكان المدينة على الاقل سينضم اليه (وهذا مستحيل) . ويبدو انه كان يملك كل المعلومات عند مغادرته مكة ، لأنه وصل إلى ضواحي المدينة بدون علم محمد . وقد اضافه صديق له ، وهو زعيم من قبيلة بني النضير اليهودية كما أمده بالمعلومات. فقرر الانسحاب رأساً . وقد أحرق منزلان ، وحرق حقلان وفاء منه بقسمه . وترك المكيون في عودتهم بعض السويق الذي التقطه المسلمون . ولهذا سموا هذه الغزوة «بغزوة السويق»[1] .

---

(١) ابن هشام ٥٤٣ ، الواقدي ٩٤

وكان من الأفضل في مثل الأحوال السائدة عدم محاولة اقتحام مرور قافلة نحو سورية عبر أرض صديقة لمحمد ، بل العمل لاعداد جيش يستطيع تحطيم سلطته . ولهذا لم ترسل القوافل عبر الطريق العادي الذي يمر بين المدينة والبحر . ومع ذلك فقد قرر فريق من القرشيين بقيادة صفوان بن أمية (الذي أخذ ينافس أبا سفيان) المخاطرة بارسال قافلة عن طريق تقع إلى الشرق من المدينة ، وعثروا على رائد أمين . ولكن محمداً ، لسوء حظهم ، علم بأمرهم فارسل زيد بن حارثة مع ١٠٠ رجل واستولى على البضاعة وقيمتها ١٠٠ الف درهم وفر الحرس بعد أن ذعروا في هذه الفترة بين بدر وأحد ، من فكرة مقاتلة المسلمين [(١)] .

وقد أعدت في هذا الوقت قوة لمهاجمة المدينة ، وأرسلت البعوث إلى مختلف القبائل ومنها ثقيف في الطائف وقبيلة عبد مناة البدوية (التي كانت تربطها صلات القرابة المتينة بالقرشيين ومنها قبيلة بكر) كما دعي الاحابيش التابعين لقريش [(٢)] .

وقد سار المكيون في ١١ آذار ٦٢٥ م (٣/٩/٢٥) على رأس جيش من ٣٠٠٠ رجل مسلحين ، منهم ٧٠٠ يحملون ؟ ، ومعهم ٣٠٠٠ بعير و ٢٠٠ فرس .

وكان القائد أبا سفيان لأن القيادة في الحرب كانت من نصيب قبيلته ،

---

(١) ابن هشام ٥٤٧ ، الواقدي ١٠٠

(٢) الواقدي ١٩٩ ، ٩ ، ٢٠١ ، راجع الواقدي: اسباب النزول ، القاهرة ١٨٩٧ ، ١٣١٥ ، ١٧٧

ولقد لعب آخرون ولا سيما صفوان بن أمية دوراً مهما في إدارة المعركة ، وأخذ الجيش يتقدم بمراحل سهلة حتى وصل إلى واحة المدينة يوم الخميس ٢١ آذار (٥/١٠) .

وأقيم المعسكر إلى الجانب الآخر من الواحة إلى جهة مكة ، بالقرب من هضبة أحد . وكانت حقول القمح تمتد بجوارها ، فرعوا ماشيتهم فيها عمداً ليتحدوا المدنيين لخوض المعركة . وكانت الحصون الاخرى في عدة أماكن من الواحة تستطيع المقاومة أكثر مما يستطيع المكيون المحاصرون لها .

٣ ـ معركة أُحد

(السبت ٢٣ آذار ٦٢٥ م ٧/١٠/٣)

نجد في المصادر القديمة كمية ضخمة من الاخبار حول معركة أحد [١] . ولكن جزءاً كبيراً منها يحتوي على أخبار حوادث تافهة كتبت لتمجيد أشخاص (وحفظها أحفادهم أو قبائلهم) أو على العكس لاتهامهم . ولا تسمح هذه الاخبار باعطاء سرد واضح أو كامل للمعركة . وإذا قبلنا مع ذلك على الاجمال صحة المعطيات ، تبدو لنا الخطوط الكبرى لهذه المعركة وقد حدث ذلك كما يلي تقريباً .

تقدم المكيون من وادي العقيق ، وخيموا شمالي المدينة بالقرب من

---

(١) ابن هشام ٥٥٥ – ٦٣٨ ، الواقدي ١٠٤ – ٤٨ ، طبري ١٢٨٣ – ١٤٢٧ ، كايتاني ١ ، ٥٤٠ – ٦٦ ، حميد الله ، معارك محمد : ١٨-٢٤ راجع ايضاً الخريطة.

أحد يوم الخميس ٢١ آذار . وقد حمل في نفس الوقت زائد معلومات إلى محمد صحيحة عن قوتهم وقام بعض الانصار بحماية محمد طيلة الليل . وعقد مجلس حرب في المدينة صباح الجمعة الباكر . وكان من رأي محمد وعبد الله بن أبي وبعض القدماء أن يبقى المسلمون في الوسط حيث تتلاصق المنازل ، فيحملوا بذلك العدو علـى حصار المدينة ، وخوض حرب الشوارع . وقد اجاب بعض الشبان ، يدعمهم بعض الرجال النافذين ، أن ترك الجيش المكي يجتاح حقولهم يجعلهم جبناء ويهدم سمعتهم في نظر القبائل البدوية ، ولهذا رأوا الخروج لملاقاة العدو . فوافق محمد في نهاية الامر على ذلك . وبالرغم من ان بعض المتحمسين قـد هدأوا وقالوا بأنهم يقبلون المخطط الاصلي . فقد تمسك محمد (كما يجب) بقراره مشيراً إلى أن النبي متى لبس درعه فلا يجب أن يخلعه حتى يقرر الله بينه وبين عدوه .

وقد سارت فيما بعد أثناء النهار قوى مدنية باتجاه معسكر العدو ويقال بأن محمداً رفض مساعدة فرقة يهودية من أحلاف عبد الله بن أبي لأنهم لم يكونوا مسلمين . وتوقفت هذه القوى عند هبوط الليل.

حتى إذا أصبح الصباح وصلوا ، بدون أن يراهم العدو ، إلى موضع في أسفل منحدر أحد ، وكان العدو بينهم وبين المدينة تقريباً ، وكان السفح الشمالي يحميه خمسون رام بقيادة عبد الله بن جبير .

عجيب رحيل عبد الله بن أبي ورفاقـه قبل المعركة، وتقول المصادر انه استاء من ان محمداً لم يتبن المخطط الذي دافع عنه سابقاً .

ولكن يصعب تصديق ذلك لأنه ذهب مع محمد، كما يبدو ، حتى مكان القتال ، ويمكن القول بأنه انسحب ، بالاتفاق مع محمد للدفاع عن المكان الرئيسي ضد هجوم من العدو منتظر [١] . وكان من الممكن التنديد به في المصادر التي لا تتودد اليه ، لا سيما بعد سروره من فشل منافسه محمد بعد المعركة . فلو كان يتصرف كرجل مستقل ، فقد فعل ذلك لعلمه ان ان الحياد أثناء القتال يقوي مكانته فيما بعد عند المعسكرين . ويقال بانه فعل ذلك أيضاً في حرب بعاث بين الأوس والخزرج .

كان على المكيين، للدخول في القتال، أن يجتازوا وادياً ، ولربما هاجمت الخيالة في أول الأمر ، ولكنها صدت على يد الرماة المسلمين . ثم تقدم حامل لواء مكة طالباً النزال . ولم يلبث أن احتدم الاصطدام حول اللواء . وقد قاتل بنو عبد الدار ، حملة اللواء ، بشجاعة نادرة ضد قوى متفوقة عليهم . ويبدو أن سبعة من أفراد القبيلة قتلوا في الدفاع عن اللواء، وهذا كثير بالنسبة لقبيلة صغيرة ، ولم يسقط اللواء في أيدي المسلمين . غير أن القوى المكية انسحبت قبل هجوم المسلمين . وربما فرت. وفي اللحظة التي كان فيها النصر في متناول المسلمين قلب لهم الدهر ظهر المجن.

وقد لاحظت الخيالة في ميمنة المكيين ، بقيادة خالد بن الوليد ، الاضطراب في صفوف المسلمين ، ولا سيما الرماة الذين كانوا يتقدمون بعد أن تركوا أماكنهم ، فاجتاحت الرماة الباقين ، واكتسحت جناح

---

(١) راجع الواقدي ١٣٨ .

المسلمين ومؤخرتهم . فتبع ذلك اضطراب كبير ، لا سيا بعد أن صرح أحدهم بان محمداً قد مات ، حتى ان بعض المسلمين أصابوا اخوانهم المسلمين بجروح خطيرة . ولكن محمداً لم يمت بل التحم حوله المتقاتلون ، وكان من جرأته أن اصيب بجرحين أو ثلاثة في وجهه وفخذه ، كما أنه أصاب مكياً برمحه وتوفي المكي من جرائه فيما بعد [١] . وقد نجح محمد وجماعته أخيراً في الوصول إلى المنحدر عند أحد فاجتمع المسلمون ، وعادوا إلى شيء من النظام ، ولكن جماعة انفصلت عنهم واتجهت نحو حصن قبيلة الحارثة ، في اتجاه المدينة ، وقد قتل قسم كبير من هذه الجماعة ، وربما قتلوا جميعهم [٢] .

وكان الموقف على الهضبة يمتاز بميزة للدفاع ، وهذا ما رآه محمد حين اختار أحداً . وكف المكيون عن الهجوم ، ولكنهم ظلوا فترة من الزمن في ميدان المعركة ، وقد أمر أبو سفيان بالرحيل بعد إلحاق الاهانة الاخيرة بالمسلمين ، فرحل المحاربون مع أمتعتهم . وقد خيل بعض الوقت أنهم سوف يهاجمون المدينة نفسها ولكنهم تركوها جانباً وساروا نحو مكة .

ذلك هو موجز المعركة التي وقعت فيها عدة أحداث يذكرها ابن اسحق والواقدي . وتنسب نهاية المعركة المؤسفة إلى عصيان معظم الرماة . هذا الموجز هو الرواية الاسلامية الرسمية للمعركة كما يؤكده القرآن (٣/١٤٥ـ١٥٢) وإن لم يذكر اسم الرماة « ولقد صدقكم الله وعده

---

(١) ابن هشام ٥٧٥ ، الواقدي ١١٩

(٢) الواقدي ١٢١

إذ تحسونهم باذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ، إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في آخرتكم... »

فإذا كانت تلك هي الرواية الرسمية فإنها جديرة بالتصديق .

ومن البديهي ان المصادر طالما انها تتعلق بحوادث فردية تمجد فضائل شخص إذا كانت تميل اليه، وتخفي معايبه. ولهذا يقال عن الكثيرين انهم صمدوا مع محمد وساعدوه على الوصول إلى الهضبة . أما الذين فروا نحو حصن قبيلة الحارثة فيقولون بانهم عادوا إلى القتال ، ولنا أن نتساءل عما إذا لم يقتلوا في فرارهم . ولا تذكر غالباً الاعمال المشينة ولا يذكر سوى أسماء الرماة الذين صمدوا . يستثنى من ذلك القول بأن جعال بن سراقة أول من صرخ قائلا بأن محمداً قد قتل ، غير ان راميين آخرين شهدا بشجاعته، وقد عم القول بأن الصوت قد صدر عن الشيطان في صورة جعـــال ، وتذكر بعض الوقائع لقيمتها التشريعية ، كذلك الرجل الذي أسلم ثم استشهد قبل أن يؤدي الصلاة مرة واحدة [1] . وكذلك قصه قزمان ، وهو مدني غـــير مسلم ، حارب بشجاعة في صفوف المسلمين ، ثم مات ودخل الجحيم ، وهي تذكر غالباً من الناحيتين التشريعية والفقهية [2] ، أما نسبة الهجوم على مؤخرة المسلمين إلى خـــالد ، فهي نتيجة عداوة

---

(١) الواقدي ١٢٤

(٢) نفس المرجع ١٠٩ ، البخاري قدر ٥ (٢٥٣٠٤)

المصادر نحوه لأننا نسمع في مكان آخر ان الخيالة كانت تحت قيادة صفوان بن امية[1] .

ولا يؤثر، مع ذلك، وجود هذه النزعات في رواية الحوادث المنفصلة على المجموع، وسنرى ما إذا كانت هذه الخطوط الكبرى توضع موضع النقد .

المسالة الاولى هي معرفة ما إذا كان نجاح المسلمين الاول عظيما بالقدر الذي تقوله بعض المصادر لأنها تقول بأن المسلمين وصلوا إلى المعسكر المكي وأخذوا بنهبه . وهذا موضع شك لأن نفس المصادر تعترف بانهم في الحقيقة لم يغنموا شيئاً[2] . من الممكن إذن انه بينما كان المشاة المكيون قد ردوا على أعقابهم . لم تكن طليعة المسلمين من القوة كما يدعون . ويعني ، من ناحية ثانية ، انسحاب المكيين ان المسلمين أظهروا تفوقاً واضحاً في القتال في ظروف متساوية .

والمسالة الثانية هي معرفة ما إذا كانت غريزة السلب عند الرماة هي السبب الوحيد لنقص تغطية مؤخرة المسلمين التي تعرضت للخيالة المكيين ٠ ان قول القرآن ! « من بعد ما أراكم ما تحبون » يمكن أن يشير إلى الغنيمة . وليس من الممكن ، على كل حال ، انهم زلزلوا بهجوم حسن بينما كانوا في أماكنهم (كما تقول المصادر عن الباقين) غير ان تراخيهم لدى رؤيتهم انتصار معسكرهم ، يمكن أن يكون قد ساعد

---

(١) الواقدي ١٠٨ ، ٢١٩

(٢) الواقدي ١١١

على ذلك.

ومن الغريب ان الرجل الذي تنسب اليه شائعة موت محمد، كان من بين رماة فصيلة عبد الله بن جبير. يضاف إلى ذلك ان هذا الهجوم الجانبي لم يكن من وحي الساعة، بل كان جزءاً من خطة المكيين في المعركة.

وكان مشاة مكة غير منظمين ليقوموا بانسحاب منظم أمام ضغط العدو، غير ان الذين كانوا يقودون المعركة حسبوا إمكانية هذا الانسحاب، فاعدوا الخيالة للقيام بهجوم كما فعلوا، وكان المكيون قد حفروا الخنادق في مكان ما، وهذا يدل على محاولة مبيتة لنشر الفوضى في صفوف المسلمين.

غير أن المراجع قليلة لا تسمح برأي دقيق[1].

ويستحيل علينا، على ضوء هذه اللوحة التي رسمناها، أن لا نشك بان نجاح المكيين، كان نتيجة مهارة القيادة. وخالد بن الوليد هو أحد كبار القادة في كل زمان. ولا شك انه ساهم في مجلس الحرب قبل المعركة ولكن القائد الاعلى أبا سفيان، وسائر الزعماء، لم يكونوا يفتقرون إلى الصفات العسكرية.

نستطيع القول إذن أن الرواية الرسمية الاسلامية يجب أن تغير اعتماداً على هذه الاسس. وهي صادقة من وجهة نظر محمد. لقد ظهر عند المؤمنين، بعد بدر، ثقة كبرى بتفوقهم العسكري. ويصور القرآن موقفهم (٨/٦٥ـ٦٦) «يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم

---

(١) نفس المرجع ١١٧

عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا ... »

وكان محمد يعلم ، بدون شك ، ان في ذلك مبالغة . كما نراه يتردد في الخروج إلى لقاء المكيين ، ولكن ربما كان يعتقد انه كان يجب عليه ان يتكلم بهذه الطريقة ، ليقاوم الخوف من القرشيين ويقوي معنويات المسلمين . وكان ذلك نتيجة قول القرآن : « وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به » .

والشيء المهم أن الآية (٦٧/٦٦/٨) التي نزلت بعد الآية ٦٦/٦٥ تجعل عدد الكفار من الف إلى مئتين ، وهم الذين يستطيع التغلب عليهم مئة من المسلمين . غير أن محمداً ، بعد أحد ، فسر السبب الذي من أجله لم يهزم المسلمون القرشيين . ولم يكن يستطيع القول ان سبب ذلك تفوق العدو في العدد ، ولم يكن هذا صحيحاً ، لأن المسلمين ظهروا في أول الامر ، وبامكانهم السيطرة على جيش ضخم . ولربما كان إضعافاً لمعنويات المسلمون نسبة الفشل إلى ان المكيين كان لديهم فرسان أقوياء ، بينما المسلمون لم يكن لديهم قط مثل ذلك . وتوحي لنا قائمة القتلى عند الواقدي ، أن معظم المسلمين الذين سقطوا في المعركة ، وقعوا على يد الفرسان . ولكن محمداً كان قد تنبأ بالخطر القادم من الفرسان وحسب حسابه في خططه . ولقد ظهر لمحمد إذن ان نهاية المعركة المؤسفة لم يكن سببها تفوق المكيين بالعدد ولا فرسانهم (وكان يمكنه أن يضيف ولا قيادتهم) بل اجتماع الفوضى ، وحب السلب عند المسلمين . وكما

يقول القرآن : « حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبون » .

ولا شك أن انحطاط الصفات العسكرية عند المسلمين مرتبط بازدياد عددهم . فلقد لاحظ محمد خلال السنة السابقة ، أنه بحاجة إلى جيش أقوى من جيش بدر ، ولم يرفض مساعدة رجال دفعهم اليه أملهم في الغنيمة . وكان ذلك سبب الفوضى في أحد ، ونقص الثبات ليس بين الرماة فقط بل بين الآخرين . وكان عليه أن يجمع كل تفكيره حول هذه المشكلة في استعداده للمرحلة المقبلة من النضال . وإذا كان قد رفض مساعدة الفرقة اليهودية التي كانت تعرض عليه أن تحارب إلى جانبه فلربما كان ذلك ، لو صحت الحادثة ، لأنه كان يعتقد ان المعنويات لم تكن جيدة كما يجب وان اليهود يمكن أن يكونوا المثل السيء .

وأخيراً يجب إعادة النظر في التأكيد بان معركة أحد ، كانت هزيمة منكرة للمسلمين،ونصراً مبيناً للمكيين . ولا شك ان احداً كانت فشلا للمسلمين ، حيث فقدوا أكثر من سبعين قتيلا ، منهم بعض الكهول من صحابة محمد المخلصين ، كما قتل عمه حمزة . وكان العرب من طبيعتهم التفجع على فقد أي شخص ، غير أن الجانب الفكري أهم . وتتحدث الرواية الرسمية للمعركة عن انخفاض معنويات المحاربين وقد أثار قول محمد السابق ، بأن معركة بدر كانت آية من عطف الله وعنايته ، صعوبات فقهية ما عتم أعداؤه في المدينة أن أشاروا اليها . ولا تدل معركة أحد

على أن الله يعطف على المكيين وان محمداً لم يكن نبياً ؟ [1] . ويتعلق عدد من الآيات القرآنية بالمسائل الفقهية .

« إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فاثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم » « ٣ / ١٤٧ ـ ١٥٣) .

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا » (١٦٠/١٦٦) .

« ولا يحسبن الذين كفروا ، أنما نملي لهم خير لأنفسهم ، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين . ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » (١٧٢–١٧٣) .

ولقد اعتقد بعض العلماء الغربيين ، في بعض الاحيان ، ان المصادر تحاول أن تخفي عظم الكارثة في أحد .

ويدل البحث مع ذلك على العكس ، وان المسلمين يصورون أحداً بالوان قاتمة أكثر مما يجب . وربما كان ذلك انعكاساً لحقد الانصار (الذين كان من بينهم الضحايا ، إذ فقدوا سبعين رجلا مقابل أربعة مهاجرين) ، على القرشيين، وخاصة جدود الامويين . وتوحي مقاطع القرآن مع ذلك بتفسير آخر . فهي تظهر ان المسلم العادي بعد أحد ، استغرق في قلق روحي عميق ، لأنه وجد أن بعض معتقداته المفضلة قد انهارت . ولم تخفف من حزنه بعض الحوادث التي وقعت في الشهور التالية، حين

---

(١) الواقدي ١٥

أظهر بعض البدو ، بتشجيع الدعاية المكية ، استهانتهم بمحمد فأزهقوا الدم المسلم عمداً .

وإذا لم تكن معركة أحد هزيمة تامة للمسلمين ، فإنها لم تكن انتصاراً للمكيين . إذ كان الهدف الستراتيجي للمكيين القضاء على الامة الاسلامية لا أكثر ولا أقل ، ولم يحققوا هذا الهدف . وكان العامل الواعي بالنسبة لكثير من المكيين الثار للدم المهدور في بدر ، وقد قتل نحو خمسين شخصاً من المكيين في معركة بدر ، بينما جميع المسلمين الذين قتلوا في بدر ، وفي أحد يتجاوز قليلا عدد المكيين الذين سقطوا في المعركتين (وإن اعتبرنا عدد القتلى المكيين ٧٠ رجلا يصبح مجموع القتلى المسلمين أقل قليلا) .

لقد ثار القرشيون إذن على العموم وإن ظل بعض الأفراد غير راضين كما ستدل عليه الحوادث ، ولكن القرشيين في أفضل الاحوال ، لم يقتلوا إلا نفساً بنفس بينما ادعوا بأنهم سيقتصون من المسلمين أضعاف قتلاهم . وكانت نتيجة أحد أن محمداً يستطيع تقريباً أن يصمد في وجه القرشيين وان القرشيين لا يستطيعون سوى الصمود في وجه محمد . يا لخزي الامراء التجار المتكبرين في مكة الذين خيل اليهم في الماضي انهم يسيطرون على القسم الغربي من شبه الجزيرة باسره .

فإذا كان الوضع كذلك فلماذا ترك أبو سفيان المدينة دون أن يستفيد من تفوقه ؟ لقد أدرك ، هو على الأقل، ضرورة القضاء على قوة محمد، ويبدو أنه كان يعرف ، قبل مغادرته ميدان القتال، ان ادعاء ابن قميئة قتل محمد كاذب . ويوجز عمرو بن العاص ، حسب الواقدي ، الوضع كما يلي من

وجهة النظر المكية . فهو يقول بأنهم حين أعادوا الهجوم ، أصابوا عدداً منهم فتفرقوا في كل صوب ، ثم عادت جماعة منهم . فاجتمع القرشيون وقالوا ان النصر لنا . فلنرحل . لأننا سمعنا ان ابن ابي انسحب مع ثلث قواتهم ، وان فريقاً من الأوس والخزرج لم يشتركوا في القتال ولسنا واثقين من أنهم لن يهاجمونا . كما سقط منا عدد من الجرحى ، ونزلت السهام في أفراسنا ، فرحلوا إذن . وما كدنا نصل إلى الروهاء حتى تصدى لنا فريق منهم فتابعنا سيرنا "[1] .

وهذا يعني إن المكيين لم يكونوا يستطيعون فعل غير ما فعلوا ، ولم يكن لهم أي أمل في مهاجمة محمد بنجاح أو المراكز الرئيسية التي يقوم عليها بناء المدينة الرئيسي . وكان بامكانهم التغلب على ابن أبي بالدبلوماسية ولم يريدوا إذن مهاجمته . ولكن ذلك غير محتمل . كما انهم في نفس الوقت هوجموا بشدة من جانب المسلمين وظهر مشاتهم أضعف من مشاة المسلمين. كما ان أفراسهم، التي يعود اليها الفضل في انتصارهم ، كانت موقتاً خارج المعركة ، فكانت معنوياتهم في ذلك الوقت منحطة ، ويؤكد انسحابهم ان المسلمين ادعوا النصر في أول الامر . ولهذا كان الانسحاب أفضل شيء .

عاد محمد والمسلمون في وقت متأخر من مساء المعركة ، بعد ان دفنوا موتاهم . وكان لدى محمد في الليل متسع من الوقت للتفكير في الوضع ، فرأى انه لم تلحق به هزيمة منكرة وإن كل شيء يتعلق بتصرفاته في

---

(١) الواقدي ٢٩١

المستقبل . فدعا في الصباح الذين كانوا معه في أحد للقيام بملاحقة المكيين المنسحبين ، وكان ذلك شيئاً طبيعياً ومنتظراً من عربي ذهب ضحية غزوة . ولم يكن في نية محمد مهاجمة المكيين ، كما لم يفكر هؤلاء جدياً بمهاجمته . كان ذلك عملا يقوم على التحدي وإظهار القوة حتى يمنع المكيين من العودة إلى الهجوم . وقد قضى هؤلاء ليلة السبت في حمراء الاسد ، التي تقع على بضع كيلو مترات من المدينة ، وقد وصل اليها المسلمون يوم الأحد ، وأقاموا فيها ثلاثة أيام أو أربعة . ولم يلتقوا بالعدو وكان لا يزال في جوارهم . ولكي يضفي محمد الروعة على مظاهرته هذه فقد أمر رجاله بجمع الحطب خلال النهار ، وأشعل النيران في الليل . وقد ساعد بدوي صديق لبني خزاعة على تثبيط همم القرشيين بتضخيم عدد المسلمين ، ويبدو أن القرشيين ظلوا يوماً أو يومين في الجوار ، لأنهم كانوا لا يريدون الظهور بمظهر الهروب من معركة جديدة ، وحاول أبو سفيان ان يذيع إشاعات مزعجة بين صفوف المسلمين . ولكن محمداً لم يستسلم ولم يحاول العدو حمله على خوض المعركة ، ثم تابع سيره نحو مكة .

٤ ـ ثورة البدو

أ ـ الفرصة الأخيرة للمكيين :

أدرك أبو سفيان ، وسائر الزعماء قبل وصولهم إلى مكة ، انهم في وضع حرج ، فقد بذلوا جهداً كبيراً ، ولم يفوزوا بشيء . وكانت

الكارثة بانتظارهم ، إلا إذا استطاعوا القيام بشيء أفضل . فقد جمعوا كل الرجال من قريش والقبائل الصديقة المجاورة من أجل معركة أحد . وكانت الامكانية الوحيدة في اعداد جيش أقوى هي الحصول على مساعدة بعض القبائل الكبرى الضاربة في الشرق وفي الشمال الشرقي من المدينة ، وذلك بنشر الاخبار عن ضعف محمد ومجد قريش والوعد بالغنائم والرشوات المباشرة .

وقد كرس القرشيون جهودهم لهذه الغاية كما تدل عليه الحوادث[1] التي رويت فيما بعد ، وقوة الجيش الذي جمعوه خلال سنة ٦٢٧/٥ .

ولم يحاول القرشيون التأثير على قبائل أمثال سليم وغطفان ، وقد أوهموا سيد بني دمره (إلى الشمال الغربي من مكة) ان محمداً قد « انتهى » بعد أحد ، بعد أن دهش من رؤية الجيش المسلم القوي في بدر في نيسان ٦٢٦ (١١/٤)[2] .

ويبدو مع ذلك أن القبـائل المجاورة للمدينة الصديقة لمحمد ظلت وفية له وأخذ عدد من أفراد القبائل البعيدة ينضمون اليه الآن .

ولقد أساء المكيون بزاعمهم إلى أنفسهم أكثر مما أحسنوا لأن ظهور جيش قوى مسلم كشف أكاذيبهم ، وكانت سياسة محمد خلال السنتين اللتين تلتا أحداً ، هي استباق كل حركة معادية للمدينة . فما كاد يسمع

---

(١) ابن هشام ٦٣٨-٦٨ ، الواقدي ١٤٩-٩٠ ، الطبري ١٤٣١ ، ٦٥ على عكس كايتاني ج ١ ، ٥٦٨-٦١٣

(٢) الواقدي ١٦٩

يتجمع رجال القبائل وتهديد المدينة ـ وكان له ، قلم استخبارات نشيط ـ حتى أرسل حملة لتحطيمه . تلك هي الغزوة علـى قطن ضد بني أسد بقيادة أبي سلمة ومعه ١٥٠ رجلا في حزيران سنة ٦٢٥ م (١/٤). وقد قاد محمد بنفسه ، بعد سنة تماماً ، حملة مشابهة على ذات الرقاع ضد بني انمار وثعلبة ومعه ٤٠٠ (أو ٨٠٠) رجل. ولم تؤد هذه الغزوات إلى شيء مهم سوى بعض الغنائم . غير ان إظهار قوة المسلمين كان عظيما فضايقت المكيين كثيراً في جهودهم لتنظيم المحالفة الكبرى .

وقد استخدم محمـد وسيلة أخرى متى أتيحت له الفرصة وهي الاغتيال . وقد حدث اغتيالان في الفترة بين أحد وحصار المدينة • فقد قتل سفيان بن خالد بن نبيه ، سيد بني لحيان ، وهم فرع مـن هذيل ، على يد عبد الله بن انيس ، حليف بني سلمة من الخزرج المنتمين إلى بني جهينة [١] • كما قتل ،بعد طرد بني النضير من المدينة وإقامتهم في خيبر ، أحد زعمائهم ، وهو أبو رفيع سلام بن أبي الحقيق ، بعد قيامه بمؤامرات ضد المسلمين مع بني غطفان ، وغيرها من القبائل المجاورة ، وقد قتله جماعة من خمسة مسلمين مـن المدينة ، منهم عبد الله بن أنيس [٢] • وكان يسمح محمد لرسله أن يقولوا عنه ما يشاؤون وإنهم يريدون القضاء عليه • فكان على كل عدو ممكن أن يكون على حذر

---

(١) ابن هشام ٩٨١-٣ ، الواقـدي ٢٢٤ ، اسد ٣، ١١٩ راجـع كايتاني ج ٩ ٥٧٨ ، ٨٠

(٢) ابن هشام ٩٨١ ، الواقدي ١٧٠ — ٧٢ •

باستمرار ضد هذه الخدع ، كما كان على محمد أن يحذر خدع العدو . يشهد على ذلك حادثان يستحقان البحث فيهما على حدة ، فهما يختلفان عن سائر الغزوات اللاحقة لمعركة أحد .

ب - بئر معونة :

يضفي بعض مؤلفي سيرة محمد من الغربيين أهمية كبرى على كارثة بئر معونة . وقد نزلت بالمسلمين خسائر جسيمة في الرجال كما تشجع أعداء آخرون على اتخاذ مثل هذه الاجراءات . ولكن هذه الكارثة لم تثر صعوبات فقهية ، كما أثارت معركة أحد . ولا نكاد نعثر عليها في استراتيجية الفترة اللاحقة لاحد . وهي مثال على الصعوبات التي كان على محمد أن يجابهها باستمرار .

وهاك القصة : دعا محمد أحد زعماء قبيلة عامر بن صعصعة وهو أبو عامر بن مالك إلى الدخول في الاسلام ، وأظهر ميلا لذلك ، شريطة أن يجد مساعدة كافية في قبيلته ، ولهذا طلب إلى محمد أن يرسل رسله إلى المنطقة الكائنة فيها أماكن رعي القبيلة ، وجعل من نفسه جاراً لهم . وقد شك محمد في هذا العرض فأرسل ٤٠ (أو ٧٠ شاباً) . (ولكن حتى الـ ٤٠ مبالغ فيه ، لا نجد إلا اسم ٢٠ شخصاً) . وقد قتل زعيم آخر من بني عامر ، عامر بن الطفيل ، وهو عدو لمحمد ، حامل رسالة محمد ،وحاول دفع قبيلته إلى مهاجمة جماعة المسلمين ، ولكن القبيلة تمسكت بالحماية التي

منحها أبو البراء [1]. وأقنع عامر بن الطفيل ، مع ذلك ، بعض قبائل بني سليم المجاورة بالقيام بالهجوم ، فقتل المسلمون ما عدا اثنين إذ جرح أحدهما جراحاً ثخينة ، وترك في أرض المعركة بعد أن حسبوه ميتاً . وأسر الآخر وهو عامر بن أمية الكناني ، ثم أطلق سراحه لقرابته من الذين أسروه. وقد التقى في طريق العودة باثنين من بني عامر فقتلهما ولما طلب عامر بن الطفيل من محمد دية القتيلين من قبيلته دفعت له الدية لأن القبيلة كانت حليفة المسلمين .

والشيء المزعج في هذه القصة أن محمداً يدفع دية قتيلين لعامر بن الطفيل ، ولا يطالب بدية ما يقارب الأربعين قتيلا من المسلمين، الذين كان عامر مسؤولا عن موتهم . ولقد قيل ان المسلمين عملوا شيئاً اضطرهم إلى التنازل عن حقهم في الدية ، وهذا شيء بعيد الوقوع . وهناك تفسير يتفق والنصوص الموجودة ، وهو أنه بينما شجع عامر بن الطفيل قبائل سليم على قتل المسلمين ، وكان مسؤولا عن ذلك خلقياً فإنه لم يكن زعيمهم ، وبهذا ليس مسؤولا عنهم ، وربما كانوا هم أيضاً الذين قتلوا حامل الرسالة .

يمكن ضم هذا التفسير إلى رواية متناسقة عن القضية وهي ان أبا البراء ، وهو عم عامر بن الطفيل ، كان له أنصار مخلصون في القبيلة التي خطأت عامراً . وكان نداؤه لمحمد ، في الحقيقة ، نداء للنجدة ضد أعدائه

---

(١) راجع ص ١٢١

في داخل القبيلة ، وكان محمد يرغب في استمالة بني عامر إلى جانبه ، ولهذا قرر التدخل في السياسة الداخلية للقبيلة مع تقديره للمخاطر التي تنتج عن ذلك . ولما اكتشف عامر بن الطفيل أنه ليس من القوة حتى يتبرأ من حماية أبي البراء ، أقنع جيرانه من بني سليم بمهاجمة المسلمين ومدهم بمعلوماته .

وكان معيباً في حق بني عامر ترك الرجال يقتلون وهم تحت حمايتهم ولهذا كان الشاعر المسلم كعب بن مالك واضحاً تماماً في هذا الصدد .

وكذلك أنب حسان بن ثابت ، صديق أحفاد أبي البراء ، عامر بن الطفيل على خيانته .

ولم يكن محمد يستطيع التخلي عن بني عامر قبل التخلي عن كثير من الآمال ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يصلي ويطلب من الله معاقبة عامر[1] .

وربما كانت محاولة محمد اشراك بني النضير في دفع دية العامريين طريقة للرد على عامر بن الطفيل .

ج ـ الرجيع :[2]

تثير الحملة الصغيرة المؤلفة من سبعة رجال قتلوا في الرجيع (على طريق نجد) بعض الصعوبات . غير ان معلوماتنا عنها من الدقة بحيث يستطيع هذا الحادث أن يمثل الظروف التي كان يعيش فيها محمد والمسلمون .

وتقول رواية عروة أن محمداً كلف سبعة رجال بالذهاب لاستطلاع

---

(١) الواقدي ١٥٥
(٢) ابن هشام ٦٣٨-٤٨ ، الواقدي ١٥٦-٦٠ ، كايتاني ج ١ ، ١ ٤٤ ١ ٨١-٨٤

أخبار قريش ومؤامراتهم مع القبائل الكبرى البدوية .

وتقول الرواية العامة مع ذلك أن بني لحيان أرادوا الثـار لمقتل سيدهم بتحريض من محمد ، فرشوا قبيلتين من خزاعة ، لتقولا بأنهما ترغبان في اعتناق الاسلام ، وطلبتا إلى محمد أن يرسل وعاظاً لهما . وقد تخلى الذين تظاهروا بالاسلام عن المسلمين السبعة في الرجيع ، وأخبروا أعداءهم الذين أحاطوا بهم ، وقتلوا منهم أربعة وأسروا الثلاثة الآخرين بعد أن منوهم بالوعود .

وقد أفلت أحد الثلاثة من قيوده على طريق مكة ومات والسيف في يده ، أما الآخران فقد بيعا في مكة إلى أقارب رجال قتلوا في بدر ، وبعد مضي الشهر الحرام ، حملا إلى خارج الكعبة ، وطلب اليهما الارتداد عن الاسلام فرفضا ، فقتلا شر قتلة .

وتكمن الصعوبة في معرفة الدوافع التي حملت بني لحيان على الثار لأن مقتل زعيمهم لم يحدث قبل سنة ٦٢٧/٥ أو فيما بعد. وإذا كانت بعض المصادر تذكر الشهر الخامس والخمسين بعد الهجرة (حزيران ٦٢٥ = ١/٤) فإن مصادر أخرى تقول ان ذلك وقع في الشهر الرابع والخمسين أو الخامس والخمسين حوالى كانون الثاني ٦٢٧ = ٥/٨) . ولكن من الممكن أن يكون مقتله حدث في الشهر الخـامس والثلاثين قبل قضية الرجيع بسبب حجة مهاجمة المسلمين في الرجيع في تموز ٦٢٥ (٢/٤) . وان محمداً يجعل بني لحيان بين المسؤولين عن بئر معونة [1] . ويمكن للتفسيرين ، مع هذا ،

---

(١) الواقدي ١٥٥ ، ٣٤١

أن يتمم أحدهما الآخر فيكون الأشخاص السبعة جواسيس لمحمد ووعاظاً للقبائل العربية . والحادث تافه ولكنه يدل كيف كان على العرب أن يحموا أنفسهم ويحذروا من الخديعة . كما تدل معاملة الأسرى على أن العواطف كانت على أشدها من كلا الجانبين .

د ـ تقوية المسلمين :

لم تكن معركة أحد كارثة عسكرية ضخمة بالنسبة للمسلمين وإن سببت لهم بعض المشاكل الفقهية . وكذلك لم تكن حملتا حمراء الأسد والقطن (آذار وحزيران ٦٢٥) بدون فائدة . وربما أحدثت فاجعتا بئر معونة ودار الرجيع (حوالي تموز ٦٢٥ م) حزناً مؤقتاً في المدينة ، ولكن التيار ،حتى نهاية هذه الفترة التي تنتهي بحصار المدينة ، كان يميل إلى جانب المسلمين .

سندرس طرد قبيلة النضير من المدينة في آب ٦٢٥ م (٤/٣) وصلته بسياسة المدينة الداخلية ، كما أن له علاقة ببئر معونة وربما كان هدفه تشجيع المسلمين بعد أخبار الكارثتين . وقــد استطاع محمد بعد بضعة أشهر (نيسان ٦٢٦ ـ ١١/٤) أن يجمع جيشاً مؤلفاً من ١٥٠٠ رجل وعشرة أفراس للذهاب إلى بدر [١] ، وكان ذلك أكبر عدد من الرجال استطاع أن يجمعه حتى ذلك الوقت .

وتقول القصة (سواء كانت صحيحة أم لا) ان أبا سفيــان قبل

---

(١) ابن هشام ٦٦٦–٨ ، الواقدي ١٦٧–٧٠

مغادرة ميدان القتال صرخ بالمسلمين قائلا : نود لقاءكم في بدر السنة القادمة ، وان عمر أجابه باسم محمد « سنلقاك هناك » وقد حاول كل فريق إخافة الآخر بالمبالغة في قوته . وأخيراً قضى الـ ١٥٠٠ مسلم أيام السوق الثمانية في بدر ولم يلتقوا بالـ ٢٠٠٠ رجل والـ ٥٠ فرساً التي جمعها أبو سفيان للقائهم . وكان المعسكران يتجنبان القتال ويكتفيان باظهار قوتها . ويبدو ان المسلمين تفوقوا على أعدائهم في هذا الميدان فتأثرت القبائل الضاربة في المنطقة الساحلية تأثراً قوياً [1] ، وربما أشاع المسلمون قصة اللقاء للتقليل من شأن أعدائهم .

وقد تصرف محمد ، خلال الاشهر التالية ، بقسوة كلما سمع عن تجمع رجال معادٍ للمدينة . فغزيت قبيلتا إنمار وثعلبة في ذات الرقاع (حزيران ٦٢١ م) كما فرق جيش كبير مؤلف من ١٠٠٠ رجل تجمعوا للعدو في في دومة الجندل (آب أو أيلول ٦٢٦ م) . ولا تطيل المصادر الحديث عن هذه الغزوة ولكنها مع ذلك أكثر الغزوات مغزى حتى ذلك الوقت .

كانت دومة الجندل تقع على بعد ٨٠٠ كلم من المدينة ، فلم تكن تهدد محمداً تهديداً مباشراً ، ولكن يمكن أن تكون العلاقات ، كما يقول كايتاني ، قد قطعت مع سورية ، فانقطع بذلك تموين المدينة . ولعل محمداً حاول بذلك نوعاً من التوسع الذي سيتحقق بعد وفاته .

وربما كان هدفه الاول مع ذلك منع القبائل في الشمال من الانضمام إلى التحالف الكبير ضده ، ولكن ما علمه الآن عن الأوضاع في الشمال ،

---

(١) الواقدي ١٦٩

أظهر له إمكانية التوسع في هذه المنطقة .

ولا شك أن سيره السريع مع جيش ضخم أثر في جميع الذين سمعوا عنه وكانت قوة المسلمين بالرغم من أحد تزداد .

تقع غزوة المريسيع [1] ضد بني المصطلق ، فرع من خزاعة ، حسب رأي الواقدي في السنة الثامنة من الهجرة الشهر الخامس (كانون الثاني ٦٢٧ م) وإن كان ابن اسحق يضعها بعد حصار المدينة ، واتهم زعيم القبيلة بتسليح رجال للقيام بهجوم ضد المدينة (ربما بالاتفاق مع الحملة التي كان يعدها المكيون) • هاجم محمد هذه الجماعة الصغيرة فجأة بقوة كبيرة وأسروا جميعاً بعد مقاومة قصيرة • وأما وجود المنافقين بين المسلمين وما أدى اليه ذلك من منازعات فإنه جزء من تاريخ المدينة الداخلي • ولما كانت المريسيع قريبة من ساحل البحر الاحمر فإن الغزوة دليل على تقدم قوة محمد في منطقة كانت تسيطر عليها مكة قديماً •

وهكذا استطاع محمد في الفترة الواقعة بين أحد وحصار المدينة ، وإن عجز عن منع المكيين من تكوين حلف ضده ، أن يمنع كثيراً من القبائل من الانضمام اليهم ، وزاد القوى التي كانت في حوزته • ولم يكن يستطيع أن ينظر إلى الهجوم المهدد له بدون قلق ولكنه لم يفقد الأمل •

---

(١) ابن هشام ٧٢٥ — ٤٠ ، الواقدي ١٧٥ — ٩٠ ، كايتاني ج١ ص ٥٩٩ — ٦٠٦

٥ ـ حصار المدينة

بدأ حصار المدينة[١] الذي يسميه المسلمون غزوة الخندق في ٣١ آذار ٦٢٧ م (٥/١١/٨) واستمر خمسة عشر يوماً[٢] ٠

وكان ذلك أقصى جهد يبذله المكيون لتحطيم سلطة محمد ، فقد أنشأوا لهذا الغرض محالفة ضخمة تشمل قبائل بدوية لم تكن خاضعة لهم ٠ وعمل يهود النضير ، الذين طردوا إلى خيبر ، ولج بهم الحنين إلى العودة لأراضيهم في المدينة ، على جمع هذه المحالفة ، فوعدوا بني غطفان إذا اشتركوا في القتال[٣] بنصف محصول التمر في خيبر ٠

كانت المحالفة المكية تتالف من ١٠٠٠٠ رجل ، وتحتوي على جيشين وربما ثلاثة . وأنشأ القرشيون وأقرب محالفيهم جيشاً من ٤٠٠٠ رجل ، وكانت غطفان القبيلة المسيطرة في جيش آخر ، وسليم في جيش ثالث ٠ ويبدو ان سليما شاركت غطفان[٤] في موضع المعسكر ٠ وقدمت ثلاثة بطون من غطفان ، وهي فزارة وأشجع ومرة ١٠٠٠ و ٤٠٠ و ٤٠٠ رجل ، كما قدمت سليم ٧٠٠ رجل ٠ مجموع ذلك ٦٥٠٠ رجل ، ولا يمكن أن تقدم القبيلة الاخرى المذكورة وهي أسد ٣٥٠٠ رجل ٠ ولكن من العبث المناقشة في هذا الصدد ، وكان لدى القرشيين

---

(١) ابن هشام ٦٦٨-٧١٣ ، الواقدي ١٩٠-٢١٠ ، طبري ١٤٦٣ - ٨٥ قرآن ٩:٣٣-٢٧ ، حميد الله معارك محمد ، ٢٥-٣٠ (٢) الواقدي ١٩٠

(٣) نفس المرجع ١٩١ (٤) نفس المرجع ١٩١

٣٠٠ فرس ، وكذلك في جيش غطفان .

وكان محمد أمام هذه القوة الضخمة يستطيع الاعتماد على ٣٥٠٠ رجل أي على جميع سكان المدينة ما عدا قبيلة قريظة اليهودية ، التي يبدو أنها حاولت البقاء على الحياد . وكان بعض المدنيين حلفاء للمكيين ، ولكنهم كانوا مبعدين ، كأبي عامر الراهب ، عن المدينة في ذلك الوقت . كانت الوحدة قوية بين المسلمين ، غير ان بعض المنافقين كانوا ينتقدون بشدة محمداً ويشكون في الوصول إلى نتيجة سعيدة . ويبدوا واضحاً من القرآن أن كثيرين منهم كانوا سعداء في تجنب القتال ويودون الانضمام إلى الأعداء لو أتيحت لهم الفرصة [١] .

اقترب العدو من المدينة ، كما فعل في معركة أحد ، عن طريق وادي العقيق ، وعسكر قسم منه هناك ، والقسم الآخر بالقرب من هضبة أحد . وكان هدف هذا المعسكر الثاني منع محمد من احتلال الموضع القوي الذي كان مفيداً لهم في المرة السابقة .

ولكن هذا الاحتياط كان بدون جدوى ، لأن محمداً كان قد اتبع خطة أخرى للدفاع ، وهي خطة غير معروفة حتى ذلك الحين عند العرب . فقد حفر خندقاً في المحلات التي تتعرض منها المدينة لهجوم الخيالة . وربما جاءت الفكرة من فارس . ويقال بأن سلمان الفارسي اشترك في إعداد الخطة . وقد بدأوا بحفر الخندق منذ أن علموا برحيل

---

(١) نفس المرجع ص ١٩١

المكيين (لأنه كان من الصعب إثارة الحماس قبل ذلك) .

وقد عمل فيه معظم المسلمين حتى انتهوا منه في ستة أيام . وأقام محمد مركزاً لقيادته العليا على هضبة سلع ، حيث يستطيع أن يشاهد كل الجبهة الشمالية ، فلو أن العدو عبر الخندق ، لقدمت سلع للمدافعين نفس المزايا التي حصلوا عليها في أحد .

وعبر الخندق بعض الفرسان مرة واحدة ، ولم يقوموا بأي عمل مهم لقلة عددهم فانسحبوا بعد أن فقدوا رجلين منهم . لم ينجح المكيون قط في عبور الخندق وكان محروساً باستمرار ، وكان على المشاة لعبور الخندق أن يخوضوا القتال قريباً منه ، ولا يبدو أن المكيين كانوا يرغبون في ذلــــك ، لأنهم كانوا يخشون تفوق المسلمين في الالتحام . كان أمل المكيين الوحيد ، في مثل هذه الظروف ، أن يقوموا بعدة هجمات في نفس الوقت .

يبدو أنهم أملوا في إقناع بني قريظة ، بمهاجمة المسلمين من الجنوب ، ولكن المفاوضات لم تنته إلى شيء .

وكان المسلمون منظمين تنظيماً حسناً ، كما كان عددهم كبيراً ممـــا يمكنهم من صد أي هجوم من الشمال . وقد فقد المكيون بعـــد خمسة عشر يوماً الأمل في النصر ، وانقسمت المحالفة إلى أجزائهـــا المختلفة ثم انسحبت .

كان الطقس شديد البرودة ، كما هبت عاصفة ، فقضت على معنويات المحاصرين .

وتقول الروايات انه قتل ستة من الأنصار وثلاثة من المكيين.

كان سبب فشل المكيين من الناحية العسكرية استراتيجية محمد. وتفوق قلم استخباراته وعملائه السريين، وخاصة اختيار الخندق الذي كان ملائماً لتلك الأحوال.

وكانت آمال المكيين في النصر تعتمد على تفوق خيالتهم، لأن المعارك السابقة، أظهرت أن المسلمين يستطيعون الانتصار في التحام المشاة إلا إذا كانوا أقل عدداً. ولقد صد الخندق تهديد الخيالة وأجبر المكيين على القتال في ظروف لم تساعدهم على الاستفادة إلا قليلا من أفراسهم السمّاية.

ولقد قاسى المكيون من شيء آخر. فقد وصلوا في معركة أحد إلى المدينة قبل عشرة أيام من موعد الحصاد فأمدتهم الحقول بعلف أفراسهم، بينما اضطر المدنيون للخروج في ظروف غير مواتية. أما في عام ٦٢٧م / ٥هـ. فقد انتهى الحصاد قبل شهر من وصول المكيين. ربما قبل الوقت المعين بسبب بعد نظر محمد. ولهذا كان صعباً عليهم الحصول على علف أفراسهم. كما أن الانصار اكتفوا بالوقوف وراء الخندق لعدم التحدى. ويبدو أن هذا الحادث يشير إلى تراخ أو عدم بعد نظر عند زعماء مكة.

وكانت النتيجة، عدا هذه الاعتبارات العسكرية، ثمرة وحدة المسلمين وتنظيمهم، على عكس انعدام الانسجام في المحالفة وفقدان الثقة بين أفرادها.

وقد استفادت دبلوماسية محمد من هذا التفسخ. إذ أن غطفان لم

ينضموا إلى المحالفة إلا بالرشوة ، وقد عرض عليهم محمد عروضاً أفضل إذا انسحبوا . ويقال بانه قدم اليهم ثلث محصول التمر في المدينة وانهم طلبوا أولا النصف ، ولم يقبلوا بالثلث إلا بعد مضي بعض الوقت . فلما سمع بذلك بعض زعماء المدينة ، احتجوا بأن المدينة لم تصل قط إلى هذا المستوى من الخزي وألحوا في قطع المفاوضات .

ومهما كانت التفاصيل فقد تلطخت غطفان بقبولها مفاوضة محمد . كانت تلك معركة الذكاء ، وقد انتصر فيها المسلمون ، فقد أضعفوا العدو وزادوا التفسخ فيه ، وكذلك شأن المؤامرات حول قبيلة قريظة. ويبدو أنها عقدت معاهدة مع محمد ، وإن لم يتضح ما إذا كان عليها أن تساعد عند وقوع هجوم على المدينة ، أم انها تبقى على الحياد . ويقال بأنها قدمت العدة للمسلمين لحفر الخندق . ولقد اقنع فيما بعد حيي بن الاخطب ، من قبيلة النضير ، قريظة بأن محمداً واثق من فشله ، فغيرت موقفها . ولما كانت ستتعرض لانتقام المسلمين إذا انسحبت المحالفة دون القضاء على محمد ، فقد طلبت الرهائن من القرشيين وغطفان . واستمرت المفاوضات .

ولقد زاد عميل سري لمحمد ، يعمل بتحريضه ، من الشكوك بين الفرقاء ، فلم تسفر المفاوضات عن أي شيء . ولم تفتح «الجبهة الثانية» التي كانت تهدد محمداً .

ولن نالو جهداً في تقدير أهمية هذا الانتصار الدبلوماسي لأن هجوم قريظة من الجنوب على مؤخرة المسلمين كان بامكانه القضاء على رسالة محمد .

لقد دل تفسخ المحالفة على فشل المكيين فشلا ذريعاً في عملهم ضد محمد . وأصبح المستقبل مكفهراً بالنسبة اليهم . لقد استخدموا أقصى جهودهم لازاحته عن المدينة ، فبقي فيها أكثر نفوذاً مما مضى وذلك بسبب فشل المحالفة • كما ماتت تجارتهم مع سورية وفقدوا الكثير من مكانتهم . ولم يعودوا يأملون، حتى لو أن محمداً انقطع عن مهاجمتهم ،في الاحتفاظ بثرواتهم ومكانتهم . وهو يستطيع أن يستخدم القوة المسلحة ضدهم ، ويحاول إبادتهم كما حاولوا إبادته . ومن الغريب أن بعض المكيين ، وهم الشعب الواقعي ، لم ياخذوا بالتساؤل عما إذا لم يكن من الافضل قبول محمد وديانته .

الفصل الثالث

فتح مكة

١ ـ غزوات السنة التالية للحصار

تقوم أهمية الفترة الممتدة من نهاية حصار المدينة حتى عقد صلح الحديبية على ظهور اتجاهات جديدة في سياسة محمد . ومن المبالغة القول بإعادة توجيهها توجيهاً جديداً أو الاعتراف بعدم فهم سياسته السابقة ، فلقد كرس جهده حتى ذلـــك الحين للنضال ضد مكة ، ومن الطبيعي القول بأن همه الوحيد كان دحر المكيين والاستيلاء على مدينتهم ، ولكن يظهر بوضوح ، بعد انتهاء الحصار ، ان اهداف محمد كانت أوسع وأجدر برجل دولة٠ حتى إذا ما تأملنا، في بداية تاريخ الاسلام، وقعنا على اشارة تدل على أن هذه الأهداف الواسعة كانت دائمـاً موجودة، أو منذ أن أظهر النصر في بدر إمكانية إحداث تغييرات واسعة ٠ مـن المفيد جداً إذن ، في دراسة هـذه الفترة، أن نحاول فهم الأهداف الكامنة وراء

ونستخدم بالضرورة في مثل هذه الدراسة منهجاً في التفكير يقوم على التحليل والقياس المنطقي، بينما كان محمد يفكر تفكيراً يقوم على الحدس وليس على التحليل ٠ فقد كان مدركاً لجميع العوامل التي نجهد في سردها ، دون أن يفصل بينها في تفكيره ٠

وربما كان بإمكانه أن يقرر أثناء العمل الموقف الحسن الذي يجب اتخاذه ٠ وكان الجانب الديني من الاحداث رئيسياً بالنسبة اليه حتى حين يكون مدركاً للجوانب السياسية ، وكان هدفه الاسمى في ذلـــك الحين دعوة جميع العرب إلى الاسلام ٠ ولا يمكن أن تكون الوحدة السياسية قد غابت عن تفكيره ولكنها ظلت في المؤخرة ٠

ويمكن أن يبدو الحديث عن جمع العرب جريئاً لان الاسلام لم يصل إلا لبعض القبائل المجاورة لمكة والمدينة ٠

ولكن محمداً كان بعيد النظر ، فتطلع إلى ما وراء الفوائد المباشرة وكان بإمكانه أن ينظر إلى وحدة تشمل شبه الجزيرة العربية ، أو مجموع القبائل التي تنتسب للعرب ٠ غير أن قول بعض المصادر الاسلامية ، وهي ليست أقدم المصادر ، انه نظر إلى الاسلام على انه دين عام شامل ، وانه دعا الامبراطور البيزنطي والفارسي، وغيرهما مـــن الملوك إلى الدخول فيه ، هو قول خاطيء ٠ لقد كان الاسلام منذ البداية ديـــناً عاماً مضمراً ، وليس من الصدفة انه بنمو الدولة العربية أصبح شاملاً٠ غير انه من البعيد أن يوجه رجل سياسي حكيم كمحمد مثل هـــذا

النداء المجدد في هذه المرحلة من حياته • وندرك لدى البحث أن تقارير السفراء عند مختلف الحكام مملوءة بالتناقضات •

تقول الرواية العادية[1] ، ان محمداً أرسل ذات يوم بعد عودته من الحديبية ستة رسل ، مع رسائل إلى نجاشي الحبشة ، وحاكم بصرا ، لنقلها لامبراطور بيزنطية ، وامبراطور فارس (ربما عن طريق اليمن) وإلى المقوقس حاكم مصر ، وإلى الحارث بن أبي شمر أمير غسان وإلى هوذة بن علي زعيم حنيفة • ويُذكر أسماء الرسل الذين حملوا الرسائل كما يذكر نصها •

ولقد أظهرت دراسات العلماء الغربيين النقدية، انه إذا لم تكن القصة صحيحة حرفياً ، فإن لها أساساً من الحقيقة • وتقول الرواية إن رسل محمد استقبلوا استقبالا حسناً ، وانهم لم يتلقوا الهدايا إلا عند الامبراطور الفارسي • وهذا شيء غير معقول ، إذا كانت الرسائل دعوة إلى الدخول في الاسلام ، والاعتراف بمحمد كزعيم ديني لأنه لايمكن تصور امبراطور الروم ، ونجاشي الحبشة ، يستجيبان لمثل هذه الدعوة•

ولكن إذا قبلنا بأن الأشخاص المذكورين حملوا فعلا رسائل من محمد إلى أصحابها (وربما في أوقات مختلفة) وانهم استقبلوا استقبالا حسناً ، فليس من المستحيل أن يكون محتوى الرسائل قد تبدل نوعاً ما خلال النقل • وهذا إما أن تكون التفاصيل مجهولة من الرسول ، أو

---

(١) ابن سعد ١ ، ٢ ، ١٥-١٨ تعليق ج فلهوزن Skizzen und vorarabeiten ج ٤ برلين ١٨٨٩ ، ٩٧-١٠٢ ٨٠٢ كايتاني ج ١ ، ٧٢٨-٣٩ ، بيل : محمد .

ان الرسالة اعتبرت فيما بعد لاتليق بنبي كبير . تسمح لنا هذه الفرضية أن ندعي أنه إذا كان محمد قد ألمح إلى معتقداته الدينية ، فان المشكلة الحقيقية كانت سياسية . ربما اقترح عقد محالفة حياد . ربما أراد مجرد منع المكيين من الحصول على المساعدة الخارجية ومحاربة الروايات المغرضة التي كانوا يذيعونها عن علاقتهم به . لأنه يستبعد من محمد في هذا الوقت دعوة هؤلاء الحكام الأقوياء للدخول في الاسلام . ولقد أصبحت له أهمية بعد حصار المدينة ، فأمسى باستطاعته أن يقوم ببعض الاتصالات الدبلوماسية الأولية معهم . ربما كانت تلك هي حقيقة هذه القضية . ولا يجب أن ننسى أن محمداً أصبحت مصالحه الآن تتعدى مجرد هزيمة القرشيين .

ويبدو أن محمداً، في المحالفات التي عقدها خلال هذه الفترة ، لم يشترط أن يكون محالفوه مسلمين . وتوحي كلمات ابن سعد أن معاهدة بني أشجع عقدت قبل أن يصبحوا مسلمين ، كما أظهر كايتاني أن أصحاب دومة الجندل ظلوا مسيحيين [1] . وسنذكر حالات أخرى ممكنة في الفصل التالي .

ويمكن أن نصف جزءاً من الحوادث التي وقعت حسب رأي الواقدي في السنة الواقعة بين حصار المدينة وغزوة الحديبية ، على انه نتيجة جديدة لفشل المحاولة المكية في الحصار . حدث أولا عقاب قبيلة قريظة اليهودية لتآمرها مع المكيين ، وسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد . ثم الاغارة على جمال محمد الخاصة ، وقد قام بها عيينة بن حصن الفزاري ، لأنه استاء من

---

(١) ابن سعد ج ١، ٨٤ ، كايتاني ج ١، ٧٠

قطع محمد المفاوضات معه حول انسحاب غطفان . وكانت الغارة مسألة بسيطة . فقد هاجم ٤٠ فارساً من العدو ، وكانت غنيمتهم عشرين ناقة فقام ثمانية مسلمين على أفراسهم بمطاردتهم واستعادوا نصف النوق وقتلوا أربعة من المهاجمين وفقدوا هم رجلا منهم . ويبدو أن محمداً مع ذلك خشي هجوماً على نطاق واسع ، فجمع ٥٠٠ (أو ٧٠٠) رجل قبل أن يلحق بالفرسان الثمانية المسلمين ، وبقي سعد بن عبادة مع ٣٠٠ رجل لحراسة المدينة .

ونستخلص من قصيدة لحسان بن ثابت [1] أن عيينة كان يأمل في غزو المدينة والفوز بغنيمة كبيرة . ولا شك ان هذا من مبالغات الشعراء ، وإن كان يدل على حالة المسلمين الفكرية . وقد هزم ، فيما بعد خلال السنة ، زيد بن حارثة على يد بني بدر بن فزارة وهم فرع من قبيلة عيينة ولكنه عاد فانتقم لهزيمته .

وقد أرسلت عدة حملات صغيرة في هذه الفترة ضد أعضاء آخرين في المحالفة المكية ، ولا سيما ضد أسد وثعلبة (فرع من غطفان) ويظهر من مختلف المصادر ان المطر والعلف كانا نادرين تلك السنة ، وان محاربا وثعلبة وإنماراً تركت مراعيها واقتربت من المدينة .

كانت إذن غارات المسلمين إنذاراً بعدم دخول المدينة . ويمكن أن يكون ذلك شأن الغارة على بني بكر بن كلاب (فرع من عامر بن صعصعة من هوازن) ، وإن كانوا حلفاء مضمرين للمكيين. وقد جازت

---

(١) ابن هشام ٧٢٤

جماعة من بني عيينة إلى المدينة (ربما بسبب القحط) واعتنقت الاسلام ولقد سمح لهم ، بسبب الحمى التي كانت تفتك بهم ، بالذهاب إلى مراعي قطيع محمد للاستفادة من غزارة اللبن (الحليب) . حتى إذا ما استعادوا قواهم ، فتكوا براعٍ وهربوا بعد أن سلبوا خمسة عشر بعيراً . فلحقوا بهم وقتلوا شر قتلة ٠

وكذلك شأن الغزوة التي قادها محمد بنفسه لمعاقبة بني لحيان الذين غدروا بفرقة من المسلمين في الرجيع في تموز ٦٢٥م (٤/٢) ٠

استمر المشتركون من اليهود في محالفة مكة في مؤامراتهم فقدموا مساعدة عسكرية ، مقابل المال ، إلى قبائل عربية ٠ ومنهــا قبيلة سعد (سعد بن بكر ؟) فارسلت حملة إسلامية ضدهم ، وأسرت هذه الحملة ٥٠٠ بعير و ٢٠٠٠ خروف ، كتحذير من التحالف مع أعداء الاسلام ٠ وقد وجه إلى اليهود أنفسهم تحذير مشابــه باغتيال زعيمهم أسير بن رازم ٠

وقد وقعت عدة حوادث خلال هذه الفترة عملت عــلى تنمية العلاقات الوثيقة مع القبائل الضاربة على طريق سورية ٠ ولقد أشرنا إلى الغزوة الكبيرة ضد دومة الجندل في النصف الثاني من عام ٦٢٦ م (٥/٤/٣) ٠

تشير عــدة حوادث وقعت في السنة التالية لحصار المدينة إلى ازدياد الاهتمام بهذه الناحية ، ولكن معلوماتنا ناقصة جداً ٠

وكذلك سلسلة الحوادث التي وقعت لدحيلة بن خليفة الكلبي وبني

جذام . فقد أرسل دحية كسفير إلى قيصر أي ربما إلى حاكم بيزنطية . وقد سلب دحية في طريق العودة ، وأخذت منه الهدايا التي كان يحملها من بيزنطية إلى محمد على يد بعض أفراد قبيلة جذام . وأخبر محمد بالسرقة فكلف زيد بن حارثة أن يذهب لمعاقبة الجانين . وقد أقنع بعض أفراد جذام ، في هذه الأثناء ، القبيلة بدخول الاسلام . فشكوا إلى محمد أن الاجراءات التي اتخذها زيد لمعاقبتهم ، كانت غير شرعية ، فاضطر إلى إرسال علي لتسوية القضية . غير أن التفاصيل غامضة . وكل ما نعلمه هو ان قسما من جذام عقد حلفاً مع محمد .

ثم ذهب زيد ليتاجر في سورية حيث جرح وسلب على يد بني بدر بن فزارة[1] .

هذه أول مرة يذكر فيها سفر مسلم للتجارة من المدينة، وقد قاد الغزوة الثانية المؤلفة من ٧٠٠ رجل إلى دومة الجندل عبد الرحمن بن عوف الذي اشتهر بدهائه في التجارة والمال بين المسلمين ، كما يظهر مرة أخرى (ربما بعد وفاة محمد) كمنظم لقافلة من ٥٠٠ بعير[2] . وقد عقد أمير دومة الجندل في غزوة سنة ٦/٦٢٧ معاهدة مع محمد وزوج ابنته تماضر من عبد الرحمن .

تكفي هذه التفاصيل القليلة للتدليل على ان اهتمام محمد بالقبائل الضاربة على طريق سورية لم يكن مجرد صدفة . فقد كانت هذه القبائل مسيحية

---

(١) ابن سعد ، ٢/١ ، ٦٤، ١٦ ، الواقدي ٢٣٦، ٢٣٨

(٢) ابن سعد ٣/١ ، ٩٣، ١٧

أو لها علاقـــة بالمسيحية ولهذا كانت أكثر ميلا إلى الاسلام من مشركي الجنوب ، ولا سيما حين احتل الفرس سورية . ولا تبرر مصادرنا القول بان محمداً كان يهتم بقبائل الشمال لأنها كانت هي تظهر اهتماماً بالاسلام . ومن الأقرب أن يكون سبب اهتمامه أهمية التجارة السورية في الاقتصاد المكي .

وقد استطاع بواسطة هـــذه الهجمات على القوافل المكية أن يسد الطريق من مكة إلى الشمال ، كما استخدم محالفاته مع القبائل الشمالية لتقوية الحصار إذا رغب محمد في فرضه عليها . وقـــد أرسل الغزوات بقيادة زيد وعبد الرحمن لتحمل إلى المدينة قسما من تجارة سورية .

وربما كانت هذه التجارة لها أهمية في حياة المدينة أكثر ممـا تشير اليه مصادرنا . ولما كان سكان الواحة بازدياد ، بفضل جاذبية الاسلام ، فقد مست الحاجة إلى استيراد المؤن .

وكانت مسالة أخرى تشغل تفكير محمد . وهي أنه كان يحرم القتال والنهب بين المسلمين ، وبهذا إذا دخل عدد كبير مـــن القبائل أو قبلت زعامة محمد لها ، فكان عليه أن يبحث عن متنفس آخر لطاقاتها ، وقد نظر محمد إلى المستقبل ووجد أنه يجب توجيه غرائز السلب والنهب عند العرب نحو الخارج ، نحو المجتمعات المجاورة لشبه الجزيرة العربية ، كما أدرك إلى حد ما أن نمو طريق سورية هو إعداد للتوسع .

ولم تحدث محاولة مباشرة ضد مكة رغم هذا النشاط في شمال المدينة وشرقيها . ويبدو أن محمداً أثناء الغزوة ضد بني لحيـــان تظاهر بغزو

مكة [١] . ولم يحدث ذلك سوى تأثير عابر . وكانت غزوة زيد بصحبة ١٧٠ رجلا ضد القافلة الراجعة من سورية إلى مكة عن طريق العراق أخطر . فقد استولى على البضاعة بأكملها ، وكانت تحتوي على مال لصفوان بن أمية ، كما أسر بعض الأفراد . وربما كان التسامح مع أحد الأسيرين دليلا على سياسة الرحمة الجديدة التي تهدف إلى استمالة المكيين .

وهذا الرجل يدعى أبو العاص بن الربيع ، وكان زوج بنت محمد زينب . وقد طلب جوارها فناله ، وإن كان ذلك معارضاً للدستور . وقد أنكر محمد أن يكون قد علم مسبقاً بتصريح زينب ، ولكنه أكد أنه مستعد لتأييدها ، ولهذا أعيدت إلى ابن العاص أمواله التي كانت بين الغنيمة .

إذا تأملنا هذه الحوادث التي وقعت سنة ٦/٦٢٧ وما نتج عنها ، يبدو ان محمداً لا يستعد للقيام بهجوم مباشر ضد مكة . بل كانت سياسته على العكس ، إضعاف مكة . وذلك بمنع حركة القوافل من سورية وإليها ، مع زيادة عدد القبائل المؤيدة له وتقويتها . وقد دل إسلام أشجع ، وهي من أضعف القبائل التي اشتركت في الحصار ، على أن المكيين وحلفاءهم لا يستطيعون الاهتمام بشؤون محالفيهم كما يستطيع محمد

وكان السلام الذي حمله الاسلام بإدارة محمد الصارمة ، يجلب الازدهار والتقدم للعرب ، فيما لو ان وسائل العيش ازدادت حسب ذلك

---

(١) ابن سعد ١/٢ ، ٥٧ ، ١٦ – ١٨ على عكس الواقدي ٢٢٧ ، ابن سعد ٣ ، ٥٧ ، ٦

غير ان عدد الجمال والخراف التي يمكن للصحراء تربيتها لا يمكن أن يزداد . كانت الدولة الاسلامية إذن في حاجة إلى توسيع دائرة نفوذها باستمرار . ويبدو أن محمداً كان يسعى لتحقيق هدف سلبي وهو هزيمة المكيين . وقد ظهر فيما بعد أن للمكيين دوراً مهماً يقومون به في الجانب الايجابي من سياسته .

٢ـ غزوة الحديبية والمعاهدة

انتهت سلسلة الحوادث هذه إلى غايتها بغزوة محمد في الحديبية ، ويجب أن نحاول الآن توضيح هذا الحادث .

ومختصر القصة كما نجده في المصادر [١] ، هو أن محمداً قرر القيام بالعمرة في مكة ، بعد أن رأى ذلك في نومه ، فدعا المسلمين ، وربما دعا آخرين ، إلى صحبته وحمل الأضاحي لذبحها . وأخيراً سار بصحبته ١٤٠٠ أو ١٦٠٠ رجل ، ومن بينهم بدو من خزاعة ، بينما اعتذرت بقية القبائل.

وأكد المكيون له عند سماعهم باقتراب هذه القوة ان محمداً ينوي الاعتداء عليهم فارسلوا ٢٠٠ فارس لمنعه من الوصول . وقد ضلل محمد الخيالة بسلوكه طريقاً مهجورة تقع في منطقة جبلية مرتفعة ، فوصل الحديبية ، وتقع على حدود المنطقة الحرام في مكة ، وقد رفض بعيره الاستمرار في السير ، فقرر محمد الاستراحة .

---

(١) ابن هشام ٧٤٠-٥٥ الواقدي ٢٤١-٦٤ ، ابن سعد ٢/٦٩،١-٧٦ الطبري ١٥٢٨-٥١ .

هـدد المكيون بالقتال ، إذ قام محمد بالحج ، وقد تتابع الرسل بين المعسكرين ، وأخيراً تم عقد هدنة ، ينسحب بموجبها المسلمون هذه السنة ، بينما يخلي المكيون مدينتهم في السنة التالية ، خلال ثلاثة أيام ليتيحوا للمسلمين القيام بشعائر الحج . وبايع المسلمون محمداً ، حين كادت المفاوضات تقطع ، وسميت بيعة الرضوان .

وبعد عقد المعاهدة قام محمد إلى هديه فنحره ، كما حلق رأسه فاقتدى به المسلمون بعد تردد ، ثم عادوا أدراجهم .

يمكن قبول الحكم الذي يذكره الواقدي (ولا يذكره ابن هشام وابن سعد) على أنه واقع على ضوء الآية القرآنية « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق »[1] . ولكن ربما تأثر وصف محتوى الرؤيا بالحوادث اللاحقة . ولا شك أن الرؤيا هي التي دفعت محمداً إلى التفكير بالحج ، ولقد قلق حينما رأى وعد الله لا يتحقق . ولربما فرضت الفكرة نفسها عليه لأسباب سياسية إذ انه لم يكن يامل في الاستيلاء على مكة ، لأنه كان يعلم أن معنويات المكيين لا تزال قوية وان قواه كانت ضعيفة لا يستطيع التغلب عليهم في القتال . وكانت نيته الأولى، كما يقول ، مجرد القيام بالحج . ولكن الحج كانت له نتائج سياسية ، وهذا ما كان يهمه . فلسوف يكون القيام بالحج مظاهرة على أن الاسلام ، ليس ديناً غريباً ، بل هو دين عربي وان مركزه ومهده مكة . ولسوف تعلم مثل هذه المظاهرة المكيين ، وفي ذلك الوقت، ان الاسلام ليس تهديداً لمكانة مكة

---

(١) ٤٨/ ٢٧

الدينية ، كما تشير إلى ان محمداً ، مستعد لاتخاذ موقف ودي (حسب شروطه طبعاً) .

ولكن إذا تحقق العمل ا لذي يعرضه محمد، فإن ذلك لسوء الحظ يعني ان القرشيين كانوا ضعافاً لا يستطيعون إيقافه . وكان الشهر شهر حرام يحرم فيه سفك الدماء . ولكن محمداً نفسه لم يراع تماماً الاشهر الحرم ، ولم يكن يعتمد على قدسية هذا الشهر بل على عدد أنصاره .وكانت مسيرة محمد داخل مكة بعد هزيمة قريش أمام المدينة تحدث أثراً سيئاً . ولهذا قرر المكيون معارضة ذلك . وكانت التسوية التي توصل اليها الفريقان تحفظ كرامتهما بينما يفوز محمد بكل ما كان يريده حقاً . وهاك نص المعاهدة :

« باسمك اللهم هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، سهيل بن عمر ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم ،على انه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليــــه رده عليهم . ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وان بيننا عيبة مكفوفة [1] ، وانه لا اسلال ولا أغلال ، وانه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب ان يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ... وانك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وانه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فاقمست بها ثلاثاً

---

(١) معني هذه الجملة غامض . راجع .أ.ي.لين *Arabic English leocicon* لندن ١٨٦٣–٩٣ راجع « عيبة »

معك سلاح الراكب، السيوف في القرب ، لا تدخلها بغيرها »[1].

وربما لم يكن هذا النص الحقيقي للمعاهـــدة بسبب تبدل الاشخاص المفاجىء[2] . ولكن يمكن قبوله على انه عرض مقبول لشروطه . فهو يرضي الفريقين . ويعبر التخلي عن القتال عشر سنين عن نوايا محمد السلمية نحو مكة ، ويعطي المكيين فترة للراحة في نضالهم اليائس ضد سلطته المتزايدة . وتأجيل مناسك الحج ينقذ كرامة القرشيين غير ان محمداً يحقق بذلك هدفـــه ، وهو إظهار نواياه وموقفه حين سمح له بالقيام بالحج في السنة التالية . وهو في الواقع حقق اهدافه بعقد المعاهدة نفسها .

والمادة التي تتحدث عن عودة الاشخاص الذين تحت الحماية (ولا سيما الصغار والموالي) هي تنـــازل يرضي عواطف القرشيين ، ولا يكلف المسلمين شيئاً . ويروى ان ابن احد المفاوضين المكيين جاء إلى محمد بينما كان مع أبيه فقيل له ان يبقى في مكة . ولكن محمداً جعل المفاوضين الآخرين مسؤولين عن حياته بسبب العلاقات المتوترة بينه وبين والده . ويدل كون هذه المادة ليست متبادلة على إيمان محمد بجاذبية الاسلام القوية .

وكان للمادة الباقية اهمية كبرى بالنسبة لمحمد لأنه يروى أنه قال في طريقه إلى مكة ، الى احد الرسل انه مستعد لعقد الصلح مع القرشيين

---

(١) ابن هشام ٧٤٧ ، راجع ابن سعد ١١/١٠٠٧ ، الواقدي ٢٥٧
(٢) راجع كايتاني ، ج ١٨٠٧١ رقم ٢

إذا تركوا له الحرية مع القبائل المتبدية . وتدل هذه المادة على أن الفريقين يعاملان على قدم المساواة . وهي اعتراف من القرشيين بمساواة محمد لهم .

وهي تنازل منهم يسمح للقبائل بترك المحالفة المكية والانضمام إلى محمد وقد قامت خزام سريعاً بهذا التغيير .

ذلك جزء من برنامج محمد لتقوية سلطته ولإقامة مجموعة من القبائل متحالفة معه . ويجب أن نلاحظ أن توقيع محمد على معاهدة عدم اعتداء لعشر سنوات ، قد تخلى ضمناً عـــن حصار مكة . وتستطيع مكة الآن العودة إلى تجارتها مع سورية ، وإن كانت قد فقدت هذه التجارة . ولكن محمداًوإن تخلى [1] عن هذا السلاح ، كان يقوى من ناحيةأخرى.ويستطيع عند الحاجة أن يلقي القرشيين ذات يوم في ميدان القتال ، وينتصر عليهم وكان أثناء ذلـــك يخفف من ضغطه على مكة ويظهر تودده واستعداده لاحترام عواطف المكيين بصور مختلفة . أي انـــه بدلا من أن يمعن في نضالهضد مكة ، أرسل الطعم لإدخال القرشيين فيالاسلام،ولانعلم تماماً ما يكمن وراء هذه الحيلة ، إذ ربما أصابه القرف من رفض البدو الانضمام إلى الحج . فاحس بانه لا يعتمد عليهم اعتماده على أصحابه . ولربما رأى انه بحاجة إلى كفاءة المكيين ،في الادارة والتنظيم ، لبناء الدولة الاسلامية الجديدة . فاخذ منذ تلك اللحظة يسعى لاستمالة المكيين إلى الدخول في الاسلام وفي الدولة الاسلامية . (الرجال والنساء من المؤمنين الذين قيل

---

(١) ٤٨/٢٥

ان مكة جنبت الحرب من أجلهم كانوا مؤمنين بالقوة وليس بالفعل. إذ لا يمكن أن يكونوا أناساً مؤمنين ، ولكن يخفون إيمانهم . ويعني هذا أن محمداً كان يامل في كسب عدد من المكيين للدخول في الاسلام) .

كانت المعاهدة إذن تخدم ستراتيجية محمد البعيدة المدى . وقد تركته في الوقت الحاضر مع خيبة أتباعه من فشل الغزوة في الظاهر . وألهبت هذه الأزمة نار الغضب عند محمد فتصرف بحزم . لقد احس بالخيبة من رؤية بعض حلفائه من البدو يرفضون الاشتراك في الحج ، لأنهم لم ياملوا بالغنيمة ، واعتقدوا بان المسلمين لن يعودوا سالمين [١] . ودل عملهم على قلة اهتمامهم بالاسلام كدين كما أظهروا قلة ولائهم لمحمد ، بالرغم من أن مظاهرة محمد فقدت قوتها .

وعلى هذا الأساس يجب النظر إلى بيعة الرضوان . تقول الرواية ان محمداً أرسل عثمان بن عفان لمفاوضة المكيين ، وكان يتمتع بحماية قوية في مكة لأنه من قبيلة عبد شمس ، وتأخر في العودة وانتشرت الأخبار عن مصرعه ، فدعا محمد المسلمين إلى تحت شجرة للبيعة ، تقول بعض المصادر انها كانت بيعة القتال حتى الموت (بيعة الموت) ، غير أن معظم المصادر تنكر ذلك ، وتقول بأنها كانت بيعة الصمود وعدم الفرار . وتقول رواية أخرى ، انها كانت بيعة القيام بكل ما يطلبه محمد [٢] .

وإذا كانت الاعتبارات العامة تبعث على هذا التفسير للبيعة، فإن الأدلة

---

(١) نفس المرجع ١٢
(٢) الواقدي ٢٥٤

على ذلك ضعيفة . ويمكن للاسم العربي «بيعة الرضوان» أن يعني بيعة القيام بكل ما يرضي محمداً . غير أن الكلمة مشتقة من قول القرآن «ولقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة »[1] . وأما الرواية العامة وهي ان البيعة كانت بيعة عدم الفرار ، وليست بيعة الموت ، فهي تتفق مع التفسير الذي اقترحناه . فإذا كان هناك إلحاح على أنها لم تكن بيعة الموت ، فربما لأنها لم تكن تتعلق فقط بالقتال . ومن الغريب الاهتمام بالتمييز بين « عدم الفرار » و « القتال حتى الموت » لأن هذا مفهوم من ذاك . من الأبسط إذن الافتراض انها لم تكن بيعة عدم الفرار في أي مناسبة،بل عدم الفرار إلا بإذن محمد. ولئن كان هذا الجانب واضحاً آنذاك فإنه من الممكن ان تكون البيعة قبول حكم محمد عامة . وان فترة اشتداد الازمة حين بدا ان المكيين سيقررون القتال ، فرصة مناسبة لطلب مثل هذه البيعة .

ومهما يكن شأن مضمون البيعة ، فقد كان باستطاعة محمد السيطرة على المسلمين في الحديبية ، وقد أثر ذلك على بعض المفاوضين المكيين كما تقول المصادر . ولكنه كان من الطبيعي بالنسبة للعربي أن يفكر بأن الفضيلة تستحق الثواب ، وقد وضع محمد مخططاً لمهاجمة المستعمرة اليهودية الفتية في خيبر . ولم يسمح باشتراك إلا الذين بايعوه في الحديبية. وهناك أسباب عسكرية لهذه الغزوة ، حتى إذا ما نجحت فإنها

---

(١) قرآن ٤٨/١٨

ستعوض الذين كانوا أوفياء مخلصين . ونفذ المخطط بعد ستة أشهر .

كان محمد راضياً عن الغزوة بعد عودته إلى المدينة . فقد فاز ، حين وقع معاهدة على قدم المساواة مع المكيين ، بالاعتراف بمكانته الخاصة به، بعد فشل حصار المدينة . والأهم من ذلك ، أنه وضع حداً لحالة الحرب مع مكة وأصبح حراً في بسط نفوذ المنظمة الدينية والسياسية التي ألفها .

ولقد أدرك أن بعض المكيين المشتركين قد تأثروا بذلك . وهو مع ذلك، في إيقافه للحصار ، قد قام بتنازل عسكري واقتصادي كبير .

أما ما ناله مقابل ذلك فكان شيئاً لا يقدر . ولم تكن معاهدة الحديبية لصالح المسلمين إلا بقدر الايمان بالاسلام وقوة جاذبيته . فلو ان محمداً عجز عن المحافظة على سيطرته على المسلمين ، وتقوية هذه السيطرة بواسطة تأثير أفكار الاسلام الدينية على مخيلاتهم ، ولو انه عجز عن استمالة مسلمين جدد ، لما عملت معاهدة الحديبية لصالحه . ولا شك أن العوامل الاقتصادية لعبت دوراً كبيراً في إسلام الكثيرين من العرب .

ولكن على كل مؤرخ بعيد عن المعتقدات المادية أن يعتبر من أهم العوامل إيمان محمد برسالة القرآن وثقته بمستقبل الاسلام كنظام ديني وسياسي ، وإخلاصه الذي لا يتزعزع للمهمة التي دعاه الله ، كما كان يعتقد لأدائها . هذه المواقف هي أساس السياسة التي اتبعها في الحديبية .

وتكون هذه الغزوة وتلك المعاهدة ، بادرة جديدة من محمد . لأن عمله هو الذي حرض القرشيين بعد رحيله إلى المدينة وقد فشل ردهم عليه . وكان الطريق البديهي لمحمد حتى يتابع تفوقه هو القضاء على تأثير

مكة ، ولكنه بدلا من ذلك حاول شيئاً جديداً .

٣ ـ بعد الحديبية

وقعت في فترة السنتين بين معاهدة الحديبية (آذار ٦٢٨ م) واستسلام مكة (كانون الثاني ٦٣٠ م) [١] سبعة عشر غزوة إسلامية ، وإن كنا لا نملك تفاصيل بعضها ، ويمكن تقسيم هذه الغزوات ، ما عدا غزوة خيبر ، إلى ثلاثة أقسام :

أولا : وقعت عدة غزوات ضد قبائل كفت عن معارضة محمد ، ولكنها لم تهدأ بعد تماماً . وكانت غطفان ، ومنها مرة وثعلبة ، تحظى باعظم الاهتمام . وقد فشلت غزوة صغيرة إلى فدك ضد مرة بقيادة بشير بن سعد ، وقتل فيها تقريباً جميع المسلمين . ولكن الانتقام تبعها رأساً بواسطة غزوة أكبر بقيادة غالب بن عبد الله . وقد قاد بشير هذا نفسه قوة من ٣٠٠ رجل ضد غطفان بعد شهرين . ولم تصل إلا لبعض أقسام غطفان ، وليس جميعها . غير أن عيينة الذي قدم له محمد هدية على أطلال خيبر كان حاضراً وفر هارباً [٢] . كما أرسلت غزوة ضد عدو قديم هو سليم ، بقيادة ابن أبي العوجاء ، وهو من سليم أيضاً . وبالرغم من أن معظم الخمسين رجلا المشتركين فيها ، قد قتلوا فلا نسمع عن الثار

«١» راجع ابن هشام ٧٨٨ ـ ٨٠٢ ، الواقدي ٢٩٧ ـ ٣٠٩ ، الطبري ١٥٥٢ ـ ١٦٦٨ ، كايتاني ١/٢٤ ، ٣ ، ١٠٥

«٢» ابن سعد ٢/٣ ، ٨٤

لهم . ومن الممكن إذن أن تكون بمثابة خصومة في داخل القبيلة استمر بها فريق باسم الاسلام . ولم تكد تمضي سنة على ذلك ، حتى انضم فريق كبير من سليم الى محمد في الغزوة ضد مكة . وكذلك غزوة غالب بن عبد الله الليثي ضد فرع من ليث ، يسمى ملوح ، هي ولا شك تصفية حسابات قديمة . أما غزوة أبي عبيدة ضد فريق من جهينة في كانون الاول ١/٦٢٩ (٨/٨) فهي تبعث على الشك لأن القسم الأكبر من جهينة ، كان حليفاً للمسلمين .

ثانياً : هناك عدة غزوات ضد فئات من هوازن . وربما لم يكن لها أهمية كبرى بذاتها ، ولكنها دليل على اتساع سلطة محمد الجغرافية ونذير بالحوادث التي ستبلغ الذروة في معركة حنين .

ثالثاً : هناك الغزوات نحو الشمال ، وهي ثلاث : غزوة ذات أتلة بقيادة كعب الجفاري ، وغزوة مؤتة ،وغزوة ذات السلاسل بقيادة عمرو بن العاص . ويمكن أن تكون بعض غزوات القسم الأول ، سارت الى طريق سورية . فقد كان محمد يهتم كثيراً بطريق الشمال. وتكون غزوة دومة الجندل في خريف ٦٢٦ م [١] ، مرحلة أولى في ازدياد هذا الاهتمام. وقد حدثت غزوات أخرى في نهاية ٦٢٧ م ومطلع ٦٢٨ م . وتدل غزوة مؤتة في أيلول ٦٢٩م (٨/٥) ، بقيادة ربيب محمد زيد بن حارثة على أهمية طريق الشمال ، فقد اشترك فيها ٣٠٠٠ رجل ، أي ضعف الرجال الذين اشتركوا في الحديبية وخيبر . ولم يكشف محمد عن خططه الا لعدد قليل

---

(١) راجع ص ٥٠

من أصحابه . ولهذا تسكت المصادر عن الحوادث المتعلقة بسياسة محمد « الشمالية » . فنحن ، مثلا ، لا نعرف ما هدف محمد من ارسال كعب الجفاري مع أربعة عشر رجلا الى ما وراء الحدود ، الى سورية .

ونستطيع مع ذلك أن نكون واثقين من أنهم لم يكونوا مجرد غزاة ، بل كانوا ينفذون مخططاً بعيد المدى. وكان مصرع هؤلاء الرجال على يد جماعة من قضاعة ، من الأسباب التي أدت الى الغزوتين التاليتين لأنه كان يوجد بعض أفراد من قضاعة بين الأعداء في مؤتة[1] .

وليست غزوة مؤتة الكبرى جزءاً من السياسة الخفية « الشمالية » فقط ، بل هي غريبة في ذاتها . فقد ألقى شرحبيل بن عمر من غسان ، القبض على الرسول محمد الى بصرا وقتله . فارسل زيد على رأس ٣٠٠ رجل لطلب العقاب له . وربما فكر محمد بالاشتراك في هذه الغزوة شخصياً بسبب أهمية الغزوة وضخامتها ، لأن زيداً لم يعين قائداً لها ، الا بعد جمع الرجال . وأخيراً لزم بيته بسبب سوء صحته (ربما بسبب محاولة تسميم في خيبر أو بسبب الحاح العمل عليه) . اتجهت الغزوة نحو الشمال ، وعلمت عند معان أن جيشاً قوياً بيزنطياً ، يضم عدداً من عرب القبائل كان بانتظارها . ومع ذلك قررت الاستمرار في السير ، والتقى الجيشان عند مؤتة ، فقتل زيد وقائدان مسلمان آخران . ويقال بأن المسلمين فروا هاربين ، ثم انضم اليهم ثابت بن الأقرم من الأنصار ، وخالد بن الوليد . وعادوا الى القتال الذي انهزم فيه العدو وأركن للفرار ،

---

(١) الواقدي ٣١٤

فقرر خالد العودة بالجيش الى المدينة . وقد استقبلوا عند وصولهم بالسخرية لأنهم انسحبوا دون أن يثاروا لقتلاهم .

تحولت قصة مؤتة كثيراً ، أثناء تناقلها على ألسنة الرواة ، ولهذا يستحيل التأكد الا من الخطوط الكبرى فيها ، والسبب الرئيسي للاختلاط فيها الرغبة في التشنيع على خالد . وهكذا فان الرواية القائلة بان محمداً عين جعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، لخلافة زيد اذا قتل موضوعة وهدفها اتهام خالد بأنه تولى القيادة بصورة غير شرعية (وربما كان جعفر وعبد الله يتوليان قيادة الوسط) .

وقصة ثابت بن الأقرم في الحاحه ، كي يتولى القيادة ، رد على هذه التهمة . كما ان وصف الاستقبال العدائي الذي استقبل به الجيش عند عودته ، انما هو تفنيد لقرار خالد بالعودة الى المدينة ، وان كان هذا القرار أفضل ما يمكن عمله في مثل تلك الظروف ، ويمكن أن يكون تضخيم عدد العدو إلى ١٠٠٠٠٠ رجل جزءاً من الدفاع عن عمل خالد . بعد اشارتنا لهذا العداء لخالد ، وتمجيد الدور الذي قام به أفراد عائلة من العائلات ، تبقى لدينا المسائل التالية :

(١) حدث لقاء مع قوة للعدو .

(٢) قتل زيد وجعفر وعبد الله ولم يقتل كثير غيرهم .

(٣) عاد الجيش الى المدينة بقيادة خالد دون أن يتكبد خسائر جسيمة .

أما ما عدا ذلك فمشكوك فيه . ولم يحدث اللقاء مع مجموع الجيش

المعارض . ويقول الواقدي ان ثمانية مسلمين فقط قتلوا . ولكن ابن هشام يضيف أربعــة أسماء أخرى . وهذه خسائر قليلة في معركة بين ٣٠٠٠ رجل من جانب و ٢٠٠٠٠ أو ١٠٠٠٠ أو ٣٠٠٠ رجل من جانب آخر ، إلا إذا دحر المسلمون العدو دحراً مبيناً ، ولو سقط عدد أكبر من القتلى لذكرت أسماؤهم ، ولكن يبدو أن المصادر لا تريـد إخفاء الخسائر بـين المسلمين . يمكن إذن أن يكون الاصطدام عبارة عن مناوشة . ويصعب تصور مناوشة يموت فيها لواء وضابطان مـن القيادة ، ولا يموت أحـد غيرهم . ولكن إذا نظرنا إلى طرق القتال عند العرب ، لم يبـــد ذلك مستحيلا على الاطلاق . وربما تفوق العرب في هـــذا الاصطدام ، وإلا لكانت الخسائر أفدح . ولم يتخـذ قرار العودة بسبب خطر العـدو أو الجبن ، بل بسبب مدة الغياب بعيداً عـن القاعدة ، أو ربما لجهل خـالد بالأسباب الحقيقية للغزوة (يبدو أن التعليمات التي أعطيت لزيد هي من تاريخ لاحق)[١] .

ولو كانت الغزوة نجاحاً حقيقياً ، اعتماداً على احترام قوة المسلمين ، فإن موت اللواء يمكن أن يحدث تأثيراً معاكساً في بعض الأوساط . وقد أرسلت ، على كل حال ، في الشهر التالي (تشرين أول ٦٢٩م ٦/٨) غزوة بقيادة عمرو بن العاص ، وهو مسلم حديث آخر ،ضد قبيلتي مالي وقضاعة اللتين انضمتا بأكملها (أو انضم قسم منهما) إلى بيزنطية في مؤتة . وكانتا

«١» نفس المرجع ٣٠٩ ، ٢٢ – ٢٣ ، راجع كايتاني ٢/١ ، ٨٣ رقم ٢

تعدان تجمعاً جديداً من الرجال لمهاجمة المدينة . وقد هزم التجمع تماماً بعد وصول المساعدات إلى المدينة وانتهاء الخصومة حول القيادة .

وقد أصبح بإمكان محمد ، بعد سيطرته على هذه الأراضي الشاسعة أن يسير لفتح مكة متى سنحت له الفرصة .

٤ - رَدّ مَكّة عَلى نَجَاح مُحَمَّد

من المفيد،قبل أن ننظر في دخول محمد المظفر إلى مكة ،ان نستعرض سياسة مكة الداخلية منذ معركة بدر ، ولا تمدنا المصادر إلا بلمحة عما كان يجري فيها ، حتى لو وثقنا بما تقوله . فلا شك أن أحفاد رجل قد سكتوا فيما بعد عن معارضته لمحمد أو قللوا من شأنها ، بينما ضخم أعداؤ هذا الرجل أو أعداؤ أحفاده هذه المعارضة . ولهذا توجد أسباب للشك بالمصادر في هذا الصدد ،غير أن المعلومات التي نستخدمها في هذا المقطع تصدر عن « نزعات » متباينة حتى نستطيع تفسيرها على أنها موضوعة في تمجيد أصحابها أو الطعن فيهم .

تدل التغييرات السياسية في هذه الفترة على تفسخ النظام القبلي في مكة تدريجياً . وكان هذا النظام أساس السلامة والطمأنينة في المجتمع ، ولم يكن له أهمية فيما عدا ذلك . ولم تتغير الاحلاف القديمة فقط ، بل أصبح من الطبيعي أن نجد أفراداً من نفس القبيلة ينتمون لأحزاب متعارضة . وأخذت السياسة تميل لكي تصبح قضية أفراد أكثر منها قضية قبائل .

ونرى صورة الانقسام السياسي أيام بدر في الآراء التي تؤيد سياسة أبي جهل أو تعارضها . ويبدو أن هذا الاخير ، كان يريد التعجيل في الحرب بينما حاول أبو سفيان ، بعد وصول القافلة سالمة ، أن يتجنب الاصطدام ، وكان يرى أن « أبا جهل » كان يتخيل نفسه الزعيم ، لانه لم يكن له حق القيادة في القتال ، إلا عند غياب أبي سفيان لأن عبد شمس كانت مكلفة بالقيادة [١] .

وتوجز اللوحة التالية عرض الواقدي [٢] (وتشير علامة × إلى الذين قتلوا في بدر) :

القبيلة	يؤيد	يعارض
مخزوم	أبو جهل ×	....
	عبدالله بن ربيعة	
جمح	عمير بن وهب	أمين بن خلف ×
سهم	....	منبه الحجاج ×
عبدالدار	النضر بن الحارث ×	....
عامر	سهيل بن عمر	....
	حويطب	....
نوفل	طعيم بن عدي ×	....
	الحارث بن عامر ؟	....

---

(١) الواقدي ٤٥

«٢» نفس المرجع ٤١ – ٤٣ ، ٥٠ – ٥٣

القبيلة	يؤيد	يعارض
عبد شمس	عقبة بن ابي مؤيت ×	أبو سفيان
		عتبة بن ربيعة ×
		شيبه ×
أسد	زمعة بن الاسود ×	حكيم بن حزام
زهرة	....	الاخنس

يظهر من هذا ان القبائل كانت منقسمة في موقفها من أبي جهل وإن عبد شمس لم تكن متحدة وراء أبي سفيان ، كما نلاحظ أيضاً أن قبيلتي عامر ونوفل ، اللتين لم تنضما إلى قبائل الاحلاف، أخـــذتا تؤيدان الآن مخزوماً تايداً قوياً . وهناك من ناحية ثانية دلائل على تفسخ الاحلاف (عبد الدار ، مخزوم ، جمح ، سهم ، عدي) وقد انسحبت عدي بسبب نزاعها مع سهم ، ويبدو أن سهما تنسحب بدورها بينما تتردد جمح .

ولقد أدى موت عدد كبير من الزعماء في بدر إلى زعزعة التوازن بين السلطات ، بينما نسيت الجماعات المتحالفة مع مخزوم وعبـــد شمس عداواتها القديمة بسبب التغيير الخطير في مصير مكة . وتطلعنا قـــائمة النساء ، عند الواقدي ، اللواتي حملهن معهم المكيون في غزوة احد على النافذين الرجال والقبائل المسيطرة [٢] .

وكانت هؤلاء النساء ، ما عدا حالتين ، زوجات زعماء القبائل ، كما أن

«١» راجع محمد في مكة ٥ ـ ٧

«٢» الواقدي ٢٠١ ، ٢٠٢٥٥٧

حمل كل من أبي سفيان وصفوان بن أمـــية زوجتين يدل على أنهما أصبحا الآن زعيمي فئتين متخاصمتين .

ويبدو ان ابن أبي جهل وهو عكرمة لم يصبح بعد على قدم المساواة مع صفوان . والقرشيون الذين صحبتهم نساؤهم ، هم :

عبد شمس	ابو سفيان (٢)
جمح	صفوان (٢)
مخزوم	عكرمة (١) ، الحارث بن هشام (١)
عبد الدار	طلحة بن أبي طلحة (١)
سهم	عمرو بن العاص (١)
عامر	ربما مثلها خناس بنت مالك التي صحبت ابنها أبا عزي من عبد الدار

وكانت النساء الخمس الاخر من قبائل متحالفة مع القرشيين . وكان يصحب سفيان بن عويف من بني عبد مناة من كنانة زوجه وزوج ابنه فكان بذلك على قـــدم المساواة مع أبى سفيان وصفوان ، وكان الضغينة (أو الضغنة) يصحب ولديه ، وربما كانا زعيمي الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، أي الاحابيش إذن [١] . ولم أستطع التعرف على شخصية المرأتين الاخريين ، وربما كانتا من ثقيف ، إلا إذا كانت إحداهما من بني نوفل من القرشيين ، وكانت زوجتا صفوان من ثقيف وكنانة .

«١» ابن هشام ٢٦٥ و « *Kritioche Anmer Kurigen* » ص ٨٠ ، في ابن هشام ٨٥٢ ، الواقدي ٣٦٦ ، سلمى ابن الضغنة .

وما عتمت الانقسامات أن ظهرت بعد معركة أحد . وكان صفوان يرى أن على المكيين أن يقنعوا بالنجاح الذي أحرزوه وأن لا يخاطروا به ، بينما كان عمرو بن العاص وأبو سفيان يريان ان عليهما الاستفادة من تفوقهم ومهاجمة المدينة [١] • ويمكننا الافتراض بأن صفوان كان يخشى أن يعود النصر على أبي سفيان ، وهو القائد ، بالمجد. كما يمكن أن يكون أبو سفيان سياسياً ماهراً . وكان يأمل من معارضة اقتراح صفوان بقطع أشجار البلح في المدينة أن يستميل بعض المدنيين اليه (إلا إذا كانت الرواية موضوعة لاحقاً لمصلحة بني أمية) [٢] . كما اتخذ أيضاً موقفاً معتدلا بعد بضعة أشهر ، فيما بعد حين عادت قبيلة لحيان إلى مكة بالمسلمين الذين وقعوا أسرى في الرجيع . وقد اشترت جماعة مخزوم ، التي ينتمي اليها صفوان، هؤلاء الاسرى، لشدة حقدها على المسلمين ،وقتلتهم لتثار لخسائرها على يد المسلمين .

والقبائل التي اشتركت في هذه القضية هي : نوفل ، جمح، مخزوم ، عامر ، زهرة وعبد الدار [٣] .

وظل ابو سفيان بعيداً عن كل هذه الاعمال، وإن كان ابنه وأفراد آخرون من قبيلته قد قتلوا في بدر ، ويبدو أن حليفاً له اشترك فيها . ولقد هدأت العداوة بين أبي سفيان و صفوان بن أميـــة، فاتاح

«١» الواقدي ، ١٣٨ ، ١٤٦ ، ١٥٠

«٢» نفس المرجع ١٠٣

«٣» ابن هشام ٦٣٨ لا سيما ٦٤٥ ، الواقدي ١٥٨ — ٦٠ ربما كان سعيد بن عبد الله بن عبد قيس بن عبد ود «عامر» أخا عمر بن عبد ود بن عبد قيس الذي قتل في معركة الخندق .

ذلك القيام بغزوة مشتركة في بدر (نيسان ٦٢٦م ٤/٩) ومحاولة الاستيلاء على المدينة في نيسان ٦٢٧ م (٥/١١) .

غير ان الخلافات بين الزعماء المكيين سببت تأخراً في المناسبتين . كان أبو سفيان قائداً عاماً بموجب الحق الوراثي لقبيلته في ذلك . وقد أخذت أهمية عكرمة ، مع ذلك، تزداد منذ حصار المدينة ، ولاسيما في المفاوضات مع اليهود [١] . ونجد أثناء غزوة محمد في الحديبية في آذار ٦٢٨ م (٦/١١) ، الثلاثي المؤلف من صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو (عامر) وعكرمة بن أبي جهل ، الذي كان يؤلف نواة المعارضة للمسلمين . حتى إذا ما عرض محمد المفاوضة انقسم الثلاثي . وكان عكرمة ضد كل مفاوضة ، وأهان رسول محمد ، ولكنه وجد معارضاً له في شخص صفوان والحارث بن هشام من مخزوم [٢] ، وقد هزم عكرمة في النهاية . حتى إذا ما وصلت المفاوضات إلى مرحلتها النهائية ،اسندت مهمة عقد المعاهدة إلى الرجل الثالث في الثالوث ، وهو سهيل يساعده رجلان من قبيلته . لا نجد ذكر أبي سفيان في كل هذا ، وغيابه [٣] لا يكفي لتفسير عدم ذكره ، وإن كان غيابه مما يساعدنا .

ربما كان يعتقد بأنه لا داعي للاستمرار في النضال ، فقد فقدت مكة إلى غير رجعة مكانتها القديمة ، ويجب قبول هذا النقص في الكرامة والازدهار والاستفادة أكثر ما يمكن من ذلك . وكان ينتظر نجاح محمد

«١» الواقدي ٢٠١-٢٠٦

«٢» نفس المرجع ٢٥٠و٢٥٣

«٣» نفس المرجع ٣٢٣ ، قابل ابن هشام ٧٤٥ والطبري ١٥٥٢

في خيبر عند سماعه بامر الغزوة[1] . وربما أصبح أضعف من « جماعة مخزوم » .

وكانت قبيلته نفسها لا تؤيده تأييداً كاملا ، لأن أحـــد افراد قبيلته ، الحكم بن ابي العاص (والد الخليفة مروان) انضم إلى عكرمة في معارضته لمفاوضات الحديبية ، وإن كان أبو سفيان ربما يؤيد ، حاضراً أم غائباً ، سياسة المفاوضات[2] . كما أنه استطاع ان يعرف بأن محمداً كان ينوي الزواج من ابنته ام حبيبة ، وبالرغم من انها اسلمت منذ اكثر من اثنتي عشرة سنة ، فإن ذلك لا بد ان يكون قد اثر فيه[3] .

ولقد شعرت مكة بعد عقد معاهدة الحديبية ، انها مدينة محكوم عليها بالاعدام . ولقـــد أراد الشيوخ واصحاب المصالح الاستمرار في النضال ، بينما وجد الشبان انه لا مستقبل لهم في مكة . فسار ابو جندل ابن سهيل بن عمرو نحو المعسكر المدني ، بينما كان والده يوقع المعاهدة . فاعيد إلى والده[4] حسب نصوص المعاهدة . وكان اشهر الذين اعتنقوا الاسلام عمرو بن العاص ، وربما كان عندئذ زعيم سهم ، وخالد بن الوليد وهو رجل مهم في بني مخزوم اشتهر بكفاءته الحربية . وقد جاء هذان الرجلان إلى المدينة في صيف ٦٢٩ م واحتلا مكانة مرموقة في الامة الاسلامية وقيادة الغزوات . وجاء معهما مكي ثالث هو عثمان بن طلحة

«٤» الواقدي ٢٨٩

«٢» نفس المرجع ٢٥٠ «٣» طبري ١٥٧١ ، كايتاني ٢/١/٥٥

«١» الواقدي ٢٥٦

(من عبد الدار) ولكنه كان أقل منها . وجاء آخرون لا يذكرهم ابن هشام والواقدي . ويقال بأن ابان بن سعيد (من عبد شمس) الذي منح جواره لعثمان بن عفان حين دخل مكة كرسول محمد للبحث في المعاهدة، قد اعتنق الاسلام ما بين غزوة الحديبية وخيبر [1] . كما أسلم جبير بن المطعم قبل سقوط مكة [2] . وربما كثير من السبعماية مهاجر الذين وجدوا في حنين كانوا قرشيين [3] . وقد ذهبت امرأة في هذه الاثناء إلى المدينة ، وأثار وصولها مشكلة في تفسير المعاهدة [4] . كما انضم إلى محمد بينما كان في طريقه إلى مكة في كانون الثاني ٦٣٠ م ابنا عمه ، ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب (هاشم) [5] ، وعبد الله بن أبي امية (من مخزوم) ابن عاتكة بنت عبد المطلب .

كما سار العباس بن عبد المطلب ، عم محمد ، إلى لقائه على طريق مكة ومعه مخرمة بن نوفل (من زهرة) ، ولكنه ربما أسلم قبل ذلك .

ولما كان العباس جد العباسيين ، فقد قام الدعاة والمؤرخون العباسيون « بتبييض » صفحته والقول بأن اقامته الطويلة في مكة ، إنما كانت بصفته جاسوساً سرياً لمحمد . ويصعب تخيل ذلك قبل حج محمد في آذار ٦٢٩ م (٧/١١) .

«١» اسد ـ ج ص ٣٥ ـ راجع الديار بكري الخميس «القاهرة ١٨٨٤ ـ ١٣٠٢ ـ ٢-٤٦

«٢» اسد ج ١ ـ ٢٧٠

«٣» الواقدي ، ٣٥٨ ـ ابن هشام ٧٥٤

«٤» الواقدي ٢٦٢

[٥] وهو غير ابي سفيان بن حرب

فقد كان العباس رجل مال صغير ، وإن استفاد بعض الاستفادة من السقاية (سقاية الحجاج) و لم تكن له اهمية في إدارة شؤون مكة ، ولم تكن الحياة فيها تعجبه كثيراً . و كان زواج محمد من ميمونة ، قبل كل شيء ، محاولة لاستمالة العباس الى قضيته و توطيد ولائه له . و كانت ميمونة أخت زوج العباس و تنتمي لعائلة لصلات القرابة ، من ناحية الام فيها ، أهمية كبرى . و كان محمد يعمل ، بزواجه من ميمونة ، على إقامة علاقة متينة مع العباس [1] . كما أن حمل فرد آخر من العائلة - (عائلة العباس وهي بنت حمزة ، عمارة أو امامة - إلى المدينة في نفس الوقت - ربما للمحافظة عليها - يجعلنا نعتقد ان العباس أسلم في هذا الوقت ، وأقام في مكة يعمل من أجل محمد .

و بينما كان بعض المكيين يتخلى عن السفينة أخذ الآخرون يحاولون الاستفادة أكثر ما يمكن من المعاهدة . ولكن الامور لم تجر بسهولة فوقعت حوادث أدت إلى بعض الاحتكاك. ويقول أحد نصوص المعاهدة ان على محمد ان يرد كل شخص ياتي اليه بدون إذن وليه . وقد رفض محمد تطبيق هذه المعاهدة بحق المرأة المتزوجة ، وذلك لأنه أراد أن تعامل النساء معاملة الاشخاص الاحرار [2] . كما غض الطرف في قضية أبي بصير ، وربما شجع ما يعتبر خرقاً للمعاهدة . وإن كان تصرفه سليما من وجهة النظر العربية والغربية . ولم يشك المكيون رسمياً في

---

[1] راجع ص ٣٥٠ مما يلي .

[2] راجع ٣٤٦ .

هذا التصرف . وتستحق هذه القصة أن تروى بتفاصيلها :

أبو بصير عتبة بن أسيد من ثقيف وحليف قبيلة زهرة ،وقد سجن لميله إلى الاسلام ، ففر ووصل إلى محمد في المدينة ، وتبعه رجل من عامر يحمل رسالة من زعماءزهرة يطلبون تسليمه اليهم • فاعترف محمد بعدالة الطلب ، حتى إذا ما احتج أبو بصير قال له محمد « إن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً » .

وما كاد العامري ومولاه وأسيرهما ـ يقطعون بضعة كيلو مترات حتى انتهز أبو بصير فرصة سنحت له . فقد جلسوا لتناول الطعام واستطاع أن يكسب ثقتهما بمقاسمتهما التمر الذي كان معه لأنهما لم يكونا يحملان سوى الخبز اليابس،لأن التمر من منتوجات المدينة، فرفع العامري سيفه فقال أبو بصير : « اصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر ؟ فقال نعم. قال : انظر اليه ؟ قال انظر إن شئت قال : فاستله أبو بصير ، ثم علاه به حتى قتله . وخرج المولى سريعاً ، حتى أتى رسول الله وهو جالس في المسجد ، فلما رآه رسول الله طالعاً قال : « ان هذا الرجل قد رأى فزعاً » فلما انتهى إلى رسول الله قال : ويحك ! مالك : قتل صاحبكم صاحبي ، فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحاً بالسيف ! فامر محمد المولى بالعودة بأبي بصير إلى مكة ، فرفض أبو بصير . ولما كان قد اعيد للقرشيين لم يعد مسلماً ، ولم يعد محمد مسؤولا عن الدم الذي سفك . ولكي يحفظ محمد موقفه السليم ، رفض خمس الغنيمة الذي قدم اليه .

غير ان القرشيين ازداد غيظهم على أبي بصير ، وكان يمكنهم طلبه

من محمد . فترك أبو بصير المدينة بعد تشجيع محمد ، وذهب إلى مكان قريب من الساحل يشرف على طريق القرشيين إلى سورية . فاجتمع حوله سبعون من مسلمي مكة المستترين . وأخذت هذه العصابة تهاجم قوافل القرشيين الصغيرة . كما قتلوا كل رجل يقع بين أيديهم . وهكذا استطاع محمد ، دون أن ينقض حرفية المعاهدة ، أن يعيد جزئياً الحصار حول مكة .

إذ ان هؤلاء الرجال لم يكونوا أعضاء رسميين في الامة الاسلامية . لذلك لم يكن محمد مسؤولا عن أعمالهم . و مع أن القرشيين كانوا أحراراً في استخدام القوة ضدهم ، فإنهم كانوا ضعفاء ، لا يستطيعون العمل على مسافة بعيدة من مكة . وأخيراً طلبوا إلى محمد إعادة هؤلاء الرجال وتخلوا مقابل ذلك عن الحقوق المتوجبة لهم في المعاهدة . ولكن أبا بصير توفي لسوء الحظ حين وصول رسالة محمد اليه بهذا الصدد .

يدل هذا المثل على مبلغ جاذبية النظام الديني السياسي في الاسلام ، وتفوقه على الفوائد الظاهرة التي فاز بها القرشيون من المعاهدة .

وكانت القضية التي قضت على السلم وأدت إلى انتصار محمد على مكة هي المؤامرة ضد حلفائه من خزاعة [١] .

وكان الشخص الرئيسي فيها نوفل بن معاوية ، الدؤيلي غير ان اهم الرجال في « جماعة مخزوم » أيدوه . حدث قبل الاسلام نزاع بين بني بكر بن عبد مناة (فرع من كنانة) وخزاعة . وقد هدأ بعض الوقت ثم

---

(١) ابن هشام ٨٠٢ ، الوقدي ٣١٩

انفجر من جديد بعد ان قتلت قبيلة خزاعة ، رجلا من دؤيل (فرع من بكر) كان قد نظم أشعاراً معادية لمحمد . وقد أعلنت خزاعة صراحة بعد الحديبية انها حليفة محمد وبكر من القرشيين . وقد حصل نوفل بن معاوية على كمية من الاسلحة من زعماء قريش ، ودبر مؤامرة للغـــدر بخزاعة . ونفذ المخطط والتجات خزاعة ، بعد أن تكبدت بعض الخسائر ، إلى بيوت شخصين من القبيلة في مكة . وقد ساعد زعماء مكة المتآمرين وحرضوهم .

ويقال بأن صفوان وشخصين من عامر حضرا مقنعين . وربما كان ذلك افتراء عليهما ، وضع فيما بعد ، وإن كانا على علم بالمؤامرة . وكذلك حال سهيل وعكرمة .

وقد علم بالمؤامرة شخصان نافذان من مخزوم ، فوجداهـــا غير حكيمة ، وهما الحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة ، ولم يعلم بها أبو سفيان .

وقد ذهب رجل من خزاعة وقص الحادث عـــلى محمد . ورأى القرشيون بعد إيقاف القتال ، وطرد رجال بكر من المدينة ان الحالة خطيرة . وإذا لم يخضعوا لمحمد ، فأمامهم ثلاثة طرق : أما التنديد بجماعة بكر الذين اشتركوا في قضية نفاثه فيتصرف محمد بهم كما يشاء ، أو دفع الدية ، أو إعلان الحرب على محمد . وكان سهيل من أنصار الحل الاول ، وذلك لأن أمه كانت من خزاعة ، وبسبب خصومة قديمة بين عـــامر وبكر [١] .

---

(١) الواقدي ٤٣

وكان للمكيين الآخرين أنصار ، ولكن لم يعقد الاتفاق على الحل الافضل . وكان دفع الدية يعني خسارة كبرى من قدرهم ، بينما يؤدي فسخ المعاهدة إلى خسارة اقتصادية ، وكان الأمل ضعيفاً في التغلب على محمد. وأخيراً اقنع أبو سفيان القرشيين أن يحاولوا إيجاد تسوية ، وأرسل هو إلى المدينة للمفاوضة . تلك كانت قصة سقوط القرشيين الأقوياء ، الذين أصبح عليهم الآن أن يتوجهوا إلى محمد ، ويسالوه بمذلة أن يعطف عليهم ، ولا تفسر لنا المصادر مغزى التسوية المامولة، ولكن يبدو انها كانت مشابهة لوضع أبي بصير أي محاولة لاستغلال المبادىء الناتجة عن هذه الحالة ضد محمد . وكان على القرشيين أن يعترفوا بخطئهم والادعاء بأنهم لم يكونوا مسؤولين عنه لأن المخطئين لم تكن المعاهدة تشملهم، أو لأنهم تصرفوا من أنفسهم ، وكان عليهم أن يجددوا المعاهدة لتشمل هؤلاء الناس . ولم يكن محمد لسوء الحظ مستعداً لمجاراتهم .وكان في مركز أقوى من مركزهم بالنسبة لأبي بصير . ولقد وجدالقرشيون أنفسهم، بعد بعثة أبي سفيان ، أمام نفس الحلول الثلاثة أو الاربعة السابقة. ولكن ابا سفيان كان يتجه نحو الحل الرابع وهو الخضوع لمحمد .

وقصة الحوادث خلال إقامة أبي سفيان في المدينة مفعمة بالألوان . فقد ذهب أولا لرؤية ابنته ام حبيبة ، وهي زوج محمد • ولكنهارفضت أن تتركه يجلس على سريرها الذي ينام فيه محمد لأنه كان كافراً • كما رفض محمد التحدث اليه ، فذهب لرؤية أبي بكر وعمر وعثمان وعلي

طالباً مساعدتهم ، ولم يفز إلا بنصائح عـــلي ، ولكن إذا كانت قلة احترام ام حبيبة لوالدها ليست مستبعدة في تلك الآونة ، وإن كانت مستغربة إذا كان محمد يستغل زواجه لاستمالة أعدائه،فان الاحترام الزائد لشخص النبي يرجع لتاريخ لاحق ، كما ان ذكر الخلفاء بالتتالي يدعو إلى الشك ٠

وكل ما يمكن الاطمئنان اليه هو ان محمداً رفض عرض أبي سفيان ثم لو رفضنا فيما بعد قصة زيارته للخلفاء الاربعة في المستقبل ، يمكن أن يكون أعلن الجوار ، كما نصحه علي ، في المدينة ٠ كما يمكن أن يكون إعلان الجوار حدث فيما بعد ٠ وأياً كان تاريخ ذلك ، فإن أبا سفيان اول زعيم مكي يرضى بضرورة الخضوع لمحمد، ويجب ربط إعلانـــه للجوار ، سواء كان لبني نفاثة أو للقرشيين، بهذا التبديل في موقفه ٠ فهو لم يكن يأمل بحماية أشخاص ضد محمد ٠ ولو أنه اتفق مع محمد ، فإن محمداً يؤيد جواره ٠ اما بالنسبة للآخرين فإن قبولهم جوار شخص خاضع لمحمد يساوي خضوعهم هم لمحمد ٠ وكان ذلك وسيلة لتلطيف الخضوع لمحمد بالنسبة للقرشيين الاباة ٠ ودور أبي سفيان في فتح مكة أكبر مما يعتقد عادة ٠ ولربما أغفلته المصادر ، حتى لا يبدو أعظم من دور العباس ٠

ولكنها لم تستطع اخفاء ما فعله أبو سفيان في الأيام الاخيرةالعصيبة حين كان محمد يقترب من مكة على رأس جيش قوي ، وكانت جماعة مخزوم بقيادة صفوان وعكرمة وسهيل تحاول تنظيم المقاومـــة ، بينما

خرج أبو سفيان للقاء محمد يصحبه حكيم بن حزام (من أسد) وبديل بن ورقاء الذي وإن كان ينتمي الى خزاعة ، كان يملك بيتاً في مكة. ويبدو ان هذا يشير الى ان الذين كانوا خارج « جماعة خزامة » قرروا التسليم ، وظهر محمد على أنه يرغب في تجنب اراقة الدمـاء ، واعترف بجوار أبي سفيان حين أمر أن الذين يحتمون بداره ، أو يغلقون عليهم أبوابهم سالمون . ولهذا كانت المفاوضة ضئيلة جداً . وقد عبد الطريق ابو سفيان واثنان آخران ، ولا سيما بعض رجال قبيلةهذيل،وقد فازت كل جماعة خزاعة بالعفو الذي ناله أبو سفيان .

ويبدو ان ابا سفيان كانت نظرته للواقع جديرة برجل الدولة ، اكثر من اعدائه في مكة ، وقد أدرك بعـــد فشل المحالفة الكبرى في حصار المدينة ، ان لا امل في المقاومة الطويلة . كما انه قبل بنقص في الكرامة وانخفاض في مستوى المعيشة .

وكان تاثيره في الدعوة الى الاعتدال ، قبل الحصار وبعده ، فنراه يشجع الوحدة بين القرشيين ، والحيلولة دون الانقسامات الداخلية .

وليس مستغرباً ألا نعود نسمع عن أخباره بعد الحصار وتذيع أخبار اعدائه . فلقد دفعهم الى المقاومـــة عزتهم وشرف قبائلهم ومصالحهم وغرورهم حين أصبحت المقاومة لا تجدي ، حتى اذا ما اخرجتهم قوة السلام الاسلامية من مكة ، فروا في كل مكان واختبأوا في جحورهم . ثم صالح معظمهم محمداً وبلغوا كبرياءهم . غير ان افضل مثال على تفكيرهم هو هبيرة بن أبي وهب (من مخزوم) الذي آقـــام في نجران بقية

حياته [1] .

٥ - خضوع مكة [2]

تدل ضخامة غزوة مؤتة وأهميتها على أن هدف محمد نحو سنة ٨/٦٢٩ . كان توحيد العرب تحت سلطته والتوسع بهم نحو الشمال . ولم يكن فتح مكة إذن غاية بذاتها ومع ذلك كان لمكة والمكيين أهمية بالنسبة لمحمد . فلقد اختار مكة منذ أمد بعيد لتكون مهد الاسلام ، ولهـذا يجب أن يدخلها المسلمون بحرية تامة . ولو أصبحت مكة خاضعة لسلطته لزاد اعتباره وقوته زيادة كبيرة ، وكانت مكانته ضعيفة بدون مكة ، كما كان محمد ، بحاجة إلى كفاءات المكيين العسكرية والادارية ، كلما اتسعت شؤون الامة الاسلامية ، وكان عليه ، عاجلا أم آجلا ، أن يضم مكة اليه .

وقد فضل محمد سنة ٦٢٨ م في الحديبية ، أن يعقد الصلح ويضع حداً للحصار ، لأنه يستطيع عندئذ أن يكرس طاقته للتأثير على القبائل البدوية . ولكن قوته ازدادت بسرعة خلال الاثني والعشرين شهراً التي تلت عقد المعاهدة .

حتى إذا ما دعاه حلفاؤه من خزاعة لنجدتهم أحس بأن الفرصة سنحت . وإن كان يتردد أيضاً ، فإن زيارة أبي سفيان للمدينة جعلته

---

(١) كايتاني ٢/١ ، ١٣٤

(٢) ابن هشام ٨٠٢ – ٤٠ ، الواقدي ٣١٩ – ٥١

يدرك أن معارضيه في مكة قلة وان « القساة » من جماعـــة مخزوم ، لن يقف لجانبهم إلا القليل . فأخذ بجمع جيش قوي ، لأخافة المكيين ، فلا يقاوم مقاومة فعلية إلا أشد المعارضين .

ولقد اتخذ محمد جميع الاحتياطات لحفظ سرية الاستعدادات . فلم يعرف شيء في المدينة عن هدف الغزوة . وأرسل فرقة صغيرة نحو سورية كما أغلقت الطرق المؤدية إلى مكة . وقد حاول أحد أبطال بدر ان يخبر القرشيين (خوفاً منه على زوجه وأطفاله الذين ظلوا في مكة) ولكن رسالته ضبطت . واستقبلت مختلف القبائل رسل محمد استقبالا حسناً . فاستطاع في أول كانون الثاني ٦٣٠ م (٨/٩/١٠) أن يسير عـــلى رأس جيش يتالف من ١٠٠٠٠ رجل مع الذين انضموا اليه في الطريق . وقد اشتركت القبائل فيه كما يلي : ١٠٠٠ رجل من مزينة ١٠٠٠ (أو ٧٠٠) من سليم ، ٤٠٠ من أسلم و ٤٠٠ من جفار ، وعدد غير معين من جهينة ، أشجع ، خزاعـة ، ضمرة ، ليث وسعد بن بكر ، كما اشتركت جماعـات صغيرة من تميم ، قيس وأسد [١] .

وقد عسكر الجيش في الوقت المناسب في مر الظهران التي تقع على مرحلتين صغيرتين من مكة ، ولكنها تقع مع ذلـك على الطريق الذي يسير عليه الجيش نحو الطائف أو منطقة هوازن .

لم يكن المكيون إذن واثقين تماماً من اتجاه الجيش ، وكانت معلوماتهم الصحيحة قليلة جـداً . وأمر محمد باشعـال عشرة آلاف مشعل فزادت

---

(١) ابن هشام ٨١٠ ، ٨٢٨ ، الواقدي ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٥٨

من رعب لأهالي مكة . وأقبل أبو سفيان على هذا المعسكر لتقديم خضوعه ثم عاد إلى مكة يحمل وعداً بالعفو العام . وفي اليوم التالي أقام محمد معسكره بالغرب من المدينة في ذي طوى ، ودخلت في الصباح قواته من أربع جهات إلى مكة .

لقيت فرقة خالد بن الوليد مقاومة سرعان ما قضى عليها . وبعد مقتل أربع وعشرين قرشياً ، وأربعة هذيليين فر الباقون ، كما قتل مسلمان بعد أن أسرعا خطأ نحو جسد أحد الأعداء .

أحرز محمد فوزه الكبير بقليل من الدماء [١] . وقد وقع ذلك حوالى ١١ كانون الثاني ٦٣٠ م (٨/٩/٢٠) [٢] .

ولم يعتم هذا الحادث ان سمي « الفتح » وكلمة « فَتْح » من « فَتَح » وتستعمل أيضاً بطرق أخرى ، فيقال عن الله انه وهب النعم ولا سيما المطر إلى النـــاس . ويعني التعبير « فتح بينهم » « حكم » [٣] . وهكذا استعمل المصدر فتح بمعنى « توضيح لوضع مبهم » [٤] . ويبدو ان محمداً وأصحابه كانوا ينتظرون في نهايـــة الفترة المكية ومطلع الفترة المدنية فتحاً ، أي حكماً نهائياً بينهم وبين الكفار ، أو « انقشاعاً نهائياً لغيوم المعارضة والمصائب التي كانت تحيط بهم » .

---

(١) ابن هشام ٨١٠–٨١٨ ، الواقدي ٣٣٠–٣٣٥

(٢) ابن هشام ٨٤٠ ، الواقدي ٣٣٥ ، ابن هشام ٨١ الواقدي ٣٣٠

(٣) راجع لين

(٤) بل : تفسير ملاحظة حول ١٠،١١٠

وكان على القرآن أن يرد على الاعتراض بأن الفتح بعيد[1] . كما يقول بأن الفتح جاءهم بانتصارهم في بدر[2] . ويمكن أن تستعمل هذه الكلمة في عقد معاهدة الحديبية[3] . وكان دخول محمد دخول المنتصرين إلى مكة ، الحكم النهائي المطلق بين المسلمين وأعدائهم القرشيين الكفار ، واعتبر الفتح الأكبر ، وإن كان الأساس القرآني لاستعمال الكلمة ليس متيناً[4] .

ولما كان الحادث انتصاراً أيضاً فقد استعملت الكلمة عند اجيال المسلمين فيما بعد للدلالة على غزو امبراطوريتي الفرس ـ البيزنطيين . معنى الغزو مشتق إذن من فتح مكة على اعتبار أنه كان حكما أو توضيحاً .

لم يطارد الكفار الفارون مطاردة شديدة ، ذلك لأن محمداً أعلن عفواً عاماً . وقد لجا كل من عبد الله بن ربيعة (أو الزبير بن أبي أمية) والحارث بن هشام ، وكلاهما من مخزوم ، ولكنهما عارضا الهجوم على خزاعة ، إلى بيت صاحبهما هبيرة بن أبي وهب الذي كانت امرأته بنت طالب أي ابنة عم محمد • كما لجا سهيل بن عمرو إلى داره وأرسل أحد أبنائه يطلب له الأمان . وقد اكتشف صديقه حويطب وأكد له أبو ذر

---

(١) قرآن ٣٢/٢٨–٣٠ ، بل المرجع المذكور ملاحظة حول ٣٢/٨–٩

(٢) قرآن ٨/١٩ وربما ٤٨/١ في الاصل

(٣) ٤٨/١ راجع تفسير بل وملاحظات في أ.م.وري : تفسير القرآن ... بوسطن ١٨٨٣–٨٦ .

(٤) قرآن ٥٧/١٠

الشهير ان كل شيء على ما يرام .

ورأى صفوان بن أمية أن يفر إلى ساحل البحر الأحمر غير ان احد أفراد قبيلة جمح ، حصل له على الأمان من محمد وأخبره بذلك .

ويدل تحريم محمد للسلب على ان بعض أصحابه الفقراء كانوا محتاجين ، ولهذا استدان من بعض أغنياء مكة الذين عاملهم بكثير من التسامح . ويقال بأن صفوان أدانه ٥٠٠٠٠ درهم ، وعبد الله بن ربيعة وحو يطب ٤٠٠٠٠ درهم كل منهما . فتلقى كل محتاج ٥٠ درهماً [١] . ولم يرغم هؤلاء الزعماء على اعتناق الاسلام . فظلوا مع كثيرين غيرهم ملحدين حتى بعد الجعرانة .

وقد وجد عدد من الشخصيات تذكر أسماؤهم أخرجوا من العفو العام ويبدو ان زعيما واحداً من زعماء المعارضة الفعالة ضد محمد كان من بينهم ، وهو عكرمة بن أبي جهل ، وإن كنا لا ندري من أين جاءه هذا الشرف . غير ان زوجته بعد اعتناقها الاسلام طلبت العفو عنه فنالته . فقامت برحلة خطيرة إلى اليمن حتى عادت به . ولم يتلق المدينة حين توزيع الجثث بعد الجعرانة وذلك لأنه لم يعد إلى مكة .

وقد نسبت للاشخاص الآخرين جرائم معينة . وكان ابن ابي سرح (عبد الله بن سعد بن أبي سرح) أحد المهاجرين إلى المدينة وعمل كاتباً لمحمد . وكان يملي عليه محمد قول القرآن « سميع عليم » ويكتب « عليم

---

(١) ابن هشام ٨٢٠ ، ٨٢٥ ، الواقدي ٣٣٦ ، ٣٤٣–٤٨

حكيم ، ولم يلاحظ محمد هذا التغيير ، وقد شك بحقيقة الوحي على محمد ، ثم ارتد وعاد إلى مكة ، وعفا عنه محمد بعد تردد عند تدخل عثمان .

كذلك عبد الله (بن هلال) بن الختل ، وأحد أفراد القبائل الصغيرة في قريش ، كان أرسله محمد من المدينة لجمع الصدقة ، وقد استاء من أخطاء خادمه فعاقبه عقاباً مات بعده ، فسار نحو مكة واستولى على الاموال التي جمعها . والارذل من كل ذلك انه نظم أشعاراً يهجو بها محمداً وأخذت جاريتان بغنائها بين الناس . وقد اعدم هو وإحدى جاريتيه بينما نال الآخر العفو عنه . وكذلك نالت سارة المغنية حسب قول ابن هشام العفو ، ولكن الواقدي يقول بأنها اعدمت ، لأنها بعد العفو عنها عادت إلى الهجاء من جديد [١] .

وقد قتل إلى جانب هؤلاء الدعاة للافكار المناقضة للاسلام بعض الذين ارتكبوا اعمال قسوة حين خرجوا على مبادىء السلم الاجتماعي في الدولة الاسلامية ، او انهم اعتدوا على نساء النبي . كان مقياس بن دُبه (أو صُبَّاح) الليثي قد أسلم ، ثم قتل أخوه خطأ في غزوة المريسيع في كانون الثاني ٦٢٧ م (٥/٨) فأخذ الدية التي دفعها اليه محمد ، وهكذا انتهت القضية ، ولكنه قتل الرجل المسؤول ، حين سنحت له الفرصة ، ولجأ إلى مكة ، فقتل . كما اعدم ايضاً الحويرث بن نقيذ ، من بني عبد (من قريش) لأنه ضرب بنات محمد حين كان العباس يقودهن إلى

---

(١) ابن هشام ٨٢٠ ، الواقدي ٣٤٧ .

مكة . وقد ارتكب حباب بن الاسود نفس الخطيئة ، وكان السبب في طرح زينب ، ولكنه نجح فيما بعد في الظهور أمام محمد في المدينة وقبل ان يامر محمد بعقابه لفظ الشهادة ، مما جعله مسلماً فعفا عنه .

كما ظهرت هند زوجة ابي سفيان ، التي دفعت وحشياً إلى قتل قتل حمزة ، واعلنت خضوعها فقبلت توبتها . وهكذا لم يقتل سوى العدد القليل .

أقام محمد خمسة عشر يوماً او عشرين في مكة ، وقد اخرجت الاصنام من الكعبة والبيوت الخاصة . كما ارسلت فرق لتهديم مناة في المشلل (بين مكة والمدينة) وغزة في نخلة وغيرها من الآلهة . وقد سوي عدد من المسائل الادارية ، ولا سيما تحديد المنطقة الحرام في مكة . والغيت كل الامتيازات والمهمات التي كانت لقريش ، وان احتفظ عثمان بن طلحة من عبد الدار بحراسة الكعبة واحتفظ العباس بالسقاية .

كان السبب الأول في نجاح محمد جاذبية الاسلام ، وقيمته كنظام ديني واجتماعي لسد حاجات العرب الدينية والاجتماعية . ولقد حاولنا في كتابنا « محمد في مكة » ان نحلل مرض العصر ، والفينا سبب ذلك في الانتقال من الاقتصاد البدوي إلى الاقتصاد الحضري . وكان زعماء مكة يقبلون العادات القبلية القديمة حين كانوا يستفيدون من ذلك . ولكن الذين لم يكونوا زعماء كانوا يشعرون بالخسارة .

حتى إذا ما زاد الحرمان بسبب الحصار الاسلامي ، أخذت مصالح الزعماء الخاصة تتصادم أكثر فأكثر وأصبح من العسير المحافظة على الوحدة

ولقد رأى أبو سفيان ، أفضل من الآخرين ، الحاجة إلى الوحدة بين القرشيين ، حتى إذا ما خابت آماله ، أدرك أنه بانضمامه إلى محمد قبل اللحظة الاخيرة يقوي من مكانته بالنسبة « لجماعة مخزوم » .

كما ان بصيرة محمد ودبلوماسيته ومهارته الادارية لعبت دوراً كبيراً في نجاحه . فقد ساعده زواجه من ميمونة وام حبيبة على كسب العباس وابي سفيان لجانبه ، كما استفاد من الخصومات التي نشأت في مكة ولا نعرفها ، يضاف إلى كل ذلك أن مهارته في إدارة التحالف الذي يرأسه الآن ، مما جعل الكل يشعرون ، ما عدا اقلية لا اهمية لها ، انهم يعاملون معاملة حسنة ، زادت الفرق بين شعور الانسجام والرضى في الامة الاسلامية وشعور القلق في مكة ، ولا شك أن ذلك اثر في كثير من الناس وجذبهم إلى محمد .

ونحن لا يسعنا في كل ذلك الا ان نعجب بايمان محمد بقضيته ، ببعد نظره وحكمته . وبينما كانت امته لا تزال صغيرة ، تكرس كل قواها لكي لا يقضي عليها اعداؤها ، إذا به يعمل لتوحيد شبه الجزيرة العربية والتوسع بها نحو الخارج، ويقوم فيها القرشيون بدور جديد لا يقل عن دورهم القديم كتجار . فلقد حطمهم وتحداهم ، ثم داعبهم واخافهم . والآن خضعوا له جميعاً حتى أكبر شخص فيهم . ولقد سار نحو غايته رغم معاكسة الحظ بثقة تامة ، ولو لم نكن واثقين من تاريخية هذه الحوادث لكان القليلون يعتقدون بأن نبياً مكياً محتقراً يدخل مدينته دخول الفاتحين المنتصرين .

والله ما كان ابداً نبياً محتقراً بل كان اعظم واكرم رجل عرفته البشريه ولقد وصفه

٦ - معركة حُنين

أرسل محمد خلال إقامته في مكة ، ثلاث غزوات صغيرة على الأقل ، لتأمين خضوع القبائل المجاورة . وقد كللت هذه الغزوات بالنصر ، ولكن لا نملك إلا القليل من المعلومات عنها ، ما عدا الثالثة · وهي غزوة خالد ضد بني جذيمة (من كنانة) .

ومع ذلك فإن قصة هذه الغزوة ، ليست سوى تشنيع على خالد ، ولا تعطينا تقريباً أي وقائع تاريخية ، ولا نعجب من نسيان هذه الغزوات ، لأن أشياء كثيرة كانت تحدث في تلك الأثناء . إذ كان على المسلمين ، ولا سيما المهاجرين ، أن يعتادوا على هذا التغير المفاجىء الذي جعل من ألد أعدائهم حلفاء لهم .

ولقد قام محمد شخصياً بإدارة مكة . ولا سيما أن خطراً عسكرياً كبيراً كان يخيم على المدينة ، لأن هوازن وثقيف كانتا تجمعان جيشاً ضعف جيش محمد على بعد مسيرة يومين أو ثلاثة من مكة .

ويجب أن نعلم ، كي نفهم غزوة حنين ، ان هوازن وثقيف كانتا عدوتين قديمتين لقريش ، ولقد وقعت معارك دامية بينهما أيام محمد بسبب العداوة التجارية بين مكة والطائف (مدينة ثقيف) .فقد وقعت تجارة الطائف تحت مراقبة تجار مكة ، الذين كانوا يعملون بواسطة إحدى الجماعتين السياسيتين اللتين انقسمت اليهما ثقيف ، وهي جماعة الاحلاف .

ولا شك ان افول نجم القرشيين ، قضى على توازن القوى في الطائف ،

وجعل الفريق الآخر ، وهم بنو مالك ، يسيطر على الموقف ، حتى ان المدينة باكملها انضمت في كانون الاول ٦٣٠ م إلى هوازن ضد القرشيين . يساعد ذلك على فهم كيف أن بني مالك قاتلوا بصلابة في حنين وفقدوا مئة رجل . بينما فرت الاحلاف ، ولم تفقد سوى رجلين (١) .

وبينما كان عدد كبير من ثقيف يأمل في الاستقلال عن القرشيين ، فإن آمال هوازن كانت غامضة . إذ يقال بأنهم أخذوا بالتجمع حين سمعوا باستعدادات محمد في المدينة ، ويمكن أن يشير ذلك إلى انهم كانوا يعتبرون اتساع سلطة محمد تهديداً لهم ، وإن كان هو ، بسبب سياسة توحيد العرب ، لم يفكر في مهاجمتهم . وربما خيل اليهم بسبب ضعف مكة انهم يستطيعون الاستيلاء عليها ، ولكنهم أملوا في الحقيقة تسوية حسابات قديمة . وبدا ان الاصطدام بين محمد والمكيين ، لا مفر منه ، حتى إذا ما استنفد المعسكران قواهما سنحت الفرصة لمهاجمة كل منهما .

ولقد رأى المكيون الخطر . ولا نجد في المصادر أي ذكر لطلب زعماء المعارضة لمحمد مساعدة هوازن أو ثقيف ، حتى إذا ما فروا لم يذهب أحد إلى الطائف . ولا شك ان العداوة كانت عنيفة بين هذه القبائل وقريش . وعندما أصبح محمد سيد مكة ، أصبح في نفس الوقت قائدها ضد العدو المهدد لها . ولا شك أن غريزة البقاء هي التي دفعت القرشيين للسير مع محمد إلى حنين أكثر من الطمع في الغنيمة . وكان صفوان بن

(١) الواقدي ٣٦٢ ، راجع عن العلاقات القبلية ص ١٤٢ ، ١٢٥ سابقاً .

امية يرى الخضوع لمحمد أفضل من الخضوع لثقيف وهوازن [١] .

ولذلك أعار محمداً اسلحته عدا المال الذي ذكرناه سابقاً. وقد استطاع محمد أن يضيف ٢٠٠٠ رجل الى جيشه ويجد من نفسه القوة ليسير ويقاتل ضد عدو قيل عن جيشه انه يتالف من ٢٠٠٠٠ رجل .

ترك محمد مكة في ٢٧ كانون الثاني ٦٣٠ م (٨/١٠/٦) وفي مساء ٣٠ منه عسكر في حنين بالقرب من العدو . وتقدم المسلمون في اليوم التالي في وادي حنين للقتال . وكانت المقدمة بقيادة خالد بن الوليد وتتالف من عدد من الرجال من سليم . ولقد ذعر المسلمون من ضخامة عـــدد الاشخاص والحيوانات التي شاهدوها ، لأن هوازن حملت معهـــا النساء والاطفال والمواشي مستعدة للتضحية بكل شيء لكسب المعركة . وإذا بخيالة العدو ، وكانت تقف خــــلال الليل في الاودية الجانبية ، تهاجم طليعة المسلمين ، ففر رجال سليم رأساً ، وإن ادعوا فيما بعد انهم قاتلوا بشجاعة [٢] ، وقد أثر فزعهم في قسم كبير من جيش محمد . ولكنه صمد شخصياً على رأس جماعة من المهاجرين والانصار . وقد أدى ذلك إلى انقلاب الوضع ، وإذا بالعدو يركن للفرار .

قـــاتل بعض ثقيف بشجاعة ، فترة من الزمن ، ثم هرعوا يختبئون وراءَ الحيطان . كما صمد قائد المحالفة مالك بن عوف مع قبيلته في ممر ، حتى يكسب الوقت للمشاة . ويبدو أنه حدثت مقاومة اخرى أمـــام

(١) ابن هشام ٨٤٥ ، الواقدي ٣٥٧ ، ٣٦٣

(٢) ابن هشام ٨٥٠

معسكر العدو . وقد ظهر أن لا فائدة من المقاومة فتفرق شمل الجنود او اسروا ووا قتلوا ، كما سقت النساء والاطفال والماشية والبضائع في يد المسلمين .

اشترك في معركة حنين أكبر عدد من الرجال شارك في الحروب السابقة ، ما عدا مؤتة .

ولكن يبدو ان المعركة لم تكن حامية .

ويذكر اسم أربعة أو خمسة من المسلمين قتلوا ، وجميعهم من الذين يقيمون في المدينة ، وربما وقعت خسائر جسيمة بين حلفاء محمد من البدو [1] ، ونستنتج انه لم يحدث التحام بين الفريقين . غير ان ذلك لا يقلل من أهمية هذا النصر .

كانت معركة حنين الاصطدام الرئيسي ، خلال حياة محمد ، بين المسلمين والقبائل البدوية . وكان جمع ٢٠٠٠٠ رجل ، يعتبر مأثرة لزعيم بدوي ، وبعد انهزام مالك ، لم يحاول احد المغامرة مرة اخرى ، بل على العكس من ذلك ، اخذت الوفود تأتي إلى المدينة ، طيلة حياة محمد ، ولا سيما في السنة التاسعة من الهجرة (نيسان ٦٣٠ م ــ نيسان ٦٣١ م) من جميع انحاء شبه الجزيرة ، لتقوم بعقد الاتفاقات والمحالفات .

٧ ـ تعزيز النصر

توجه محمد من حنين رأساً إلى الطائف ، وحاصرها وكان يملك

---

(١) ابن هشام ٧٥٧ ، الواقدي ٣٦٨ ، الطبري ١٦٦٩ ، راجع كايتاني ١٦٦،١/٢

بعض آلات الحصار ، ربما على غرار بيزنطية ، ولكنه لم يحرز سوى تقدم بسيط . وبعد خمسة عشر يوماً قرر التخلي عن الحصار . فقد قاوم الثقفيون بشجاعة ، واصيب المسلمون بالخسائر . فإذا ما طال الحصار تقاعس رجاله وسال الدم ، مما يجعل الصلح مع ثقيف أصعب . كما ان طول الحصار يذهب كثيراً من الشهرة التي كسبها في حنين . يضاف إلى ذلك أنه كان عليه أن يهتم بهوازن وبالغنيمة التي كسبها في حنين ، وهكذا لم يخسر شيئاً بتركه حصار ثقيف ، لأنه كان يملك وسائل أخرى للتأثير في ثقيف ومع ذلك شعر بالحرج والضيق . وهذا هو سبب المعاملة القاسية التي عامل بها رجلا لكزه عن غير قصد ، بينما كانوا يسيرون على أفراسهم في طريق العودة .

تركت الغنيمة في الجعرانة بالقرب من حنين بحراسة مسعود بن عمرو الحضاري ، كما ترك الأسرى هناك أيضاً ما عدا بعض النساء التي وهبت لكبار الصحابة . وقد بلغ من ضخامة الغنيمة انه كان بالامكان إعطاء كل رجل في الجيش الاسلامي أربعة جمال أو ما يقابلها . وقد حدثت مضايقات وقت توزيع الغنائم ، واشتكى الرجال من التأخير . وقد حاول الجنود الجدد الاحتفاظ بالغنائم التي ربحوها ، بينما كان المسلمون القدماء يقدمون كل ما غنموه . ويبدو ان هذه القصص هدفها وعظ المستمعين وربما وضعت أو زيد عليها بعد عصر محمد [1] .

قدم محمد إلى بعض زعماء قريش ، وإلى القبائل التي تحالفت مؤخراً

---

(١) ابن هشام ٨٨٠ ، الواقدي ٣٦٦

معه هدايا (اخذت اما من الخمس أو من الفائض)[1] .

وقائمة الذين أخذوا الهـــدايا مفيدة لأنها تكشف عن أهمية مختلف الشخصيات[2] .

أبو سفيان	عبد شمس	١٠٠	(٣٠٠)	بعير
يزيد بن أبي سفيان	«	١٠٠		«
معاوية بن أبي سفيان	«	١٠٠		«
حكيم بن حزام	أسد	١٠٠	(٣٠٠؟)	«
النضير بن الحارث	عبد الدار	١٠٠		«
اسيد بن الحارث	زهرة	١٠٠		«
العلاء بن جارية	زهرة (حليف)	١٠٠	(٥٠)	«
مكرمة بن نوفل	زهرة	٥٠		بعيراً
الحارث بن هشام	مخزوم	١٠٠		«
سعيد بن يربوع	«	٥٠		بعيراً
صفوان بن امية	جمح	١٠٠	(او اكثر)	«
عثمان (عمير) بن وهب	«	٥٠		بعيراً
قيس بن عمر	سهم	٥٠	(١٠٠)	بعير
سهيل بن عمر	عامر	١٠٠		«
حويطب بن عبدالعزا	«	١٠٠		«

---

(١) الواقدي ٣٧٦

(٢) ابن هشام ٨٨٠ – ٨٢ ، الواقدي ٣٧٥ ، الطبري ١٦٧٩ – ٨١

هشام بن عمر	عامر	٥٠	بعيراً
الاقرع بن حابس	تميم	١٠٠	بعير
عيينة بن حصن	غطفان	١٠٠	»
العباس بن مرداس	سليم	٥٠ (١٠٠)	»
مالك بن عوف	هوازن .	١٠٠	»

وقد سمي هؤلاء الرجال المؤلفة قلوبهم. ويعني هذا ان هؤلاء الاشخاص حديثو العهـــد بالاسلام ، ويجب تعزيز تعلقهم بالاسلام ، أو حقهم على الاعتراف بالاسلام . وربما اعترف هؤلاء بمحمد ، كرسول من عند الله في الجعرانة . وإذا كان هذا الاسم أطلق على كل هؤلاء الاشخاص ، فان ذلك يبدو من صنع الاعداء السياسيين خلال الفترة الاموية . والتعبير القرآني كان يطلق في الاصل ، على نوع من الناس يختلف عنهم ، لأنه يظهر في تشريع لاستعمال الصدقة .

أما فيما يتعلق بالزعماء القرشيين ، فإن هداياهم تتعلق بدفاع محمد عن قضية مكة ضد أعدائها من هوازن وثقيف ، أكثر من تعلقها باعتناقهم الاسلام . ولقد اعجب الرجال الذين اعتادوا ممارسة السلطة بدون شك بمهارته في الحالات الصعبة .

اعتبر مئة بعـــير كنصيب عادل لكل زعيم من حلفاء محمد من غير المسلمين ، لأن محمداً كان ياخذ الخمس ، وقد تلقى أشخاص القائمة الذين لا يدخلون ضمن هذه الفئة من الزعماء الحلفاء ، ولا سيما مالك بن عوف . وربما عيينة بن حصن والاقرع، هدايا لتاليف قلوبهم .

وليس من المستحيل (رغم سكوت المصادر) أن يكون الرجال النافذون من الاوس والخزرج ، والقبائل المسلمة قد تلقوا أيضاً هدايا . ولكنهم كانوا في وضع يختلف عن وضع رجل كأبي سفيان وصفوان لأن هذين كانا حليفين . بينما كان المسلمون تحت قيادة محمد . ويبدو من إعطاء كل من أبي سفيان ، وحكيم بن حزام ٣٠٠ بعير (لأن ذكر أولاد أبي سفيان هو بلا شك ، وسيلة لتغطية العطف للذي كان يظهره محمد نحوه) . بينما لم يتلق الآخرون سوى ١٠٠ بعير ، ان الخدمات التي أدياها سابقاً للاسلام قد كوفئا عليهما ، ولا سيما مساعدتهما في استسلام مكة السلمي .

وبينما استمر حصار الطائف كان محمد يفاوض هوازن ، وفي الوقت الذي كانت توزع فيه الاسلاب في الجعرانة ، قرر مالك بن عوف وهوازن الدخول في الاسلام ، ولكنهم طلبوا أن تعاد اليهم نساؤهم وأطفالهم . ويضع ابن اسحاق إعادة النساء قبل توزيع الماشية ، غير أن الواقدي أصح حين يضع هذه الحوادث عكس ذلك . حتى إذا ماعرفت هوازن ان الجمال والخراف قد وزعت ، وان توزيع النساء قد أزف ازدادت رغبتها في الوصول إلى اتفاق . وقد نظر إلى إعادة النساء على انه هبة ، وليس لأن لهوازن الحق في ذلك او ان محمداً يستطيع أن يامر بذلك ، ويبدو انهم دفعوا مقابل ذلك[1] .

---

(١) راجع ص ١٢٤ مما يلي

وأقام محمد في الجعرانة من ٢٤ شباط إلى ٩ آذار ٦٣٠ م (من ٥ إلى ٨/١١/١٨). وغادرها ليقوم بالعمرة ثم عاد إلى المدينة. وعين وكيلا عنه شاباً من قبيلة أمية بن عبد شمس هو عتاب بن اسيد. ويدل صغر سنه - لم يتجاوز الثلاثين سنة - على أن وظيفته لم تكن مهمة. ولكنه احتفظ بها حتى وفاته عام ١٣/٦٣٤. مما يدل على انه احسن القيام بها. كما يدل انتماؤه لقبيلة ابي سفيان على ان محمداً، وإن كانت علاقاته طيبة مع معظم رجال مكة، كان يسعى لتاييد ابي سفيان وليس لتاييد الثلاثي صفوان، عكرمة، وسهيل.

ولا نعرف شيئاً عن بقية حياة محمد مباشرة، وإن كنا نستفيد شيئاً من اعمال آخر اعدائه - فقد ساعد ابو سفيان على هدم اللات في الطائف [1]، فعينه محمد حاكما على نجران، او على قسم منها، ويقال بانه حضر معركة اليرموك، وإنه عاش حتى نحو ٣٢/٦٥٢ [2]. كما كلف عكرمة بجمع صدقات هوازن سنة ٩/٦٢٠. وقد تولى قيادة جيش موال في عمان، بعد وفاة محمد واندلاع حرب الردة، ومات شهيداً وهو يقاتل في سبيل الاسلام في سورية. ويبدو انه اظهر حماساً كبيراً لنصرة الاسلام، كما ينسب اليه، بانه قال لمحمد بان المال الذي صرفه لمقاومة محمد سوف يصرف مقداره في سبيل الله، وانه خاطر بحياته من أجل اللات والعزى، فهل يتقاعس عن بذلها من اجل الله؟

---

(١) ابن هشام ٩١٧، الواقدي ٣٨٤

(٢) اسد، ٢١٦، ١٢٠٣، البلاذري: فتوح البلدان ليد ١٨٦٦، ٥٩

ويذكر اسما رجلين آخرين قتلا في معارك سورية سنة ٦٣٦م ... ٣٨ (١٥ـ١٧) وهما الحارث بن هشام (مخزوم) والنضير بن الحارث (من عبد الدار) [١]

ويبدو من ناحية ثانية ان صفوان بن امية ظل في مكة ومات فيها بعد أن تقدم به العمر [٢] . كما كان سهيل بن عمرو لا يزال في مكة حين وفاة محمد ، لانه يذكر اسمه على انه الرجل الذي كلف با لمحافظة علـى ولاء المكيين حين بدت نذر الارتداد عند بعض القبائل ،ولم يصدر حاكم مكة أوامره كما ذهب فيا بعد إلى سوريةواشتهرانه كان أتقى الزعماء الذين دخلوا الاسلام بعد فتح مكة ، وكان يمارس التحنث حين كان لايزال مشركاً [٣]

ولا يبدو ان الآخرين تركوا الحجاز ، بل ربما اقاموا في المدينة ،ولم يقيموا في مكة كعكرمة بن نوفل ، وسعيد بن يربوع ، وحويطب بن عبد العزا وحكيم ين حزام [٤] .

تدل هذه التفاصيل على انمكة لم تستعد مكانتها كمركز للتجارة [٥]

وكان استتباب الامن في البلاد يشجع التجارة ، غير ان التقييدات الجديدة ، كتحريم الربا الذى فرضه محمد ، حد من الارباح السابقة ، وقد فتحت الحرب والادارة أبواباً جديدة في وجه الشباب افضل من الاعمال

---

(١) اسد ٤، ٤٤ ، الواقدي ٥، ٣٤٥ (٢) نفس المرجع ٣، ٢٢٠

(٣) نفس المرجع ٢، ٣٧١ - ٣٧٣ راجع ف.وستنفلند *Die ChroniKen der stadt Mekka* ليبزغ ١٨٥٨ - ٦١ ، ٤ ، ١١٨

(٤) اسد ٤، ٣٣٧، ٢، ٣١٦

(٥) راجع هـ . لامنس مقالة « مكة » في دائرة المعارف الاسلامية

التجارية والمالية . ولقد ترك جميع الاغنياء مكة ، واصبحت المدينة في وضع أنسب للتجارة[1] .

تنتهي بحوادث الجعرانة اروع مرحلة في حياة محمد وقد اصبح اعداؤه الالداء (ماعدا بعض الشواذ) ، كحبيرة ، إلى جانبه الآن . كانوا على استعداد ليس فقط كي يصبحوا شركاءه ، كما كانوا في حنين ، بل للاعتراف به كنبي . ويعني هذا الاعتراف بتفوقه السياسي كزعيم للقبيلة العليا التي ينتمون اليها ، وإن لم يتمتع بسلطان اوتوقراطي فان مختلف الامتيازات تضعه فوق سائر الناس . وإذا كان البعض قد اكتفوا بذلك فان هناك عدداً صغيراً أصبحوا دعاة متحمسين لعقيدتهم الجديدة .

(١) اسد ج ١ ، ٣٥٢ ، الواقدي ٦١

الفصل الرابع

توحيد العرب

١ - النظام القبلي ومحمد

بحثت الفصول الثلاثة السابقة ، حسب التسلسل الزمني ، في تطور علاقات محمد بالمكيين . ولقد قضى السنتين اللتين بقيتا له من حياته في توسيع سيطرته على بعض قبائل شبه الجزيرة العربية ، ونستطيع ان نتحدث عن هاتين السنتين إيضاً حسب التسلسل الزمني ، ولكن من الافضل ، تقسيم القبائل تقسيما جغرافيا ، ثم نأخذ كل قبيلة او مجموعة قبائل على حدة و ننظر في علاقاتها بمحمد قبل فتح مكة وبعده . ونستطيع بذلك ان نتعرف على سياسة محمد نحو القبائل .

وسيظهر هذا الفصل تعقيد التنظيم القبلي[٢] وسوف نستخدم كلمتي

---

(١) راجع W. Caskel : the Beduinization of Arabia in Studies in Islamic cultural History, ed. par G. E. Grune baum, Wisconsin [the American Anthropologist . 36 – 46

قبيلة وعشيرة دون تمييز . سوف نسمي غطفان « قبيلة » كما نسمي « فزارة » وهي جزء مــن غطفان قبيلة ايضاً ، ونجد تعدداً مدهشاً للانقسامات داخل الجماعات ، وفي اللغة العربية نصف دزينة على الأقل لمختلف أحجام الجماعات . وقد قام المؤلفون اللاحقون بوصفها في نظام تسلسلي دقيق . غير انه كان من العادة تسمية أية جماعة مهما كانت أهميتها « بني فلان » حتى إذا لم تكن الجماعة يطلق عليها اسم جد حقيقي لها ، أو مفترض ،بل اسم وصفي، لم تعد تصلح كلمة « بني » فلا تستعمل .وهكذا كان قسم من قبيلة ثقيف يسمى « الاحلاف » . ويستعمل في بعض الاحيان نفس اللفظ للدلالة على جماعــة صغيرة وأخرى كبيرة . وهكذا أصبح فرع من قبيلة خزاعة كبيراً ، فاصبح قبيلة سميت « أسلم » وظل الباقي يسمى خزاعة . فاسلم جزء من خزاعة من ناحية، ومنفصلة عنها مــن ناحية ثانية .

وهناك سبب آخر للاختلاط ، ولا سيما في الجماعات الصغيرة ، هو أن جماعات مختلفة تسمى بنفس الاسم ، بنو كعب مثلا ، يمكن أن يكونوا بني كعب بن عمرو من خزاعة ، أو بني كعب بن ربيعة من هوازن أو أيضاً بني كعب بن لؤي من قريش ، وإن كانت المصادر تكتفي بالقول « بني كعب » على افتراض ان القارىء يعلم المقصود .

ليست الانقسامات في القبــائل مجرد مسألة تسمية ، بل هي واقــع سياسي مهم . إذ كان يوجد داخل كل جماعة جماعات أصغر ، متعادية فيما بينها ، تتبع غالباً سياسات متعارضة . حتى إذا ما سمعنا عن وفد قبيلة

إلى محمد ، من الممكن ألا يمثل إلا قسما في القبيلة ، وكان محمد بدون شك على علم واسع بالسياسة الداخلية في كل جماعة ، وقـــد أظهر حكمة في اختيار الفئات التي يناصرها . ويجب أن لا ننسى انه كان يجب عليه أن يقابل باستمرار وضعاً شديد التعقيد .

تقول الرواية التقليدية للسنتين الاخيرتين من حياة محمد ان معظم القبائل في شبه الجزيرة العربية دخلت الاسلام ، وتسمى السنة التاسعة للهجرة (نيسان ٦٣٠ ـ ٦٣١ م) « سنة الوفود » فقد أرسلت كل قبيلة وفدها إلى محمد لاعتناق الاسلام باسم القبيلة ، كما عقدت الاتفاقات لتأمين تعليمها مبادىء الدين الجديـــد . غير ان بعض القبائل ما عتمت أن تقاعست وثارت ضد الصدقات التي كان عليها أن تقدمها لمكة .

حتى إذا ما عاد محمد إلى المدينة من حجة الوداع (آذار ٦٣٢م/١٢/١٠) ساءت صحته وانتشرت الشائعات . كما ظهر أنبياء كذابون ثاروا على الدولة الاسلامية : ظهر أولا الاسود في اليمن ومسيلمة في اليمامة ثم طليحة في أسد [١] .

وراحت صحته بالتدهور (وإن لم ينقطع عن العمل) واستمرت بالتدهور حتى مات في ٨ حزيران (١١/٣/١٣) ، فاندلعت الثورات في عدة أماكن من شبه الجزيرة . وتعتبر هذه الثورات دينية وتسمى بالردة واستعمال هـــذه الكلمة العربية سهل ، ولكن لا يجب أن يجعلنا نقبل النظرية الكامنة وراءها .

«١» الطبري ج١ ، ١٧٩٥

وقد أكد بعض العلماء الأوروبيين ، على عكس الرأي الشائع ، انه قد بولغ كثيراً في اتساع انتشار الاسلام ، وانه لم يعتنق الدين الجديد سوى بعض القبائل في ضواحي المدينة ومكة .

ويمكن أن تكون قد عقدت محالفات سياسية مع بعض القبائل الاخرى ، ولكن سائر القبائل لم تكن لها علاقة بالمدينة قبل اندحارها في حروب الردة. لم تحدث ردة إذن بل وقع عدم ولاء سياسي. أما الوفود من جميع القبائل واعتناقها الاسلام ، فهذه اختراعات تقية لتمجيد نجاح محمد (وربما للتقليل من شان أبي بكر) .

ليس هذا الكتاب موضع دراسة كاملة للردة ، لأنها وقعت في أيام الخليفة أبي بكر ، ولكن يجب ذكرها لأنها تمدنا بمعلومات عن الحالة في حياة محمد ، ولأنها بدأت منذ ذلك الحين . ويجب علينا النظر ، عدا سياسة محمد القبلية ، في مثالين : أولا إلى أي حد كانت القبائل متحالفة مع محمد (وإن كانت العلاقات سياسية صرفة) ؟ .

ثانياً : إلى أي حد كانت العوامل التي دفعت القبائل إلى اعتناق الاسلام ، اجتماعية وسياسية من جهة ، ودينية من جهة ثانية ؟

لدينا لهذا البحث ، عدا روايات ابن هشام والواقدي التاريخية ، مجموعة رسائل تنسب لمحمد ، وأخبار عن الوفود حفظها ابن سعد[٢] .

يجب ، حسب المبدأ النقدي الذي يقوم عليه هذا الكتاب ، قبول

«١» ابن سعد ١٠٠ ، ١٥ — ٨٦ طبعه وعلق عليه ج. فلهوزن ،
Skizzen und vorarbeiten . Berlin 1889 IV / 3

صحة هذه النصوص إلى حين ، إذا عارضت مصادر قديمة ، أو وقـــائع ثابتة . ولكن يجب الانتباه لتأكيدات المصادر عن « الوفود » أن ياتي وفد من قبيلة ما ، لا يعني ان القبيلة باسرها أصبحت مسلمة ، لأن أعضاء الوفد كانوا في بعض الاحيان لا يمثلون إلا أنفسهم . وهناك مسالة وفد « غسان » ولا شك ان القصة هي أفضل ما نجد للمحافظة على شرف القبيلة ، ولكنها قصة صغيرة نستطيع معها أن نستخلص واثقين من أنه لم يعتنق الاسلام في حياة محمد ، أي فرد من أفراد القبيلة [٢] .

وهاك قائمة باسماء أهم القبائل التي يذكر انهـــا اتصلت بمحمد وهي تظهر بعض علاقات النسب .

٢ـ قبائل غربي المدينة ومكة

خزاعة ـ

اسلم ، كعب بن عمرو ، المصطلق

كنانة ـ

بكر بن عبد مناة ـ

وكايتاني ، لم يضف سبربرسوي اشياء قليلة « Die Schreiben »
Muhammeds an die Stämme Arabiens »
Mitteilungen des Seminars für orientalischen Sprachen » / Berlin / XIX - 1916
Westasiatische Studien. 1 – 93

(١) راجع ص ١٣٧ - ١٣٩

ضمرة ، (مع جفار) ، ليث الدؤيل ، مدلج الحارث بن عبد مناة ، (قسم من الأحابيش)[1] .

مزينة

جهينة

أزد شموعة (مع دوس)

قبائل شرقي المدينة ومكة :

خزيمة (بن مدركة ، كانت كنانة تنتمي لخزيمة)

أسد بن خزيمة ، (عدل ، القرة)

طيء (مع نبهان)

هذيل (بن مدركة)

لحيان

محارب (بن خصفة)

غطفان

أشجع ، فزارة ، مرة ، ثعلبة (مع انمار ، أوال) سُليم (مع رئل ، شيبان)

هوازن -

عامر بن صعصعة . -

«١» كانت الاحابيش مجموعة قبائل صغيرة تضم المصطلق « من خزاعة » والحسن بن خزيمة مع بطنيها العدل والقره » وكانت الجماعة الاولى هي جماعة الحارث بن عبد مناة بن كنانة . وكانت على اتصال وثيق بالقرشيين . راجع ابن هشام ص ٢٤٥ ، ابن سعد ج ١ ص ٨١ . محمد في مكة ص ٣٥ ، ٧٦ و ١٠٤ ، ١١٠ مما يلي

البكاء ، هلال ، كلاب ، (مع القرطا ، عرينة)
ربيعة جشم ، نضر ، سعد بن بكر ، ثمالة ثقيف
(بن مالك ، أحلاف)
(باهلة)

قبائل الشمال :

سعد هذيم ، عذرة
جذام
قضاعة (مع جرم ، القين ، سلامان)
بالي
بهراء
لخم (مع دار)
غسان
كلب

قبائل جنوبي مكة :

خثعم (وبالقرب منها أزد شنوءة)
مذحج
أنس ، جعفي ، خولان ، النخا ، رهاء ، سعد العشيرة
(مع زبيد) ، صداء .
باجلة
همدان

الحارث بن كعب (مع نهد)

مراد

كنده (مع تجيب)

حمير « اليمن »	ربما لم تكن أسماء قبائل
حضرموت	

عك وأشعر

قبائل في سائر شبه الجزيرة العربية :

مهره

أزد عمان ، عبد القيس (في البحرين)

حنيفة

تميم

وائل

بكر (مع شيبان) تغلب .

٢ ـ قبائل غربي المدينة ومكة

جاء أقدم أتباع محمد ، ما عدا المهاجرين والأنصار ، من القبائل الضاربة بالقرب من غربي المدينة ، وجنوبيها الغربي . وكان في جيش محمد حين دخوله مكة سنة ٨/٦٣٠ ، فرق من سليم ، جفار ، أسلم ، كعب ، عمرو ، مزينة ، جهينة ، ليث ، ضمرة ، سعد بن بكر وأشجع [١] وكانت

---

(١) الواقدي ٢٣٢

جميعاً ، ما عدا القبيلة الاولى والاخيرة ، تاتي من المنطقة التي نتحدث عنها الآن ، ويبدو أن قسما من سعد بن بكر ، قد أقام بالقرب من ليث ، وضمرة وجفار ، ولكنها من ناحية النسب جزء من هوازن ، وسوف ندرسها في المقطع (٣) ، كما ندرس أشجع وسليا . ونستطيع النظر في قبيلة الحارث الحارث بن عبد مناة (القسم الرئيسي من الأحابيش) وفي بكر بن عبد مناة ' وبطونها الدؤيل ومدلج ، المصطلق وأزد شنوعة وبطنها دوس . وكان عدد من هذه القبائل مرتبطاً بعضها ببعض . وكانت جفار قسما من ضمرة ، بينما ضمرة وليث ، كانتا جزءاً من عبد مناة ، وكانت هذه بدورها ، كالحارث بن عبد مناة ، تنتمي لكنانة التي كان القرشيون جزءاً منها .

وكانت هناك جماعة أخرى كبيرة هي جماعة خزاعة التي كانت تتالف من أسلم ، كعب بن عمرو والمصطلق .

ومن المفيد معرفة تاريخ بعض هذه القبائل في الماضي . فقد سيطرت خزاعة بعض الوقت على مكة ، ولكنها هوجمت كما هوجمت حليفتها بكر بن عبد مناة ، وطردت على يد القرشيين [١] . فانتقلت خزاعة بعد ذلك إلى الصف الثاني ، ولكن العداوة بين بكر والقرشيين استمرت حتى بعد الهجرة ، ونشبت بينهما الحرب ، فناصر الاحابيش بكراً ، وإن كان الاحابيش في حرب الفجار سيناصرون القرشيين [٢] . ثم احتدمت

«١» راجع محمد في مكة .

«٢» راجع الازرقي ، عند وستنفلد « مكة » ١ ، ٧١ ، ١٤ ابن سعد ١/١ ، ١ ـ ٨ ذكر في محمد في مكة .

العداوة بين بكر وقريش عند مقتل زعيم بكر للثأر لمصرع شاب من قريش ، حتى ان القرشيين ترددوا في الذهاب إلى بدر ، ثم تعهد أحد أبناء بكر ، سراقة بن جعشم من مدلج ، بان بكراً لن تهاجمهم من المؤخرة[1] . وقد تلقى نوفل من معاوية من دؤيل (قسم من بكر) في نفس الوقت مبلغاً كبيراً من المال من بعض القرشيين ، ربما للحصول على السلاح والجمال للاعضاء الفقراء في قبيلته . كما يذكر نوفل هذا غالباً بين الزعماء القرشيين ، وربما كانت العلاقات المتينة بين قريش وبكر نتيجة لتهديد محمد .

وكان القرشيون عام ٨/٦٣٠ على استعداد لمناصرة بكر حين اشتعلت فجأة نار الخصومة القديمة بين بكر وخزاعة ، وربما ساعد القرشيون على زيادة اشتعال هذه النار .

كانت كل هذه الفروع لكنانة وخزاعة (وسعد بن بكر وهوازن وأزد شنوءة) في منطقة نفوذ مكة المباشر . كما كانت جهينة ومزينة في منطقة نفوذ المدينة .

ويبدو ان هذه القبائل كانت فقيرة وضعيفة ، لا تستطيع القيام بعمل مستقل إلا في مستوى ضيق . ولم تكن تجرأ على مهاجمة المدينة ، كما فعلت غطفان. والغزوات التي أرسلت ضد واحدة منها ، أو الاخرى هما الغزوتان اللتان أرسلت احداهما ضد المصطلق سنة ٥/٦٢٧ ، والاخرى ضد فرع صغير من جهينة سنة ٨/٦٢٩ . وتعتبر قبيلة جذيمة التي كلف خالد بدعوتها

---

(١) ابن هشام ٤٣ – ٣٢ ، الواقدي ٤٣

للاسلام بعد دخول مكة هي جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة ، ونجد جذيمة أخرى مع المصطلق من خزاعة [١] ودليل آخر على الفقر ان بعض أفراد جفار وأسلم بحثوا عن جمال لمحمد ، وإن كان هذا يمكن أن يكون بسبب فقراء الاشخاص المذكورين أو لأسباب فردية خاصة [٢] .

ويبدو من ناحية ثانية أن بعض رجال جفار اتصفوا بصفات القيادة وليس هذا عادياً عند القبائل التي ندرسها هنا ، فقد كلف سباع بن عرفة بحكم المدينة عدة مرات خلال غياب محمد .

كان هدف محمد في السنة الاولى والثانية بعد الهجرة كسب الاصدقاء ، بحيث انه حين يذهب وأصحابه للحرب يستطيعون التنقل بحرية دون ما خوف من الرجم . ويقال انه عقد أثناء غزوة نخلة ٢/٦٢٣ معاهدة مع مدلج وضمرة [٣] . وكان هذا الفرعان من كنانة عدوين للمكيين ، وبهذا على استعداد للالتزام بعدم مهاجمة المسلمين . وربما ساعدا محمداً بايصال المعلومات اليه . وقد حفظ لنا نص معاهدة ، وهو يقوم على نصر كل منهما للآخر ، ولا يمكن أن يكون ذلك قد حدث قبل بدر . وتقول معاهدة أخرى مع فرع من كنانة بانه يجب أن لا يطلب اليهم مساعدة محمد ضد قريش .

«١» راجع كايتاني ١٤٨،٢ ، على عكس ابن سعد ١/١ ٤٦ ،٢٨

«٢» ابو ذر ، ابو رهم ، من جفار – الواقدي ٢٢٧، ٢٤١ ، سلمة بن الاكوع ، ناجية بن جندب ، من اسلم – الواقدي ٢٢٧ « ابن هشام ٧١٩ » ٢٤١ ، ٣٠٠ ، ٤٩٦

«٣» ابن سعد ٢/١ ، ٢٠٥ حول غزوة اشيرة ، راجع المعاهدة مع ضمره اثناء غزوة الابواء « الواقدي ٣٤ » .

استفاد محمد في علاقاته مع كنانة وخزاعة وسائر القبائل المجاورة لمكة من تنازع المصالح داخل دائرة نفوذ مكة، حيث لم ينجح القرشيون في التوفيق بينها، ويقع الحادث الصريح في ذلك بعد معاهدة الحديبية، حين تحالفت خزاعة مع محمد، بينما تحالف أعداؤهما بكر بن عبد مناة مع القرشيين [١].

وكان محمد يعلم في عروضه على هذه القبائل، من منها الغاضبة على قريش، ولم يكن ينتظر منها القيام بأي عمل معاد لقريش، قبل أن يصبح هو قادراً على حمايتها منها.

وربما كان هدفه الاول هو مجرد إقامة علاقات صداقة معها. ثم أخذ هدف آخر له يظهر شيئاً فشيئاً، وهو كسب الانصار للقيام بالغزوات، وقد وفق في أول الامر في تحقيق ذلك في دائرة نفوذ المدينة.

فقد كانت جهينة متحالفة مع الخزرج في حرب بعاث ومزينة مع الاوس [٢] واستمرت العلاقات المتينة فيما بعد. ونستطيع هكذا القول بان محمداً عقد محالفة غير مباشرة، مع القبائل منذ أيامه الاولى في المدينة. وقد ساعد المسلمين في غزوتهم الاولى التي خرجت من المدينة جهينة ويقال بانهم كانوا حلفاء لهذه القبيلة، ولكن جهينة كانت أيضاً حليفة لقريش وكانت المساعدة تقوم على التصرف بطريقة او باخرى لتجنب النزاع [٣] ولا نسمع عن جماعة كبرى داخل جهينة تنضم إلى محمد

«١» راجع ص ٦٦ مما سبق.

«٢» راجع ا.ب. كوسين دوبرسفال: تاريخ العرب قبل الاسلام باريس ١٨٤٧ - ٤٨ ج ٢ ٦٨١

«٣» ابن هشام ٤١٩، الواقدي ٣٣، ٤٤ حيث قدمت المساعدة لابي سفيان

كجماعة . ويبدو أن وفد جهينة المزعوم مؤلف مـــن رجلين يتحدثان باسميهما [1] ، كما ان الجماعة التي جاءت مع عمرو بن مرة ، ربمـــا كانت صغيرة [2] .

و مع ذلك فقد انضم إلى محمد ، منذ البداية ، بعض الاشخاص ، وقد تألفت جماعة للاستكشاف قبل بدر ، و كانت من رجلين من جهينة بينما قتل رجل في أحد [3] ، وقد شهد أحداً عدد مـن رجال جهينه و قتل أحدهم [4] . و ربما قضى بعض هؤلاء معظم الوقت في المدينة كحلفـــاء لقبائل المدنية ، وكان حي في المدينة ، بعد وقت قصير ، يسكنه قوم من جهينة و كانت لهم جوامعهم الخاصة [5] .

ومع ذلك فإن كثيرين ممن صبحوا انصاراً لمحمد كانوا بدواً . ولا يكلف حضري برعي أفراس محمداً للقتال ، وهي المهمة التي اسندت لرجل من مزينة [6] . وهناك مقطع ذو مغزى جداً حيث سئل أحـد أفراد جهينة حين جـــاء يبايع محمد ، فقيل له هل يعني « بيعة العربية » أم « بيعة الهجرة » [7] .

هـــذا الاختيار بين استمرار حياة البدو أو الهجرة إلى المدينة (بالاشتراك في الغزوات) كان أشد على أفراد كنانة و خزاعة منه على أفراد جهينة ومزينة . ولا شك ان افراد جفـــار واسلم الذين كانوا

«١» ابن سعد ١/٢ ، ٦٧ — ٢٠ «٢» نفس المرجع ٦٨ ، ٣

«٣» الواقدي ٣٨ ، ٤٤ بصبص بن عمر وعدي بن ابي زعنة ، الواقدي ١٣٩ ضمرة الجهني

«٤» الواقدي ١٢٨ ، ١٣٩ «٥» ابن سعد ج ٤/٢ ، ٦٧

«٦» الواقدي ١٧٤ «٧» ابن سعد ٤/٢ ، ٦٦ ، ٣

يحرسون جمال محمد قد تخلى كل منهم عن قبيلته . يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الرجال كانوا أنصاراً مباشرين لمحمد نفسه كمهاجرين من القبيلة القرشية .

هناك معاهدات تتحدث عن قوم أسلم وخزاعة ومزينة على أنهم مهاجرون حتى ولو لم يتركوا موطنهم[1] . ولئن كان هذا جزءاً من سنوات محمد الأخيرة ، فانه يعني أن الأشخاص الذين هاجروا أو جاءوا إلى المدينة اعتبروا مهاجرين . ومهما كانت حالة هؤلاء المهاجرين من جهينة ومزينة فان الذين جاءوا من منطقة نفوذ مكة كانوا قبل كل شيء مخلصين لمحمد. وهكذا نجد أن الخصومة التي نشأت في حرب المريسيع ولدت من نزاع بين جفاري وجهيني ، فتحزب مهاجرو قريش للجفاري وتحزب الأنصار للجهيني[2] .

ولقد أدرك محمد أن وصول هؤلاء الأتباع الجدد لا يشد من أزر القضية الاسلامية ، بل يشد من أزره هو في الامة .

وتدل نصوص الاتفاق مع جمة، وهي ليست أفضل من عصابة من اللصوص على رغبة محمد بكسب الأنصار[3] وكان يوجد عند وفاته عدد لا بأس به من كنانة وخزاعة وغيرهما من القبائل يقيمون في المدينة . ويقال بان عمر لاحظ بان أبا بكر لم ينتخب خليفة على يد الانصار لو لم تتدخل جماعة من أسلم في اللحظة الأخيرة .

---

(١) ابن سعد ١/١ ، ٢٤ ، ١٤ – ١٨

(٢) ابن هشام ٦٢٦ ، الواقدي ١٧٩ (٣) ابن سعد ١/٢ ، ٢٩، ١٣–٢٢

لا شك أن هذه مبالغة ـ لأن مصدر الخبر رجل من خزاعة ـ غير أن رجال القبائل كانوا عاملا من عوامل توازن السلطات في المدينة .

ولقد كانت القبائل المجاورة للمدينة ومكة ، كما هو المنتظر ، من بين أشد الانصار لمحمد بعد المهاجرين والأنصار . فلقد أمدته بالجنود لجيشه وقت الاستيلاء على مكة وفي معركة حنين . ويبدو ان أسلم فقط وجدت كقبيلة في الغزوة السابقة على الحديبية ، وإن وجدنا بالرغم من رفض قبائل جهينة ومزينة و بكر الاشتراك [1] ، عدداً من أفراد جهينة فيها [2] .

وقد الفت نفس القبائل ، في الغزوات اللاحقة ، جزءاً مهما من القوات الاسلامية . وظلت جميعها مخلصة لأبي بكر بعد وفاة محمد ولم تظهر فيها أي دلائل على التخلي عنه ، والفت مع المهاجرين والانصار قلب الدولة الاسلامية ونالت ، كما يجب ، امتيازات المهاجرين .

٣ـ قبائل شرقي المدينة ومكة

يمكن النظر للقبائل الضاربة شرقي المدينة ومكة معاً ، على أنها تؤلف جماعة ثانية لأنها نالت ، بعد القرشيين ، اهتمام محمد في السنوات التي تفصل بين بدر وحنين .

---

(١) الواقدي ٢٢٤

(٢) ابن سعد ٢/٤ ، ٦٦ ، تميم بن ربيعة ، رافع بن مكيث ، جندب بن مكيث ، ابو دبيس ، سويد بن صخر .

وهناك انقسام مهم بين هذه القبائل ، فقد كان بعضها صديقاً للمكيين يرغب في الانضمام اليهم ، ونيل عطاياهم ، وهي أشجع وفزارة ومرة (من غطفان) . ولهذا أرسلت أسد بن خزيمة وسليم فصائل لحصار المدينة[1] . بينما كان البعض الآخر ـ ومنها هوازن ـ أعداء لهم . ونحن نفهم أشياء أكثر عن هذه القبائل من معلوماتنا عن القبائل السابقـــة . وستساعدنا دراستنا لتاريخ هذه القبائل على فهم الحالة أيام محمد .

أسد بن خزيمة :

يبدو أنها كانت أقرب القبائل لقريش ، ويقال ان جد هذه القبيلة كان سادناً للكعبة[2] . ولهذا يجب افتراض وجود علاقة متينة بينهما بسبب العدد الضخم من محالفي عبد شمس (قريش) من أسد بن خزيمة[3] وتحالفهم مع القرشيين في يوم الفجار[4] . ويبدو أن القسم الاكبر من القبيله قد عاش شمالي غطفان وشرقيها ، حيث كانت تجاور طيا . فلقد أزاحتها طي عن مواطنها وأصبحت ألد أعدائها[5] . ونجد آثار هـذه الخصومة أثناء حياة محمد . فقد جاء رجل من طي يقول في حزيران سنة ٦٢٥م (٤/١) ، ان طلحة بن خويلد وأخاه حاولا تحريض أسد على المسلمين ، كما قاد رجل من أسد الغزوة لتحطيم إلهة طي . وينذر محمد

---

(١) الواقدي ١٩١ (٢) وستنفلد مكة ج٢ ، ١٣٩

(٣) راجع محمد في مكة حيث تجد ان خزيمة هو في الحقيقة اسد بن خزيمة

(٤) ابن سعد ١/١ ، ٨١ ، ٨

(٥) هـ . ركندورف في دائرة المعارف الاسلامية (١)

أسداً في رسالة له بأن لا تعتدي على مياه طي وأراضيها [١] . كما لم يجد المسلمون أية صعوبة بفصل طي عــــن طليحة [٢] في الحروب التي تلت وفاة محمد .

كان القسم الاكبر من أسد على مسافة بعيدة من المدينة ، ومع ذلك فقد شجعت أخبار أحد طليحة وأخاه لتأليف فرقة تسلب المدينة على حين غرة من المسلمين . ولكن محمداً سبقهم ، فنجح المسلمون بحركة سريعة كالبرق في الاستيلاء على بعض جمال أسد . وتدل هذه الحادثة على أن طليحة كان رجلا انتهازياً ، وهذا مما ثبط عزيمته عن التفكير بأية محاولة من هذا النوع طيلة حياة محمد . وحدثت الغزوة الوحيدة ضد أسد بعد سنتين ولكنها كانت صغيرة فلم توجه ضد طليحة ،وربما كان سببها نزاع في داخل القبيلة ، لأن القائد المسلم كان من فرع أسد الذي تحالف مع عبد شمس . كما نجد الطابع الانتهازي في إرسال وفد إلى محمد في السنة التاسعة ، في الوقت الذي كان فيه الجميع يريدون «أن لايفوتهم القطار الاخير » ذلك فيما لو كان طليحة من بين الوفد [٣] .وقد أصبح بعد سنتين زعيما لأسد ، وقبائل أخرى في حربها ضد المسلمين .

كان له ولا شك تأثير كبير ، ويجب أن نشير مع ذلك إلى أنه توجد رواية لا تذكر اسمه [٤] ، فلو صح ذلك لكان معناه أن قسما فقط من أسد

---

(١) الواقدي ١٥١ ، نفس المرجع ٣٨٩ ، ابن سعد ١/٢ ، ٢٣٠ ، الواقدي ١٥٢

(٢) كايتاني ١/٢ ، ١٣١ لا يدل اسم طليحة على السخرية (٣) ابن سعد ٢/١ ، ٣٩

(٤) اسد ج ٢ ، ٢٩ حول حضرمي بن عامر الذي يظهر اسمه ارلا في القائمة عند ابن سعد

خضع لمحمد في السنة التاسعة ، وأن طليحة ظل حراً يستعد لمقاومة التوسع الاسلامي . هذا ما يبدو ممكناً وإن كانت المسألة معقدة .

لا نعرف إلا القليل عن خزيمة فيما عدا أسداً . وكانت جماعات عدل والقرح الصغيرة تنتمي للحن من خزيمة ، وكانت جزءاً من الاحابيش أي حليفة لقريش [1] .

ولقد استطاع بنو سفيان مباغتة المسلمين ، حين اتفقوا مع محمد ، وطلبوا منه إرسال رجال لتعليمهم مبادىء الاسلام .

طيء :

كان القسم الأكبر من طيء (ومنها نبهان) ، يقيم بعيداً عن أسد ، ولم ترسل غزوة من المدينة ضدها إلا غزوة تموز ـ آب ٦٣٠/م (٩/٤) بقيادة علي لتحطيم إله القبيلة ، الفُلس (أو الفلُس أو الفِلس) .

تختلف طيء إذن عن سائر القبائل التي نتحدث عنها في هذا الفصل. ولكن يجب ذكرها هنا بسبب خلافها مع أسد . وقد قامت اتصالات فردية بين المدينة وطيء قبل الاسلام . وكان والد كعب بن الاشرف (وهو عدو النبي من قبيلة النضير اليهودية) من بني نبهان من طيء [2] .

ويذكر اسم رجل من طيء يعمل بالاتفاق مع المنافقين المدنيين بعد غزوة تبوك [3] ، كما نجد ذكر زواج امرأتين من رجلين من قبيلة بني

---

(١) راجع محمد في مكة ملحق أ ، ابن سعد ٢/١ ، ٣٩ ، ١١ ، الواقدي ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٩٩ كان رجال القرح في الجماع ابن سعد ٢/١ ، ٢٩ ، ١٥

(٢) راجع ص ٢٥٣ مما يلي (٣) الواقدي ٤٠٨

حارث المدنية [1] .

وكان أول من أسلم من طيء رافع بن أبي رافع (عميرة) الذي اشترك في غزوة ذات السلاسل في تشرين الأول ٦٢٩ م (٨/٦) كمسيحي (أو مشرك) ، ثم اعتنق الاسلام فيما بعد [2] .

ويبدو أن بعض بطون القبيلة اعتنقت الإسلام في السنتين التاليتين ، ولقد احتفظ برسائل يضمن فيها محمد سلامتها ، إذا ما أقامت شعائر الإسلام ودفعت الزكاة وقدمت خمس الغنيمة وأطاعت أوامره الخ [3] .

وكان أشهر من اعتنق الاسلام عدي بن حاتم الطائي المشهور . حتى إذا ما هاجم علي القبيلة ، ذهب عدي إلى سورية ، حيث كان يامل أن يستقبل استقبالا حسناً بصفته مسيحياً . ولكن محمداً استطاع إقناعه بواسطة اخته أن ياتي إلى المدينة ويصبح مسلماً . فكلف بجمع صدقات قبيلته [4] .

ويبدو ان القبيلة ، عند وفاة محمد ، ترددت في الموقف الذي يجب اتخاذه ، حتى إذا ما انضمت أسد إلى الفريق الآخر أصبح من السهل إقناع طيء بتاييد المسلمين .

يمكن تفسير مسلك طيء بأنها كانت مسيحية ، ولكنها تنتمي لمنطقة النفوذ الفارسي أكثر منها لمنطقة النفوذ البيزنطي .

---

(١) ابن سعد ٨٩،٢،٣ زوج عبد الله بن الربيع ٢٦٤،٨ ام كبشه بنت واقد .

(٢) ابن هشام ٩٨٥ ، الواقدي ٣١٥ (٣) ابن سعد ٢٣،٢،١

(٤) ابن هشام ٩٤٧–٥٠ ، ابن سعد ٦،٢،١

ربما كان عدي أشد الراغبين في اعتناق الاسلام ، لأنـه لم يعجب بالبيزنطيين . ولقد دخلت القبائل العربية المسيحية في الشرق والشمال الشرقي في محالـفة سياسية مـع محمد لأنها كانت راغبة مثله في إرسال الغزوات نحو العراق ، حتى إذا مـا انهارت الامبراطوريـة الفارسية (في ٦٢٨ م والسنوات التالية) ، أصبح كثير غيرها من القبائل عـلى استعداد للدخول في الاسلام [١] . ولكن معلوماتنا ضئيلة . ولهذا يمكن أن يكون الكثيرون من طيء ، بالرغم من ولائهم للمدينة أثناء الردة ، ظلوا مسيحيين أيضاً بعض الوقت .

هذيل :

تدخلت قبيلة هذيل في شؤون مكة في الجاهلية . ويقال بأن زعيمها صحب عبد المطلب حين ذهب لمفاوضة ابرهة [٢] . وكانت لها خصومات دامية مع ليث (كنانة) اسلم وكعب (خزاعة) [٣] ، ولكنها كانت خصومات وقتية لأنـــه أمكن سنة ٦٢٦ م ٤ لمسلم مدني أن يكسب ثقة القائد سفيان بادعائه الانتماء إلى خزاعة [٤] .

وكان هذا القائد وهو سفيان (أو ابن سفيان) بن خالد بن نُبيه من فرع لحيان يجمع جيشاً لنهب المدينة . وأرسل محمد عبد الله بن أنيس فقتله . ولهـــذا ثار بنو لحيان وقتلوا المبعوثين المسلمين الذين طلبهم أصدقاؤهم من قبيلتي عدل والقرح . قتل بعضهم وبيع بعضهم إلى

---

(١) راجع ص ١٥٦ مما يلي (٢) ابن هشام ٣٤

(٣) الواقدي ٣٦٩ ، وابن سعد ١٠٤ ، ٣٢ ، الواقدي ٣٤١ (٤) نفس المرجع ٢٢٥

القرشيين ليشبعوا رغبتهم في الانتقام ، مما يدل على توثق العلاقات بين هذيل وقريش [1] .

ولن ندهش بعد هذا إذا وجدنا بعضهم يقاومون مقاومـة عنيفة عند فتح مكة [2] . ولقد دخلوا في الدولة الإسلاميه، بنفس الشروط التي دخل بها القرشيون ، ولكن المصادر تذكر وجودهم في مكة وعند حصار الطائف وعند تحطيم صنمهم على يد عمرو بن العاص [3] .

محارب :

قبيلة محارب الصغيرة غير مشهورة . هوجمت خلال الغزوات الثلاث في سنتي ٦٢٤م /٣ ، ٦٢٧/ م ٦ ، وأرسلت وفداً لمحمد سنة ٦٣١م/١٠ [4]

وربما كانت قبيلة محارب بن خصفة (وإن كان يوجد قبيلة صغيرة من قريش تدعى محارباً) ويبدو أنها انضمت لغطفان ولا سيما لثعلبة ، ويقال بأن قسما من القبيلة كان يعيش بين ثعلبة [5] . ويذكر اسمها مع اسم هذه القبيلة في قصص الغزوتين المسلمتين كما يسمى القائد دعثور بن الحارث ، أحيانا دعثور الغطفاني [6] . ويبدو أنها أصبحت قسما من غطفان ، وإن كانت منفصلة عنها بالنسب . ولا مجال للحديث عنها منفصلة عن غطفان .

---

(١) ابن هشام ٩٨١ ، الواقدي ٢٢٤ ، كايتاني ٥٧٧،١

(٢) الواقدي ٣٣٣ (٣) نفس المرجع ٣٥٠،٣٦٩،٣٤٢

(٤) نفس المرجع ٢٣٣،٢٢٦،٩٩ ، ابن سعد ٣٠٢،١

(٥) الاغاني ٢٦١٢٤،١٢ راجع ملاحظة فلهوزن حول المقطع ٨٣

(٦) اسد ج ٢

غطفان :

كانت غطفان أيام محمد مجموعة من القبائل أكثر منها قبيلة واحدة . وكان ينتمي اليها قبيلتا عبس وذبيان اللتان نشبت بينهما حرب داحس والغبراء المشهورة ، ولا تقوم عبس باي دور في الحوادث أيام محمد [١] ، ولكننا نسمع عن فروع ذبيان ولا سيا فزارة ، مرة وثعلبة [٢] . وكانت أشجع فرعاً مستقلا عنها .

وقد أدت نهاية حرب داحس والغبراء إلى صلح حقيقي بين عبس وذبيان ، ولا نعود نسمع عن الخصومات داخل غطفان . وحل محلها حروب مع هوازن (جشم ، نضر وعامر) أو مع جماعة أوسع هي خصفة وكانت تضم أيضاً سليا ، وكان القسم الأكبر من غطفان وخصفة يخوض المعركة أحياناً ، وأحياناً تخوضها فقط قبيلة أو قبيلتان من كل جانب . ولهذا نجد الحرب تندلع بين سليم ومرة ، بين فزارة وعامر بن عبس وعامر بين فزارة (مع عبس) وجشم وهكذا دواليك . وكانت فزارة يقودها في بعض هذه الأيام ، عيينة بن حصن ، وآخر حفيد لحذيفة بن بدر الذي قاد ذبياناً بنجاح في معركة داحس . فكان إذن وارثاً لسنة قديمة في القيادة . وكان قسم كبير من علاقات محمد مع غطفان عبارة عن علاقات محمد مع عيينة . ولما كانت هوازن العدو اللدود لغطفان خلال

---

(١) ابن سعد ١ ، ٢ ، ٤١ مسلم بن عبس

(٢) راجع كوسين دوبرنفال ج ٢ ، ٤٢٢ ، ٥٣٦ — ٦٨ .

عشرات السنين ، وكانت أيضاً عدواً للقرشيين ، كان من المنتظر أن يحدث التقارب بين غطفان وقريش . ولم تكن العداوة قوية بين غطفان وسُليم . ولهذا كانت الغزوة الاولى ضد هذه القبائل موجهة ضد جماعة من القبيلتين ، ومع ذلك كانت العداوة بينهما .

قاد محمد في أيلول سنة ٦٢٤ م (٣/٣) بعد نحو شهرين من الغزوة التي ذكرناها ، بنفسه جيشاً قوياً ضد ثعلبة ومحارب ، ومع أنــه لم يحدث اصطدام واسع مع العدو ، فقد كان للغزوة تاثير مرعب ، لأنه لم يعديلقى أي صعوبة مع غطفان خلال سنتين حتى جندوا ٢٠٠٠ رجل لحصار المدينة (نيسان ٦٢٥ م (١١/٥) . ويتحدثون عن هدنة موقتة مع عيينة[(١)] ومع أن قوة محمد الظاهرة هي التي دفعت عيينة لعقد هذه الهدنة ، فإن الأمل في تحالف كبير ضدمحمدبالاضافةالى ضغطدبلوماسي ورشوات من قبل يهود خيبر (ا" ي كانوا يضمون منفيي النضير بعد طردهم من المدينة) كل ذلك حمله على القيام بمعارضة فعالة . حتى إذا ما حال خندق محمد بين التحالف وبين استعمال كل قواته للهجوم واضطره لضرب الحصار مال عيينة إلى تقدير عوض محمد ، وهو عبارة عن ثلث محصول التمر في المدينة مقابل انسحابه . وليس واضحاً ما حدث حقيقة [٢] سوى ان أعضاء المحالفة أخذ كل واحد منهم يشك في الآخر . ولم يفز عيينة بتمر المدينة وربما سار في آب من نفس السنة (٤/٦) ، لنهب المدينة ، لانه أحس بانه

---

(١) الواقدي ١٨٢ من الاسفل

(٢) راجع ص ٥٩ — ٦٠

غمط حقه في هذه القضية ، فأحدث اضطراباً شديداً ولكنه فشل .

وكان من نتائج فشل المحاصرين ، في هذه الاثناء ، أن انضمت أشجع إلى محمد ، إذ أصبح نعيم بن مسعود من أشجع مسلماً حوالى بداية الحصار ، ولكنه لم يعلن إسلامه ، فعمل بذلك كثيراً من أجل زيادة الاختلاف بين القرشيين ، غطفان وقريظة . ويمكن أن يكون في ذلك مبالغة لأن القصة تروى عن نعيم نفسه بواسطة رواة أشجع [1] .

ويقال ان الوفد الذي جاء إلى محمد بعد الحصار كان بقيادة مسعود بن رفيلة ، وهو قائد الفرقة من أشجع التي اشتركت في الحصار [2] . وتبدو الاسباب التي ذكروا انها حملتهم على المجيء إلى محمد صحيحة . فقد كانوا فرع القبيلة (غطفان؟ أو أشجع ؟) الذي يعيش بالقرب من محمد وكان أصغر فروعها ، وكانوا في تعز بسبب الحرب . وكان عليهم أن يضيفوا إلى ذلك قولهم بأنهم كانوا حلفاء الخزرج في بعاث [3] .

ولكن من المشكوك فيه أن تكون القبيلة باسرها قد خضعت لمحمد في ذلك الوقت . وتقول رواية ثانية عند ابن سعد إن عددهم ٧٠٠ رجل ، بينما الرواية الرئيسية تقول ١٠٠ رجل ، ويقدر عدد المشتركين في حصار المدينة ٤٠ رجلا .

---

(١) ابن هشام ٦٨٠ – ٨٢ ، الواقدي ٢٠٥

(٢) ابن سعد ١/٢ ، ٤٨، ٢٦

(٣) كوسين دوبرنفال ج٢ ، ٦٨١ راجع ٦٥٧ تعلي كعميل لمالك بن الاجادن . الواقدي ٢٣٣ يذكر اسم غطفاني في الغزوة الصغيرة التي قادها محمد بن مسلمة في آب ٦٢٧ (٦/٤) ربما كان حليفاً قديماً لهذا الاخير ، كايتاني ج١ ، ٦٩٤ رقم ، يقول بأنه لم يكن مسلماً .

هناك اختلاط في عدد الأسماء فيسمى نعيم بن مسعود نعيم بن مسعود بن رخيلة مما يجعله ابن القائد [1] . ولكن الرواية الحقيقية هي الرواية التي تجعل عامراً جده [2] .

لا نجد ذكراً آخر لمسعود بن رخيلة ، ولكن نعيم بن مسعود يظهر غالباً على أنه أحد زعيمي أشجع بين المسلمين . يبدو من الممكن اعتباره إذن زعيم « الوفد » . وخاصة لأنه يذكر في اتفاق مع محمد ، وهو اتفاق يشير إلى هذه المناسبة [3] . ونجد فيه انه اشترك مع ٣٠٠ رجل من أشجع مع محمد في الاستيلاء على مكة ولا نجد ذكر أي فرقة من أشجع في الحرب ضد أبي بكر .

لا نسمع عن عيينة بعد غارته على المدينة في آب ٦٢٧ م حتى غزوة خيبر في أيار – حزيران ٦٢٨ م (٧/١) [4] . وقد حدث في هذه الفترة ثلاث ثلاث غزوات صغيرة ضد ثعلبة وجيرانها ، وواحـــدة بقيادة زيد بن حارثة ضد قسم من فزارة للثار من كمين سابق. وقد احتفظ عيينة بعلاقات أخوية مع يهود خيبر .

حتى إذا ما هاجمهم محمد كان عـــلى استعداد للمجيء بـ ٤٠٠٠ رجل لمساعدتهم مقابل نصف محصول التمر في خيبر . ولكن تايـــيده لم يكن

---

(١) الواقدي ٢٠٥ ابن سعد ٢/١ ٢٦ ، ٩٠ ١

(٢) ابن هشام ٦٨٠ ، ابن اسد « الاصابة » ، ابن سعد ٢/٤ ، ٩٠ – ٢١

(٣) ابن سعد ٢/١ ، ٢٦ ، ١٨ – ٢٠

(٤) ابن هشام ٧٥٥ – ١٨ ، الواقدي ٢٦٤ – ٩٦

بدون تردد ، ولهذا كان غير مجد .

لا نعرف على التحقيق ما حدث ، غير أن عيينة فاوض محمداً . وتقول إحدى الروايات ان رجال غطفان انسحبوا لأنهم علموا ان المسلمين يهاجمون عائلاتهم في مؤخرتهم . وكانت تلك بدون شك إشاعة نشرها محمد .

تقول رواية أخرى انه قدم لهم كمية مساوية أو أكبر من التمر . ولما أخذت مواقع اليهود بالانهيار ، كان لهذا العرض قيمة أكبر من عرض اليهود المماثل .

تقول رواية أخرى أيضاً أن عيينة أقطعه محمد جزءاً من خيبر يسمى ذا الرقيبة . وليست الروايات الثلاث مستحيلة التوفيق بينها ، إذ يمكن أن يكون محمد قد رفض الاستمرار في عرضه التمور لأن عيينة انسحب (أو ادعى محمد انه انسحب) لمواجهة هجوم منتظر على العائلات في المؤخرة ، وإنه وهبه قطعة من الأرض تعويضاً عن ذلك .

إذا كان عيينة قد عومل على هذا الشكل ، فإن هذا يفسر لماذا جمع في شباط ٦٢٩ م (٧/١٠) بعض الرجال « بقصد عدائي » ولم يكونوا أكثر من فرقة من الغزاة لأنه لم يرسل ضده سوى ٣٠٠ رجل ، وربما جعلت شهرة المسلمين العسكرية المتزايدة وفشله رجال القبائل يترددون في أتباعه.

ويقال بأن الحارث بن عوف ، زعيم مرة ، الذي أخذ على عاتقه أمر مصالحة عبس وذبيان ، نصحه بهذه المناسبة بالخضوع لمحمد . ويبدو أنه

في خيبر أيضاً كان قليل الرغبة في القتال [١] .

يضاف إلى ذلك أن غزوات المسلمين فتكت بفرق من مرة وثعلبة ، في كانون أول ٦٢٨ م وكانون الثاني ٦٢٩ م (٨،٩/٧) ولم تحدث اصطدامات بين غطفان والمسلمين ، حتى وفاة محمد سوى الغزوة الصغيرة ضد جشم في في كانون الثاني ٦٢٩ (٨/٨) . فقد أدركوا أن لا فائدة ترجى من معارضة محمد .

ويبدو أنه لا بد من وجود اتفاق ، في هذا الوقت، بين محمدوعيينة وإن كانت المصادر لا تذكره [٢] . وقد كان عيينة مع الجيش الاسلامي ، عند فتح مكة ، وفي معركة حنين في كانون الثاني ٦٣٠ م ، وإن لم يكن على رأس أية فرقة من قبيلته [٣]،فقد أحسنت معاملته ، وتوسط لمصلحة رجل من أشجع [٤] ، وأخذ مئة جمل في الجعرانة ، وقد أخذ محمد برأيه في نيسان أو أيار ٦٣٠ م (٩/١) بمعاقبة قسم صغير من تميم بعد أن رفضت دفع ما عليها لعامل محمد ، ويعتبر ذلك من بين الغزوات الاسلامية [٥] .

وبالرغم من أي اتفاق يعقده عيينة ، فإن هذا لم يكن يحمله علىاعتناق الاسلام . وليس هناك أي وثيقة باعتناقه الاسلام .

وقد جاءت ، حوالى كانون الثاني ٦٣١ م (٩/١٠) بعد غزوة تبوك

---

(١) الواقدي ٢٩٩، ٢٧٠

(٢) كايتاني ج ٢، ٤٤٧

(٣) الواقدي ٣٢٧ (٤) نفس المرجع ٣٦٦

(٥) ابن هشام ٩٣٣ — ٣٨ ، الواقدي ٣٨٥ — ٧

وفود من مرة وفزارة إلى المدينة [١] . وكان الوفد الأول بقيادة الحارث بن عوف سيد القبيلة ، والثانية بقيادة أخ عيينة وابن أخيه ، خارجة بن حصن والحر بن قيس بن حصن . ويجب الاشارة إلى غياب عيينة ، فهو يفترض بالاضافة إلى موقفه عام ٦٣٠ م ، وجود اتفاق سابق بينه وبين محمد . ويمكن كما يقول كايتاني ، أن يكون هذا الاتفاق السابق ، قد أهمل ذكره ، لأنه سمح لعيينة أن يظل ملحداً . حتى إذا ما اشترك في الردة بشكل لا يشرفه وأسر واهانه أطفال المدينة لأنه ارتد عن دينه . يقال بانه أجاب بانه لم يؤمن قط بالله [٢] .

ولم تحدث خصومات عنيفة بين عيينة وأخيه خارجة ، واشترك الاثنان في الردة ، ومع ذلك ربما تصرف عيينة مرة أو مرتين مستقلا على أمل الفوز ببعض الفوائد الشخصية ، ويبدو أن خارجة كان قائد قسم من القبيلة [٣] .

تصور لنا قصة ممتعة ، سواء كانت صحيحة أم لم تكن ، تصويراً رائعاً خلق عيينة . اختار في الجعرانة عجوزاً ينتظر أن تكون فديتها كبيرة . فعرض ابن هذه المرأة ١٠٠ بعير ، فرفض عيينة طالباً أكثر . ثم رضي بالمئة بعير . ولكن ابن العجوز عرض ٥٠ بعيراً ، فرفض عيينة ثم رضي ، ولكن العرض أصبح ٢٥ بعيراً فرفض ، ثم هبط العرض إلى ١٠

---

(١) ابن سعد ١/٢ . ٤٢ ، دخلت ثعلبة الاسلام في آذار ٦٣٠

(٢) نفس المرجع ٤٣

(٣) طبري ج١ ، ١٨٩٧ ، مراجع أخرى عند كايتاني ج ١/٢ ، ٦٢٢

(٤) نفس المرجع ١٠٢ ، ٥٩٢

حتى إذا ما قبله عيينة طلب اليه ابن المرأة التخلي عن أمه بدون فدية . ففعل عيينة مرغما ، ولكن ابن المرأة طلب اليه أن يعطيها رداء فاضطر لاعطائها الرداء[١] .

ونجد ، في كل علاقاته مع محمد ، الطمع الذي كان يدفعه لطلب عقد صفقات غالية ، يضاف اليه نقص في البصيرة ، لم يعد عليه بطائل يذكر .

ولا نعجب إذا كانت صفحات « السيرة » وتاريخ الردة ، وخاصة عند الواقدي ، تصوره لنا موضع الهزء والسخرية . وقد استطاع محمد بالجمع بين الشدة واللين ، أن يفصل عيينة عن القرشيين . ولكنه لم يستطع إدخال قبيلته في الدولة الاسلامية باطمئنان .

سُلَيْم :

انضمت ، قبيلة سُليم ، كما رأينا ، فترة إلى هوازن ضد غطفان . ولربما تذكرت سُلَيْم هذه العلاقة ، فلم تستمر طويلا في الحرب ضد هوازن في معركة حنين (إذا كانت الرواية صحيحة)[٢] . ولكنها في النهاية تحالفت مع قريش ولا سيما عبد شمس وهاشم[٣] .

وكان سبب ذلك وجود مناجم للذهب في أرض سليم ، وان القرشيين ساعدوا على استغلالها[٤] .

---

(١) الواقدي ٣٧٨

(٢) نفس المرجع ٣٥٨

(٣) هـ . لامنس » مكة عند مطلع الهجرة » بيروت ١٩٢٤، ٩٦-٠-٨

(٤) كان معبد العزا في نخلة ينتمي لبني شعيب من سليم ، الواقد ٣٥١

وقد نشأ نزاع بين بن ندبة والعباس بن مرداس حول القيادة قبيل اتصال سليم بالمسلمين فقرر حكم من هوازن توزيع السلطة بينهما.

وقد أرسلت غزوتان ضد سليم في تموز وتشرين أول ٦٢٤(٣/٥،١) وكانت الاولى مؤلفة من ٢٠٠ رجل والثانية من ٣٠٠. وقد اشترك بعض أفراد من غطفان في الغزوة الاولى . وتفرق العدو في الغزوة الثانية قبل الاصطدام به. ولا يبدو بعد ذلك ان سليما أظهرت العداوة لمحمد. كان مسؤولا عن مصرع المسلمين في بئر معونة في تموز ٦٢٥ م «٤/٢» قبيلتان. ويقال بأن ٧٠٠ رجل من سليم اشتركوا في حصار المدينة، بتأثير رشوات اليهود ومؤامراتهم، ولا يمكن أن تكون الغزوتان الاخريان اللتان تذكرهما المصادر موجهتين ضد سليم في مجموعهما. وقاد الاولى، وهي غير مشهورة، حوالى أيلول ٦٢٧ م «٦/٤» زيد بن حارثة[1].

وكانت الثانية بقيادة رجل من سليم في نيسان ٦٢٩ «٧/١٢». وربما كانت نزاعاً داخلياً في القبيلة برعاية الاسلام[2].

وقدمت سليم لفتح مكة وغزوة حنين في كانون الثاني ٦٣٠ م «٨/٩» ٩٠٠ أو ١٠٠٠ رجل، ويدل كل ذلك على وجود حزب موالٍ لمحمد في سليم، الذي لم يعد بحاجة بعد سنة ٦٢٤م لاستعمال القوة لتهديد القبيلة.

---

(١) طبري ١٥٥٥، كايتاني ج١، ٦٩٤

(٢) الواقدي ٣٠٢

كان بين المهاجرين إلى المدينة بعض حلفاء مكة من سليم ، وربما كان ذلك للمساعدة ، ولم يرتد سوى بعض عشائر سليم بعد وفاة محمد وظل القسم الاكبر من القبيلة على ولائه للاسلام [1] .

لا نعلم كيف دخلت سليم في الاسلام ، كما لا نعرف الدور الذي قام به العباس بن مرداس . ونجد في قصة بين قصص « الوفود » عضواً من قبيلة الشاردة ، قدر بن عمار [2] ، يعلن مسؤولية اعتناق الاسلام . «وهذه صورة خاطئة لاسم زعيم القبيلة المشهور صقر بن عمر ، ولكن يعتقد انه مات قبل الهجرة » [3] .

ويقال بأن قدراً وعد بمساعدة محمد بـ ١٠٠٠ رجل ، وقد كلف عند وفاته ثلاثة رجال هم العباس بن مرادس ، وجبار بن الحكم ، والأخنس بن يزيد [4] ، بتنفيذ وعده ، فقاموا بتنفيذ ذلك . ونجد في روايات أخرى أن سليما دعيت لغزو مكة على يد الحجاج بن علات والعرباد بن سارية . بينما حمل في حنين الألوية الثلاثة العباس بن مرداس ، وخفاف بن ندبة والحجاج بن علات [5] .

ومن الامور المهمة اننا نجد في عدة مناسبات رجـــالا من سليم تحت قيادة خالد بن الوليد ، وقد تألموا للنزعـة اللاحقة في تشويـه سمعته [6]

«١» كايتاني ٢ ، ١ ، ٥٧٩ «٢» ابن سعد ١ ، ٢ ، ٥٠ ، ٤

«٣» كوسين دوبرسفال ج٢ ، ٥٥٦ — ٦٣

«٤» ربما كان الاخنس بن حبيب . راجع ابن سعد ٤ ، ٢ ، ١٧ ، ١٦

«٥» الواقدي ٣٢٦ ، ٣٥٨ ، هو الحجاج راجع نفس المرجع ٢٨٩

«٦» نفس المرجع ٣٥١ ، ٣٥٨ ، ٣٦٣

يبدو أكيداً إذن أنه لم يكن على سليم زعيم مطلق ، ولهذا أعطى محمد في أول الامر العباس بن مرداس ، نصيب الجندي العادي ، وهو أربعة جمال بدلا من المئة جمل التي تعطى للقادة [١] . ولقد ساعد هذا الوضع محمداً على كسب سليم ، وكانت سياسته مع هذه القبيلة ناجحة حقاً [٢] .

عامر بن صعصعة :

كانت قبيلة عامر بن صعصعة (لا يجب الخلط بينها وبين بني عامر من قريش) جزءاً من قبيلة هوازن ، ولكنها من الأهمية بحيث نتحدث عنها على حدة . وقد حاربت في العصر الجاهلي ضد عدة بطون من غطفان وضد تميم أيضاً . كما يذكر حادث وقع بينها وبين قريش (كنانة) [٣] .

وكان سيدها لعدة سنوات ، أبو البراء عامر بن مالك ، ثم انتقل جزء من السلطة ، وإن احتفظ هو باسم الزعيم ، إلى رجلين أصغر منه سناً ، وهما عامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة [٤] .

ويلاحظ اثر هذا الانقسام في السلطة في قضية بئر معونة . فلقد سمح أبو البراء للفرقة الاسلامية بالمرور ، ولكن هذا لم يمنع عامر بن الطفيل من تحريض قبيلتين من سليم على مهاجمتها [٥] .

لم تحدث هجمات إسلامية ضد بني عامر . فقد قامت فرقة صغيرة في حزيران ٦٢٧ م (٦/١) مؤلفة من ثلاثين رجلا بالاستيلاء على الغنيمة

«١» ابن هشام ٨٨١ ،الواقدي ٣٧٦
«٢» ابن سعد ١٠٤ ، ١٥٧ــ١٦٠
«٣» كوسين دو برسفال ج١ ، ٢٩٨
«٤» نفس المرجع ج٢ ، ٥٦٤–٨
«٥» راجع ص ٤٧ سابقاً

لبطن من كلاب ، وقد حدثت غارة على نفس البطن ، بعد ثلاث سنوات بقيادة الدهاق بن سفيان وهو من كلاب ، وكانت غزوة سي في تموز ٦٢٩ م (٨/٣) موجهة ضد أفراد من عامر . ولكن المصادر تقول بأن الجماعة المهاجمة كانت من هوازن . هذا كل ما نجده مسجلاً . ويمكن أن تكون سمعة خيالتهم الطيبة قد ألهت المسلمين [١] . ولكن الاقرب أن تكون السياسة الاسلامية ، سببها رغبة بطن من قبيلة عامر أن تكون علاقاته طيبة بمحمد . وهذا الموقف نتيجة لعدائهم للمكيين ، أو صداقتهم للمدنيين ، وذلك بسبب تحالفهم مع النضير [٢] .

ومهما كانت الاسباب في كل جانب ، فقد كان هناك اتفاق بين محمد وأبي البراء ، ويعني هذا ان على كل واحد منهما أن يمنح جواره لأنصار الآخر . ولا نسمع شيئاً عن اشتراك بني عامر في حصار المدينة . ولم يشترك سوى عدد قليل (من هلال) إلى جانب هوازن في معركة حنين وذلك بفضل ابن أبي البراء [٣] .

خضع عامر بن الطفيل بعد بئر معونة لأبي البراء ، فقد جرحه احد ابناء ابي البراء ، لانه حنث بيمين الجوار ، ولم يثار لهذا الجرح ، فاعتبر الحادث منتهياً . ولقد ساعد دفع محمد الدية على ذلك ، ويقال ايضاً بأنه طلب من محمد ، مكافأة له على اعتناقه الاسلام ، ان يخلفه ، فلما رفض محمد ارتد ومات بعد وقت قصير فلا نعود نسمع عنه شيئاً [٤] . ثم توجه خصمه علقمة بن علاثة إلى محمد . وتدل الرواية التي تقول بانه هو

---

(١) ابن سعد ١/٢ ، ٥١ ، ٢٢ (٢) ابن هشام ٦٥٢ ، الواقدي ١٦٠

«٣» الواقدي ٣٥٥ «٤» ابن سعد ٥١/٢/١

وأصحابه أقسموا يمين الولاء لعكرمة بن خصفة. على أنهم كانوا يأملون بان يعينهم محمد زعماء على هذه القبائل [1] .

ولقد استاء علقمة من محمد فذهب بعد حصار الطائف في شباط ٦٣٠م (١٠ـ١١/٨) إلى سورية ، ولم يرجع إلا بعـــد وفاة محمد. ويبدو أن علقمة، وقرح بن هبيرة ، كانا الرجلين الوحيدين النافذين من عامر بن صعصعة اللذين خاصما أبا بكر في الردة .

حتى إذا ما اتضح تفوق المسلمين العسكري استسلما أو أسرا فعـــفا عنهما أبو بكر . وقد عوقب بعض أنصارهما على جرائمهم حسب قانون العين بالعين [2] . أمـــا سائر القبيلة – وربما القسم الأكبر منها ـ فقد رفض اتخاذ موقف معين قبل أن يتضح الموقف . وهذا يدل بدون شك على الحكمة والحذر أكثر منه على العداء الفعال نحو الاسلام .

كان محمد ، إذن على الاجمال ، موفقاً في سياسته نحو عامر بن صعصعة ولا يبدو ان أفراد القبيلة أسلموا حتى وقت متاخر . وقد أسلم بعضهم فقط . ويقال بأن الدهاق بن سفيان دعا كلابا للاسلام . ولما كان يوزع الصدقات عـــلى فقراء قبيلته ، فهذا يعني أن بني عامر كانوا يعتبرون أنفسهم أنداداً لمحمد ، وليسوا تابعين له [3] .

«١» نفس المرجع ٢٥ ، ٢٥ ، الواقدي ٣٠٦

«٢» كايتاني ٢، ٥٧٧،٠٠، ٦١٩--٢٢

«٣» ابن سعد ١، ٢٠١، ٤٤، ١٦ ؛ وفود من مختلف أنحاء عامر نفس المرجع ٤٤–٤٧، ٥٠–٥٢

هوازن :

تضم هوازن في الاصل قبيلتي عامر بن صعصعة و ثقيف اللتين ند رسهما على حدة . وتستخدم مع ذلك المصادر العربية هذا الاسم في الاشارة إلى مجموعة القبائل المسماة عجز هوازن ، بدون عامر وربما ثقيف ، وتشمل بطون نصر وجشم وسيد بن بكر وثمالة [1] ولا تتبع التقسيمات السياسية الانساب تماماً فنجد أقساماً من عامر ، كهلال ، في عجز هوازن ، وإن ظلت بقية عامر لوحدها .

وكان عدو هوازن الاكبر ، فيما مضى ، غطفان . ثم خاضت فيما بعد حربين قاسيتين ، ضد قريش وكنانة ، وهما حربا الفجار . وكانت ذكريات هاتين الحربين لا تزال عاملاً مهما في حياتها .

لم يتصل محمد حتى غزوة حنين في كانون الثاني ٦٣٠ م (٨/١٠) أي اتصال بهوازن ، حسبما تقول مصادر نا، ولقد وقعت غزوتان فقط حوالى أيلول ٦٢٨ م « ٧/٨ » ، عدا الغزوات مع عامر ، التي ذكرناها سابقاً ، بقيادة أبي بكر و عمر . ولقد جعلت هذه الغزوات ، بالاضافة إلى ازدياد سلطة محمد على سليم (وقد ظهرت في وجود فرقة عند فتح مكة) هوازن تعتقد أن القوة الاسلامية المتزايدة كانت تهديداً لها . حتى إذا ما علمت بأن محمداً يسير لفتح مكة ، انتظرت نشوب معركة دامية

---

(١) كايتاني ١ / ٥٧٠ . او. لوت في :

Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft, XXXV, 596. Buhl . Muhammed, 298 n.

كانت قبيلة سعد بن بكر تحتوي في الظاهر على فريقين : فريق ساعد محمد في فتح مكة بعد ان دعتهم جفار (الواقدي ٣٢٦ – ٣٣٢) وقد صحب مئتان من بينهم ضمرة وليثاً في معركة حنين . بينما الآخرون اي هوازن في حنين (ابن هشام ٢٤٠ – الواقدي ٣٦٤) ويدعى زعيم الوفد الذي ارسل الى محمد زهير بن مداد (ابو مداد الواقدي أو أبو جرول أو أو ترووان) الجشمي أو السعدي في أسد الغابة . ٢ . ٢٠٨ وان كان سعد لا ينتمى بنسبه الى جشم . وربما تحالف فريق مع ضمرة وفريق مع جشم . وإذا كان الواقدي دقيقاً في في تاريخ «وفد» دمام بن ثعلبة (ابن سعد ٢/٤٠٢/٤) في ٧/٥ (كانون أول ٦٢٦ م) فان هذا الوفد من الفريق الذي تحالف مع ضمرة ولكن التاريخ مبكر جداً وتحمل القصة طابع كتابة لاحقة (راجع كايتاني ١، ٦٠٩)

وأملت في الحصول على انتصار سهل على كلا الفريقين المتحاربين المنهوكي القوى . ولم يستطع محمد التفكير في مهاجمتها قبل تجميع قواها . ولم يكن ليستطيع القيام باي عمل بجيشه الضخم ضد عــــدد سريع الحركة والتفرق ، حتى إذا ما سنحت له الفرصة انتهزها وفاز بالغنيمة التي لم يفز بها جيشه في مكة .

أدت معركة حنين إلى هزيمة هوازن والاستيلاء على الاهل والماشية وإن كان حلفاؤها من ثقيف نجحوا في الانسحاب سالمين إلى الطائف . فاخذ محمد بمفاوضة هوازن ، وتوصل أخيراً إلى اتفاق معهــــا . بدأت المفاوضات أولا مع رجــــال سعد بن بكر الذين كانت تربطهم بمحمد روابط القربى ، إذ أن مرضعته حليمة ، كانت من هذه القبيلة [1] .

وقد نقل محمد، بواسطة هؤلاء الرجال ، إلى زعيم هوازن ، مالك بن عوف النصري ، الشروط الكريمة التي يشترطها لعقد الصلح ، ففر مالك من الطائف ، وجاء إلى محمد ليعلن موافقته . وكان بموجب ذلك يعود إلى عائلته وممتلكاته ، وينال هدية مئة بعير ، كما يعترف به زعيما لبطون قبيلته التي اعتنقت الاسلا م [2] .

والمطلب الوحيد الذي طلب منه هو اعتناق الاسلام،ونجد في مكان آخر أن نصراً وسعد بن بكر وثمالة و هذيل دفعت السعاية ، لأن نصراً هي قبيلة مالك وثمالة من القبائل التي اعترفت به زعيما عليها . ولمــــا كانت السعاية عبارة عن العمل الذي يقوم به العبد للفوز بحريته ، فان دفع السعاية لم يكن ضريبة بل من أجل تحرير النساء [3] .

---

(١) ابن هشام ٨٧٧ ، الواقدي ٣٧٧

(٢) ابن هشام ٨٧٩ ، الواقدي ٣٧٩

(٣) ابن سعد ١، ٢، ٤، ٢ ، ٥٠ — ١٤ من اجل « سعاية » راجع لين سعى ج١، ١٠٠

ولقد هاجم مالك رجال ثقيف ، وليس ذلك تنفيذاً لنص من نصوص الاتفاقية ، بل لأنه كان يحقد عليهم لأنهم تخلوا عنه ، ولكي يعوض على قبيلته خسارتها من الجمال .

لم تشترك هوازن في حروب الردة . ويقال بان أفرادها ترددوا وامتنعوا عن دفع الصدقات ، ولكنهم لم يحملوا السلاح [١] . فقد تصالح مالك حقاً مع محمد وحكومة المدينة . وكان هناك سبب سياسي مهم . فقد وجدت هوازن نفسها ضعيفه ، بعد فقد ممتلكاتها في حنين . وكان أقرب الثائرين اليها أسد وغطفان ، ويعني تأييدها لأعدائها القدامى ، انها استبدلت بنيرهم نير قريش والمسلمين .

وهكذا عملت المصلحة الشخصية على منع رجال هوازن من الثورة المسلحة . غير ان المصلحة الشخصية لم تكن لتدفعهم إلى اتخاذ مثل هذا هذا الموقف لو ان سياسة محمد نحو مالك بعد حنين لم تظهر له ولقبيلته انه الافضل لهم أن يكونوا داخل الامة الاسلامية من أن يكونوا أعضاء في محالفة يقودها طليحة من أسد . ولقد أتاحت لهم سياسة محمد ان يروا انه ، حتى حين كان يحارب مالكا ، كان يطمع في كسبه إلى جانبه والفوز بمساعدته ، لأنه اتخذ الاجراءات لعدم توزيع عائلة مالك كاسلاب ، بل تحفظ بامان في دار قريبة في مكة [١] . ولهذا فان رفض هوازن الانضمام إلى القبائل الاخرى ضد أبي بكر دليل على نجاح سياسة محمد نحو هذه القبيلة .

---

(١) الطبري ١٨٧١ (٢) الواقدي ٣٧٩

ثقيف :

كانت قبيلة ثقيف ،التي تسكن الطائف ،تتكون من بطنين هما بنو مالك والأحلاف . وربما كان تاثير الأحلاف السياسي أقل من تاثير بني مالك . ولقد عوضوا عن ضعفهم بصداقتهم مع قريش. وكان بنو مالك من ناحية أخرى ، حلفاء هوازن . ولقد أدت حروب الفجار ، في مطلع حياة محمد ، بين هوازن وثقيف من جهة، وقريش وكنانة من جهة ثانية إلى سيطرة قريش على تجارة الطائف (كما أشرنا اليه أكثر من مرة)

فاحس رجال ثقيف بالحقد من أجل ذلك وامل محمد أن يستغل ذلك حين زارهم قبل الهجرة [1] .

ومهما كان تاريخ هاتين الجماعتين في الماضي فلا شك في موقفهما من قريش . فإذا ما علمنا أن ثقيفاً أرسلت رجالها لمساعدة قريش في أحد ، نستطيع التاكيد بانها من الأحلاف [2]

وربما وجد بعض رجال ثقيف في حصار المدينة ، وإن كنا لا نملك وثيقة على ذلك ، وقد أمكن عروة بن مسعود (من الاحلاف) القيام بدوره فيمفاوضات الحديبية الأولى وجود فرقة من ثقيف مع قريش [3] . وأدرك عروة صدى انحطاط قوة مكة على سياسة الطائف، فعمل على

---

(١) ه ، لامنس مدينة الطائف العربية قبل الهجرة ، بيروت ١٩٢٢ . ولكن يجب التحفظ في قبول ذلك . راجع محمد في مكة .

(٢) الواقدي ١٠٢

(٣) ابن هشام ٧٤٤ ، الواقدي ٢٥٠ — ٥٢

تجنب قطع العلاقات مع بني مالك حتى إذا ما قتل المغيرة بن شعبة (من الاحلاف) ثلاثة عشر رجلا من بني مالك ، ثم اعتنق الاسلام ، أي لجا إلى محمد ، استطاع عروة أن يتفاهم مع مسعود بن عمرو من بني مالـــك لتجنب سفك الدماء ، وتعهد هو بدفع الدية ١٣٠٠ بعير [1] .

واشترك الفريقان في حنين ، ولكن بينما قاتل بنو مالك بصلابة ، وفقد مئة رجل منهم ، فر الاحلاف حين رأوا المسلمين يقاومون ، ولم يفقدوا سوى رجلين .

ذهب عروة خلال معركة حنين وحصار الطائف إلى مدينة تقع على الحدود البيزنطية للحصول على معلومات عـــن آلات الحصار ووسائل الحماية . ثم عاد وقاد استعدادات الدفـــاع في المدينة ، ثم قرر اعتناق الاسلام إذ اظهرت له الشروط الحسنة التي أعطيت لهوازن ، انـــه من الافيد له قبول الاسلام من أن يرهقه الحلفاء القدماء الذين قضى عليهم محمد . كما اقتدى بالمثل القرشي ، وكان يريد سبق بني مالك في كسب ود محمد . وكان يامل بأن يعترف به محمد الشخصية الاولى في الطائف ، كما كان يرغب في أن تميل المدينة باسرها إلى الجانب الآخر . فعاد من المدينة ليعمل من أجل ذلك ، فوجد المعارضة قوية ، وقتل بسهم أرداه به أحد مواطنيه . ويقال بأن الرجل الذي قتله هو تارة من بني مالك ، وتارة من الاحلاف . والقاتل بدون شك من القبائل الاخرى في الاحلاف ،

---

(١) نفس المرجع

إذ أن هنالك أدلة على أن كلا من الجماعتين الرئيسيتين كانت تنقسم إلى جماعات أصغر متعادية فيما بينها . يؤيد ذلك فرار عضوين كبيرين من قبيلة عروة إلى المدينة .

وكانت الحالة ، مع ذلك ، في الطائف تدعو إلى اليأس ، فقد أصبح سكانها في عزلة بعد أن انضم حلفاء الفريقين إلى محمد . وكانت هجمات هوازن تمنعهم من ترك حصنهم .

وكانت ضربة بارعة من محمد أن يجعل هوازن تقوم مكانه بحصار ثقيف ، بينما تزداد الهوة بين القبيلتين مما يحول دون أي تحالف مقبل بينهما ضده .

وقام بالمبادرة رجلان من الاحلاف ، هما عمرو بن أمية ، من قبيلة علاج ، وعبد ياليل بن عمرو ، وكانا خصمين ، غير ان خطورة الوضع جمعت بينهما ، فتقرر إرسال وفد إلى محمد مؤلف من ثلاثة رجال من كل من الحزبين الكبيرين بقيادة عبد ياليل . وبذلك يزول الشك من رغبة فرد أو عائلة في السيطرة على المدينة . وهو شك حام حول عروة بالحق أو الباطل . فطلب محمد تحطيم الالهة ـ سيدة الطائف ... اللات . ورضي أن يقوم بذلك المغيرة وأبو سفيان . كما رفض كل تنازل عن القيام بمراسيم العبادة كالصلاة وتحريم الربا وشرب الخمر والزنا . ولكنه سمح كما يبدو بتخفيف ساعات صيام رمضان . وقال الوفد انه سيحاول إقناع بقية ثقيف بقبول شروطه وقد فعلوا ذلك ، كما يقولون ، بادعائهم أنهم رفضوا شروطه لقسوتها ، حتى إذا ما امتنع مواطنوهم بان لا

جدوى من الاستعداد للمقاومة صرحوا بأنهم قبلوا شروطه .

وقد سمى محمد إماماً عليهم أصغر أعضاء الوفد عثمان بن العاص من قبيلة يسار من بني مالك . ويقال عنه بانه أذكى مسلم في الجماعة ، ولكن ربما أخذ محمد بعين الاعتبار حالة الاحزاب في الطائف ، فلقد كان للاحلاف بواسطة المغيرة مكانة نافذة في الدولة الاسلامية ، ولم يكن من المستحسن وضع بني مالك في مكانة أقل منهم .

وهناك نقطة أخرى غريبة ، وهي أننا لا نجد بين شروط محمد ذكر الزكاة تدفعها ثقيف ، كما لا نجد ذكر شخص يجمع الصدقات من ثقيف ، ـ هذا إذا لم أكن مخطئاً في ذلك ـ . ربما كان ذلك السبب في فقد نص المعاهدة المعقودة مع الطائف .

تتفق هذه الشروط التي وضعها محمد لثقيف مع كرمه بالنسبة لهوازن • فهو إذا كان يريد أن يضم القرشيين إلى جانبه فإنه كان أيضاً يريد استمالة جميع العرب • وكان يحاول ، بوضعه حداً لحصار الطائف ـ أن يتجنب إراقة الدماء ، وما ينتج عنها من فظائع تؤجج العواطف وتجعل المصالحة صعبة بعد أن أدرك أن ثقيفاً لم تنضج بعد للاستسلام . وكان مثل هذا القرار يتفق وستراتيجيته ، وإن كان جيشه مهيئاً لعمليات الحصار .

لا تقول المصادر شيئاً عن ارتداد رجال ثقيف أثناء الردة • ولم يختلف مع ذلك موقفها عن موقف هوازن التي امتنعت عن دفع الصدقات .

فاذا كانت ثقيف لا يجب عليها دفع الصدقات ، فان موقفها هو موقف « انتظر لترى » دون القيام باي عمل مكشوف . ويمكن أن نفترض ، يسبب كره هؤلاء الناس لقبول شروط محمد ، أن ذلك كان العامل أكثر من تعلقهم المخلص بالديانة الاسلامية . وقد استطاع أنصار النظام السياسي الديني للاسلام ، في السنتين بين خضوع ثقيف ووفاة محمد ، كالمغيرة وعثمان بن العاص ، أن يزيدوا من تاثيرهم في المدينة . ولكن التعلق القديم بسائر هوازن ، ومعارضة أسد وغطفان لعب دوراً كبيراً في الابتعاد بهم عن كل مغامرة عسكرية [1].

٤ ـ قبائل الشمال

حين نستعرض عدد الرجال الذين اشتركوا في مختلف الغزوات باتجاه سورية ، نلاحظ ان طريق الشمال تحتل مكانا مرموقاً في تفكير محمد الستراتيجي . فقد قاد منذ آب ٦٢٦ م (٥/٣) ١٠٠٠ رجل إلى دومة الجندل ، وهو أكبر عدد جمعه حتى الآن ، ما عدا في بدر في نيسان من هذه السنة (٤/١١) حيث وجد ١٥٠٠ رجل . كما أن عدد ٣٠٠٠ رجل الذي جمعه في مؤتة في أيلول ٦٢٩ (٨/٥) كان أعلى رقم في أية غزوة ، ويساوي عدد الرجال الذين قادهم محمد لحصار المدينة . بينما عدد ٣٠٠٠٠ في معركة تبوك (تشرين أول ـ كانون أول ٦٣٠ = ٧ ـ ٩/٩ . وإن كان مبالغاً فيه ، فهو أكبر من أي عدد من الرجال في أية غزوة في

---

(١) باهلة تمت بصلة القربي لهوارن ويقال بانها ساعدت عامراً

حياة محمد. ولكن المصادر بعد إمدادنا بهذه الارقام تضن علينا بالتفاصيل فنظطر الى استنتاج الاسباب لهذا التفضيل الستراتيجي لطريق الشمال، اعتماداً على معلوماتنا العامة .

وانه لمن الادعاءات الخيالية القول بأن محمداً تنبأ بالتفصيل بتوسع العرب فيما بعد، ولا نجد في الحقيقة أي مصدر إسلامي قديم يدعي مثل هذا الادعاء . وقد أشرنا في الفصول السابقة الى ان بعض العوامل التي أدركها محمد أثرت في مسلكه .

ويبدو أنه منذ معركة أحد طمح لأن يصبح زعيم كل العرب . ومع ذلك كان العرب يحارب بعضهم بعضاً، وقد عملت هذه الحروب على الاحتفاظ بالسكان في مستوى منخفض لا تكاد موارد الصحراء تقوم بأودهم . وكان عليه، كي يخضع العرب لسلطته، ان يضع حداً للحرب بين القبائل، وكان لا يكفيه من أجل ذلك ان يقنع العربي بقبول الدية بدل قتل الحياة بالحياة، بل كان عليه أن يقدم لهم متنفساً لطاقاتهم الحربية ولزيادة عدد السكان . وكان هذا المتنفس في رأيه يقع على طريق الشمال، فقد بدت حياة سورية البيزنطية دائماً أسمى في الرفاهية المادية من الحياة في الصحراء او في مدينة كمكة . وكان هناك تقليد يقول بغزو بلاد الامبراطورية، وإن حاول امراء الامارات وضع حد لذلك . وليس هناك أية صعوبة لدفع العرب في هذا الاتجاه إذا اقتنعوا بتوفر أسباب النصر .

ولا نعرف ما إذا كان محمد يعلم ضعف الامبراطورية البيزنطية

والفارسية ، ولكنه أدرك قبل موته ان الدولة الاسلامية ، اصبحت من القوة الآن لكي تفصل قبائل الحدود عـــن بيزنطية فتصبح أراضيها مفتوحة لغزوات المسلمين ، ولم يكن يستطيع أن يكون واثقاً مـــن تفوق العرب على البيزنطيين في معركة منظمة ، وإن كان على عـــلم بانتصار العرب على الفرس في ذي قار لسنوات خلت . وكان لديه على العموم أسباب قوية تدفعه لانتهاج سياسة توسع نحو الشمال .

وكان من الضروري ، فيما يتعلق بالقبائل القريبة من المدينة ، الانتباه لعلاقاتها المتبادلة ، حتى إذا مـــا اندفعت نحو الشمال، اصبحت القضية الرئيسية قضية علاقات القبيلة بالبيزنطيين . واصبحت المشكلة الكبرى في جعلها تتخلى عن التبعية البيزنطية . ولقـد زاد صعوبة حـل هذه المشكلة ، ان معظم القبائل الموالية لبيزنطية كانت مسيحية ، وربما تتردد في قبول النواحي الدينية في حركة محمد . ويبدو انه في حالات كثيرة كان يتصل بالقبيلة دون ان يعتنق افرادها الاسلام .

ولربمـا اثرت سياسة الشمال في علاقاته ببعض القبائل الـتي تحدثنا عنها في المقاطع السابقة . وهكذا يبدو أن مزينة كانت مباشرة إلى الشمال من المدينة ، بينما قسم من فزارة كان احياناً في وادي القرى على الطريق العادي نحو سورية ، ولكن القبائل التي سنتحدث عنها فيما بعد بالتفصيل تنتمي قبل كل شيء لطريق الشمال .

سعد هذيم وعذرة :

كان عذرة ، فيما يقول علماء الانساب ، ابن سعد هذيم ، ولكن يبدو ان الاسمين ، في ايام محمد ، كانا يعنيان قبيلتين منفصلتين : نعلم ان رسالة من محمد إلى عذرة استولى عليها رجل من سعد هذيم [1] مما يجعلنا نفكر بان الجماعتين لم تكونا على علاقات طيبة • ويذكر اسماء بعض الافراد الذين اسلموا • وقد قتل الرجل الذي استولى على الرسالة إلى عذرة كمسلم في سنة ٦٢٤ م (٣/٦) او في سنة ٦٢٧ م (٦/٧) • كما يذكر اسم رجل آخر اسلم اثناء معركة تبوك [٢] •

اما الوفد المزعوم إلى محمد ، في هذه الاثناء ، فهو لا يمثل سوى قسم صغير من القبيلة [٢] •

وهناك نص رسالة من محمد إلى سعد هذيم و جذام يحدد فيها الصدقة ويقول بانها يجب أن تدفع لرسوليه او عماطما ، وربما كان ذلك جزءاً من المفاوضات مع جذام في نهاية ٦٢٧ م (٦/٧) • وسوف نتحدث عنها فيما بعد •

نشعر من خلال ذلك ان سعد هذيم ، كانت قبيلة صغيرة ضعيفة متحدة مع جذام او مستقلة عنها • وإذا استطعنا القول بأن سعد الله هي الصورة الاسلامية لسعد هذيم ، يكون بطن من القبيلة ، قد تلقي

---

(١) ابن سعد ١، ٢، ٣٣ (٢) الواقدي ٤٠١

(٣) ابن سعد ١، ٢، ٦٥ ، طبري ١٧٢٢، ١١

جزءاً من الأموال التي دفعتها مستعمرة يهودية في الشمال [١] وهذا يؤكد أنهم كانوا فقراء .

ويبدو أن قبيلة عذرة كانت أهم . فقد ساعدت قريشاً في الزمن السحيق على الاقامة في مكة . وكان من بين أول من أسلم من هذه القبيلة ، حليف لقبيلة زهرة من قريش [٢] . وكانت أمهات بعض صحابة محمد من المدنيين من عذرة [٣] . كانت القبيلة إذن على علاقة بمكة والمدينة. ويبدو انها كانت مسيحية ، وإن كانت مسيحية بالاسم فقط [٤] .

وتعني قصة الوفد إلى المدينة في أيار – حزيران ٦٣٠ (٩/٢) ان غالبية القبيلة لم تكن مسلمة ، ولم تصبح مسلمة إلا بعد وفاة محمد [٥] .

ومع ذلك فقد انضم إلى محمد بعض أفراد القبيلة في أول الأمر ونراه يعهد اليهم بمناصب عالية ، فقد قاد أحدهم جناح الميمنة في معركة مؤتة ، كما أشرف آخر على العلاقات بين قبائل أسد وطيء [٦] . كما استخدمهم كادلاء [٧] .

وتعني الرسالة التي استولى عليها سعد هذيم شيئاً من التفاهم مع القبيلة

---

(١) الواقدي ٤٠٥ ، كايتاني ٢، ١٠٢ ، ٢٥٥

(٢) خالد بن عرفة ، ابن سعد ٤، ٢، ٧٤

(٣) ثابت بن ثعلبة ، نفس المرجع ٣، ٢، ١١١ ، عمرة بنت سعد ٨ ، ٢٧١

(٤) لامنس ، مكة قبل الهجرة ، ٢٥٧، ٣٥٣ ، راجع ٢٦٤، ٣٥٠

(٥) ابن سعد ١، ٢، ٦٦ راجع كايتاني ٢، ١٠٢، ٢٢٩

٦) ابن هشام ٧٩٣ ، ابن سعد ١، ٢، ٢٣ ، ٢٢

(٧) الواقدي ١٧٥، ٢٣٥

(٨) ابن سعد ١، ٢، ٤٠، ٧٤٠ ، الواقدي ٣١٥

أو قسم منها في أول الأمر ، وكذلك حمل أول المسلمين الصدقة (جمرة بن النعمان) وانتظار محمد مساعدة عذرة خلال غزوة في تشرين الاول ٦٢٩ (٨/٦) (٤) .

ذلك هو كل ما نعرفه عن العلاقات بين محمد وعذرة [١] ، ما عدا أنه وهب أراض إلى جمرة ، ربما لرجل آخر ، ويمكن أن يكون محمد قد عقد تحالفاً مع القبيلة قبل إسلامها ، ويبدو القول عن جمرة غريباً « كان سيد عذرة وأول أهل الحجاز في حمل الصدقة إلى النبي عن بني عذره » ربما كان ذلك يعني في الاصل ان جمرة كان أول من حمل الصدقة إلى محمد من غير المسلمين في الحجاز ؟ ام ان ذلك يميز بين عذرة الحجاز وعذرة في الشمال ؟ فإذا كانت عذرة تتلقي الرسائل من محمد على الأقل حوالى سنة ٦٢٦ م ، فلا شك انها أرسلت الصدقة في وقت مبكر حتى لو ان الكثيرين منها لم يصبحوا بعد مسلمين حين جاء الوفد سنة ٦٣٠ م . وحل هذه المشاكل افتراضي يعتمد على حل للمشاكل العامة التي تثار .

جذام :

المشاكل التي تتعلق بجذام تشبه المشاكل التي تعرضنا لها . كانت جذام ، او قسم من القبيلة ، على علاقة متينة بالبيزنطيين ، وكان هؤلاء يستخدمون العملاء والقوى المسلحة للدفاع عن التخوم [٢] .

---

(١) ابن سعد ١، ٢٠، ٢٦، ٢٣

(٢) لامنس « مكة ٣٣/١٢٩ ، نفس المرجع ، شبه الجزيرة العربية قبل الهجرة ، بيروت ١٩٢٨، ٣١٥ رقم ٣ ، راجع ابن سعد ٧/٢، ١٤٨ ، اسد ، ٤، ١٧٨

ونجد في مصادر أيام محمد ذكر هذه القبائل على أنها مندمجة في جيش بيزنطي [١] ، وكان رجل من جذام ،فروة بن عمرو، عميلا لقيصر في عمان ومعان ، ويروى بانه أصبح مسلماً [٢] .

ويبدو أن القرشيين كانوا على علاقات طيبة مع جذام لأن رجلا من جذام أخبر أبا سفيان ، قبل معركة بدر ، عن محاولة محمد مهاجمته على طريق الشمال [٣] .

ويقع أول ذكر لاتفاق بين محمد وجذام حوالي تشرين أول ٦٢٧م (٦/٦) أثناء أو قبيل غزوة حصما بقيادة زيد بن حارثة . وقد حدث ذلك كما يلي :

كان دحية بن خليفة الكلبي في طريق العودة إلى المدينة يحمل الهدايا، بعد أن أرسله محمد يحمل رسالة إلى سورية ، فسرقها منه رجل من جذام يسمى الهنيد ، وقد أرغمت قبيلة أخرى من جذام ، أو جماعة من قبيلة أخرى ، الهنيد على إعادة الهدايا المسروقة . وفي هذه الأثناء ذهب زعيم من جذام ، رفاعة بن زيد ، وعاد بشروط محمد للمحالفة فقبلت القبيلة ، ولم يعلم محمد بقبولها ، فارسل زيد بن حارثة يثار للاهانة التي وقعت لرسوله . فحدثت مناقشات قتل خلالها المسلمون الهنيد وأسروا بعض النساء والمواشي . فارسل رفاعة مرة ثانية للاحتجاج وسوى النزاع حبياً . هكذا تتحدث المصادر [٤] . ويدور ذكر المفاوضات بين

---

(١) ابن هشام ٧٩٢ ، الواقدي ٣١١

(٢) ابن سعد ١/٢ ٨٣،٣١،١٨

(٣) الواقدي ٤٠ (٤) ابن هشام ٩٧٥ ؛ الواقدي ٢٣٥

محمد وجذام حوالى نيسان ٦٢٨م (٦/١٢)، بين الحديبية وخيبر [١]، حول المرحلة الاخيرة لهذا الحادث .

وبالرغم من أن المصادر تقول بأن هذا الاتفاق يتضمن قبول الاسلام فمن المؤكد أن ذلك لم يحدث . وكانت قبائل جذام المشتركة في المفاوضات تتضمن وائلا ، كما تتضمن عدداً من أفراد قبائل سلمان وسعد هذيم ، ويقال انه في نهاية ٦٣٠م أثناء غزوة تبوك أسلم رجل من قبيلة وائل وآخر من سعد هذيم وكوفئا على إسلامهما بواردات مستعمرة يهودية [٢] . وأبسط تفسير لذلك هو أن بقية جذام اصبحت حليفة لمحمد دون أن تعتنق الاسلام ، وإن محمداً يرغب الآن في إسلامها . لأن من الصعب الافتراض بان مسلمين قدماء من القبيلة يعاملون معاملة سيئة أو ان الهدايا التي اعطيت لهم تسكت عن ذكرها المصادر .

ويؤكد هذه الفرضية بوجود تحالف دون اعتناق الاسلام رسالة محمد إلى رفاعة التي تكون القسم الاول من وفد جذام [٣] .

ولم يكن محمد في نيسان ٦٢٨ م في وضع قوي يمكنه من طلب الاسلام أو الخروج عن دائرة نفوذ المسلمين . غير أنه ليس من الضروري تفسير الكلمات ، كما فسرت فيما بعد « فحزب الله » يمكن أن يكون « جهة متحدة ، من المسلمين والمسيحيين [٤] . ويمكن أن تكون الرسالة طلباً من أفراد جماعة رفاعة ليحددوا موقفهم من كلا المعسكرين نهائياً ،

---

(١) ابن سعد ١/٢، ٨٣، ١ ، الاصابة ج ١، ٦٠، ١٠
(٢) الواقدي ٤٠٥ (٣) ابن سعد ١/٢ ، ٨٢
(٤) راجع قرآن ٥، ٥٦، ٦١

وربما يعود الحادث الذي أدى إلى غزوة حصمه إلى أن بعضهم انضم إلى الجماعة لغايات وليس لاخرى محاولا اللعب على الحبال فيستفيد من تحالفه دون القيـــام بمسؤولياته . ويدل نص الرسالة على أن جذاما كانت مخطئة وان محمداً حاول تجنب الصعوبات المقبلة بتحديد الفرق بين الصديق والعدو .

وإذا كان استدلالنا صحيحاً فان رسالة سعد هذيم وجـــذام حول دفع الصدقات [1] ارسلت إلى نفس الجماعة . وكان دفع الصدقات عقابا على موقفهم السيء ، وإلا فهي تشير إلى أنه كان عـلى غير المسلمين أن يدفعوا ثمن استفادتهم من التحالف مع محمد . ويبدو أن الرسالة تتعلق بمناسبة معينة ، لأن جامعي الصدقات مذكورة أسماؤهم ، وتاريخ هذه الرسالة قبل غزوة تبوك .

تدل سياسة محمد نحو جذام عـلى الجمع بين الشدة واللين ذلـك الجمع الذي تتصف به غالباً أعماله . فهو شديد إذا تخلى الرجال عن الولاء ولكنه كريم إذا استبسلوا في الدفاع عن الاسلام .

قضاعة :

كانت قضاعة مجموعة من القبائل تضم جهينة عذرة و بالي ، بحراء وكلباً . ويبدو أن هذا اللفظ يستعمل في المصادر المتعلقة بحيـــاة محمد بمعنى أضيق كما هو الحال في سعد هذيم التي كانت تتميز عن عذرة بعد

---

(١) ابن سعد ١/١ ، ١٣

أن كانت في الاصل جزءاً منهـــا ، ولهذا يذكر اسم غزوة ضد بالي وقضاعة [1] . وكانت قضاعة قبيل ذلك مسؤولة عن مقتل كعب بن عمير وفرقته [2] (كما كان بعض رجال قضاعة ، من المسيحيين ، بين أعداء محمد في مؤتة) [1] .

ويمكننا أن نذكر هنا عدداً من الجماعات الصغيرة التي يعترف علماء الانساب بانتسابها إلى قضاعة . ويقال بأن جرماً التي اشتركت في النضال بين بكر وتميم في الجاهلية ، أرسلت وفداً إلى محمد [4] . وكانت القين او بعل القين غالباً ، كالكثير مـــن القبائل ، منقسمة فكان بعضها في جيش العدو في مؤتة ، ومع ذلك فقد اعتمد محمد على مساعدة القبيلة ضد بالي وقضاعة [5] .

وكان شاعر مـن القبيلة في العصر الجاهلي هو ابو التمهـان صديق عبد الله بن جدعان والزبير بن عبد المطلب [6] .

ويقال بأن سلمان أرسلت وفداً إلى محمد في كانون الثاني ٦٣٢ م واصبحت مسلمة ، وقد اشترك بعض أفراد هذه الجماعة سابقاً مـــع جذام [7] .

---

(١) ابن هشام ٩٨٤ ، ٨٦ ؛ الواقدي ٣١٥

(٢) طبري ١٦٠١

(٣) الواقدي ٣١٤

(٤) كوسين دربرسفال ج١ ، ٥٨١ ، ابن سعد ١/٦٩،١–٧٠

(٥) ابن هشام ١٠٩١ ، الواقدي ٣١٤

«٦» ابن قتيبة كتاب الشعر والشعراء طبعه م.ج دوجوي ليدن ١٩٠٤ ،١١٩ ، كوسين دوبرسفال ج١ ،١٣١ ،ج١ ،١٣١

«٧» ابن سعد ١ ، ٦٧،١ ؛ الواقدي ١٣٥

بالي :

كانت بالي كجذام وسائر القبائل ينتمي بعض أفرادها إلى كلا الفريقين . وكان قائد قوات العرب المعادية في مؤتة من بالي [1] . وقد ذكرنا الغزوة السابقة على مؤتة ضد بالي وقضاعة . وكان عدد من حلفاء بالي مع المسلمين المدنيين في بدر . كما كانت بعض القبائل كانيف ومرثد في المدينة قبل وصول اليهود واصبحت حليفة لهم [2] . وكان قائدالغزوة المذكورةضد بالي وقضاعة عمرو بن العاص الذي كانت امه من من بالي ، وكان ينتظر أن تنضم اليه فرقة منها . حتى إذا ما جاء وفد إلى المدينة في حزيران ـ تموز ٦٣٠م (٩/٣) واعتنق الاسلام اقام عند أحد أفراد القبيلة ، وكان قد دخل في الاسلام [3] .

وتهمنا رسالة محمد إلى قبيلة جعيل ، حيث يعترف بأن أفرادها جزء من قبيلة عبد مناة من قريش ويعطيهم صدقات بعض القبائل لاعتناقهم الاسلام [4] .

وليس ذلك تقديراً للنسب بل كان النسب تبريراً لهذا الكرم . وتدل هذه الهبات للذين اعتنقوا الاسلام كسعدالله (سعد هذيم) وجذام ان محمداً ادرك ضرورة تاكيد سيطرته على طريق الشمال ، وأن يهيء

«١» ابن هشام ٧٩٢ ؛ الواقدي ٣١١

«٢» ابن سعد ٣/٢٠٢ ٣ – ٣٧ ؛ السمهودي ج ١ : ٤ ١

«٣» ابن سعد ١/٢ : ٦٥ ؛ نفس المرجع ٤/٢ : ٧٣ رويفي

«٤» نفس المرجع ١/٢ : ٢٤

متنفساً لأتباعه المتحمسين .

بحراء :

كانت بحراء تقيم بالقرب من بالي ، وكانت تنتسب اليها . وقد اشتركت فرقة من بالي في الجيش البيزنطي . وهناك رواية عن وفد مؤلف من ثلاثة عشر عضواً ذهب الى المدينة واعتنق الاسلام ولا ذكر بأن سائر القبيلة فعل ذلك أيضاً ، وقد حفظت هذه القصة في عائلة المقداد بن عمرو ، وكان من بحراء ثم أصبح حليفا لاحد زعماء زهرة في مكة الذي تبناه فيما بعد [1] . وإذا كان هذا كل ما تستطيع قوله عن بحراء ، فاننا نستنتج من ذلك ان القليل منها اصبح مسلماً او حليفاً لمحمد وسبب ذلك الابتعاد عن المدينة .

لخم :

كان القسم الذي يهمنا من لخم يقيم على تخوم سورية ، وكانوا مسيحيين يتعاونون مع البيزنطيين [2] ، وقد احتفظ برسالة من محمد إلى المسلمين من حدس وهي فرع من لخم . وتعد الرسالة بحماية المسلمين منهم ، وتنذر المرتدين بأنهم يفقدون هذه الحماية [3] . هذا هو موقف الشدة الذي اشرنا اليه . ومن المهم أن نشير إلى قصة تميم الداري ، وغيره

«١» نفس المرجع ٦٦ ؛ راجع ٣/١ ؛ ١١٤ـ١١٦

«٢» ابن هشام ٧٩٢ ؛ الواقدي ٣١١؛٣٩١ ؛ كايتاني ٢/١ ؛ ٢٨٨

«٣» ابن سعد ١/٢-٢١

من أفراد قبيلة الدار ، فقد جاء عشرة منهم إلى محمد عند عودته من غزوة تبوك يحملون الهدايا الثمينة واعتنقوا الاسلام . ولم يكونوا معذلك « وفداً » لأنهم لم يعودوا إلى قبيلتهم ، بل ظلوا في المدينة ، ونالوا حظاً معيناً من تمور خيبر [1] . وهذا شيء غير عادي ولكن البقية أغرب . إذ يقال بأن تميا طلبت إلى محمد أن يهب القبيلة قريتين في سورية ، حبرا (أو حبرون) و « بيت » عينون ، كما يوجد نص رسالة محمد إلى أخ تميم ، نعيم ، تتضمن حقوقهم على هاتين القريتين [2] .

ويتفق العلماء الغربيون على القول بأن هذه الرسالة غير صحيحة ، ويقول فقيه حنفي قديم ، دون أن يطعن بصحة الرسالة ، ان محمداً لم يكن له الحق أن يهب ما ليس له ! وإذا نحن شككنا بصحة الرسالة ، فليس من الغريب أن يكون محمد قد تفاهم معهم ، واحتفظ بهم ذخيرة لدخوله إلى سورية . وكان فرد آخر من القبيلة ، خاطب بن أبي بلتعه ، لا يعتمد عليه . كان حليفا للصحابي الكبير الزبير وحارب في بدر وحمل رسالة إلى المقوقس في مصر من محمد ، ولكنه قبل الانتصار على مكة ، ضبط وهو يدلي بمعلومات إلى العدو [3] . وإذا كان محمد قد عفا عنه فما ذلك إلا لمساعدته في علاقاته مع لخم .

غسان

كان زعماء قبيلة غسان مدة طويلة من الزمن على اتصال أخوي مع

(١) نفس المرجع ٧٥ ابن هشام ٧٧٧ ، الواقدي ٢٨٧ ، كايتاني
(٢) ابن سعد ١/٢ ، كايتاني ١/٢
(٣) ابن سعد ١/٣ ، ١/٨٠٠ ، ١٦٢ ، ابن هشام ٨٠٩ ، الواقدي ٣٢٥

البيزنطيين، وقد دافعوا عن التخوم البيزنطية ضد البدو مقابل معونة مالية ، وكانوا مسيحيين يؤيدون القائلين بطبيعة واحدة للمسيح وليس الارثوذكس . ثم انقطعت العلاقات بسبب الغزو الفارسي ٦١٣ ـ ٦١٤ م ولم تعد الاتفاقات القديمة بعد النصر البيزنطي ٦٢٩م [١] .

ولدينا معلومات عن مرور الرسل بين محمد ورجال التخوم . فقد أرسل دحية بن خليفة الكلبي إلى الحاكم (عظيم) في بصرى يحمل رسالة إلى قيصر في حوالي ٦٢٧م [٢] . كما أرسل شجاع بن وهب من أسد بن خزيمة إلى المنذر بن الحارثة بن أبي شمر الغساني فاستقبل استقبالا سيئاً . وقد حدث ذلك حوالى ٦٢٨ م [٣] . وكذلك أرسلت رسالة إلى جبلة بن الايهم « ملك » غسان و يقال « خطأ » بانه أصبح مسلماً [٤] . وقد أرسل عمار بن ياسر إلى الأيهم بن النعمان من غسان ، وربما كان ذلك رواية أخرى لما سبق [٥] .

وأخيراً غزوة مؤتة في أيلول ٦٢٩م (٥/٨) لمعاقبة شرحبيل بن عمرو بن غسان لقتله الحارث بن عمير الازدي حين حمل رسالة محمد إلى «ملك» بصرى [٦] .

---

(١) راجع نولدكه *Die Ghassanis chen Fürsten aus dem Hanse Gatna's, Berlin 1887 42.*

(٢) ابن سعد ١/٢ ، ١٦ ابن هشام ٩٧٥ ، الواقدي ٢٣٤ ، كايتاني ١ ، ٧٣٤

(٣) ابن سعد ١/٢ ، ١٧ ، كايتاني ج١ ، ٧٣٥

(٤) ابن سعد ١ ، ٢٠٢ ، كايتاني ١ ، ١ ، ٢٩ نولدكه ٤٥

(٥) اليعقوبي تاريخ ليدن ١٨٨٣ ج ٢ ، ٨٤

(٦) الواقدي ٣٠٩

هناك أشياء كثيرة تقال حول هذه الاخبار ، ولا شك أن الدعوة إلى الاسلام التي تحتوي عليها هذه الرسائل هي مـــن وضع المتاخرين ، وكذلك قصة إسلام جبلة . وربما وقع فيها خلط في الاسماء والتواريخ .

ولكن يبدو أكيداً ان محمداً كان يتقرى الطريق نحو سورية بواسطة الدبلوماسية ، وانـــه اتصل بشخصيات مهمة عديدة واستخدم رسلا كثيرين . وربما أقام جبلة ، قبل أن يتأكد انتصار هرقليوس ، علاقات ودية مع محمد . فقد حاول مختلف الزعماء في هذه الاوقات المضطربة أن يستفيد بعضهم على ظهر الآخر ، ولهذا يختلف موقف كل منهم من محمد باختلاف الزمن . تتفق هذه الاخبار إذن مع ما نعرفه من مصدر آخر عن سياسة محمد في التوسع نحو الشمال .

ربما كان من الخير أن تذكر بعض تواريخ الحرب بين بيزنطية وفارس . فقـــد اجتاح الفرس حوالى ٦١٩م مصر ، وكل آسية الصغرى وسورية ودفعوا بالبرابرة إلى تخريب المناطق الاوروبية . وقد اجتاح هرقليوس آسية الصغرى من ٦٢٢ حتى ٦٢٥م بنجاح. وفي ٦٢٦م قام الفرس وحلفاؤهم بحصار قصير للقسطنطينية ، وقـــد فشلوا فيه . ثم اجتاح هرقليوس الامبراطورية الفارسية عام ٦٢٧م ، وأحرز في كانون الأول من هذه السنة انتصاراً كبيراً على نينوى القديمة ، ولكنه اضطر فيما بعد للانسحاب .

وقد قتل الامبراطور الفارسي في شباط ٦٢٨ م ، فعرض ابنه الذي خلفه الصلح .

وكان هرقليوس في آذار ٦٢٨م يستطيع أن يعتبر نفسه منتصراً ،

ولكن المفاوضات لاخلاء الامبراطورية البيزنطية لم تنته قبل حزيران ٦٢٩ ودخل هرقليوس في أيلول ٦٢٩م دخول الفاتحين إلى القسطنطينية وأعاد الصليب المقدس في آذار ٦٣٠م إلى القدس [١] .

قصة الوفد الغساني إلى محمد هي الدليل على أن غسان لم تكن تظهر أية رغبة في اعتناق الاسلام [٢] . حتى ولو كانت القصة صحيحة فهي تنحصر في مجيء ثلاثة أفراد من القبيلة في كانون الاول ٦٣١م (١٠/٩) إلى محمد . فاقتنعوا بحقيقة دعواه ثم رجعوا ولم يفعلوا أكثر من ذلك ، وعاش واحد منهم واعتنق الاسلام في ٦٣٥م .

وتدل وثائق أخرى على أن غسان استمرت في معارضتها للمسلمين خلال بضع سنوات [٣] . وهكذا لم يصادف محمد أي نجاح في جهوده لكسب غسان إلى جانبه ، وربما فكرت بعض المستعمرات الصغيرة، حين رأت غزوة تبوك الكبرى في نهاية ٦٣٠م ، ان محمداً أصبح قوة لا يستهان بها ، غير أن الغالبية العظمى من بدو التخوم السورية ظلت على موقفها .

كلب :

كانت أراضي كلب تقع نحو الشرق من أراضي القبائل التي ذكرناها وكانت تقيم على طريق العراق ، كما تقيم على طريق سورية [١] .

---

(١) راجع ديل ومارسيه، العالم الشرقي من ٣٩٥ الى ١٠٨١ باريس ١٩٤٤ ، ١٤٤ - ٥٠
(٢) ابن سعد ٢/١ - ٧١ . كايتاني ١/٢ ، ٣٢٨
(٣) الواقدي ٣٩١ ، طبري ٢٠٨١

وكانت دومة الجندل تقع في هـذه الاراضي ، ولكن المستعمرة نفسها كانت في أيدي أكيدر بن عبد الملك من قبيلة السكون من كندة . وكان معظم كندة يقيم في جنوبي شبه الجزيرة . وكان من بين أوائل مسلمي هذه القبيلة دحية بن خليفة ، ولكنا لا نعرف شيئاً عن ظروف إسلامه وعوامله ، وإن كنا نسمع عن شبهه للملك جبرائيل ، وقد أرسله محمد إلى أماكن مختلفة من الحدود البيزنطية [1] .

وربما كانت غزوة محمد لدومة الجندل في تموز وأيلول ٦٢٦م (٣ ـ ٥/٤) عقاباً على الهجمات ضد القوافل الذاهبة إلى المدينة [2] ، أو ربما كانت مجرد استطلاع مسلح ، غير انها بدون شك أثرت في العرب . ولا نعرف شيئاً عن نتيجتها سوى أسر بعض رؤوس الماشية .

وقد قاد عبد الرحمن في نهاية كانون الاول ٦٢٧م (٦/٨) فرقة وعقد اتفاقاً مع قائد كلب المحلي الاصيع (أو الاصبغ) بن عمرو ، ووثق هذا الاتفاق بالزواج من ابنته تماضر [1] . وتقول رواية ان الاصيع أسلم ، وإن كانت رواية اخرى تتحدث عن عبد الرحمن وهو يجمع الجزية . وهذا يدل على أنه ظل مسيحياً . وهذا أقرب للواقع ، وقد أرسل خالد بن الوليد حوالى تشرين أول ٦٣٠م (٩/٧) بصحبة ٤٠ فارساً من تبوك إلى دومة الجندل . فاسر « الملك » اكيدر بن عبد الملك الكندي ضمن

---

(١) ابن سعد ٤/١ ، ١٨٤ ، ٢٠١ ، ٢٨،١٦

٢) المسعودي : كتاب التنبيه والاشراف ، ليدن ١٨٩٤ ، ٢٤٨

(٣) الواقدي ٢٣٦ ، كايتاني ج١ ، ٧٠٠ ابن سعد ٣ ، ١ ، ٩٠ ، ١٥

استسلام الحصن وأخذ ٢٠٠٠ بعير ، و ٨٠٠ عبد و ٤٠٠ زرد و ٤٠٠ رمح ، كما فرض جزية تدفع في المستقبل [١] . ولا تضيف رسائل محمد إلى جماعات من كلب ، وإلى اكيدر وقصة و فد كلب شيئاً جديداً لا نعرفه [٢] . ومـــن المؤكد تقريباً ان جميع الأشخاص المذكورين لم يصبحوا مسلمين ، حتى ولو أصبحوا فان عددهم لا يؤبه لـــه . وعلى العموم فان كلباً لم تدخل الاسلام في ذلك الوقت ، وكل ما حدث هو أن بعض الجماعات التي كانت تقيم في دومـــة الجندل ، او بالقرب منها اجبرت على دفع الجزية لمحمد . وبالرغم من ان هذه الاموال تسمى جزية للتدليل على ان دافعيها ليسوا مسلمين ، فان نصوص الرسائل تدل على ان المدفوعات كانت عبارة عـــن عدد محدد من المواشي ومنتوجات اشجار البلح ، فهي تشبه بهذا الزكاة التي يدفعها المسلمون . وهذا مصدر من مصادر الاختلاط .

جماعات حضرية متنوعة :

عقدت أثناء غزوة تبوك اتفاقات مع بعض الجماعات الحضرية في جنوبي سورية . وكانت أهمها بدون شك جماعة الايلة (إيلات التوراة و « العقبة » الحديثة) في أسفل خليج العقبة [١] . وجاء ملك الايـلة

---

(١) ابن هشام ٩٠٣ ، الواقدي ٤٠٣ – ٥

(٢) ابن سعد ١ ٢ ، ٣٤ ،٦٨

(١) ابن هشام ٩٠٢ . الواقدي ٤٠٥ . ابن سعد ١ ٢ ، ٢٨ كايتاني

يوحنا بن رباح شخصياً لمفاوضة محمد . فحددت الجزية بـ ٣٠٠ دينار في السنة . وكان يقع بالقرب من الايلة « مقنا » وهي مدينة التجارة يسكنها يهود ينتمون لبني جنبة ، فطلب اليهم ان يدفعوا ربع محصول الثمار ، وخيط اللجاة (وربما السمك) [١] .

وكذلك اذرح وجربا ، بالقرب من عمان ويسكنها اليهود . وتقول رواية انه كان على سكان اذرح أن يدفعوا ...١ دينار ، بينما تقول رواية اخرى انه كان على سكان المدينتين دفع ١٠٠ دينار [٢] .

من الثابت إذن انه في نهاية خريف ٦٣٠م تبنى محمد السياسة التي يقول بها القرآن (٢٩٢٩) « وقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله وباليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

سياسة الشمال :

اهتم محمد كثيراً بالتوسع نحو الشمال ، وكانت الدوافع هي التي عرضناها .

ولا تؤيد دراسة القبائل القول بأن نجاحه في الشمال هو الذي شجعه على الاهتمام كل هذا الاهتمام بهذه المنطقة ، فلقد كان نجاحه على الاجمال ضئيلا ، وكانت معظم القبائل لا تزال عند وفاته مسيحية ، صديقة

---

(١) الواقدي ٤٠٥ ، ابن سعد ١ ، ٢ ، ٢٨

(٢) الواقدي ٤٠٥ ، ابن سعد ١ ، ٢ ، ٣٧

للبيزنطيين.

ويبدو انه استعد في اول الامر لعقد محالفات مع القبائل المسيحية. وربما عرض تكوين جبهة ضد الفرس ، وقام بدعاية كبيرة من اجل ذلك مشيراً إلى العقائد المشتركة بين المسلمين والمسيحيين . او ربما حاول الحصول على تأييد العرب والمسيحيين ومساعدة الذين يعتقدون بوحدة شخصية المسيح ضد الارثوذكس، ورسائله إلى راهب دغاتير مثال على هذا التقرب الدبلوماسي [1] ، حتى إذا ما بدت الامبراطورية البيزنطية على وشك الانهيار ، وجد رجالا مستعدين للاستماع إلى رسله . ولكن هذه السياسة ظهرت في سنة ٦٥٠م فاشلة . فقد سمع محمد باعادة الصليب المقدس إلى القدس ، وإن لم يسمع بدخول هرقيلوس إلى القسطنطينية دخول المنتصرين . فقد ضعفت صداقة القبائل له حتى انها تجرأت وفتكت برسوله. تغيرت إذن ، في تلك الفترة ، سياسة القبائل المسيحية حسب ما يقوله القرآن . وربما تغيرت أثناء غزوة مؤتة في أيلول سنة ٦٢٩م . غير ان التفاصيل غامضة لا يمكن الاطمئنان اليها ، لقد تغيرت سياسته قبل ان يسير الى تبوك بعد سنة من ذلك .

لقد خيرت هذه السياسة الجديدة القبائل غير المسلمة ، اما ان تعتنق الاسلام أو تدفع جزية سنوية . وقد اصبحت في كلتا الحالتين اعضاء في نظام الامان الاسلامي ، فإذا رفضت ذلك ابيدت او استعبدت ، إذ أن محمداً لم يسمح قط بالخداع والتلون . فقد أصبح الآن يطلب من الشخص

---

(١) نفس المرجع ٢٨

أن يحدد المعسكر الذي ينتمي اليه. ويبدو أن الذين أصبحوا رعايا محمد دون أن يعتنقوا الاسلام تخلصوا، في بعض الحالات، من جزية ثقيلة فرضت عليهم.

وأما القبائل التي ارتضت الاسلام، فقد عوملت بسخاء كبير. وعلينا أن نشير إلى التناقض بين أهل اذرح وقبيلتي سعد الله وجذام الصغيرتين. وكانت نتيجة هذه السياسة، انها جعلت القبائل المسيحية أكثر رغبة في تاييد البيزنطيين، حتى قلب الدهر لهم ظهر المجن في الحرب، ومال إلى صالح المسلمين.

وقاد اكيدر ثورة مسلحة وأرسلت القبائل، ومنها جذام، فرقاً إلى الجيش البيزنطي [1]. ولم يحدث، في حياة محمد، أي اصطدام كبير يشبه معركة حنين، ونستطيع، مع ذلك القول ان الحرب مع سورية قد بدأت، ولم يستطع محمد أن يتنبأ بتفاصيل توسع الامبراطورية العربية فيما بعد. غير ان بصيرته وبعد نظره وجها انتباه العرب إلى أهمية سورية الستراتيجية بالنسبة للدولة الاسلامية الجديدة.

٥ ـ قبائل جنوبي مكة

تختلف القبائل الضاربة جنوبي مكة عن كل القبائل التي تحدثنا عنها حتى الآن، ولهذا اختلفت سياسة محمد مع هذه القبائل. وهناك مسألة مهمة وهي انه لم يحدث أي اتصال بينها وبين المسلمين حتى بعد فتح مكة.

---

(١) طبري ٢٠٦٥، ٢٠٨١

ومسألة أخرى وهي أنه ، حتى تلك الفترة العصيبة في تاريخها ، لم يظهر أي زعيم قوي يمتاز بصفات رجل الدولة ، ولم يتمتع أيٌ من الرجال الذين نسمع عنهم بنفوذ موروث أو ميزات شخصية تشبه ميزات مالك بن عوف في هوازن أو حتى عيينة بن حصن في غطفان . ويمكن أن ينتج هذا النقص في الزعماء عن انحطاط عام في سكان المنطقة [1] . وإن كانت الوثائق لا تسمح لنا بتأكيد ذلك . كانت الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة العربية من أخصب المناطق بسبب غزارة الأمطار ، وقد نشأت فيها في الماضي حضارة مزدهرة . وتقوم الروايات التقليدية حول انهيار سد مأرب [2] ، على ذكريات انهيار نظام الري الذي كانت تعتمد عليه تلك الحضارة . ويعتبر العلم الحديث هذا الانهيار نذيراً بانحطاط هذه الحضارة وليس سبباً لها . ويجب البحث عن ذلك في تحول الطرق التجارية . فاذا ما انخفض مستوى المعيشة عادت بعض القبائل العربية إلى البداوة ، وتركت معظم القبائل اليمن واتجهت نحو الشمال . وكانت القبائل التي اتصل بها محمد تضم أعضاء بدواً وآخرين حضراً . وكان معظم البدو يعبدون الأصنام ، كما كان الحضر مسيحيين أو يهوداً .

حتى إذا انهارت الحضارة المحلية ظهر الغزاة الفاتحون، وقد أصبحت المنطقة خلال الخمسين سنة من سنة ٥٢٥م تحت سيطرة الاحباش . ثم

---

(١) ابن هشام ٨ ، القرآن ٣٤-١٦،١٥

(٢) راجع كايتاني ١٠٢ ، ٦٦١ - ٩ ، حيث يستعرض الحوادث حتى وفاة محمد.

خلفهم الفرس الذين احتفظوا بالسيادة الاسميـــة ، حتى ضمت مختلف المناطق إلى الدولة الاسلامية .

ولما كانت طرق المواصلات سيئة مـع العراق ، كان الحاكم الفارسي يعتمد على موارده الخاصة، ولم يكن له من نفوذ إلا على الاراضي المجاورة للحكومة في صنعاء ولم يكن الحاكم والأبناء (أي من أب فارسي وأم عربية) سوى فئة من الفئات العديدة التي تتنازع على السلطة في اليمن. وقد ساعد وجود الأحباش والفرس بدون شك على ازدياد الانقسامات الكامنة .

ولم يوجد أي دليل على محاولة للتوحيد ضد الفرس سوى محاولة الاسود (التي نتحدث عنها فيما بعد) .

من الافضل عدم البحث في قبائل الجنوب كل منها على حدة . بل ترتيب الوثائق للتدليل على أهم الجوانب في مسلك محمد نحوها ولا توضح المعلومات التي لدينا عن العلاقات بين القبائل في الجاهلية مطلع العصر الاسلامي ، ومعلوماتنا عن هذا العصر جزئية . ويمكننا ، بالرغم من عدم الاطمئنان لبعض التفاصيل ، ان نرسم صورة متناسقة لسياسة محمد .

اهم ما يميز « هذه السياسة الجنوبية » المبالغة في استخـــدام الطرق الدبلوماسية . فقد كان إرسال الغزوات قبل فتح مكة غير مستعمل . ولكن حتى بعد هذا الفتح لم يقم محمد باي مظاهرة للتدليل على قوته في الجنوب .

ولم تضم أكبر غزوة سوى ٤٠٠ رجل . وهذا نتيجة لضعف قبائل

الجنوب ، ولكن هذا يشير أيضاً إلى ان طريق اليمن وطريق سورية ، لكل دور يختلف عن دور الاخرى في استراتيجية محمد . فلا نجـــد في الجنوب شيئاً من العمل السريع الذي يميز سياسته في الشمال . ويبدو أنه كان على استعداد لترك الامور تنضج لوحدها .

وكل ما فعله هو أنه أيد بعض الفئات حين أظهرت استعدادهـــا لقبول أدنى شروطه . فهو يقول في رسالة إلى قيس بن سلمة الجعفي بانه استعمله على مجموعة من القبائل .

غير ان هذا المخطط لم ينجح ، لأن قيساً رفض في نهايـة الامر أن يقوم بدوره . وأول ما يعترضنا قصة الرجلين أرطأة بن شرحبيل ، والجحيش من قبيلة النخع اللذين باركهما محمد بان شرحاله بأن في قبيلتيهما سبعين رجلا مـــن طبقة عالية يسيطرون على كل شيء . ويقال بأن أرطأة قاد بعض رجـال القبيلة حين فتـح مكة ، حتى لو ذهب هؤلاء وعاشوا في المديـــنة فان خميرة الاسلام كانت تعمل في القبيلة ، إذ أن آخر وفد جاء لزيارة محمد ، كان وفد النخع المؤلف من مئتي رجل [١] .

غُلبت قبيلة مراد على يد حمدان في معركة وقت الهجرة تقريباً . وكانت ، قبل هذه المعركة ، حليفة « ملوك » كندة . وقد تخلى في سنة ١٠/٦٣٢ أحد زعمائها فروة بن مسيك عن تحالفه مع كندة ، وجاء إلى محمد . وبعد أن تفقه في الاسلام ، استعمله محمد على قبيلتي مراد زبيد

---

(١) نفس المرجع ٧٧

ومذحج ، وأرسله بصحبة مسلم قديم من مكة خالد بن سعيد [1] .وتبدو لنا هذه السياسة المستقيمة ، في مظهر آخر ، إذا علمنا انه كان يوجد في مراد حزب آخر زعيمه قيس بن المكشوح ، وان قيساً كان صديقاً لعمرو بن معد يكرب من زبيد وانهم جميعاً أيدوا الأسود من عبس ، فوقف إلى جانبهم ضد فروة [2] ، ويمكن أن نشك ببعض تفاصيل هذه القصة ، إذ يمكن أن يكون إسلام عمرو بن معد يكرب المزعوم عبارة عن حلف سياسي ، ولكن لا نستطيع اعتبار القصة بأكملها موضوعة ، كما يمكن أن يدعي فروة بأن محمداً أعطاه منصباً لم ينله إلا فيما بعد ، مكافأة له على خدماته ضد الأسود . ولا شيء يقول لنا بأن قيساً أسلم ، ويعني ظهور اسمه في قائمة « حكام الولايات » عند وفاة محمد أنه كان يتمتع بشيء من السلطة في صنعاء ، وان قائد المدينة فيروز الديلمي ، كان على علاقات طيبة مع محمد .

ومهما يكن رأينا في التفاصيل ، فانه من الواضح أن تقدم الاسلام في هذه المنطقة ارتبط بالتدخل الموفق في الخصومات المحلية .

نجد تقريباً نفس القصة مع الاشعث بن قيس من كندة ، ووائل بن حجر وهو من حضرموت [3] . فقد ادعى كل منهما ملكيته لواد وأيد محمد وائلا ، وذلك لتهدئة الاشعث الذي تزوج اخته . وليس من

(١) ابن هشام ٩٥٠ ، ابن سعد ١، ٢ ، ٦٣

(٢) ابن هشام ٩٥١ ، طبري ١٧٣٢ – ٤ ، ١٧٩٦ ، ١٩٩٦

(٣) ابن هشام ٩٥٥ – ٥٧ ، ٩٦٣ ، ابن سعد ١/١ ، ٢٠٠

الغريب أن نرى الاشعث يحاول، عند وفاة محمد ، أن يؤكد استقلاله عن المدينة ، ثم أسلم بعد فشل هذه المحاولة ، وقام بدور خطير في الفتوح .

رأينا في حالة النخع ان محمداً بدا مستعداً لتاييد أفراد الشعب ضد النبلاء . ولا نعلم ما إذا كانت طبقة من النبلاء وجدت في مكان ما . ومن الممكن ان يكون ملوك كندة وحمدان وأقيال حمير أنشاوا طبقة منفصلة ، كما يمكن ان يكونوا فقط جماعة الزعماء في الواقع . وكانوا يحملون عادة لقباً يبدأ بـ « ذو » مثال : ذو القلع . وكانت لمحمد علاقات مستمرة مع هؤلاء الرجال وقد عقد بعضهم اتفاقات معه ، واستمروا على ولائهم أثناء الردة .

وقد شجع محمد ، في بعض الاحيان ، الرجال على استخدام القوة ضد جيرانهم . وكان أحدهم صرد بن عبد الله من قبيلة أزد شنوعة الذي جاء إلى محمد بصحبة اثنتي عشر رجلا ، فاستعمله محمد على رجاله ، وعلى جميع الذين يمكنه اقناعهم باعتناق الاسلام ، وسمح لهم بالقتال من أجل الاسلام ضد جميع غير المسلمين في بلادهم . فاختار صرد الهجوم على حصن جرش ، وبعد حصار دام شهراً تظاهر بالانسحاب ، فخرج الحاضرون على أمل مطاردة الجيش في انسحابه ولكنهم وجدوا عوضاً عن ذلك ، صرداً وقد استعد للقائهم ، ففروا بعد أن تكبدوا بعض الخسائر ، ثم وقع أهل جرش صلحاً مع محمد واعتنقوا الاسلام [1] .

---

(١) نفس المرجع ٢٠١، ٧١ . كايتاني ١١، ١٠ ، ٣٢٥

وهناك مثال أهم على هذا التشجيع ، هو تشجيع جرير بن عبد الله من باهلة . فقد جاء إلى محمد بصحبة ١٥٠ رجلا واعتنق الاسلام ، ثم هـاجم ، بتحريض من محمد ، مدينة تبـالة وحطم صنمها ذا الخلاصة الذي كانت تعبده باجـلة ، وهي قبيلة تنتسب لقبيلة خثعم وغيرها وقد نشبت معارك ضارية ، وأريقت دماء كثيرة ، ولا سيا في خثعم ، ثم أقبل زعماء خثعم وقدموا خضوعهم لمحمد [1] . ثم جعل محمد من جرير رسوله إلى اثنين من الأسياد ، وكان معهم حين وفاة محمد [2] . وقام بدور كبير بين المسلمين خلال الردة وبعدها .

وهكذا تدخل محمد بطرق شتى « بالرسائل والرسل » في شؤون قبائل الجنوب .ولم يتدخل في شؤون بطون قبيلة ، بل في شؤون قبائل بأسرها كما اتحدت قبائل بأ كملها مع مكة . ويعني هذا انها دخلت ما يمكن تسميته بـ « نظام الأمن المدني » أو « السلم الاسلامي » *Pax Islamica* .

ونجد دائماً في الرسائل أنه إذا قام الأشخاص المرسلة اليهم بواجباتهم فلهم ذمة الله ورسوله . وكان ذلك يتضمن الأمان على حياتهم وأموالهم وأراضيهم . وهكذا كانت كل قوة الدولة الاسلامية تستخدم ، نظرياً ، ضد كل من يهاجم حلفاء محمد ، ولا نتبين كيف كان يحدث ذلك في الواقع لأنه لم يكن يوجد فرق مدنية في المنطقة . ولن نخطىء كثيراً إذا افترضنا ان المندوبين الذين كان محمد يرسلهم إلى جنوبي شبه الجزيرة عملوا على أن

---

(١) ابن سعد ١/٢ ، ٧٧ ، ابن الكلبي : كتاب الاصنام القاهرة ١٩١٤ ، ٣٤-١٦ ، ابن هشام ٥٦ ، طبري ١٧٦٣

(٢) ابن سعد ٢١ ، ٢٠ ، طبري ١٩٨٩ ، رسالة ابي بكر

يساعد حلفاء محمد بعضهم بعضاً ، ضد الأعداء الخارجين ، وأن يتجنبوا الخصومات بينهم .

وبهذا نستطيع القول بأن ضمان محمد لسلامتهم ، كان إلى حد بعيد، فعالا .

ولنذكر بعض القصص التي حفظها الطبري . وتقول هذه الروايات انه لما أسلم باذان الحاكم الفارسي ، وأصبح أهل اليمن مسلمين ، وضع محمد كل إدارة اليمن تحت سلطة باذان وعند وفاته ، وزع هذه السلطة بين الشخصيات الآتية :

شهر بن باذان	صنعاء
عامر بن شهر الهمداني	همدان
أبو موسى الأشعري	مارب
خالد بن سعيد	نجران ، رقاع وزبيد
الطاهر بن أبي هاله	عك وأشعر
يعلا بن أمية	الجناد
عمرو بن حزم	نجران
زياد بن لبيد	حضرموت
عكاشة بن ثور الغوثي	السكاسك والسكون
المهاجر بن أبي أمية	معاوية بن كندة
معاذ بن جبل	فقه في الدين لليمن وحضرموت

ولا يجب قبول هذه المعلومات دون نقد شديد ، ولكن لا يمكننا أن

نرفضها على أنهاخالية من أية قيمة . وربما لم يصبح الحاكم الفارسي مسلماً ، ولم يكلف من قبل محمد بادارة اليمن باسمه . غير انه لا اعتراض جدي على القول بأن محمداً عقد اتفاقاً مع باذان واعترف به كحاكم لليمن « وهكذا يدخل باذان في نظام الأمان المدني » . وتبدو الوثائق المتعلقة بالحوادث إثر موت باذان، على أنها جمعت فيما بعد . ومع ذلك فهي ، بالرغم من حاجتها للنقد ، لا تخلو من القيمة . فقد أرسل محمد رجاله إلى الجنوب في مناسبات عديدة ومهمات مختلفة . ولقد احتفظت الاحاديث العائلية بذكرى المنصب ، ولكنها غامضة ، حول المهمات الحقيقية التي يطلب القيام بها . فلقد جمع مؤرخ لاحق الاخبار ونظمها حسب مفهومه للعصر . وتشمل مصادرنا على عدة روايات ومعلومات متممة . وهكذا يقال بأن خالداً بن سعيد ، أرسل مع فروة بن مسيك من مراد ، بعد اعتناقه الاسلام ، لجمع صدقات القبيلة [(١)] . وقد أرسل أبو بكر المهاجر بن أبي أمية إلى اليمن كقائد عسكري [(٢)] ، فكان ذلك أول مرة يظهر فيها هناك ، وتقول الرواية ان محمداً أرسله ، وتضيف انه كان مريضاً لا يستطيع السفر حـــالا . ومن هنـا يشك البـاحث الحديث في أن تلك محاولة من العائلة لتمجيد نفسها بأن محمداً استعمله وليس خليفته ، ولا يذكر اسم أبي سفيان بن حرب في القوائم ، ولكن يقال في مكان آخر ، بانه استعمل على جرش أو نجران [(٣)] .

---

(١) ابن سعد ١، ٢، ٦٤ (٢) طبري ١٨٨٠

(٣) البلاذري ٥٩ ، أسد ١٢٣، ٢١٦ ، اليعقوبي ج ٢ ، ٧١

ومهما كان الشك الذي يحيط ببعض التفاصيل ، فهناك مجموعات من المعلومات تكفي للتأكد من أن محمداً كان له عدة عمال بين قبائل الجنوب . وبهذا قام بمراقبة شؤون القبائل الحليفة ، ولا سيما مراقبة العلاقات فيما بينها ، وإن لم تكن سلطته فيها كسلطته في المدينة .

ويبدو انه عمل في بعض الحالات بموجب اتفاق مع الشخص الحاكم كشهر باذان ، وزعيم من حمدان ، هو عامر بن شهر .

يتضح أن هؤلاء الاشخاص كانوا عملاء له مع بعض القوات الخاضعة لهم . ولقد فكر محمد أنه إذا احتاج إلى قوة عسكرية أمده بها حلفاؤه المحليون . ولم يرسل القائد العسكري ، المهاجر ، إلا عند ظهور الاضطرابات بعد مصرع شهر بن باذان على يد الأسود العنسي ، ولم يذهب من المدينة على رأس جيش كبير ، بل جمع جنوده في مكة أولا ثم في الطائف . وباستمالة الزعماء المحليين كجابر بن عبد الله وفروة بن مسيك [١] .

ولربما بدا مناقضاً لسياسة محمد الدبلوماسية في هذه المنطقة الجنوبية انه ارسل ثلاث غزوات ضدها (عدا الغزوة ضد صداع التي هيأها ولم يرسلها لأن القبيلة كانت قد اعتنقت الاسلام) [٢] . غير انها كانت غزوات صغيرة ، ويمكن اعتبارها دعما خفيفاً للنشاط الدبلوماسي . وقد أرسلت الغزوة الاولى ، (وهي مؤلفة من عشرين رجلا فقط) ضد بعض افراد

---

(١) طبري ١٩٩٨ (٢) ابن سعد ١ /٦١،٢

خثعم في جوار تبالة في أيار ـ حزيران ٦٣٠ م (٩/٢) . ولم يكن سببها أخطاء شخصية ، لأن قائدها قتيبة بن عامر ، وهو من أقدم مسلمي المدينة وسيد قبيلة سليم .

ولا نسمع عن مفاوضات تجري بل نسمع عن أسلاب تؤخذ . كانت إذن محاولة لتحطيم الصنم « ذي خلاصة »[1] . ولا يبدو ان غزوة خالد بن الوليد لنجران على رأس ٤٠٠ رجل في تموز – آب ٦٣١ م (١٠/٣) قد خاضت معارك حامية ، ويقال بأنها انتهت بدخول القبيلة في الاسلام . كان النشاط الدبلوماسي إذن في هذه الغزوة أساسياً ، تدعمه مظاهرة عسكرية[2] .

وقاد الحملة الثالثة المؤلفة من ٣٠٠ رجل في أيلول من نفس السنة علي وكانت ضد مذحج وزبيد . وبعد مناوشات صغيرة ، قبل العدو، الذي لم يكن سوى جزء صغير من مذحج ، الدخول في الاسلام . وليست هذه حادثة للتدليل على سيطرة الدبلوماسية ، ولكنه لا يجب استبعادها ، لا سيما إذا علمنا أن محمداً ، في السنة السابعة ، حسب ما تقوله نفس المصادر سير ١٠٠٠٠ رجل ضد مكة وسار على رأس ٣٠٠٠٠ رجل إلى تبوك . وتثير مسالة الأسلاب بعض الصعوبات ، ولكنه من غير الممكن أن يهتم علي في هذه الفترة من حياة محمد بغزوة سلب ونهب[3] .

---

(١) الواقدي ٣٨٧

(٢) ابن هشام ٩٥٨ – ٦٥ ، الواقدي ٤١٧ ، ابن سعد ١/٢، ٧٢ . لا يجب استمال الخلط بين خالد بن الوليد وخالد بن سعيد .

(٣) ابن هشام ٦٦٧ ، ٩٩٩ ، الواقدي ٤١٧ – ٢١

وتدل قصص الغزوات على أن محمداً لم يعتبر الجنوب منطقة تصلح لنشاط عسكري .

ولقد دعم محمد ، في حالة أو اثنتين ، تقربه الدبلوماسي بامتيازات اقتصادية . إذ يقال ان قيس بن مالك من قبيلة ارهب من همدان عين قائداً ونال هبة سنوية من العنب والقمح[1] . كما أعفيت بطون عديدة من قبيلة الحارث بن كعب من دفع الصدقة[2] . وتذكرنا هذه الوقائع بامتيازات مشابهة منحت للقبائل على طريق الشمال ، مكافاة على موقف صريح إلى جانب الاسلام . غير ان معلوماتنا عن قبائل الجنوب ضئيلة، مما لا يجعلنا واثقين من ان هذه المعاملة ، كانت لنفس الأسباب التي دفعته لمعاملة أهل الشمال ، لأنه لم يكن في الجنوب اي شيء يقابل الامبراطورية البيزنطية ، مهما كانت الاسباب التي حملت محمداً على التصرف بهذاالشكل في الحالات السابقة ، فان تصرفه مع جماعة من قبيلة رهاء ، من قبيلة مذحج ،يجب تفسيره بطريقة أخرى . فقد نالت هذه الجماعة هبة سنوية هي مئة حمل من تمر خيبر ، وسبب هـــذا السخاء ان هؤلاء الاشخاص أقاموا في المدينة وتعلقوا مباشرة بمحمد[3] ، ولا يذكر أي اسم بصدد بصدد هذا « الوفد » مـــن الرحاوين ، ولكن يمكن أن يكون زعيمهم مالك بن مرارة (أو مرة) الرحاوي . لأنه يبدو في مناسبات عديدة

---

(١) ابن سعد ٢/١ ٧٣

(٢) نفس المرجع ٢٢ كايتاني ٢/١ ، ٣١٤

(٣) نفس المرجع ، ٧٦

على أنه رسول أمين لمحمد إلى القبائل في الجنوب [1] .

ولقد اقترح علماء أوروبيون حديثاً ، ان محمداً في جهوده للحصول على تأييد قبائل الجنوب لم يفرض شروطاً دينية . ويقول مع ذلك ، العديد من الرسائل ، ان على الأشخاص المرسلة اليهم أن يقوموا بالعبادة ويؤدوا الزكاة . ولكن يمكن أن تكون هذه الجمل ، قد أضافها فيما بعد المفسرون اللاحقون الذين اعتمدوا على فهمهم لتاريخ حياة محمد - فقالوا ان هذه الشروط ، كان يجب أن ترد في هذه الرسائل . لا شي أكيد في هذا التفسير . ولكنه سبب لعدم الاعتماد عليها . و نجد ، من ناحية ثانية ، نصوصاً تتحدث عن تحطيم الاصنام ، وقد ذكرنا « ذا الخلاصة » في تبالة . وأجبر الآخرون على تحطيم أصنامهم بدخولهم الاسلام . مثال ذلك بعض الاشخاص من حمير الذين كانوا يعبدون العصي ، و قبيلة خولان و ذباب من سعد العشير [2] . يبدو إذن أن محمداً ، في بعض الحالات ، وليس في كلها ، وضع شروطاً دينية .

وهناك رواية مفيدة لقصة قيس بن سلمة من قبيلة جعفي (قسم من مذحج) . وهو شخصية عرض محمد الاعتراف بها كزعيم [3] . ولما كان من عادة أفراد القبيلة الامتناع عن أكل قلوب الحيوانات ، فقد صرح محمد بأن إسلامهم لا يتم إذا امتنعوا عن أكل القلب . فأمر باحضار قلب وشواه وحملهم على ترك هذا التحريم الجاهلي ، ويقال بأن قيساً ، بسبب

---

(١) ابن هشام ٩٥٦ ، ابن سعد ١/٢ ٢٠ ممكن ان يكون ان ارسل في الاصل من الجنوب الى محمد ابن هشام ٩٥٥ ، ابن سعد ١/٢ ، ٢٠ ، ٨ ، ٨٤

(٢) نفس المرجع ٣٢ ، ٦١ ، ٧٤ - (٣) نفس المرجع ٦١، ١٤٥ سابقاً

هذا الطلب ولان المسلمين كانوا يؤكدون بان الأقرباء والجدود الذين ماتوا على دين الجاهلية هم في النار ، قطع علاقاته مع محمد .

وليست بعض النصوص، التي ربما سمحت بالقول بأن محمداً عقد اتفاقات دون طلب الدخول في الاسلام ، ليست قاطعة . فهو يطلب في رسالة الى بارق ان تضيف المسلمين المحتاجين الذين يمرون بارضها ثلاثة أيام . وتتحدث رسالة إلى عائلة ذي مرهب عن واجب جميع المسلمين بمساعدتهم .

ولقد احتفظ بنفس الكلمات لمعارضة المستفيدين والتدليل على انهم لم يكونوا مسلمين [1] .

ومع ذلك فالاستنتاج ليس ضروريا ، لأنه حتى لو فرضنا ان المستفيدين كانوا مسلمين فان الرسائل تقرأ طبيعياً . وهناك إمكانية أن يكونوا مسيحيين . وكان محمد يعقد مع المسيحيين اتفاقات دون ان يضع شروطاً دينية .

لا تدل هذه الرسائل إذن بوضوح على وجود اتفاق مع الكفار بدون شروط دينية . حتى انه حين يقال بانه عند وفاة محمد لم يكن الزعيمان اللذان ارسل اليهما جرير بن عبد الله وهما ذو عمرو وذو الكلا لم يكونا مسلمين ، فان هذا مجرد استنتاج لأن جريراً كان لا يزال هناك [2] .

---

(١) نفس المرجع ٣٥ ، كايتاني ٢/١ ، ٣٤٩ ، ٣٠٢

(٢) البخاري مغازي ٦٤،٢٦٥ . راجع فلهوزن ١٠٦،٤ رقم ٢

أما فيما يتعلق بقبائل الجنوب فان النظرية القائلة بان محمداً كان على استعداد لعقد محالفات دون وضع الشروط الدينية ، لا تقوم على اي سبب قوي • فلقد بدأت الاتصالات بالجنوب في السنتين الاخيرتين من حياة محمد • وكان في هذه الاثناء قد قطع علاقاته مع المسيحيين في الشمال ، وطلب ، مقابل استفادتهم من « السلم الاسلامي » ان يصبحوا مسلمين ، أو يدفعوا الجزية •

ومن غير المعقول أن يكون اكتفى باقل من ذلك في الجنوب ، حتى ولو لم يكن هناك مشكلة بيزنطية ، تحمله على الحصول على قرار ، لأنه كانت هناك مشكلة فارسية ، كما كان يوجد الكثير من المسيحيين • لا نستطيع إذن الموافقة على رأي المصادر القديمة القائل بان الكفار الذين عقدوا اتفاقات مع محمد اصبحوا مسلمين • وكانت الاعمال المطلوبة هي أقل ما يمكن ، ولكنها كانت ، على كل حال ، محاولة لاستئصال عبادة الاصنام •

ويبدو أن سياسة محمد نحو المسيحيين في الجنوب ، تشبه سياسته في الشمال • اي انه سمح لهم ، مع بقائهم مسيحيين ، بالدخول في دائرة « السلام الاسلامي » شريطة أن يدفعوا بعض المال يسمى عادة جزية ، ولكن موقف هؤلاء المسيحيين في الجنوب كان يختلف كثيراً • كانت المسيحية في الشمال تدعمها الامبراطورية البيزنطية • امـــا في الجنوب فان المسيحيين بعد نصف قرن من دعم مسيحيي الحبشة (من ٥٢٥ ـ ٥٧٥ م) وقعوا في أيدي الفرس • وكانت الامبراطورية الفـــارسية

زرادشتية وسمياً تربطها علاقات سياسية مع يهود اليمن ، وتسعى لتأييد الصيغة السورية الشرقية أو النسطورية المسيحية، ضد النزعة التي تؤمن بطبيعة واحدة للمسيح . وبالرغم من أن مسيحيي نجران ، في مطلع القرن السابع كانوا نساطرة[1]، فانهم لم يتعلقوا بفارس تعلق مسيحيي الشمال ببيزنطة.

يضاف إلى ذلك أن مفاوضاتهم مع محمد لم تبدأ قبل ٦٣٠ م . وقد قتل الامبراطور الفارسي في شباط ٦٢٨ م ، وأخذت الامبراطورية ، بعد أن انهكتها الحرب مع بيزنطة ، تظهر عليها دلائل الانهيار . لم يكن هناك إذن سبب قوي يمنع مسيحيي الجنوب من قبول عرض جدي يتقدم به محمد .

لدينا بعض المعلومات عن جماعة المسيحيين الرئيسية ، وهم مسيحيو مدينة نجران . كانوا يعيشون في قبيلة الحارث بن كعب التي كان معظم أفرادها كفاراً ، وإن كان محمد قد أرسل رسالة إلى راهب بني الحارث بن كعب وإلى رهبان نجران . وقد جاء وفد من أهل نجران إلى محمد بقيادة أهم شخصيات فيها ، العقيب (ربما كان الحاكم المدني) ، وكان من قبيلة كندة ، ويدعى عبد المسيح . والراهب الذي كان أبا الحارث بن علقمة ، من قبيلة ربيعة ، وشخص ثالث يدعي السيد بن الحارث . فعقدت معاهدة سلام لا يتدخل محمد بموجبها بشؤونهم أو ممتلكاتهم الكهنوتية ويدفع أهل نجران مقابل ذلك ٢٠٠٠ ثوب سنوياً من قيمة معينة ويصبحون حلفاء

---

1 *Tor Androe . Die ursprung des Islam und dos chris tentum. Upsole 1926 chap T*

المسلمين الذين عليهم حمايتهم [1] . وكان عليهم في حالة الحرب ان يعيروا ٣٠ زرداً و ٣٠ فرساً و ٣٠ بعيراً ، وليس عليهم أن يشتركوا في الحرب .

وتسمح لنا رسالة من محمد إلى بعض الزعماء المحليين طالباً منهم دفع الصدقة والجزيـــة إلى عماله ، بالاستنتاج انه وفد إلى المدن مسيحيون لم يسلموا . ولكننا لا نستطيع تقدير عددهم [2] ، وتقول التعليمات الـــتي أعطاها محمد إلى عمرو بن حزم ، حين أرسله إلى نجران بأن كل يهودي أو مسيحي يعتنق الاسلام يصبح له نفس حقوق المؤمن وواجباته . بينما يترك الذين يحتفظون بمسيحيتهم أو يهوديتهم وشانهم بشريـطة أن يدفعوا الجزية ، وهي دينار عن كل شخص ، وذلـك لأسباب عديـدة . من الممكن أن هذه التعليمات قد تغيرت وزيد عليها أثنـاء النقل ، وهي تعكس في حالتها الحاضرة ما كان يعمل في عصر لاحق على حياة محمد [3] وقد ظل كثير من الناس مسيحيين ، ونقلوا إلى العراق ، في خلافة عمر بن الخطاب وأصبح بعضهم مسلمين . ويقال ان العقيب والسيد في وفد نجران ، عادا بعد مدة وجيزة إلى المدينة وأعلنا إسلامهما ، كما أن بعض رجال الوفد الأخير ، الذي جاء إلى محمد ، وكان مؤلفاً من ٢٠٠ رجل من النخع (فرع من مذحج) ، كانوا مسيحيين .

---

(١) ابن سعد ١، ٢، ٨٤، ابن هشام ٩٥٧، ١٠

(٢) ابن سعد ١، ٢، ٢٠، ٧ ابن هشام المرجع المذكور

(٣) ابن هشام ٩٦١ راجع ابو يوسف « كتاب الخراج » بولاق ١٨٨٥ — ١٣٠٢ ، ٤٠ ترجم ١ فانيان ، باريس ١٩٢١ — ١٠٨ كايتاني ٧٢، ٣١٧ – ١٩

يبقى أن نستعرض موقف العنصر الفارسي في اليمن من الردة. سنفصل ذلك بمناسبة ظهور الاسود بن كعب من عنس (جزء من قبيلة مذحج). ويدعى ذو الخمار.

هناك اختلاف في المصادر. وهناك الرواية التقليدية: حمل الاسود السلاح، عند وفاة الحاكم الفارسي في صنعاء نحو ١٠/٦٣٢م، ضد ابنه شهر، الذي كان ولي عهده، وانتصر عليه في المعركة ثم قتله. ودخل صنعاء، وبالرغم من أن الأسود كان قائداً أعلى، فان محالفاته مع مختلف الجماعات الاخرى كانت مزعزعة، لا سيما زعماء هذه الجماعات، ولا سيما قيس بن المكشوح من مراد، وداذويه اللذان كانا يقودان رجالا ينتمون للفرس، مستقلين نسبياً ولهم نفوذ كبير. وقد بدا خلال شهر أو شهرين، ان الاسود كان عاجزاً عن المحافظة على الوحدة في المحالفة. ودبرت مؤامرة له وقتله قيس. يطلق على هذه الحوادث عادة اسم الردة الاولى في اليمن، وتتميز عن الردة الثانية التي قادها قيس (١)

لم تعتمد حروب الأسود على الشعور العربي المحلي ضد الفرس، لأنهم استطاعوا البقاء في صنعاء، بالرغم من وفاة شهر. ويبدو انهم فروا فقط عند ظهور قيس، ولا تتحدث الوثائق عن أي أساس فكري لحركة الاسود، سوى انه كان يقوم بطقوس في العبادة والسحر (٢) ولا

---

(١) ابن هشام ٩٦٤، البلاذري ١٠٦، طبري ١٧٤٥-٩٣-١٨٥٣-٦٨، كايتاني ١٠٢، ٦٧٢-٨٥، فلهوزن ٤، ٢٦.

ويبدو أنه ادعى النبوة بجديد، ولهذا يمكن تفسير نشاطه على أنه [illegible]
في عنصر عربي [illegible]، لتحسين أوضاعه على حساب جيرانه الحبشة، ولم [illegible]
الفرس في المصادر [illegible] الأبناء، لأن أمهاتهم كانت عربيات، وقد امتزجوا
بالعرب المحيطين بهم، حتى لم يكن اعتبارهم في مجالات [illegible] على قدم
المساواة مع سائر الجماعات المتنازعة حول السلطة. ومهما يكن [illegible]
الذين كانوا يتلقونه من فارس قبل ٦٢٨م، فإنهم بعد هذا التاريخ فقدوا
الأمل في الحصول على مساعدات إضافية. وإزاء عجز [illegible] ممزقة، ضعف
الإمبراطورية الفارسية الداخلي بظهور الأسود [illegible] (١)

ولا تسمح لنا المصادر بالقول، ما إذا كان الأبناء قد احتفظوا بشيء
من الزرادشتية الرسمية، أم انهم تبنوا الوثنية العربية التي أخذوها عن
امهاتهم أو المسيحية النسطورية. ومهما كانت معتقداتهم الدينية، فلا
شك انهم اضطربوا لانحطاط الأمبراطورية الفارسية، وكانوا على
استعداد لاتباع زعيم يستطيع أن يؤمن الاستقرار السياسي والديني.

وهكذا كان الفرس في اليمن، أكثر من أي عنصر آخر، [illegible]
على دعاية محمد. ومن الممكن إذن أن يكون باذان، الحاكم الفارسي، [illegible]
أو ابنه قد بدأ المفاوضات مع محمد، ولكنها مفاوضات سياسية محضة.
ومن الممكن أيضاً أن يكون [illegible] من الأبناء، وهو فيروز بن الديلمي، قبل
ظهور الاسود، قد مال إلى الاسلام، كما ظهر منذ البداية ان الاسود كان معاديا
للاسلام. وقد أرسل محمد عملاءه إلى الأبناء، فانضم هؤلاء إليه واتفقوا

(١) [illegible]

الاسلام . ومع ذلك يصعب القول إلى أي حد كان عملاء محمد مسؤولين عن المؤامرة التي قضت على الأسود . وبالرغم من وجود جملة أو جملتين في المصادر تتضمن عكس ذلك ، لم يكن قيس بن المكشوح على اتفاق مع محمد ، لأننا لا نسمع صراحة انه اعتنق الاسلام ، أو انه زار المدينة قبل ان تأسره جيوش أبي بكر . وليس انصراف الابناء عنه بسبب عدائه للفرس ، بل بسبب معارضته لمحمد والاسلام . لجـأ فيروز إلى قبيلة خولان التي كان ينتمي اليها والتي ظلت موالية لقضية الاسلام أثنـاء الردة[1] . ويبدو ان قصة ارسال المهاجر بن أبي أمية « للاهتمام بقوات الاسود العنسي ، ولمساعـدة الابنـاء ضد قيس ابن المكشوح[2] . تشير الى ان الابـناء احتلوا مكانة رئيسية في الستراتيجية الاسلامية في اليمن .

ويقال بأن موت الاسود حدث قبل أيام من موت محمد . واستمر قيس ، بمساعدة عمرو بن معد يكرب من زبيد ، في حركته المعاديـة للاسلام ، ثم دب النزاع بينهما ، ووقعا في يدي المهاجر . ويدل انهيار الردة الثانية عند ظهور جيوش المسلمين القليلة العدد ، التي ربما قدمتها القبائل المحلية ، على ان معظم السكان ، ما عدا المسيحيين واليهود ، اصبحوا الآن مسلمين ، بينما ظل المسيحيون واليهود حلفاء محمد . ربمـا كان اعتناق الاسلام اسمياً حسب الافكار الاوروبية الحديثة ، غير أن

---

(١) الطبري ١٩٩١ ، راجع البلاذري ... وكايتاني ١/٢ ، ٦٠٤ الغزوة ضد جولان.

(٢) طبري ١٨٨٠

العنصر الديني كان موجوداً ، وإذا تمثلنا بحديث إسلامي ، فانـــنا لا نستطيع فتح قلوب الناس للحكم إلى أي مدى كان إسلامهم صحيحاً .

٦ـ القبائل في سائر شبه الجزيرة العربيّة

مهرة :

إذا نظرنا الآن جغرافياً ، إلى بقية القبائل في شبه الجزيرة العربية ، مبتدئين من الجنوب الشرقي ، ومتجهين نحو الشمال ، فاننا نقع أولا على قبيلة مهرة . ويبدو ان جماعتين أسلمتا [1] ، ولكنهما كانتا بدون شك صغيرتين لاننا نجد اثناء حروب الردة ، ان هناك بطنين في القبيلة ، لم يسلما [2] ، ويذكر اسم الذين اعتنقوا الاسلام بصدد الحروب ، ويفسر لنا ابتعادهم عن المدينة قلة الاتصالات .

أزد عُمان :

كما يساعد البعد ايضاً على تفسير صورة الحركة نحو الاسلام وبعيداً عنه في عمان والبحرين . ويبدو ان الامير واخاه ، جيفر وعبـــاد (او عبد) ابن الجلندا ، في عمان ، حيث كان يسيطر قسم من قبيلة أزد ، قد قاما بنفسيهما بالعروض الاولى على محمد . فارسل عمرو بن العاص لمفاوضتهما . وقد تردد جيفر في التخلي عن السيادة بالقدر الذي طلبه

«١» ابن سعد ١/٢ ، ٨٣،٣٤

«٢» طبري ١٩٨٠ ـ ٢

محملات . ولكن أرجاء القبيلة أيضاً لا يقبلون الشر ... المعروفة في ... فقام عمرو

إذن ببعض المهمات التشريعية ، كما أشرف على جمع الصدقات وكان

يأخذها من الاغنياء ويعطيها للفقراء[1] . وهذا دليل على وجود اضطراب اجتماعي في عمان ، وإن كنا لا نستطيع تحديد أشكال هذا الاضطراب ، ولا شك ان الاضطراب المتزايد في فارس قد قام بدور كبير .

ومع ذلك وبالرغم من الاجراءات التي اتخذها عمرو بن العاص ، وارتقاء جماعات أخرى تنتمي لأزد عمان[2] ، فان الحزب الاسلامي كان ضعيفاً . وعاد عمرو بعد وفاة محمد إلى المدينة بينما لجأ جيفر وعباد إلى الجبال ، فقد وجدت القوات المعادية للاسلام ومعظمها من البدو قائداً لها في شخص لقيط بن مالك ، ولم تهزم إلا حين استطاع جيش اسلامي اقبل من الخارج الانضمام إلى المسلمين المحليين[3] .

عبد القيس :

كان الحزب الاسلامي في البحرين ، أقوى نسبياً منه في عمان ،

[illegible] البحرين

ينتمون للقبيلة عبد القيس ... بكر بن وائل وتميم أيضاً ... وكان

سكان المدينة يضمون فرساً ونسطوريين ويهوداً أيضاً ... وكان ... من

[illegible] على اتصال بالمدينة ... بعضهم ...[4] ...

[illegible]

«١» نفس المرجع ٨٠

«٢» نفس المرجع ٨٠

«٣» طبري ١٩٧٦ — ٨٠

«٤» ابن سعد ١/٢ . ١٩٠ . كايتاني ١١١٠ . ١٩٣ — ٩١١٦ فلهوزن ٨٤

كثيراً من التفاصيل التي حفظت لنا ، غامض لسوء الحظ ، فلا نعلم شيئاً عن العلاقات بين مستعمرة هجر والبحرين ، كما لا نفهم العلاقات بين حاجب كل منهما ، وأقرب فرضية ، هي القول بأن هاتين الشخصيتين وكذلك المنذر بن ساوا ، النصير الرئيسي المحلي لمحمد أثناء حياته ، كانا حاكمين عربيين خاضعين للنفوذ الفارسي وبمساعدة فارسية . وربما كانا مسيحيين ، كملك الحيرة الذي كان يهتم بالعرب باسم الامبراطور الفارسي . وعلى كل حال فقد كان الجارود بن معلا الذي انضم إلى حزب الموالين اثناء الردة مسيحياً [1] ، وكما ان انحلال الامبراطورية الفارسية دفع بهذين الرجلين إلى الالتجاء لمحمد ، وإن كانت المسافات الشاسعة التي تفصلها عن المدينة ، تجعل من الصعب إرسال مساعدة عسكرية إليهما [illegible]

[illegible] وفد عبد القيس الى المدينة ، سنة فتح مكة ٦٣٠م/٨هـ فهو انضم من أوائل الوفود [2] [illegible]

واستمرت الاضطرابات في البحرين ما بين مجيء الوفد ووفاة محمد ، وذلك خلال سنتين تقريباً . وكانت الحركة الموالية للاسلامية تارة تتقدم وتارة أخرى تتأخر ، كما يبدو أنه حدث ارتداد عن الاسلام وبعد الحلول فقدان التأييد العسكري من المدينة ، موقف عملاء محمد صعباً ، وكان رئيسهم العلاء بن الحضرمي ، وهو حليف مكي ، وبلغت الصعوبات ذروتها بوفاة المنذر بن ساوا التي وقعت في نفس الوقت الذي

(١) نفس المرجع ١٩ (٢) نفس المرجع ٤ هـ [illegible]

توفي فيه محمد . ولم يكن لوفاة محمد سوى تأثير غير مباشر على سياسة البحرين . ولقد خيل للحزب المعادي للاسلام، لوجود زعماء أقوياء معارضين للاسلام بينه وبين المدينة ، أن الفرصة سانحة لتأسيس امارة مستقلة . وكان القائد العسكري الحطم بن دبية من قبيلة بكر بن وائل، وكان المخطط يقوم على تعيين أحد أفراد العائلة المالكة في الحيرة أميراً أو ملكاً . وقد فاز الحزب الاسلامي بتاييد الجارود ، كما رأينا ، ولكنه لم يكن من القوة بحيث يتغلب على أعدائه حتى جاء العلاء بجيش من الخارج .

حنيفة :

نملك عن حنيفة معلومات أكثر من غيرها من القبائل ، ولكن من الصعب استخراج صورة متناسقة منها . والمشكلة الرئيسية هي مشكلة العلاقات المتبادلة بين أربعة أفراد أو جماعات كانوا على اتصال بصورة ما بمحمد ولاسيا هوذه، وثمامة، عضوا «الوفد» ومسليمة . وكانت إحدي الرسائل التي أرسلها محمد بعد عودته من الحديبية موجهة إلى هوذة بن علي من حنيفة [1] . وكان هوذة في تلك الأثناء أقوى رجل في شبه الجزيرة الوسطى . وكان حليفاً للفرس ، كما كان مسؤولا عن سلامة القوافل في بعض أجزاء الطريق من اليمن إلى فارس .

نستطيع أن نستنتج من ذلك انه بالرغم من أن معظم أفراد حنيفة

(١) ابن سعد ٢/١ ، ١٨ ابن هشام ٩٧١ .

كانوا يعيشون من الزراعة ، فان هوذة كان ينتمي إلى البدو في القبيلة . وكان عدواً لتميم ولا سيا سعد . وربما كان مسيحياً كالكثيرين من أفراد حنيفة [١] .

وتقول المصادر ان الرسالة التي كتبها محمد له كانت عرضاً للدخول في الاسلام ، وكان الرد انه يرضى إذا شارك في إدارة شؤون الدولة . ربما يكون ذلك ، أو لا يكون ، محتوى الرسائل . ويبدو أن هوذة استقبل استقبالا حسناً مندوب محمد ولكنه لم يسلم . ويقال بانه مات سنة ٦٣٠م / ٨ .

ويروى عن الرجل الثاني ثمامة بن أثال ، ان المسلمين أسروه في إحدى الغزوات ودخل في الاسلام بسبب سخاء محمد [٢] .

ليس هناك إذن من سبب جدي لنكران أن يكون مسلماً أو ميالاً للاسلام نحو سنة ٦٣١م/١٠ . وقد أرسل محمد قبيل وفاته ، حين بدت له النذر التي تنذر بهبوب العاصفة المقبلة، الرسل إلى مختلف الزعماء الأصدقاء ومنهم ثمامة [٣] ، فاصبح ثمامة إثر ذلك زعيم مسلمي حنيفة وقام بدور مفيد في الردة [٤] . ومما يثير الشك ان ابن هشام يتحدث عن محمد وهو يكتب إلى ثمامة وهوذة « ملكي اليمامة » [٥] .

---

(١) كوسين دوبرسفال ج ٢ ، ٤١٤-٨ ، ٥٧٥-٨

(٢) ابن هشام ٩٩٦ (٣) طبري ١٧٩٨

(٤) نفس المرجع ١٩١٠ ، ١٩١٦ ، ١٩٦٢ ، ١٩٧١

(٥) ٩٧١

فاذا كانا ملكين في نفس الوقت على فرعين من القبيلة، فان ثمامة كان أضعف في السلطة . وإذا كان ذلك يعني ان ثمامة خلف هوذة، فإنه لم يرث كل نفوذه ، لأن القسم الأكبر مـــن القبيلة كان يتبع مسيلمة. ونستطيع القول ان ثمامة كان زعيم القسم البدوي مـــن القبيلة ، وكان سيخلف هوذة كعميل فارسي ، لو ان فارس لم تكن في طريق الانحلال.

ثالثاً : هنالك أفراد الوفد الذي ذهب إلى المدينة واعتنق الاسلام[1] وكان زعيمه مسلم بن حنظلة ، وأحد أعضائه الرحال (ونهار الرجال) بن عنفوة الذي أصبح فيما بعد أهم أنصار مسيلمة . ويقال بأن مسيلمة نفسه كان عضواً في الوفد[2] ، ولكنه كان مسؤولاً عن الجمال والأحمال فلم يلق محمداً . وربما اضيف اسمه في الرواية ، لأن أنصاره كانوا يذكرون قولاً لمحمد عنه ، للتدليل على أن محمداً كان يعتبره نبياً[2].

نستطيع التاكيد إذن بان مسيلمة لم يكن عضواً في الوفد ، ونصل الآن إلى الصعوبات ، هل أرسل الوفد هوذة أم ثمامة ؟ أم انه جاء من تلقاء نفسه ؟

الأقرب هو الفرض الثاني ، ولا شك ان الزيارة حدثت بعد وفاة هوذة . وتألف الوفد من الرجال النافذين من القسم البدوي من القبيلة

على الاقل . فقد كانت الحالة في ٦٣١م ، بعد وفاة هوذة وانحطاط فارس،

---

(١) ابن سعد ٥٥،٢/١

(٢) ابن سعد ٥٥،٢/١ ، طبري ١٩٣٢ ، ١٩٤١ ، ابن هشام ٩٤٦

تدفعهم إلى البحث لكن تستند في المدينة. وكل شيء يحملنا على القول بأن مسيلمة لم يعلن نفسه نبياً أثناء ذهاب الوفد، وأن الأنصار كانوا قلة ثم نجد مسيلمة نفسه يدعى بالنبي الكذاب. ويقال إنه في نهاية السنة العاشرة للهجرة (مطلع ٦٣٢ م)، كتب مسيلمة إلى محمد، كما يكتب نبي لنبي آخر، وعرض عليه اقتسام البلاد بينهما. فأجاب محمد وأنكر عليه حقه في النبوة (١).

حتى لو كانت القصة مزورة، فقد جرت محاولة للمفاوضة، وظهر مسيلمة قبل وفاة محمد كزعيم لحركة سياسية ودينية. ويبدو أن الطابع الديني كان صحيحاً، ومن الطبيعي أن نفكر بأن مسيلمة اهتم منذ زمن طويل بالمسائل الدينية، فكان أشبه بالواعظ. ولقد قيل (٢) بأن مسيلمة أعلن نبوته قبل محمد. ويقال بأن أعداء محمد أكدوا بأنه تلقى الوحي من رجل من اليمامة اسمه الرحمن (٣). وربما كان هذا يتعلق بمسيلمة الذي وإن تلقى وحياً من الرحمن (٤) كان يسمى هو الرحمن، ولكن

(١) ابن هشام ٩٦٥؛ ابن سعد ١/٢-٣٥

(٢) د. ج مرجوليوث:

« On The origin and Import of the Names Muslim and Hanif ». Journal of the Royal Asiatic Society, 1903, 485. oppos. C. J. Lyall «the Words Hanif» auq «Muslim» ibid 771, 84 cf F. Buhl, art Musailima dans E,I

لا مجال للقول بأن صيغة التصغير للاحتقار فقد انتشر استعمال صيغ التصغير كأسماء عادية مثل خويلد والد خديجة وطليحة

(٣) ابن هشام ٢٠٠

(٤) الواقدي ٨٥، طبري ٢٩٣٥، كايتاني ٢/١٠١، ٦٤ رقم ١

الاعتبارات العامة لا تسمح لنا بالقول بأن مسيلمة كان له نشاط خلال الفترة المكية من حياة محمد ضده . ويبدو من الاقرب ان الادعاء بأن محمداً تلقى الوحي من رجل من اليمامة اسمه الرحمن ونسبة اسم « الرحمن » لمسيلمة هو من عمل الدعاية المعادية للاسلام التي كان ينشرها أنصار مسيلمة معتمدين على استعمال الاسم في القرآن ، وارتباطه الخاص باليمامة [١] . ويمكن الشك في قصة الواقدي ، التي تقول بأن مسيلمة كان معروفاً باسم الرحمن قبل الهجرة ، لانها تناقض روايات أخرى [٢] .

وأوثق شيء القول بأنه مهما كانت طقوس مسيلمة وتجاربه الدينية في الماضي ، فانه لم يحظ بأية شهرة في قبيلته الخاصة ، ولا في الخارج قبل موت هوذة .

ولقد حفظت لنا المصادر الاسلامية ، رغم محاولتها تشويه سمعة مسيلمة ، بعض التفاصيل الصحيحة عن عقيدته . كان يستخدم السجع كما هو الحال في سور القرآن الاولى . وكان يلح على الاستقامة في الحياة ويقول بالبعث والحساب الاخير ، حسب اعمال الانسان في الحياة ، وقد فرض الصلاة ثلاث مرات في اليوم والصيام ، وأقيم معبد في اليمامة [٣] ويوجد مقطع مهم حيث يقسم مسيلمة بالفرس والحصاد والطحن والخبز يقول بأن قومه أفضل من أهل الوبر والمدر [٤] . ويدل القسم والدعوة

---

(١) ابن سعد ١/١ ، ١٨٠ ، ٢٦٦ ،

(٢) الواقدي ٥٨ ، يذكر عبد عمرو كاسم اصلي للرحمن بينما ابن سعد يذكر عبد كعبة .

(٣) طبري ١٩١٦ ، ١٩٣٠ – ٥ كايتاني ٢٠١ ، ٦٣٦–٤٠ (٤) طبري ١٩٣٤

إلى الدفاع عن ريفهم ، ان الذين يتحدث اليهم مسيلمة كانوا من المزارعين.

يتضح من المسائل التي ذكرناها وغيرها كاستعمال التعبير « ملك السما» [1] ، ولأن المسيحية كانت منتشرة في حنيفة، ان مسيلمة تأثر بشكل قوي بالمسيحية ، ولا سيا ببعض النزعات الزهدية . وإذا تذكرنا ان الانتشار السريع لدعوته وقع حوالى ٦٣٠ م ، بعد وفاة هوذة ، حين لم يذهب كل أمل في الحصول على مساعدة فارس ، يتضح أن تعاليم مسيلمة تحاول إقامة أساس ديني وفكري لامارة مركزها اليمامة ، مستقلة عن فارس وبيزنطة والمدينة ، ويقول تعليم غريب ، وهو أنه لا يجوز للرجل ان يتصل بامرأة اتصالا جنسياً طالما ان له ابناً على قيد الحياة . وربما كان هذا التعليم للمساعدة على إقامة أساس اقتصادي للامارة [2] فلقد كان لزوال التجارة بين اليمن وفارس نتائج وخيمة في اليمامة .

لم يكن مسيلمة إذن مجرد مقلد بسيط لمحمد لأنه نهض بمعالجة مشكلة تختلف عن مشكلة محمد، وربما تأثر بالمسيحية المحلية أكثر من تأثره بمحمد ويبدو مع ذلك ان فكرة إقامة دولة ، أو نظام سياسي ، جاءت من المدينة . وربما خطرت هذه الفكرة للرحال ، حين اخذ يفكر فيما رآه ،أثناء زيارته للمدينة بصحبة الوفد . وسواء خطرت الفكرة للرحال أو لمسيلمة ، فان تنظيم الدعاية وامتداد الحركة ، ربما بدأ بعد وقت قصير من عودة الوفد .

ولقد ارتد بعض أعضاء الوفد عن الاسلام ، وانضموا للحركة

---

(١) طبري ١٩٧٧ ، ٢

(٢) طبري ١٩١٧

الجديدة ، ولا نعرف الشيء الكثير عنه ، لنقول ما إذا كان يستطيع ، لو انتصر على المسلمين في ميدان القتال ، إيجاد نظام للعرب يشبه نظام المدينة . ولا نجد ذكراً للجهاد في عقيدة مسيلمة . وهنا جزء من الأساس الاقتصادي الضروري للوحدة العربية والأساس الفكري للتوسع العربي . ومهما قيل عن مخيلة ومهارته في سياسة الرجال ، فانه لم يكن نداً لمحمد باتساع نظرته وبعد نظره . هذا ولم يهمل ، من ناحية ثانية ، الحقائق السياسية في عصره ، ولهذا لا يمكن اعتباره مجرد متحمس أو صاحب خيالات وأوهام .

وكان الخطر الذي واجهته الخلافة الوليدة هو تحدي مسيلمة ، وكل ما يجب ملاحظته ، فيما يتعلق بخلفاء محمد ، هو ظهور هذه الحركة والجذاب معظم أفراد حنيفة إليها .

تميم

انتشرت قبيلة تميم في المنطقة الواقعة بين اليمامة ومدينة الحيرة . وكانت بعض فروع القبيلة على اتصال متين بهذه المدينة . كما كان العديد من القبيلة مسيحيين ينتمون للكنيسة السورية الشرقية (الكنيسة النسطورية) وقد أقيمت إنشاءات حضرية في هذه المنطقة ، ولكن يعتقد انــه كان يسكنها قبائـــل أخرى ، وان تميماً ظلت

بدوية

وكان أول من اعتنق الاسلام مـن تميم الأقرع بن حابس ، الذي انضم لمحمد وهو في طريقه لفتح مكة ، وبصحبته عشرة رجال . فعامله محمد باحترام شديد ووهبه مئة بعير في الجعرانـة . وتجعلنا حوادث لاحقة نشعر بأن الأقرع يكن من زعمـاء تميم ، وكانت إحاطته بالاحترام تهدف لاثارة غيرة عيينة بن حصن مـن غطفان ، أو استمالة أفراد آخرين من تميم . وربما دخل الأقرع في الاسلام بعد الجعرانـة بقليل . ويشكل هذا الحادث بصدد قصة المباراة الغريبة في المفاخرة والشعر تحدى فيها بعض رجال تميم محمداً [2] .

ونجد قصة الفتح منفصلة عند ابن هشام ، غير أن الواقـدي وابن سعد ، يخلطانها بغزوة قادها عيينة بن حصن . فقد أرسل محمد في نيسان ٦٣٠ م إحدى الطلائع الحسنية التابعة للمهاجرين والرجال إلى الخارج لجمع الصدقات ، واستقبل الذي أرسل إلى بني كعب من خزاعة استقبالا حسناً ، ولكن رفضت جماعة صغيرة من تميم ، كانت تسكن بينها ، دفع الصدقات ، فقام عيينة على رجالهم ومعاقبتهم ، فقتل بعضهم وأسر خمسون من الرجال والنساء والاطفال ، وحملوا إلى المدينة . فجاء وفد من رجالات تميم يطلب إخلاء سبيلهم . ويثير هذا الحادث مسائل عديدة [1] . لمـاذا

(١) كايتاني ج٢ ، ١٠٢ ، ٢١٨ ، الواقدي ٣٨٦ ، هـ . شارل . المسيحية عند العرب البدو على الحدود وفي صحراء سوريا وآسية الصغرى حوالى الهجرة ، باريس ١٩٣٦ ، ٥٥ ، ٦٠ .

(٢) ابن هشام ٨٧٧ – ٨٣ ، الواقدي ٣٢٧ ، ٣٠٦ ، ٣٨٥

وجدت جماعة من تميم بعيدة عن مواطن القبيلة الاصلي ؟ ولم يكن بعيداً عن مكة ، وربما كان في الشمال الشرقي منها [١] • هل كان أفراد الجماعة مسلمين ؟ وإذا لم يكونوا (كما يبدو) لماذا طلب اليهم دفع جمال إلى المدينة ؟ هل لانهم كانوا مؤقتاً في خزاعة لانهم في حمايتها ؟ هل حدثت المباراة الشعرية والخطابية في نفس الوقت الذي جرت فيه المحادثات بشأن الاسرى ؟

ربما كان الجواب على السؤال الاخير سلبياً ، ولكنه ليس مهما في ذاته . أما المهم فهو معرفة من الذي أسلم من زعماء تميم ، إذا حدث ذلك . وتشبه القائمة التي يذكرها ابن هشام باسماء الذين شهدوا المباراة قائمة الواقدي • واهم الاسماء هي أسماء عطارد بن حاجب (الخطيب) ، الزبرقان بن بدر (الشاعر) ، قيس بن عاصم والاقرع بن حابس • ولا يظهر في قائمة ابن هشام سوى الاخيرين في عداد الذين جاؤوا للمفاوضة في مصر الاسرى • ويختلف الآخرون في هذه القائمة عن القائمة السابقة • إذ ان اهمهم هو صبرة بن عمرو • ويجب أن نلاحظ، عدا الاسماء، انه بينما نجد عند ابن هشام اعضاء الوفد في المباراة يصبحون مسلمين

---

(١) نجد عدة روابط بين تميم وقريش : اسماء بنت مخربة ، ام ابي جهل ، عائشة . . الخ كانتا من تميم وكذلك ام فراس بن النضر « ابن سعد ١٠٤ » كان لابي جهل حليف هو يزيد بن عبد الله من تميم « ابن هشام ٥٠٩ » الواقدي ٨٢ ، والد سعيد بن عمرو ، حليف سهم ، كان من تميم ابن سعد ١٠٤، ١٤٤ . لا يفسر لنا هؤلاء الاشخاص وجود بعض أفراد من تميم بالقرب من مكة وان كانوا هم نتيجة لذلك •

بعده ، فانه لا يذكر هذا الأمر عند الواقدي وابن سعد ، ولا يتحدث ابن الاثير ، وهو كاتب لاحق ، إلا عن الاقرع بأنه أسلم [1] . وإذا كان هذا كل ما في الامر فانه ، من الممكن تنسيق مختلف الروايات . غير ان رواية أخرى تضطرنا إلى الشك فيما يتعلق باعتناقه الاسلام . إذ أن الاشخاص المسؤولين عن صدقات تميم ، في أواخر حياة محمد ، كانوا مالك بن نويرة ، الزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وربما أضيف اليهم رجل أو رجلان آخران [2] . غير ان مالكا بن نويرة لا يذكر على أنه عضو في وفد ، او انه أسلم ، ولا نستطيع الاعتقاد بانه حذف اسمه لو كان حاضراً ، كما يبدو انه كان زعيم القبيلة ، وجامعو الصدقات في تميم ليسوا سوى زعماء مختلف جماعات القبيلة [3] .

ولما كان مالك بالتأكيد غير مسلم ، فيجب ان يكون كذلك الزبرقان وقيس بن عاصم . نستطيع إذن أن نستنتج انهم إذا كانوا أعضاء في وفد إلى المدينة فانهم لم يسلموا بل توصلوا إلى نوع من التفاهم مع محمد ، هو عبارة عن تحالف واتفاق لدفع الصدقات .

---

(١) اسد ، المرجع المذكور

(٢) ابن هشام ٩٦٥ ، طبري ١٧٥٠ ، ١٩٠٨

(٣) نذكر اسماء الاشخاص التالين على انهم زعماء عند الطبري ١٩١٠ ، كايتاني ٢/١ ٦٢٥ ، روايات اخرى عند كوسين دوبرسفال ج٢ ، ٦١٤ — ٦٣

تقسيمات القبيلة		زعيم رئيسي	زعماء آخرون
الرباب — دبه		الزبرقان بن بدر	عبد الله بن صفوان
— عبدمناة		»	
معدبن زيدمناة	عوف	الزبرقان بن بدر	

ولا نعرف على التحقيق ما حدث خلال الردة في تميم ، وذلك لأن سيف بن عمرو كان من تميم ، ويعتقد بأنه حمى ردة قبيلته ، ولأن أعداء خالد بن الوليد شوهوا الروايات لتشويه سمعته .

ويدور الاهتمام حول امرأة تدعى سجاح كانت تدعي النبوة ، وكان أبوها من تميم ، ولكن أمها كانت تنحدر من قبيلة مسيحية هي قبيلة تغلب الضاربة إلى الشمال ، وربما عاشت سجاح فترة من الزمن بين تغلب وكانت على كل حال مسيحية . وقد ادعت النبوة بعد مسيلمة وطليحة ، وقبل وفاة محمد . وأيدها عسكريا أنصار ليسوا من تغلب ، كما مال اليها في أول الامر عدد من زعماء قبيلتها ، مثل مالك بن نويرة ، غير ان النتيجة الرئيسية لظهورها ، كانت اثارة الاختلافات بين مختلف بطون تميم ، وقد تصدى لجيشها بعض الجماعات التي مزقتها شر ممزق وهزمتها . ثم أفل نجمها بعد ذلك بسرعة . وسارت نحو اليمامة تبحث عن الحماية أكثر من بحثها عن بلد جديد تحتله بينما كانت تميم تعقد معاهدة السلم مع المسلمين ، فأمر خالد بن الوليد بقتل مالك بن نويرة ، كما يبدو ، لأنه كان أكثر الاشخاص اتصالا بقضية سجاح بينما احتفظ الزعماء الآخرون بمراكزهم(١) .

اعتنق إذن ، في حياة محمد ، القليل من تميم الإسلام ، ولم يكن بين هؤلاء كبار الشخصيات ، وربما كان منهم الأقرع بن حابس ، وسفيان بن العذيل ، وهو مجهول مع عائلته ، ولا شك الحتات بن يزيد الذي

(١) طبري ١٩٠٨–١٥ ، كايتاني ٢/١ ، ٦٢٩ – ٣٥، ٦٥١–٦١

آخاه محمد مع معاوية بن أبي سفيان[1] .

ويبدو من ناحية اخرى ان معظم تميم تحالف مع محمد ووافق على دفع الصدقات . وليس ذلك بمستغرب بالنسبة للسرعة التي ذاع فيها اسم محمد وضعف فارس والحيرة . أما تكليف الزعماء القدماء بجمع الصدقات ، فانه يؤكد الرأي بان تميما لم تكن مسلمة ، لأن ذلك كان الاتفاق مع الطوائف غير المسلمة في الأزمنة اللاحقة . ويمكن أن تكون الصدقات قد حفظت لتوزيعها على فقراء القبيلة ، ولم تكن القبيلة كلها على دين واحد . وربما كانت المسيحية تكاد تكون الديانة الرسمية ، ولكن اعتناقها الاسلام كان اسميا ، ولم يغير إلا قليلا آراء أفراد القبيلة ومثلهم العليا ، وكانت آراء العرب البدو ومثلهم[2] .

وربما كان بينهم بعض الزرادشتيين . ولقد بدا لمحمد ان وجود نزعة توحيدية غامضة ، وعدم وجود الوثنية يبرر عقد تحالف مع هذه القبيلة . إذ ان ديانتها لم تربطها بفارس ، كما ربطت المسيحية قبائل الشمال إلى بيزنطة . بل على العكس من ذلك كان رجال تميم على استعداد لغزو أرض فارس ، فكانوا بذلك حلفاء ممتازين للمسلمين .

ولا نسمع عن عقيدة خاصة بسجاح . وربما كانت هذه العقيدة تقوم على معتقدات القبيلة المسيحية مع بعض الشرائع في القضايا العملية أي

---

(١) ابن سعد ٢ ١٠٢ ٤١ ، ابن هشام ٩٣٣

(٢) راجع المعارك داخل القبيلة ، ابن سعد ١/٢ ، ٥٢ - ٥٩

السياسية. كما يمكن أن تكون محاولة لاستبدال معتقدات تغلب[1] التي تؤمن بطبيعة واحدة للمسيح بمعتقدات تميم النسطورية . ولكن تنقصنا المعلومات عن ذلك ولن نجد على كل حال شيئاً كثيراً ، حول علاقات القبيلة ببقية المسيحيين لأن ظهور نبية في القبيلة يستدعي استقلالها الديني . و بينما كانت الحالة الاجتماعية المتغيرة وظهور المدينة مع أفول فارس يشجع تقدم مثل تلك الحركة ، يبدو ان سجاحاً لم تحاول التعرض للمشاكل الاجتماعية . ولربما كنا ظالمين لهذه الشخصيات الغامضة بسبب سكوت المصادر عنها . ومع ذلك فان الشعور الذي نستخلصه من المصادر هو ان قضية سجاح لم تكن سوى قصة جديدة تقوم على مؤامرات الصحراء القديمة ، فقد أملت سجاح أن تحصل على بعض السلطة لنفسها ، كما أمل مالك بن نويرة أن يستخدمها لزيادة نفوذه . ويقال بانه شجعها على عدم مهاجمة المسلمين بل الاهتمام بالشؤون القبلية الداخلية . ولا يبدو مع ذلك انه قاتل من أجلها .

بكر بن وائل و تغلب :

هاتان القبيلتان القريبتان في النسب مشهورتان في تاريخ الجاهلية بمآتيها الكثيرة ، ولا سيما الحرب التي نشبت بينهما سنين طويلة . كانتا مسيحيتين تؤمنان في غالبيتها بطبيعة واحدة للمسيح ، بالاسم على الاقل ،

---

(١) راجع شارل ، المرجع المذكور ٦٤، ٧٦

عند فتح مكة [1] .

وكانت بكر ، بعض الوقت ، حليفة لملوك الحيرة ، كما انتصرت على الفرس في معركة ذي قار الخطيرة (حوالى ٦١١ م) [2] . ولم تكن القوات التي استخدمت في هذه المعركة كبيرة ، فكانت أشبه بمناوشة منها بمعركة . ومع ذلك فقد أثرت في موقف القبائل العربية من الفرس ، وجعلتهم يدركون انه لا يوجد في فارس مجال ممكن للنهب والسلب . ويبدو ان بعض أجزاء بكر عاشوا مدة كافية في الغرب حتى تحالفوا مع البيزنطيين [3] .

لدينا معلومات عن « وفود » جاءت من بكر وتغلب إلى محمد ، وكذلك من شيبان ، وهي من بطن مهم من بطون بكر ، وكانت السبب الرئيسي في انتصار ذي قار [4] .

ومع ذلك لا يبدو أي شخص يذكر في هذه الاخبار انه كان له نفوذ كبير ، ونستخلص من ذلك انه لم يسلم أي بطن مهم من بكر أو تغلب ، ولهذا يبدو لنا غريباً نداء العلاء بن الحضرمي ، بعد الهزيمة الاولى في البحرين إلى « من أقام على إسلامه » من بكر بن وائل لمنع الفارين ، كان هؤلاء الفارون من قبيلتهم ، ولكن جماعة صغيرة فقط من بكر اشتركت مع الحطم في ردة البحرين . والزعماء المذكورون في هذا النداء

---

(١) شارل ، المرجع المذكور ٣ ، فلهوزن ٧٥،٦٤ كايتاني ٢٠١ ، ٢٩٩

(٢) نفس المرجع ٢٣٧ ،

(٣) الواقدي ٣١١

(٤) ابن سعد١/٢ ، ٣١ ، الواقدي١٠٠ اسلام رجل من عجل فرع من بكر بن وائل

هم : عتبة بن النحاس ، عامر بن عبد الاسود ، مسمع ، خصفة التيمي والمثنى بن حارثة الشيباني[1] . كانوا بدون شك زعماء مختلف بطون بكر . وربما كان أعظمهم المثنى الذي قام بدور كبير في غزو العراق ، وسكوت أقدم المصادر عن اعتناقهم الاسلام ، يعني ان هؤلاء الرجال لم يكونوا مسلمين ، غير ان النداء الذى وجهه اليهم العلاء يستدعي أن يكونوا على علاقات طيبة مع المسلمين ، والقول بأنهم مسلمون اوفياء ، هو تقدير خاطىء للوضع على لسان مؤرخ لاحق ، ويستفاد من ذلك انهم كانوا حلفاء للمدينة وظلوا أوفياء للحلف .

أما ما عدا ذلك فهو مغامرة في ميدان الفرض والتخمين . ويجب علينا مع ذلك ان نغامر لأننا أثرنا مشكلة وضع كل من المسلمين والقبائل الشرقية في المحالفة بينهما وفي التقدم ضد فارس . فهل كانت القبائل (ومعها المثنى كوريث للمنتصرين في ذي قار) تسير ضد فارس ، وهل طلب محمد (وخالد بعد استتباب الامن في اليمامة) بتواضع أن ينضم اليها ؟

ام ان المسلمين أثاروا انتباه المثنى وغيره حول إمكانية غزو فارس؟ يكمن الجواب بين هذين الطرفين . كانت بكر وتغلب في وضع قوي للمساومة ، فهما بعيدتان عن المدينة ، كما انهما قويتان عسكرياً ، ولا شك ان المسلمين هم الذين قاموا بالمبادرة لتاليف الحلف ، وربما محمد نفسه في نهاية حياته ، ويبدو ان المسلمين قنعوا بمحالفة لا تدفع بموجبها

---

(١) الطبري ١٩٧١

بكر وتغلب الصدقـــة ، وعلى كل لا نجد ذكر دفع أي شيء في الفترة الاولى .

ولا يمكن أن تكون بكر وتغلب فكرتا باكثر من القيام بغارات قصيرة على فارس . هذا وإذا كان ما قيل عن سياسة محمـــد في الشمال صحيحاً ، فانه حاول إيجاد متنفس لطاقات العرب وليمنعهم من التناحر فيما بينهم ، فلقد كرس كل انتباهه لطريق سورية على انها مجال التوسع الاسهل للقادم من المدينة . ولكنه في السنتين الاخيرتين من حياته، بسبب ازدياد عدد القبائل المتحالفة معه او الخاضعة له ، ظهر له مجـــال ثان للتوسع نحو العراق . ولا شك ان محمداً هو الذي سعى لمحالـــفة بكر وتغلب ، كما ان نظريته الستراتيجية هي التي فرضت التطورات اللاحقة .

٧- نجاح سياسة محمّد

من الطبيعي بالنسبة للمؤرخ الذي يتأمل من علـــل الحوادث التي وصفناها في هذا الفصل ، أن يعتبر المظهر الاساسي هو اتساع توحيد القبائل العربية ، ولا يعني ذلك ان محمداً ومستشاريه نظروا للامور بهذا المنظار . فقد كانت الفكرة القائلة بأن العرب يؤلفون وحـــدة موجودة ولكن بصورة بدائية . ثم أصبحت حقيقة بفضل نجاح محمد شخصياً ، ونادراً ما نجد كلمة « عرب » في الشعر الجاهلي ، وقد قيل بأن

الصفة « عربي » ظهرت لأول مرة في القرآن [١] ونجد الاشارة هنـــاك لغوية ، وكما يعارض القرآن في ثلاث مقاطع لغة القرآن العربية الواضحة بلغة الاعجمي [٢] ، وفي المقاطع الباقية حيث تستعمل كلمة عربي ، فهي صفة للقرآن أو تشير اليه [٣] . وبالرغم من عدم وجود لفظ للدلالة على « العرب » في القرآن وان صيغة « العرب » التي تظهر في بعض المقاطع المتأخرة ، تعني القبائل البدوية لتمييزها عن المدنيين وغيرهم من الحضر ، فان فكرة « العرب » كوحـــدة جنسية أو حضارية متميزة كامنة في استعمال الصفة « عربي » . والقول بأن « القرآن عربي » يشير إلى أن الوحي نزل من أجل « الذين يتكلمون بوضوح » . وكان الفرق أكيد بالنسبة للمسلمين فيما يتعلق بالاحباش والبيزنطيين والفرس ، وربمـــا اليهود

وهكذا اعتبرت الديانة القائمة على القرآن ، منـــذ منتصف الفترة المكية ، على انها بديل عن ديانة هؤلاء الغرباء كما ساعدت عاطفة الكره للاجانب كثيراً على تفضيلها على المسيحية واليهودية .

اعتبر محمد نفسه في أول الامر مرسلا إلى قومه القرشيين ثم أخـــذ شيئاً فشيئاً ، وبدرجات لا تبدو بوضوح في القرآن ، يتراءى له هـــدف أوسع لرسالته . دعا قبل الهجرة بعض أفراد القبائل البدوية إلى الايمان

---

1 O. A. Farrukh Dasbild des Fruhislam in der arabischen Dichtnng von der Higra bis znm To des kalifen umar leipzig 1397.128.

(٢) ١٠٥/١٠٣،١٦ (٣) ٢،١٢

بالله عدا مفاوضته مع سكان المدينة . ثم احتلت فكرة الامة القائمة على أساس ديني مكان الصدارة بحلول الهجرة . وكانت المشكلة الاولى لهذه هي استتباب السلم بين مختلف قبائل المدينة . وكانت مشكلة ليست في المدينة فقط بل في كل شبه الجزيرة العربية . ولما نجح محمد في إقامة «السلم الاسلامي» في المدينة وبين القبائل المجاورة ، أرادت قبائل أخرى أن تستفيد من النظام الجديد . ولم يعارض محمد من جهة امتداد نظام السلامة الذي إقامه إذا كانت الترتيبات التفصيلية مرضية ، فان امتداده يؤدي إلى قدر أكبر من السلامة . تخيل محمد نفسه يتوسع بالامة الاسلامية اي جماعة الذين يعتنقون الاسلام أو يؤمنون بالله ، دون اعتناق الاسلام ، وقد احتموا به أو برسوله .

ويمكن اعتبار رسالة محمد على انها بناء نظام سياسي اجتماعي واقتصادي على أسس دينية ، ولم تكن سياسة القبيلة سوى حادث من ذلك وكان للقبائل المدنية ، التي انضمت للمهاجرين لاقامة الامة الجديدة ، كان لها حلفاء بين يهود المدينة ، أو البدو المجاورين . وقد استفاد هؤلاء الحلفاء ، منذ البداية جزئياً على الاقل ، من النظام السياسي الجديد ومن «السلم الاسلامي» ويبدو ان محمداً في السنوات الاولى من الفترة المدنية ، عقد محالفات مع قبائل أخرى مجاورة على أساس دنيوي صرف ، ثم أخذ طلب شيئاً فشيئاً ، وكلما اتسعت دائرة السلم الاسلامي وازدادت قوته ، وكشرط للمحالفة ، الايمان بالله والاعتراف بشخصه كنبي . حتى إذا ما

خاب أمله في البدو الذين تخلوا عنه في غزوة الحديبية ، اشتد في سياسته وأصبح اعتناق الاسلام يعني ايضاً الاعتراف بحق النبي أن يصدر الاوامر لجميع المسلمين .

يهمنا أن نعلم انه حين أخذ محمد يطلب الدخول في الاسلام من حلفائه لم ينقطع عن عقد محالفات بدون شروط دينية مع جماعات اخرى .

لم يضع شروطاً دينية على المكيين حين دخل مكة دخول المنتصرين واشترك الكثيرون منهم بمعركة حنين دون أن يسلموا . وقد دلت دراسة القبائل في هذا الفصل ، على انه ساعة وفاته وبعدها ، وجدت محالفات مع غير المسلمين . كان ذلك طبيعياً فيما يتعلق بالقبائل البعيدة القوية . وبالرغم من ان حلفاء من هذا النوع كانوا حلفاء دنيويين فانهم كانوا ينتمون « للسلم الاسلامي » بالنسبة لأفكار العرب حول المحالفات ، إذا كانوا يشاركون في الاستفادة منه ، ويساعدون على بقائه .

ولقد فكر محمد ، مع امتداد النظام الاجتماعي والسياسي الجديد ، بأساسه الاقتصادي ، وجابهته هذه المشكلة بكل ما فيها من حدة خلال السنتين الاخيرتين من حياته ، ثم رآها تقبل نحوه ، لأنه كلما دخلت القبائل في السلم الاسلامي ، وامتنعت عن القتال فيما بينها ، كلما ازداد عدد السكان لأنه انقطعت الخسائر البشرية بسبب الغارات ، ولم يعد يمكن القبيلة التعويض عن عجزها بالاغارة على جارتها . كما مست الحاجة ،

من الناحية النفسية ، إلى متنفس للطاقات التي كانت تبذل في الغزوات وإذا كان يجب استمرار السلم الاسلامي ، فلا بد من المحافظة على مستوى المعيشة ، ولهذا مست الحاجة لمصدر جديد للرزق . ربما رأى محمد بعض الوقت ، الحل في تنمية التجارة ، فكان أن نشأت تجارة بين المدينة وسورية ، غير ان المصادر لا تتحدث عنها إلا نادراً مما يدل على انها لم تكن لها أية أهمية . حتى إذا ما سقطت مكة في قبضته ، وعادت تجارتها السابقة ، بل اتسعت عن ذي قبل ، فانها لم تعد تسد حاجات الشعب الذي كان يتطلع إلى محمد على انه زعيمه . وكان لا يزال الخطر من أن تشجع التجارة الموقف الديني الخاطىء الذي كان خطيئة المكيين الوثنيين . وهكذا أدرك محمد ان التجارة لم تكن الحل المطلوب .

وكانت هناك امكانية اخرى في الاسلاب التي كانت تؤخذ من غير المسلمين . ولقد قامت هذه الاسلاب، في مطلع الفترة المدنية ، بدور كبير بالنسبة للمسلمين ، ولا سيما المهاجرين . أما تقدير هذه الأهمية ، فهذا أمر صعب . ولا شك ان الطمع في الغنيمة هو الذي جاء بالكثير من الرجال إلى المدينة ، وجعلهم ينضمون إلى محمد . وكان ذلك هو الحل الذي اختاره محمد . ولكن كان يجب الاستفادة منه أكثر ما يمكن . وكلما ازداد عدد المسلمين وقل عدد غير المسلمين الاغنياء أصبحت الغزوات التقليدية أصعب .

فاذا ما أصبحت شبه الجزيرة العربية كلها مسلمة لم يعد السلب ممكناً إلا على الحدود الشمالية . ولا شك ان نظرة محمد ، في وقت قديم

نسبياً ، إلى « السلم الاسلامي » على انه يشمل جميع العرب ، وانـه يجب بالنتيجة التوسع نحو الشمال ، هي من نظرات محمد رجل الدولة . وقد سيطرت هذه النظرة على سياسة القبيلة . وكان هدفه الاول الاشراف على أن يتمتع أعضاء أمته وحلفاؤهم بسلامة كبرى على حياتهم وأموالهم أمام تهديد أعدائهم في الخارج والداخل ، ثم حاول أن يزيد نفوذه على طريق سورية . ويبدو انه في السنوات الاخيرة اكتسب صداقة ألقبائل باتجاه العراق . وعلى العكس من ذلك لم يفعل إلا القليل ، كما يبدو ، لنشر الاسلام في الجنوب والجنوب الشرقي مـن شبه الجزيرة العربية . وبالرغم من انـه لم يرفض امكانية الدخول في الاسلام فـانه نظر الى مسلمي هذه المنطقة على انهم مصدر ضيق وشغل للبال اكثر منهم ربحاً الاسلام .

تلك هي الخطوط الكبرى لسياسة محمد القبلية . ويبقى علينا الآن ان ندرس مـدى اتساع علاقته السياسية بالمدينة ، والاهمـية النسبية للنواحي السياسية والدينية . ولنبدأ بالثانية .

إذا أردنا أن ندرك الاهمية النسبية للعوامل الدينية وغير الدينية في اسلام عرب القرن الرابع ، يجب علينا التخلص من الفكرة الغربية التي تفصل بين السياسة والدين ، ولا ننتظر أن نرى إسلامـاً عاطفياً مـن النوع الذي وصفه وليم جيمس .

فلقد كان الدين والساسية ، منذ خروج الاسرائيليين من مصر ، ومنذ عصور العهد القديم ثم العهد الجديد ، ومنذ عهد البطارقةوشيعه ،

في الشرق الأوسط مرتبطين ارتباطاً متيناً . حتى ولو عانى المسلم تجارب غير طبيعية أثناء إسلامه (كما حدث للبعض) ، فانه لن يجد الكلمات الدينية لوصف حالاته الداخلية ،ولن يهتم بهذه الحالات ليحاول وصفها.

فلقد جاء الاسلام بنظام اقتصادي واجتماعي وسياسي (السلام الاسلامي) ، وكان الدين جزءاً لا ينفصم من هذا النظام ، ويمكن تسميته بالجانب الفكري من النظام وكان الامن والسلامة اللذان يؤثرهما هذا النظام هما « أمن الله ورسوله » وقد رأينا أن محمداً ، في نهاية حياته ، طلب قبول الأساس الديني في بعض الحالات . وقدأصبح ذلك ضرورياً في الشمال الغربي ، حين أظهرت القبائل المسيحية في هذه المنطقة انها تفضل أن تبقى حليفة للبيزنطيين . بيد أن النظام الاسلامي كان يجذب اليه بمختلف الطرق رجال القبائل البدوية . وكان يقدم الرزق الكافي بسبب الفيء . ولم يكن يفرض التبعية لملك مطلق السلطة إذ أن جميع المسلمين كانوا متساوين في المبدأ ، وكان النبي يعامل أتباعه بلياقة شيخ القبيلة في معاملته لعشرائه في القبيلة واحترامه لهم ، حتى إذا ما بدت علامات التحلل على الامبراطورية البيزنطية والفارسية ، وشعر الناس بالحاجة إلى شيء متين يتمسكون به ، قدمت الامة الاسلامية لهم هذا الاستقرار المطلوب .

ولم يكن البدو الذين يشعرون بالميل نحو النظام الجديد يتساءلون إلى أي حد كانت الدوافع دينية ، وإلى أي حد كانت دنيوية . وكان معظمهم يعتبر النظام كلا ، ولم يقوموا بتحليله . ولكنهم كانوا مستعدين ، في

الظاهر ، للمساومة مع محمد آملين أن يضع عنهم الشروط القاسية ، إذ ان دفع ضرائب للمدينة مهما كان اسمها ، لا يعجبهم . كما كان لا يعجب البعض الاعتراف بمحمد كنبي ، لأن هذا يساوي الوعد بطاعته . وهكذا كانت المشكلة الأساسية ، ما عدا تفاصيل بعض المعاهدات الخاصة مع محمد ، هي الدخول في النظام الاسلامي أو البقاء خارجه . وقد مست الحاجة لاتخاذ هذا القرار عند معظم العرب بعد معركة حنين . يضاف إلى ذلك سبب مادي في قبول الاسلام بسرعة ذلك ان طلب الانتساب للنظام في الوقت المناسب يضفي على صاحبه امتيازاً على أعدائه . ولهذا فليس من المستغرب أن نرى بعد فتح مكة والانتصار على هوازن « حركة شعبية » نحو الاسلام . وكثيراً ما يحدث ، في الميدان الديني ، أن تتوفر فجأة ، لبذرة كامنة في قلوب الناس ، بتغير الظروف ، الشروط المناسبة لنموها ، حتى إذا ما كانت الظروف مشتركة بين الناس ، كان الدخول في الاسلام واسعاً[1] .

ونجد في ميدان السياسة ظاهرة « الهجوم على القطار الأخير » المعتادة .

ليس من المستغرب إذن ، ولا من المستحيل ظهور حركة شعبية في الامة الاسلامية في السنة التاسعة أو العاشرة للهجرة ، ولا مبرر لرفض

---

(١) R. Oliver The Missianary Factor in East Africa , Londres 1925, 42. 90
حيث نجد مثالا لحركة دينية وما يتبعها من نتائج سياسية ودنيوية مختلفة ، اذ انها بعد فترة النمو البطيء انتشرت بسرعة خلال سنة او سنتين ،

روايات المصادر لأنها تميل لتمجيد محمد ، وذلك قبل فحص هذه المصادر .

يمكن أن تكون تلك الحركة في نظر المحلل الاوروبي حركة سياسية ، ولكن العوامل الدينية والسياسية لا انفصال بينها في واقع الحوادث الشامل . ولم تكن بمجرد انبعاث روح قديم للوثنية أو المسيحية الموالية للبيزنطيين أو الفرس . ولا شك انه كان لهذه الحركة جذور في معظم النظم الدينية . واكن رد فعل العرب الوثنين او المسيحيين على الظروف الجديدة الذي أوجدها نمو الامة الاسلامية ، أحدث شيئاً جديداً يضاف إلى ذلك انه كما حدث في الحركة نحو الاسلام ، فان الردة كانت فيها العوامل السياسية والدينية متلازمة [1] .

ولهذا يحق للمؤرخين المسلمين أن يروا فيها حركة دينية . ولقد أخطأ العلماء الاوروبيون في نظرتهم للدين نظرة أوربية وليست عربية . وكانت الردة حركة منفصلة عن النظام الديني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي للاسلام ، فكانت بذلك ضد الاسلام .

نتحدث عن الردة مع العلم بانه حدثت عدة حركات انفصالية ، ويمكن أن تكون تأثرت احداها بالاخرى، ولكنها كانت متميزة كل منها عن الاخرى وإن كانت تتحد في أنها ردة فعل شبه الجزيرة العربية على محمد، وكان لكل

---

(١) تظهر الصلات بين الدين والسياسة في شبه الجزيرة العربية الجاهلية في كتاب ج . ركان « المؤسسة الملكية في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام » لوفان ١٩٥١ – ٣٢٩ وما يتبعها .

منها طابعه الخاص . ويبدو ان الدين في البحرين وعمان قام بدور ثانوي بينما كان الطابع المميز للردة في الاماكن الاخرى ظهور « الانبياء الكذابين » الذين كان كل واحد منهم يدعو لديانة جديدة يكون هو زعيمها . ولا تسمح لنا مصادرنا الضئيلة أن نكون لنا فكرة عن « جو » هؤلاء الانبياء، وإلى أي حـــد كان وثنياً أو مسيحياً ، أو متأثراً بالاسلام ، أو رد فعل مماثل لظروف مماثلة . ولا نعلم ما إذا كان أنصار هؤلاء الانبياء من البدو أو مزارعين . فاذا كانوا حضراً ، تكون هـــذه الحركات ردوداً على التحدي الذي ولد منه الاسلام ، ألا وهو الانتقال من الاقتصاد البدوي إلى الاقتصاد الحضري . فاذا كان أنصارهم من البدو ، يمكن أن يكون التحدي نتيجة للخصومات المستمرة . ونشعر بان مسيلمة وحده حاول أن يعالج المشاكل الاجتماعية والاقتصادية في بلاده . ولكن ربمـــا كان سبب ذلك نقص المعلومات عن الآخرين .

الشيء الواضح من كل ذلك ، هو ان الردات كانت حركات من نوع جديد ، حيث لا يستعان بأفكار قديمة ، ما عدا في البحرين حيث نشأت محاولة لاعادة الملكية القديمة . يمكننا إذن أن تعتقد بأنها ردود فعل لوضع جديد . والوضع الجديد يمكن أن يكون اما ولادة حركة دينية جديدة في شبه جزيرة العرب ، أو ظهور قوة سياسية جديدة في الوقت الذي كانت فيـــه الامبراطوريتان البيزنطية والفارسية في طور الافول .

يبقى علينا أن نتساءل إلى أي حد كانت القبائل حليفات سياسيات

على الأقل لمحمد . كانت القبائل في جوار المدينة ومكة مرتبطة به ارتباطاً وثيقاً . وكذلك قبائل الوسط وأطراف طريق العراق ، وإن لم يخل الامر من الشذوذ ، وكان في اليمن وسائر الجنوب الغربي عدد من الجماعات المتحالفة ، ولكنها ربما لم تكن تؤلف أكثر من نصف السكان . وكانت النسبة أقل في الجنوب الشرقي . كما ان المحاولات لفصل القبائل الضاربة على طول الطريق إلى سورية عن الامبراطور البيزنطي لم تلق سوى القليل من النجاح .

وهكذا لم ينجح محمد تماماً في توحيد شبه الجزيرة العربية ، غير انه فعل أكثر مما ينسب اليه علماء أوروبا الشكاك . يضاف إلى ذلك ان تأثيره الشخصي جعل له من القوة والسلطة أكثر مما تخوله الاتفاقات الشكلية ، وذلك في شؤون القبائل المتحالفة معه على قدم المساواة . وكانت هناك ثغرات ولكنها فيما عدا الجنوب الغربي لم تكن خطيرة . فلقد أقيم هيكل بناء الوحدة ، وأصبح بامكان القبائل الدخول فيه ودخل فيه الكثير من القبائل . وكان بإمكان غيرها اللحاق بها بسهولة . وكان أساس النظام الاقتصادي سليما . ولم تزل الخصومات والعداوات بين القبائل ولكنه أمكنت السيطرة عليها . حتى انها استخدمت لتقوية النظام ، إذ ان السبب الرئيسي لولاء القبائل كطيء وهوازن اثناء الردة ، ربما لأن زعمائها كانوا أعداء المدينة .

والدخول في الاسلام ، كما دل عليه عرضنا ، لم يبلغ اتساع المحالفات السياسية . وليس من السهل الحصول على تفاصيل صحيحة مع ذلك .

حين نسمع ان شخصاً اعتنق الاسلام ، فربما وقع ذلك فعلا . اما حين تسكت المصادر عن ذلك فمن الاقرب أن لا يكون قد أصبح مسلماً إلا فيما بعد . وكان يوجد عند العرب المسيحيين الذين أصبحوا الحلفاء نزعة لاعتناق الاسلام . وكان كثير من الناس ، خلال الانقلابات في ذلك العصر ، بحاجة إلى العون الذي يقدمه الدين لهم . ولقد حاول الانبياء الانبياء الكذابون سد هذه الحاجة ولكنهم أحرزوا نجاحاً ضئيلا . كما أصبح من الصعب على القبائل المسيحية ، أن تقف على أرجلها فيما يتعلق بمسائل الدين بعد أن انقطعت عن الامبراطورية البيزنطية ، وبعد أن رأت مسيحيي العراق يعانون أيضاً من افول الامبراطورية الفارسية .

اما فيما يتعلق بالذين تحالفوا سياسياً مع المدينة ، فقد سحرهم الدين الجديد الدولة الجديدة التي كانت في طور التوسع السريع ، وبدا لهم فيه الجواب على حاجاتهم الدينية . ولم يكن يستطيع الوقوف في وجه هذا السحر سوى مسيحية عميقة الجذور .

الفصل الخامس

سياسة المدينة الداخلية

١ ـ الفئات الاجتماعية والسياسية قبل محمد

ذكرنا في كتابنا « محمد في مكة » مختلف قبائل قريش وتحدثنا عنها بايجاز . ويجب علينا، لسوء الحظ ، قبل أن نتحدث عن الفئات الإجتماعية والسياسية في المدينة ، ان نتغلب على كثير من الصعوبات .

وتتعلق الصعوبة الاولى بمتانة مصادرنا ، ان مصادرنا عن المدينة اكثر اتساعاً من مصادرنا عن مكة . يتحدث ابن سعد في القسم الثاني من الجزء الثالث من طبقاته عن اكثر من ٢٠٠٠ مدني قاتلوا في بدر، ويذكر في حالات كثيرة ، امهاتهم وازواجهم . كما يتحدث في الجزء الثامن عن النساء اللواتي أسلمن وعددهن حوالي ٤٠٠ امرأة ، وعدا حديثه عن

الاطفال، فإن لدينا نسب ألف من المدنيين أيام محمد ، كما نملك معلومات عن زواجهم ، والصعوبة هي ان هذه الأنساب تتعلق بالآباء بينما تدل بعض المصادر ان الانتساب للام كان سائداً في المدينة ، حيث كانت تعرف القبائل ويعرف الأفراد بانهم « ابن فلانة أو فلانة » ويشار إلى ان جلا هو ابن خالة رجل آخر ، كما يتزوج رجال قريباتهم من ناحية الام ، وهكذا دواليك . ومعلوماتنا بهذا الصدد أقل مما نود ، وتبقى بعض المسائل غامضة . غير اننا نعلم القدر الكافي لنتساءل عما إذا كانت القبائل التي يذكرها علماء الأنساب اللاحقون تتفق حقاً مع الوحدات الاجتماعية الحقيقية أمام محمد .

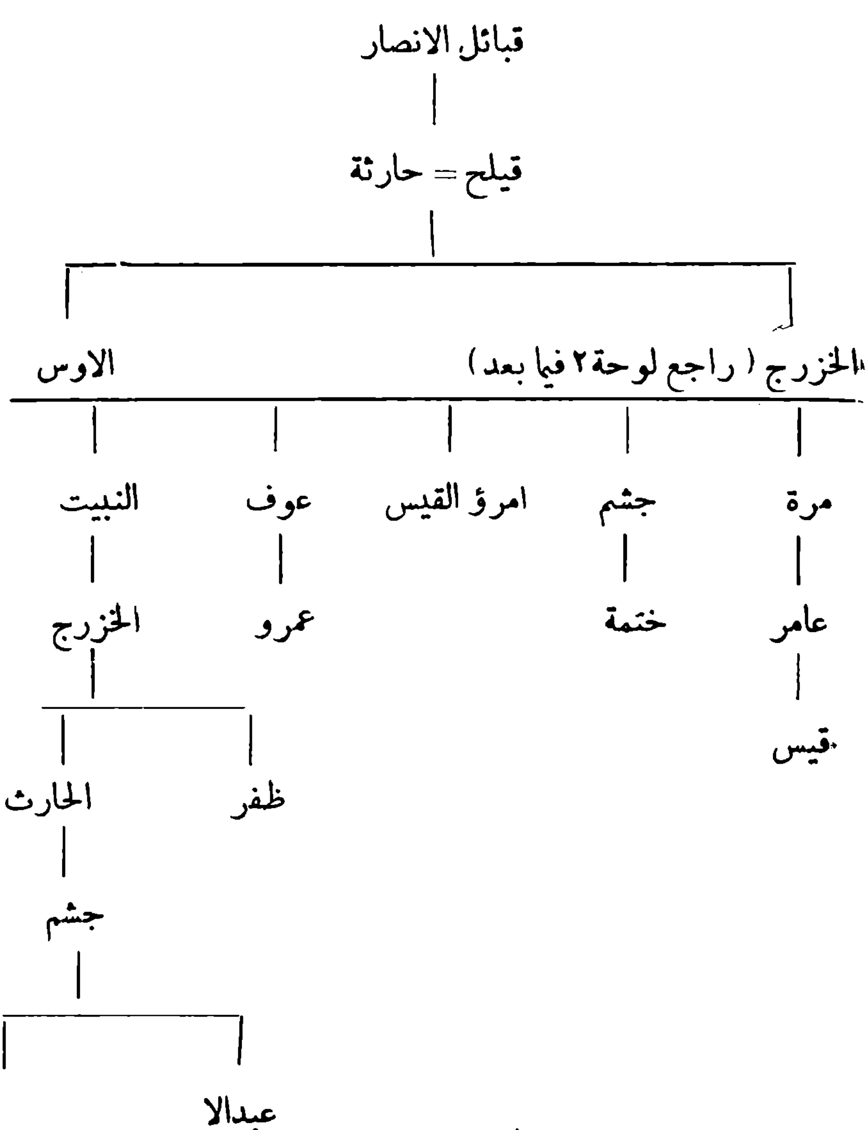
ومن الواضح أيضاً ، من ناحية ثانية ، ان التحدر من جهة الأب كانت له أهمية كبرى ، وليس هناك من أسباب تدعونا لافتراض نظام عام للقبائل تتحدر فيه أنسابها من جهة الام . ويبدو ان الانتساب للاب كان أيام الهجرة المبدأ الاساسي لتنظيم التقسيمات الاجتماعية في المدينة . ولكن ربما وجد داخل هذا الاطار العام عدد من الجماعات الصغيرة حيث يسيطر الانتساب للام . يعني هذا من الناحية العملية ان نقبل الجماعات التي تنتسب للام ، على انها صحيحة بالنسبة لعصر محمد ، مهما كان الوضع الماضي ، ولكننا نتربص كل فرد يحاول ان يضع نفسه في قبيلة امه وليس في قبيلة أبيه . ولما كانت المدينة في مرحلة انتقال من الحياة البدوية الى حياة مجتمع زراعي متحضر ، فمن الأفضل افتراض بعض النقص في الانساب. ويبقى علينا ، حتى بعد تكون رأي حول هذه المسألة ان نجد الجماعات الفعلية التي كانت داخل الامة العربية في

المدينة . يوجد ثلاث فئات من الاسماء ، على الاقل ، يجب اعتبارها .

هناك القبيلتان الكبيرتان وهما الأوس والخزرج ، ثم القبائل الثمانية المذكورة في الدستور ، ثم هناك الجماعات الثلاثة والثلاثين الثانوية التي نجدها في قائمة ابن سعد عن الأنصار الذين حضروا بدراً

وتحوم بعض الشكوك حول الاوس والخزرج . أليست مكانتهم بين الفئات الاجتماعية المهمة من وضع علماء الانساب ؟ ليس من الضروري بالنسبة لموضوع أبحاثنا الحالية ، ان نتعمق في هذه المسالة ، ولا ان نحاول معرفة كيف قام علم الانتساب بتسوية الوثائق الصحيحة التي كانت في حوزتهم . ويمكن أن تكون النظرية القائلة بوجود نسب مشترك قد وضعت لتفسير أو تبرير قيام بعض القبائل بالعمل معاً عادة . غير أن هذا العمل المشترك يمكن أن يقوم على قرابة بالدم أو وحدة في الطقوس الدينية . ولكن حتى لو كانت هذه القبائل تشترك حقاً في نسب واحد فلم يكن ذلك في أيام محمد سبباً حتمياً للقيام بعمل مشترك . فقد حدثت زيجات بين أفراد من هاتين القبيلتين ، ويبدو في بعض الاحيان ، ان حياً من أحياء هاتين القبيلتين كانت تربطه علاقات بحي من القبيلة الاخرى أفضل من علاقاته بقبيلته ذاتها . ونسمع في دستور المدينة ان الجماعات المسؤولة عن دفع دية القتيل ، ليست القبيلتين المذكورتين ، بل هي ثمانية فئات أقل أهمية منها . ولم تقم القبيلتان في الحقيقة ، بأي دور في هذا الدستور . ولقد كانت الفئات الفعلية ، في بعض الحالات ، أقل أهمية من قبائل الدستور الثمانية . مثال ذلك . يذكر الدستور النبيت ، غير أن

فرعاً من النبيت ، وهم بنو حارثة ، مقابل فرع آخر هم بنو عبد الاشهل؟ كانوا في المعسكر الآخر . ولم تكن الجماعات الثلاثة والثلاثون التي يذكرها ابن سعد عاملة كلها كوحدات سياسية مستقلة ، وتظهر اللوحة المرفقة ، ماهي أواصر القربى بين القبائل في رأي ابن سعد ، كما تحدد الخارطة مواطنها على التقريب .



أ ـ الثأر في الجاهلية :

نتصور أهمية جماعة من الجماعات بدراستنا اضروب النزاع بين القبائل في الجاهلية ، فلقد حدثت ، خلال سنوات طويلة قبل الهجرة (تقول الروايات خلال مئة سنة ، ولكن الوثائق الموجودة لدينا ، تدل على انها تقارب الخمسين سنة) سلسلة من الثارات والحروب . وأخذ يتضخم عدد الرجال المشتركين بها ، والقسوة التي تصاحبها . ويبدو ان العداوة كانت موجهة في الاصل ، كما يحدث في ثارات القبائل البدوية ، ضد اعضاء القبيلة العدوة وضد مواشيها . ثم اصبح الهدف ، بمرور الزمن ، طرد القبيلة المعادية من أراضيها ومساكنها واستئصالها تماماً في بعض الاحيان ، وهكذا ظهر سبب اقتصادي لهذه المعارك ، ولكنه يصعب يصعب تقديره بدقة . ويبدو انه وجدت أراض بكر حتى العصر الاموي [1] . وكان العمل لاعداد هذه الاراضي للزراعة شاقاً بدون شك كما كان المحصول في أول الامر ضئيلا . وكانت كل قبيلة يشتد ساعدها تستولي على الاراضي الصالحة للزراعة منذ وقت طويل . ولم يعد يهتم باصلاح الارض البور سوى الاشخاص الذين فقدوا أراضيهم أو طردوا منها . نستطيع إذن أن نفترض ما يلي : كلما ازداد عدد السكان كلما مست الحاجة إلى أراض جديدة ، غير ان إصلاح الارض كان مهمة

---

(١) راجع ج فلهوزن Medina vorden Islam • Skizzen vorar beiten • رقم ٤/١٠٢١

شاقة . وبهذا المعنى نستطيع التحدث عن ضغط اقتصادي وكانت النزعة العامة، سواء كان عند الافراد أو الجماعات ، هي بالتاكيد محاولة التوسع. ولهده المسالة أهميتها ، لاسيا عند رجل يدعى عمرو بن النعمان من بيدح الذي سوف نتحدث عنه أكثر فيا بعد . ونشعر ان الدافـــع له لم تكن الحاجة الاقتصادية ، بل لانه ادرك انه بتوسيعه أراضي قبيلته وأراضي القبائل الاخرى التي تعترف بزعامته يزيد بذلك من قوته الشخصية .

تميز المصادر بين المعارك التي تخوضها قبيلة من الخزرج والمعـارك التي تنشأ بين حيين من نفس القبيلة . وليس من مبرر لهذا التميز .

وتوحي لنا دراسة ما حدث بان فكرة عـــداوة ممكنة بين قبيلتين كانت في هذا العصر في طور التكوين . ولم تكن مقبولة عند الجميع .

كانت المعارك تنشأ عادة بين حيين متجاورين . ولم يحل الجوار بين حيين أن يهاجمها حي أقوى منهما ، ويقوى مركزه على حسابهما . وإذا كان سلب الاراضي عـــلى أيدي أعضاء أقوياء من نفس القبيلة يسبق سلبها على أيدي قبيلة اخرى ، فسبب ذلك ان زريقاً (من الخزرج) مثلا ، حين هاجمه بيدح (من الخزرج أيضاً) كان أضعف من عمرو بن عوف (من الاوس) حين هاجمه بيدح [1] ، ولا يستطيع الحصول عـــلى حلفاء أقوياء .

وقعت أول معركة بين قبيلتين ، نسمع عنها ، في الجنوب الغربي ، بين بني سالم وبني صهباء ، وكان زعيماهما مالك بن الاجلان (أول من

---

(١) نفس المرجع ٢٩

استقل من الاوس والخزرج عن اليهود) وأحيحة بن الجلاح ، ولكن لا يبدو ان هاتين الشخصيتين اللتين كانت أماهما أختين، قد تقاتلا شخصياً . ونعلم انه خلال الفترة التي فصلت بين هذه المعركة ، ومعركة حاطب وقعت « أربع حروب » إحداها بين قبيلة عمرو بن عوف (بقيادة جرير بن سماك) وقبيلة الحارث (بقيادة عبد الله بن أبي) . وقد هزمت قبيلة مازن قبيلة وائل (بقيادة أبي قيس بن الاسلط) في إحدى الحروب ، وفي الحربين الاخريين انتصرت قبيلة ظفر وعبد الاشهل (وكانت الاخيرة بقيادة معاذ بن النعمان) على بعض عشائر قبيلة النجار . وأخذت في نفس الوقت قبيلة الاشهل توسع ميدان عملها نحو الشمال ، وأبعدت حارثة نحو الغرب في أراض بوربينما كانت بيادة ، تتوسع على حساب زريق .

وحرب حاطب هو الاسم الذي أطلق على سلسلة من الحوادث التي انتهت قبيل الهجرة ، بحرب بعاث الكبرى .

نشا النزاع بين حاطب بن قيس (من فرع من عمرو بن عوف) ويزيد بن مسهم ؟ (من الحارث) ، بدأ النزاع بالكلام وتعداه إلى الضرب بالايدي ثم إلى سفك الدماء . وتدخل آخرون في النزاع ، وربما كان ذلك استمراراً للخصومة التي ذكرناها في المقطع السابق . ومن المفيد أن نلاحظ انه إذا كان زعيم قبيلة عمرو بن عوف كان لا يزال حفير بن سماك ، فان قبيلة حارث لم يعد زعيمها عبد الله بن أبي (ولم يكن من هذه القبيلة ، بل كان ينتمي لبني الحُبلى) بل أصبح زعيمها عمرو بن

النعمان من بيادة ، ويمكننا أن نفترض بان عمرو بن النعمان ، بعد التوسع الذي قامت به بياذة على حساب زريق ، كان يسرها ، وقد سنحت لها الفرصة ، أن تقوم بتوسع آخر خطير . ولقد انتصرت في المعركتين الاوليين ، وإن كانت الخسائر في الارواح ، في المعركة الثانية ، بالرغم من مصاحبة بعض رجال النجار فيها ، كبيرة من كلا الطرفين . ويبدو ان أبا قيس لم يحمل معه قبيلته وائل فقط بل مجموعة من القبائل عرفت باوس مناة (او اوس الله فيما بعد) وبالرغم من انه كان أقدم زعيم لحزب عمرو بن عوف ، فقد سمح لحدير بن سماك بان يتولى القيادة ، وانتصر حدير ، ولما كان حزبه فقد ثلاثة رجال ، أكثر من الحزب الآخر ، فقد حق له أن ياخذ ثلاث رهائن ، وقد قتلت هذه الرهائن لأسباب لا نعرفها . ونشأ عن ذلك قتال محلي شديد بين أبي قيس وعبد الله بن ابي .

لم تتدخل حتى ذلك الوقت عبد الاشهل في القتال ، لانه يبدو أن حديراً كان متصلا بحزب عمرو بن عوف . ونجد مع ذلك ، اعتماداً على بعض الانساب المتأخرة ، ان حديراً كان إلى جانب عبد الاشهل ، وكان ابنه اسيد يتقاسم قيادة حزب عبد الاشهل ، مع سعد بن معاذ بن النعمان. أما الآن فقد انضمت خصومة عبد الاشهل لجيران قبيلة سليم إلى النزاع الاكبر ، واشتركت فيها القبيلتان في معسكرين متناقضين . وقد انهزمت القبائل المتحالفة مع الاوس في معركة تسمى « يوم المعيس والمدرس » . وعقد عمرو بن عوف وأوس مناة الصلح بشروط قاسية

عليها . وهاك حادثة تفسر تعقد أواصر القربى الغريب ، حين نهبت سليمة ، أراضي عبد الاشهل حمى زعيم قبيلة سليمة ، عمرو بن جموح ، زعيم قبيلة عبد الاشهل ، سعد بن معاذ الجريح كما حمى قلعته .

ولقد رفضت عبد الاشهل وظفر الخضوع وتركتا المدينة (وربما لم يترك المدينة سوى بعض الرجال النافذين) . وذهب وفد إلى مكة ، ولا نعرف بوضوح ما إذا كانت هذه الرحلة للاقامة في الوادي او للحصول على مساعدة عسكرية من القرشيين . وعلى كل حال فقد كانت رحلة فاشلة . ثم تحالفت عبد الاشهل وظفار مع قبيلتي قريظة والنضير اليهوديتين اللتين كانت أراضيها (وهي من أخصب أراضي المدينة) موضع طمع عمرو بن النعمان وبيادة. ولما علم عمر بن النعمان بهذه المؤامرات طلب الرهائن من قبيلتي قريظة والنضير ، حتى إذا ما عادت المؤامرات قتل الرهائن التي كانت تحت سلطته المباشرة . غير ان عبد الله بن ابي خطأه وحرر رهائنه . وقد ظل عبد الله بن ابي وعمرو بن الجمح على الحياد خلال النضال الذى تبع ذلك ، والذي كان الحزبان يستعدان له بحماس ، وكذلك فعل بنو حارثة من اوس .

ولم يكن إلى جانب عمرو بن النعمان في حرب بعاث بيادة والنجار بل رجال ينتمون إلى قبيلتي جهينة واشجع المتبديتين ، بينما كان الى جانب حدير بن سماك ، فرقة من مزينة البدوية ، وقبائل عمرو بن عوف ، أوس مناة ، عبد الاشهل ، ظفر ، قريظة ، والنضير من المدينة.

وكانت المعركة ضارية بين الفريقين ، ولكن الحظ مال في النهاية إلى جانب حزب حدير وإن قتل الزعيمان فيها .

لم يعقد صلح رسمي بعد معركة بعاث . فقد كان المتحاربون من الفريقين منهوكي القوى حتى يستمروا في النضال . غير ان العداء استمر . وإذا لم يحتط الانسان ، بل ترك الفرصة لأعدائه فقد كان معرضاً لخطر الاغتيال . تلك كانت الحالة حين بدأت المفاوضات مع محمد .

ب ـ وصف القبائل :

فلنحاول الآن أن نحدد موضع كل قبيلة ، كما كان أيام محمد . وتعتمد الملاحظات التالية على التفاصيل التي نجدها عند ابن سعد عن حياة الاشخاص ، وأخبار السمهودي عن الجغرافيا [٢] .

عبد الاشهل :

هذه القبيلة هي أول قبيلة تذكرها المصادر ، ويجب البدء بدراستها لأننا نملك عنها معلومات كثيرة ، ولأن هذه المعلومات معقدة جداً . كان زعيم هذه القبيلة ، أيام محمد ، سعد بن معاذ الذي خلف والده معاذ بن النعمان في قيادتها . وهذا مثل نادر نجده في المدينة على رجل مهم له ابن له اهمية تماثل أهمية والده ، يضاف إلى ذلك ان سعداً وأخاه أوساً كانا قد تزوجا هنداً بنت سماك . وهذا ما يجعلنا نعتقد ان النسب من ناحية الاب كان محترماً في هذه القبيلة أكثر من سائر القبائل .

---

(١) لمعرفة تاريخ المدينة في الجاهلية راجع ابن الاثير ، الكامل ، القاهرة (١٩٢٩) ١٣٤٨ ، ج١ ، ٤٠٠ - ٣٠٠ ، السمهودي ، كتاب وفاء الوفاء ، القاهرة ١٩٠٨-٩ ج١ ص ١٥٢ ، ف . وستنفلد « تاريخ دولة المدينة » جوتنجن ١٨٦٠ .

(٢) ابن سعد ٣/٢ ، ٢/٤ ، ٧٩-٩٥ ، ابن دريد كتاب الاشتقاق ١٨٥٤ ، ٢٥٩

ونستطيع أن نعارض ذلك بحالة حدير بن سماك الذي يبدو ان ابنه اسيد كانت له في قبيلة ، حوالى الهجرة ، مكانة مهمة كمكانة سعد بن معاذ.

ولقد رأينا سابقاً ان حديراً قام بدور مهم في شؤون المدينة حتى موته في بعاث . وكان هذا الدور كزعيم لقبيلة عمرو بن عوف . ونعرف أيضاً ان اخت حدير ، هنداً ، التي ذكرنا اسمها ، كانت أمها امرأة من قبيلة عمرو بن عوف [1] . وكذلك كان شأن حدير . ولا شك اننا هنا بصدد نفس المرأة ، وهي أم جندب بنت رفاعة بن زنبر . ويبدو أن حديراً كان على علاقات مع بطون قبيلة عمرو بن عوف التي أقامت بالقرب من ظفر وعبد الأشهل ، كما ان قلعته كانت في أراضي عبد الأشهل ويقال بانه سار على رأس بني عبد الأشهل ، حين طردوا قبيلة الحارثة واحتلوا أراضيها . ولما كانت ابنة أسيد من قبيلة عبد الأشهل ، فمن الطبيعي أن ينتصر لهذه القبيلة .

تنقسم الاسماء التي نجدها في قوائم الرجال والنساء المنتمين لهذه القبيلة إلى عدة فئات متميزة . فنجد ، إلى جانب ذكر بطن مهم من القبيلة ، يرجع نسبه إلى شخصية تسمى زعورا . وتذكر الأنساب في بعض الاحيان اسم زعورا بن عبد الاشهل بن جشم ، وفي أحيان اخرى اسم زعورا بن جشم . ولا شيء يسمح لنا بالقول بأنهما شخصان متميزان . أما تسمية زعورا « باخ عبد الاشهل » فهي طريقة تدل على السذاجة . ولكنها بدون

---

(١) ابن سعد ٨ ، ٢٣٨

شك طريقة للقول بأن زعورا كان مجموعة من القبائل سمح لها بالاقامة بالقرب من المجموعة المعروفة في ذلك الوقت باسم عبد الاشهل ، وان الزواج كان مسموحاً بين المجموعتين .

ويقول السمهودي في مكان من الوثيقة ، اننا لا نعرف تماماً ، ما إذا كان زعورا ينتمي لقبيلة اوس ، وهو يضع في مكان آخر مجموعة اسمها بنو زعورا بين القبائل اليهودية . ولكن هذا يمكن أن يعني بانهم كانوا عرباً أقاموا في المدينة قبل قبيلتي الاوس والخزرج ، وانهم أصبحوا تابعين لاحدى القبيلتين اليهوديتين[1] . ونجد هذا الاسم أيضاً في نسب بني عدي بن النجار من قبيلة الخزرج[2] ، وهو نسب قيس بن السكن وامرأته وابنته . وربما كانت تلك اشارة تتعلق بفرع من الجماعة الاولية. ويبدو ان أحد زعماء بطون الاشهل ، هو أبو الهيثم بن الطحان[3] ، وكانت أمه تنتمي لقبيلة زعورا ، وكان أبوه حسب قول ابن سعد ينتمي اما لقبيلة بالي أو لقبيلة عمرو بن جشم ، وسوف نتكلم عنها قريباً .

ويوجد بين الشخصيات التي نذكر على أنها حليفة لقبيلة عبد الاشهل فرد أو فردان من القبيلة المعادية ، وهي حارثة ، وكانت أراضيها قد استولت عليها قبيلة عبد الاشهل . ولا نستطيع سوى افتراض الفرضيات

---

(١) السمهودي ج١ ، ١٣٦ ، راجع فلهوزن والمدينة ١٢ ، اغاني ١٩، ٩٥ ، ابن دريد ، المرجع المذكور ٢٦٣ ، هوروفتس koranische Untersuchungen ١٥٨ .

(٢) ابن سعد ٢/٣ ، ٧٠، ١٤ – ١٧، ٨، ١٩، ٣ – ٢٠

(٣) السمهودي ج١، ١١٦ ، ابن سعد ٢/٢ . ١٦، ٦، ٢١، ١٠

حول هذا المسلك ، ولكنه من الواضح أن القبيلة المذكورة لم تكن فقيرة ولا معدمة لأن أحد أفرادها، محمد بن مسلمة ، كان مسلماً من الدرجة الاولى وكانوا ينتمون جميعاً إلى بطن بني مجدعة من قبيلة حارثة.

وإذا كنا أخيراً لا نهتم بحليف منعزل من عشيرة القوافلة من قبيلة الخزرج ، لا نملك عنه سوى القليل من المعلومات ، فان هناك جماعة غريبة لا تعرف باسم « بني فلان أو فلان » بل باسم « أهل الراتج » وهو اسم يدل أما على « أطم » أو على منطقة . ويضع السمهودي هؤلاء القوم بين الجماعات اليهودية ، ويبدي ابن سعد بعض الملاحظات المهمة عنهم .

وقد تزوج سلامة بن سلامة ، من قبيلة زهرة امرأة من الجعادرة ، وهم قوم من سكان راتج من قبيلة أوس ، حلفاء بني زعورا بن جشم ومن أحفاد عمرو بن جشم . « ويقال ان أحفاد عمرو بن جشم ، وهو أخ عبد الاشهل » انهم أهل راتج ، إلا انه كان يوجد بين أهل راتج جماعة من غسان ، وهم جزء من أحفاد عتبة بن جفنة . (ينتمي الجعادرة إلى قبيلة بني وائل ، وإلى قبائل تربطها بها روابط القربى ، وهي قسم من أوس مناة ، ويبدو ان بني جفنة ، كانوا من الجماعات المذكورة في دستور المدينة) نرى من ذلك ان « أهل راتج » كانوا يتألفون من جماعات صغيرة اجتمعت للدفاع عن نفسها ، وكانوا حتى وقت قريب من الهجرة، تابعين لقبيلة يهودية .

وتطلعنا الانساب أيضاً على زيجات أعضاء القبائل . كان الزوجان في بعض الحالات من قبيلة واحدة . وكان أفراد مختلف البطون المذكورة

يتزاوجون فيما بينهم . أما النصف الآخر من الزيجات ، فكان يتم بين أفراد قبائل مختلفة . ومن المفيد أن نعلم ما هي تلك القبائل . يمكن أن نقسم الزيجات إلى فئتين : زيجات العصر القديم ، وينتمي الازواج إلى بطون الأبجر من النجار من سعيدة من قبيلة الخزرج ، من واقف ومن عمرو بن عوف من قبيلة اوس ، امـا الزيجات الاحدث ، فهي أسلم وتتم بين متحالفين ، كظفر والقبائل القريبة من النجار وسليم ، وكتاهما تنتميان لقبيلة خزرج . وأخيراً يذكر النص خبراً مفيداً : فقد تزوجت أمامة بنت بشر يهوديا من قبيلة بني قريظة ، اسد بن عبيد الهدلي [١] .

نجد في هذا النص وصفاً موحياً لمجتمع في طور الانتقال من عادات قائمة على قرابة الدم إلى عادات قائمة على الموطن . ونعتقد انه من الافضل تأجيل الملاحظات حول هذه المشكلة حتى ننتهي من استعراض القبائل الاخرى .

حارثة

أشرنا سابقاً إلى طرد قبيلة حارثة ، على يد قبيلة عبد الاشهل . ولم يكن هذا الطرد نتيجة لانتصار القوة بل وفقاً لقرار الوسطاء . وتجعلنا رواية السمهودي [٢] ، بهذا الصدد نعتقد ان اطم المسير سلم للعـــدو . وكانت القبيلة تملك اطما اخرى ، ولكن المسير كان أهمها .

وبعد أن قضى القسم الاكبر المنهزم من القبيلة سنة في خيبر ، عـاد

---

(٨) ابن سعد ٨،٢٣٦ (٢) ج١، ١٣٥–٣٦

واحتل موطناً يقع إلى الغرب من المكان الذي اقيم فيه النصب تخليداً لمصرع حمزة في معركة أحد ، وقد أصبح في هذا الوقت ، بدون شك ، محمد بن مسلمة وغيره حلفاء عبد الاشهل واحتفظوا بأراضيهم . والنص غامض جداً ، فيما يتعلق بعلاقات بني حارثة مع بني عبد الاشهل . فقد استمر الحقد في القلوب ، ولهذا رفض بنو حارثة في بعاث القتال تحت قيادة الحدير بن سماك الذي كان السبب الرئيسي في فقدهم لأراضيهم ، ولما كان المسلمون يسيرون لاحد رأساً قبل القتال ، فقد حدث نزاع بين مرباع بن قيظي من حارثة واسيد بن الحدير ، وعند احتدام القتال جرح أسيد ، ولم يكن ذلك صدفة ، على يد حليف ينتمي لقبيلة حارثة[1] وبالرغم من هذا الشعور بالحسرة ، فقدجرت زيجات بين القبيلة الرئيسية والعشيرة التي أصبحت حليفة لعبد الاشهل ، مع بعض الجماعات المنتمية لقبيلة عبد الاشهل .

ولا تقدم لنا قائمة الانساب ، عدا هذه التفاصيل ، سوى معلومات قليلة . ويوجد بين امهات الرجال والنساء الذين اسلموا نساء من قبائل النجار ، وبيـــادة ، وسعيدة ، وسليمة ، وختمة وعمرو بن عوف ، كما يوجد امرأة تنتمي إلى القوافل التي كانت حليفة عبد الاشهل . وكان المسلمون أنفسهم ، مع ذلك ، يتزوجون من داخل القبيلة ، او من نساء من عبد الاشهل (ومن نساء ظفر القبيلة الحليفة) . ولا يذكر سوى

---

(١) الواقدي ١٠٧ ، ١١٢

زيجتين مع قبائل اخرى ، إحداهما من قبيلة معاوية ، وهي بطن من عمرو بن عوف ، والاخرى من بطن مبذول من قبيله النجار . وكانت قبيلة حارثة فقيرة بعد رحيلها الاضطراري ، وربما حد هذا السبب من اختيار الاحزاب الممكنة لها . وقد مثل بني حارثة في ميثاق العقبة ثلاثة أعضاء من القبيلة ، ولكن نفس العدد لم يكن كافياً في بدر . ومن بين الذين تغيبوا عن بدر البراء بن عازب ، وهو شخصية رئيسية في القبيلة بعد الهجرة .

ظفر :

اتحدت القبائل الثلاث عبد الاشهل وحارثة وظفر لتؤلف مجموعة قبيلة النبيت ، ولكن هذا لم يمنع القبيلة الثالثة من الانضمام الى الاولى لمهاجمة الثانية .

ويبدو ان ظفر قد تعلقت على الاجمال بعبد الاشهل . وكانت الزيجات المعقودة خارج القبيلة زيجات مع افراد من النجار ، سليمة ، أو قبيلتي النبيت الاخريين . وكان زعيم القبيلة أيام محمد قتادة بن النعمان .

عمرو بن عوف :

كانت هذه القبيلة ، كقبيلة عبد الاشهل ، مجموعة من قبائل متعددة ، وكان بينهما بعض الفروق ، فبينما كانت عبد الاشهل قبيلة

شابة متآلفة ، إذا بقبيلة عمرو بن عوف هرمة متنافرة ، وأراضي عمرو بن عوف موزعة ، فعشيرة جهجبا تقيم في الجنوب الغربي ، غربي قبا ، بينما عشيرة معاوية بن مالك تقيم « خلف » (ربما يعني ذلك شرقي) بقيع الفرقد إلى الشرق ، ولا يمكن أن يكون لهذه العشيرة النفوذ السياسي الذي يخولها عدد أفرادها .

أما فيما يتعلق بتقسيمات القبيلة فتبدو بعض الجماعات اكثر انسجاماً من الاخرى . وهناك أسباب تدعو للشك بأن القرابة من حيث النساء (التي لا يشار اليها في مصادرنا هذه) يمكن أن تكون قد أثرت في تاليف الجماعات . مثال ذلك الحدير بن سماك الذي كان زعيم القبيلة ، وإن كانت امه فقط من القبيلة ولدينا مثال رائع على التضامن نجده في قبيلة بني جهجبا . كانت هذه القبيلة لجيل أو جيلين قبل محمد ، قوية جداً ، لأن أحيحة بن الجلاح الذي ينتمي اليها ، كان البعض ينظر اليه على انه اهم شخصيات العرب في المدينة [1] . ومع ذلك فقد كان أحد أفراد هذه القبيلة ، وربما كان أحيحة نفسه ، مسـ عن مصرع عضو نافذ من القبيلة ، وهو رقاعة بن زنبر . ويقال بأن أفراد قبيلة بني جهجباء تخلوا عن أطمين كتعويض عن الدم الذي أريق ، وقد أضعف ، بدون شك ، هذا التخلي القبيلة كثيراً .

ومع ذلك فقد احتفظت القبيلة بتماسكها ، وجرت الزيجات في معظم

---

(١) راجع حرب سمير ، ابن الاثير المرجع المذكور ٤٠٢

الاحيان داخل القبيلة ، ومن بين الحلفاء المرتبطين بها ، وهم آخر بقايا قبيلة بني أنيف الذين كانوا جزءاً من النواة القديمـــة لسكان المدينة العرب .

وهناك قبيلة أخرى عملت لمدة قبل الهجرة ، وهي قبيلة معاوية التي أقامت في الأراضي الشرقية بجانب بقيع الفرقد (ثم اصبحت فيما بعد مقبرة كبرى إسلامية) وبالقرب من ظفر . ولا بد من وجود اختلاط بين هذه القبيلة وقبيلة أخرى تحمل نفس الاسم ، وترتبط بقبيلة النجار . والأنساب المتعلقة بهذه القبائل ، كما نجدها في المصادر ، متميزة تماماً .

ومع ذلك يسمح للمؤرخ الغربي بالتساؤل ، عما إذا لم تكن هـــاتان القبيلتان فرعين من قبيلة قديمة ، وقد انضم هذان الفرعان فيما بعد مع قبائل مختلفة . يذكر السمهودي بني معاوية على انهم يقيمون بين عرب المدينة قبل وصول الاوس والخزرج ، وبين الجماعات اليهودية[1] .

وقبيلة معاوية متميزة تماماً من جهة النسب عن الجماعات التي تنتمي لقبيلتي عمرو بن عوف والنجار . ولا يجب الاخذ حرفياً بتسويات علماء الانساب في عصر متأخر ، ولا نجد أي نسب للجماعة اليهودية . وربما كان سبب ذلك ان هذه الجماعة هي جماعة قديمة ، ويقال مع ذلك ، بأن هؤلاء كانوا يعيشون بين أفراد قبيلة بني أمية بن زيد ، وربما كانت هذه جماعة بني أمية بن زيد من قبيلة عمرو بن عوف ، وليست من قبيلة

---

(١) ١١٤، ١١٥

مرة . ولما كان حاطب بن أوس الذي أعطى اسمه لمعركة حاطب ينسب أحيانا لمعاوية ، وأحيانا لامية بن زيد ، يبدو من الممكن أن تكون الجماعة « اليهودية » هي من جماعات قبيلة عمرو بن عوف . ونجد بين الزيجات النادرة التي تذكر فيما يتعلق بقبيلة معاوية ، كثيرات منها عقدت مع أناس من حارثة ، كما يذكر حلفاء لمعاوية جاءوا من مزينة وبالي . يبدو إذن ان هذه القبيلة كانت مختلطة جداً ، تشبه قبيلة بني زعورا و « أهل راتج » وكلاهما كان جزءاً من قبيلة عبد الأشهل .

أمية بن زيد الذي ذكرناه ، هو اسم يظهر أيضاً في الأنساب على انه اسم أخ لوائل (فهو إذن حفيد مرة بن أوس) ونستطيع أن نفترض انه وجد بين الاثنين صلة ضاع أثرها ، ونجد ان جماعة أمية بن زيد ، في قبيلة عمرو بن عوف ، أقل ترابطاً من قبيلة الجهجباء . ولكنها مع ذلك تتمتع بوحدة صريحة . وكان ينتمي لهذه الجماعة جماعة رفاعة بن زنبر . وكان لحفيد رفاعة ، أيام محمد ، وهو أبو لبابة بن عبد المنذر بن رفاعة ، شأن كبير . وإذا كانت ام الحضير بن سماك ، هي نفس ام اخته هند ، فهي إذن بنت ام رفاعة هذا . ولهذا انضم الحضير لهذا الفرع من قبيلة عمرو بن عوف ، وكان ينتمي اليه إيضاً أبو عامر الذي ذهب إلى مكة ورفض الخضوع لمحمد .

وكان لامية بن زيد اخوان ، ضبيعة وعبيد ، ويطلق علماء ـــ ب اسميهما على جماعات ، وجماعة ضبيعة معروفة في المصادر نوعاً ما ، وقد جرت عدة زيجات داخل الجماعة ، بينما جرت الزيجات الاخرى مع

أشخاص من واقف ، وفي العهد الاسلامي ، مع قبيلة عدي والقرشيين ، وبعض جماعات عمرو بن عوف ولا نعرف إلا القليل عن جماعة عبيد وان انتمى اليها كلثوم بن هدم ، وهو شخصية مهمة في أيام الاسلام الاولى في المدينة .

وتذكر جماعة أو جماعتان متواضعتان كحنش وحبيّب وسميعة (أو لوذان) وثعلبة . وكانت جماعة من الأحلاف ، وهم بنو العجلان من بالي ينتمون إلى زيد ، أي ربما إلى امية ، ضبيعة وعبيد معاً . وقد انفصل بطن بني سلم (وبني غنم بن سلم) الذي كان ينتمي اليه معد بن خيثمة عن أقربائه وانضم إلى عمرو بن عوف ، وإن كان من ناحية النسب ، يتحدر من فرع مختلف من الأوس

وهكذا كانت قبيلة عمرو بن عوف يتالف من عدة أقسام ، كان لبعضها حياة متميزة ، بينما كانت حياة البعض الآخر غامضة ويبدو أن أفراد هذه الجماعات تزاوجت فيما بينها ، إذا اعتمدنا على المعلومات القليلة التي في حوزتنا .

وكانت تجري ، بالمناسبة ، زيجات مع أهل خطمة ، وواقف من أوس مناة، والنجار ، وبياضة وبعض جماعات جشم والخزرج . ولا نملك مع ذلك وثائق تتعلق بزواج من عمرو بن عوف ، وأي من القبائل الثلاث التي كانت تؤلف قبيلة النبيت [١] ، أوس مناة ، واقف ، خطمة ،

---

(١) ربما نستطيع ذكر زواج ثابت بن وديعة من امرأة من راتج (ربما بعد الهجرة) . ابن سعد ٤/٢ ، ٨٦ .

وائل ... الخ .

اما فيما يتعلق بقبائل أوس الاخرى ، فمن الافضل دراستها معاً . أصبح اسم أوس مناة ، في العصر الاسلامي ، أوس الله أو مجرد أوس ، كما نجده في دستور المدينة . وقد حدث اختلاف حول إطلاق الاسم ، وليس هذا مستغربا ، لأنه كان في الاصل اسم قبيلة الاوس . ويبدو مع ذلك ان اسم أوس مناة ، يعني في دستور المدينة ، بعض البطون المنتمية لقبيلة الاوس ، وهي بطون لم ندرسها حتى الآن . ويبدو ان نفس الجماعة ما عدا واقف وخطمة ' كانت تدعى الجعادرة .

وكانت أهم القبائل ، في العصر الاسلامي على الاقل ، قبيلة خطمة . ويقول السمهودي ان أفراد هذه القبيلة كانوا مشتتين قبل الاسلام ، ثم استقروا فيما بعد في مركز وتكاثروا بسرعة[1] . ويذكر ابن سعد سيرة حياة خمسة عشر رجل وامرأة من هذه القبيلة . ولقــــد جرت معظم الزيجات من داخل القبيلة . ولكن تذكر زيجات أخرى مع واقف ، وائل ، عمرو بن عوف ، حارثة من قبيلة أوس ، ومع قوافلة والحارث من قبيلة الخزرج ولم تقم هذه القبيلة ، عـــلى الاجمال ، بدور مهم في شؤون المدينة .

أما فيما يتعلق ببقية القبائل ، فلدينا عنها وثائق أقل . ولا يذكر ابن سعد تقريباً أية معلومات عن سيرة أي فرد من هذه القبائل . ربما كان ذلك لأنهم عارضوا الاسلام ، أو لأن عددهم قل بعد معركة بعـــاث .

---

(١) ١٤٠

وقد انضمت جماعة من قبيلة الجعادرة إلى قبيلة عبد الاشهل . وربما تقربت جماعات اخرى ، بعد معركة بعاث ، من القبائل اليهودية ، لأنه يبدو ان أوس مناة تشتتت بين اليهود . وكان أبو قيس الاسلت ، وهو من وائل ، قبل بعاث ، أحد زعماء الاوس ، وذلك قبل الحضير بن سماك ولكن يبدو أن نفوذه كان أقل . ولم يسلم عند وفاته قبل سنة من الهجرة ، وإن كان حنيفاً ، أو موحداً وانه فكر بالانضمام لمحمد . ولا شيء مهم يذكر عن ابنه محصن .

قلنا انه يمكن أن توجد صلة ما بين أمية بن زيد من عمرو بن عوف ، وأمية بن يزيد من أوس مناة ، وقد اختلط على الأنساب لجهة الاب . ويذكر السمهودي أيضاً جماعة صغيرة قريبة تدعى عطية بن زيد . ونشعر بأن أوس مناة ، هي مجموعة متنافرة من جماعات قديمة ، كانت قوة الترابط فيها في طور الافول ، وكان ينقص هذه الجماعات الوحدة الجغرافية ، وكانت كلها تقيم مع ذلك جنوبي واحة المدينة . ولم يكن لهذه الجماعات ، عند مجيء محمد إلى المدينة ، سوى تأثير بسيط على الحياة السياسية في المدينة .

النجار :

وكان أكبر بطون قبيلة الخزرج ومجموع الانصار هو بطن النجار . وكان بطناً بدائياً يشبه إلى حد ما عمرو بن عوف ، ولكنه أقل تشتتاً منه وينسب علماء الانساب هذه الانقسامات في القبيلة إلى أربعة من أبناء

النجار ، وتعرف قبيلة النجار باسم تيم اللات، ثم سميت فيما بعد باسم تيم الله[1] .
ويبدو ان بني مازن النجار ، كانوا يتميزون عن الانقسامات الاخرى .

ولدينا رواية ثار نشأ بين مازن ووائل ، وقد فر أثناء المعركة أبو قيس بن الاسلت من وائل[2] ، وكثيراً ما تستخدم الصفة « مازني » ، بينما أعضاء سائر الجماعات يدعون غالباً « بالنجارين » . وقد جرت معظم الزيجات المذكورة في داخل بني مازن ، كما جرت زيجات اخرى مع بعض جماعات النجار ، وزيجة واحدة أو اثنتان مع قبائل أخرى .

كان القسم الاكبر من النجار ، يتالف من عشيرة بني مالك بن النجار ، ولكنه قد يوجد داخل هذه العشيرة عدة بطون وهي : بنو هديلة (أو معاوية) ، بنو مغالة وبنو مبذول ، وكانت هديلة ومغالة امرأتين، ولم يتحدث ابن سعد في طبقاته إلا عن القليل من أفراد هذه البطون. أما فيما تعلق ببطن هديلة ، فاهم شخصية فيه هي شخصية أبي بن كعب وكان أحد كتبة محمد ، وينتمي إلى بطن مغالة الشاعر حيان بن ثابت .

وكثير من الزيجات المذكورة ، هي التي عقدت داخل بني مالك ، وبني النجار ، ولا تقتصر الزيجات على هذه البيئة الوحيدة بالنسبة للقبيلة المتواضعة .

ولا نلاحظ أية خاصية غريبة حول البطون التي تذكر بالنسبة

---

(١) فلهوزن ، المدينة ٦ (٢) ابن الاثير ج١ ٤٠٧

للنساء ، و يظهر انها تكونت أيام الهجرة حسب قرابة قائمة على الاب .

ومن الغريب أن نلاحظ ، مع ذلك انه نشبت خصومة ، كما يقولون ، لمعرفة ما إذا كان عبد الله بن ابي ينتمي إلى قبيلة بني مغالة . ويبدو من المؤكد انه تزوج امرأة من مغالة ، ومن الممكن أن يكون قد عاش بعض الوقت مع القبيلة التي تنتمي اليها زوجته .

وكانت جماعة بني عدي بن النجار عديدة ، ولكن لم تكن لها خصائص متميزة ، وقد اتصل أعضاء هذه الجماعة عن طريق الزواج بجماعة مالك بن النجار ، وكانت تتضمن أشخاصاً يحملون اسم زعورا في نسبهم ، مما يدل على وجود صلات مع بني زعورا من عبد الاشهل ، وإن لم نجد شيئاً يؤكد هذه الفرضية تأكيداً قاطعاً . إلا هذا الاسم المهجور « السكن » الذي نجده في الجماعتين ، وبنو دينار بن النجار ، هم جماعة أصغر ولكنها أكثر انسجاماً . أي ان الزيجات المعقودة في الجماعة نفسها عديدة ويبدو ان بعض هذه الزيجات قد عقدت بين أفراد متقاربين من جهة النساء .

وهكذا نرى ان النجار ، هي قبيلة او مجموعة قبائل أخذت تذوب فيها جماعات عديدة متواضعة فلا تعود وحدات متميزة . وتقوم الجماعة الاساسية على أساس القرابة عن طريق الرجال ، ولكن في بعض الجماعات الصغيرة ، قامت القرابة من ناحية النساء بدورها . ولا نملك بهذا الصدد وثائق قاطعة .

ويبدو ان الجماعات الصغيرة اخذت تعقد أكثر فاكثر : يجات فيا

بينها ، كما عقدت بعض الزيجات مع كثير من قبائل المدينة الاخرى ، ما عدا قبائل أوس مناة . وأصبحت الأراضي العائدة لبني النجار ، موطن المدينة الاسلامية ، لأن منزل محمد كان فيها . وقد أصبح هذا المنزل الجامع الرئيسي في المدينة . ولكن المكان الذي كان يكتظ بالسكان ، قبل الهجرة يقع إلى الجنوب ، وكانت قبيلة النجار ، مهما كان السبب وبالرغم من عدد أفرادها ، وراء كثير من القبائل بالنظر لأهميتها السياسية ، ولم تنجب أي زعيم من الدرجة الاولى وكان أسعد بن زرارة أقرب الجميع لهذا النموذج من الرجال ، ولكنه توفي لسوء الحظ بعد أشهر من الهجرة ، وكان أهم الشخصيات بعده معاذ بن الحارث وأخويه معوذ وعوف ، ويسمون أبناء عفراء باسم والدتهم ، وكان هؤلاء جميعاً ينتمون لقبيلة مالك بن النجار .

الحارث :

كان أحفاد الحارث ، ويسمون غالباً بالحارث ، لايؤلفون قبيلة قوية . ونعلم انهم تخلوا عن اطم إلى قبيلة من الأوس ربما كانت قبيلة واقف وان بعضهم ذهبوا وأقاموا في سورية ، ويتصفون فيما عدا ذلك ، ببعض صفات النجار ، ولكن بشكل مصغر إذا جاز لنا القول .

وكانت إحدى الجماعات التي ذابت في القبيلة تتحدر ، كما يقع الآن ، من توأمي الحارث ، جشم وزيد ، ولا شك ان ذكر هذا التفصيل في النسب وسيلة للانضمام إلى قبيلة زيد العائلتين ، أو لتفسير مناسبة من المناسبات

كما يطلق على القبيلة أيضاً اسم « أهل السنح » (وهو اسم مكان) .

ولقد قامت وحدتها على وحدة السكن أكثر منهـا على وحدة الدم .

وهناك جماعات صغيرة كبني الجدارة و بني الابجر ، ويعتبر أفراد هذه هذه الجماعة « أخوة » الجماعة الاخرى ، ويعرفون أيضاً باسم بني خدرة نسبة لام الابجر (والصفة خدري) وكان بنو الابجر جماعـة تعقد فيهـا الزيجات مع أفراد الجماعات الاخرى فقط . وكانوا المثل الوحيد من هذا النوع في المدينة ، ولم ينبغ من بني الأبجر سوى أبي سعيد الخدري الذي تتحدث عنه النصوص كثيراً . وكانت والدة سعد بن معاذ ووالدة أسعد بن زرارة اختين و تنتميان لهذه القبيلة ، وكان ينتمي للفرع الرئيسي من القبيلة شخصيتان من الدرجة الاولى ، وهما سعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة .

عوف : بالحبلى وقواقلة :

نحن هنا أمام حالة يظهر فيها بوضوح الطابع الاصطناعي لأقـــدم أجزاء الأنساب . كان لجيل أو جيلين ، قبل الهجرة ، شيئاً عاديا الحديث عن قبيلة سالم ، وكان ينتمي لهـــذه القبيلة « الزعيم » الذي أتاح للعرب الاستقلال عن اليهود ، هو مالك بن العجلان . ولا شك بانه لم يوجـــد سوى قبيلة واحدة بهذا الاسم . ولكن يبدو انها انقسمت إلى ثلاث قبائل . ولهذا يذكر علماء الانساب ثلاثة رجال يحملون اسم سالم ، يتحدر عنهم ثلاث قبائل يسمون عادة بالحبلى قواقلة وواقف. والقبيلتان الاوليان

متقاربتان جداً من جهة القربى، لأنهما حسب رأي علماء الأنساب تنحدران كلتاهما من عوف بن الخزرج ، كما أن سالماً في هاتين القبيلتين قريب رجل يدعى غنم ، ولكن الشك يحوم حول القرابة الحقيقية .

واقف هي أحد بطون أوس مناة ، فهي بذلك بعيدة من ناحية النسب ، عن بني عوف الخزرج ، ولكنها تعرف أيضاً باسم سالم ، وكان له أخ سلم (أو سَلَّم) له ابن يسمي غنم . وقد اتحد أفراد من واقف بواسطة الزواج بالبطنين الآخرين . وكانت الجماعة الوحيدة من أوس مناة التي تفعل ذلك . يدل ذلك على انه كان يوجد بين هذه البطون الثلاثة صلة متينة لا تنبئنا عنها الانساب من ناحية الاباء . ولم يكن بالحبلى والقواقلة أيام الهجرة مختلفون كثيراً في طبائعهم عن سائر البطون الصغيرة . وكانت معظم الزيجات تجري في داخل القبيلة ، أو مع حلفاء أو أفراد أو بطون أخرى عرفوا باسم سالم . ولقد جرت بعض الزيجات بين بالحبلى ، بني مغالة النجار ، بالحارث ، ساعدة ، زريق ، وعمرو بن عوف ، واتصلت القواقلة بواسطة الزواج بجماعات اخرى من النجار ، وبالحـــارث ، وبياضة ، وعمرو بن عوف ، وعبد الاشهل وظفر . تلك وقائع تؤيدها وقائع أخرى ، وقد لاحظنا سابقاً ان جماعة من القواقـــلة أصبحت حليفة لعبد الاشهل (التي عقدت معها ظفر معاهدة) . وقـــد قامت عداوة كبيرة ، في العصر الجاهلي ، بين عبد الله بن أبي من بالحبلى وزعيم بياضة . من المفيد إذن أن نلاحظ انه إذا كان أفراد بالحبلى يتزجون من قبيلة زريق عدوتهم ، وكانت بالحبلى أقوى الجميع لمكانة عبد الله بن أبي

و نفوذه في المدينة ، وإن كان هذا النفوذ يعود إلى صفاته الشخصية .

ولم يكن عبادة بن الصامت ، و هو شخصية مرموقة في القواقلة ، قليل الشان (يجب أن نلاحظ ان هناك خلاف حول اصل معنى اسم القواقلة) فلهوزن يعتقد انه مشتق من اسم مكان ، غير ان المصادر تميل إلى الاعتقاد بأنه اسم رجال يدعون قوقل [1]

ساعدة :

كان أفراد ساعدة قليلي العدد ، و لا تذكر هذه القبيلة في ايام الجاهلية ومع ذلك فقد كان سيدها سعد بن عبادة رجلا مرموقاً ، ليس بين الخزرج بل بين عامة الانصار . ويتحدث السمهودي عن أربعة فروع للقبيلة ، كانت تسكن أماكن مختلفة و لكنها متجاورة ، وكلها قريبة من سوق المدينة الاسلامية . كما تتحدث الوثائق عن زيجات مع المغالة ، سليمة بالحارث ، بالحبلى ، عبد الاشهل وظفر . ويبدو ان محمداً ، منذ البداية، أدرك الاهمية الضمنية أو الفعلية لهذه القبيلة . وبالرغم من ان اثنين من من أفرادها حضرا معركة العقبة الكبرى ، فانهما أصبحا من النقباء .

سلمة :

كان بطن سلمة كبطون زريق وبياضة وجماعات صغيرة اخرى

---

(١) فلهوزن ، المدينة رقم ١٨ ، ابن سعد ٣، ٢، ٩٥ السمهودي ج١، ١٤١ .

جزءاً من بني جشم من الخزرج . وكانت قبيلة كثيرة العـــدد ، ولكن قوتها ، حسب رأي ابن سعد ، كانت تظهر أكثر مما هي فعلا لأن أفرادها اشتهروا بحماسهم للاسلام ، ويبدو ان هذه القبيلة لم تشترك إلا قليلا في المؤامرات السياسية في الجاهلية ، وإن حدثت بعض المناوشات مع القبيلة المجاورة في الشرق ، أي مع عبد الاشهل ، وكانت بعض عائلات سلمة على علاقات طيبة مع بعض عائلات عبد الاشهل ، وكانت تدافع كل منها عن الاخرى ، ضد أفراد القبائل الاخرى . وقد جرت نسبة مئوية ضخمة من الزيجات التي يذكرها ابن سعد داخل القبيلة ، ويزداد هذا العدد إذا عددنا الحلفاء البدو كقسم من القبيلة . كما جرت زيجات مع جماعـــات أخرى من بني جشم ومع النجار ، ساعـــدة ، حارثة ، عبد الاشهل ، ظفر وعمرو بن عوف . ويذكر السمهودي عدة مواطن تسكنها هـذه هذه القبيلة ، يلتصق بعضها بالبعض وتقع على سفح جبل سلع . وكان زعيم سلمة الجد بن قيس ، وقد أحل محمد محله البراء بن معرور (١) وقد زار مكة للحج ، قبل الهجرة ، ورفض أن يدير ظهره للكعبة ليصلي باتجاه القدس ، كما كانت القاعدة في ذلك الوقت ، ولقد أمره محمـــد أن يواجه القبلة ، وقد أعلن تغيير القبلة في أرض قبيلة سلمة ، ويجعلنا مسلك البراء بن معرور نعتقد ان بعض فروع سلمة لم تكن تشعر بأية صداقة نحو اليهود .

---

(١) راجع يز ٢٨٣ مما يلي . اما كتابة اسم هذه القبيلة راجع السيوطي « لب اللباب » ، طبعة ب.ح. فت ليدن ١٨٤ – ٢ج١، ١٣٨

زريق :

كانت زريق ، بياضة وجماعة صغيرة تسمى بني حبيب بن عبد الحارثة تربطها ، في الماضي ، أواصر الصداقة، ثم نشأ النزاع بينها فانضمت حبيب إلى جانب بياضة ضد زريق التي اجبرت على إخلاء أراضيها أكثر من مرة فتحتلها حبيب ، وقد هاجر فيما بعد قسم من زريق إلى سورية . وتعقدت هذه الحالة لوجود عائلة من زريق ، بعض الوقت ، بين أهل بياضة ، ثم وجدت في النهاية انه أفضل لها أن تعيش بين أفراد قبيلتها ، وقام ثار بين عائلة من حبيب وزريق ، فرأت هذه ان تنهي هذا الثار بترك حلف بياضة لتنضم إلى زريق . كما ان ثاراً آخر كان السبب بأن انضمت جماعة من جشم بن غدارة إلى زريق لأن فروع جشم الاخرى ، التي كان بنو غدارة على علاقات سيئة ، كانت تتلقى مساعدة بياضة .

ويتاكد هذا النزاع بين القبيلتين بوقائع أخرى ، وقد عقدت بالحبلى التي وقفت ، بقيادة عبد الله بن ابي ، في وجه بياضة بقيادة عمرو بن النعمان ، كما رأينا زيجات مع أفراد من زريق وليس مع أفراد بياضة ، بينما اعداؤها اهل قواقلة فعلوا العكس (إلا إذا كانت ام رافع بن مالك استثناء حقيقياً وظاهريا) وقد عقدت حارثة زيجات مع بياضة كما تزوج عدواهما عبد الاشهل وزريق فيما بينهما . ويقول السمهودي ان بياضة وزريق وكذلك ظفر كانت افضل الانصار فيما يتعلق بالحرب ،

ولا شك ان هذه الصفة ، إذا صحت ، قد جذبت اليها عدداً من الجماعات الصغيرة . ولم تنجب ، لسوء الحظ زريق ، حوالى الهجرة ، أي قائد عظيم ، وكان رافع بن مالك ينتمي لهذه القبيلة ، وهو احد النقباء الذين حضروا إلى العقبة ، ولكنه لم يكن من بين المرموقين فيهم .

بياضة :

قلنا بضع كلمات سابقاً حول سياسة هذه القبيلة العدائية أيام عمرو بن النعمان ، حتى إذا ما قتل في بعاث انتهى توسع القبيلة . وتجعلنا النصوص نشعر ان القبيلة كانت تحاول محالفة الجماعات المهزومة كقبائل حبيب وحارثة لتوفير الاسباب الوجيهة للقيام بالهجوم . وإذا كان ابن سعد لا يذكر إلا قليلا من الرجال والنساء من قبيلة بياضة فذلك لان كثيراً منهم قتلوا في معركة بعاث ، او لأن هذه القبيلة كانت فاترة الحماس للاسلام ، أو لأن أفراد هذه القبيلة لم يكونوا قط عديدين . وكانت تملك مع ذلك تسعة عشر اطما إذا صدقنا السمهودي ، وهذا يدل على قوة عسكرية كبيرة ، وكانت أراضي القبيلة مع أراضي حلفائها كحبيب وسائر فروع جشم تكون وحدة متراصة ، وهذا أيضاً سبب من أسباب القوة . وقد عقدت بياضة ، كما فعلت زريق ، زيجات مع بني الحارثة ، النجار ، ساعدة وعمرو بن عوف ، ما عدا فروع جشم الاخرى والقبائل المذكورة سابقاً .

نرى ، وقد وصلنا إلى هذه المرحلة من دراستنا ، أن نستعين بالجدول

التالي ، وإن كانت الارقام المذكورة فيه تتعلق بمسلمين ، ونستطيع ، إلا فيما يتعلق بالقبائل التي كان عندها سبب خاص يحملها على قبول الاسلام أو رفضه ، أن نعتمد تقريباً على هذه الارقام لتقدير قوة القبائل النسبية إلا إذا ظهر شاهد أكثر ثقة منها.

ولا شك ان العامود الاخير ، من هذه الارقام ، هو الفاصل لانـــه يعطينا عدد النساء اللواتي يذكرهن ابن سعد في الجزء الثامن من طبقاته ، بعد أن أقسمن باعتناق الاسلام .

ونجد في هذا العامود سبع نساء ، يقول ابن سعد عنهن بأنهن ينتمين للحارثة ، نقلن إلى عبد الاشهل لأنهن ، كما يبدو ، قسم من الجماعة في قبيلتهن التي أصبحت حليفة لعبد الاشهل .

قبائل	المسلمون الاول(١)	العقبة١ (٢)	العقبة٢ (٣)	نقباء (٤)	في بدر (٥)	قتلوا في احد (٦)	في ابن سعد ج٨
عبد الاشهل	٠٠	١	٣	١	١٥	١٣	٣٥
ظفر	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٥	٠٠	٢٣
حارثة	٠٠	٠٠	٣	٠٠	٣	٠٠	٢٣
عمرو بن عوف	٠٠	١	٥	٢	٤٠	٧	٢٨
اوس مناة (خطمة)	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	١٢
النجار	٢	٣	١١	١	٥٦	١٢	٨٣
الحارث	٠٠	٠٠	٧	٢	١٩	٥	٣٠
بالحبلى و	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠
القواقلة	٠٠	٣	٦	١	٢٥	٦	٢١
ساعدة	٠٠	٠٠	٢	٢	٩	٦	١٢
سلمة	٣	٣	٢٩	٢	٤٣	٣	٥٤
زريق	١	٢	٤	١	١٦	١	١٦
بياضة	٠٠	٠٠	٣	٠٠	٧	١	١٢

(١) ابن هشام ٢٨٧ راجع كايتاني ج١، ٣١٤

(١) ابن هشام ٢٨٨ – ٩ ، كايتاني نفس المرجع

(٣) ابن هشام ٣٠٥ – ١٢ « ٣٢١ – ٢

(٤) ابن هشام ٥٩٧ – ٨ « ٣١٩

(٥) ابن سعد ٢/٣ ، ابن هشام ٤٩٥ – ٥٠٦ الواقدي ٨٦ – ٩٠ كايتاني ٤٩٧ – ٥١٠.

(٤) الواقدي ١٣٨ – ٤١ ، ابن هشام ٦٠٧ – ١٠ كايتاني ٥٦٣ – ٤

ج ـ العناصر النافذة في المجتمع المدني

والنزعات الظاهرة

هذه الدراسة لقبائل المدينة سريعة العطب ، لأننا نجهل إلى أي حد معلوماتنا عنها كاملة . فاذا سهونا عن ثغرة أو لم نفهم أهميتها فانه ينتج عن ذلك تفسير خاطىء للوقائع . وبالرغم من هذه الامكانية ، فان الاسس التي نملكها لجمع وثائق موضوعية واسعة ، بحيث تسمح لنا بنظرة شاملة فيما يتعلق بالعناصر النافذة والنزعات التي قامت بدورها في المجتمع المدني .

هناك بعض الأمثلة على النزعة ، التي تشاهد باستمرار في المجتمعات البدوية ، والتي تدفع الجماعات إلى التفسخ . وترى اثر ذلك في الخصومة بين زريق وحبيب ، وقد امتدت هذه الخصومة إلى بياضة . ونجد مثالا آخر في الانقسام بين سليم وواقف ، ثالثاً في تفسخ قبيلة سالم القديمة وإن عدد الجماعات التي تحاول الاستقلال ، وهي تعيش في ظروف حياة زراعية ، أقل مما لو كانت تعيش في الصحراء .

والنزعة الشاملة مع ذلك هي النزعة المعاكسة ، وتتدخل في تكوين الجماعات الكثيرة العدد . كان من الممكن في مجتمع كمجتمع المدينة ، حيث يعيش عدد من الجماعات الصغيرة ، إذا اختلفت جماعتان ان تدعوا الجماعة الثالثة لمساعدتها . وكانت العائلات أو القبائل الطموحة على استعداد عادة لتلبية مثل هذا النداء . وكانت تدفعها ، على كل حال ، وفي

كل وقت ، أسباب وجيهة للتدخل في شؤون الآخرين ، وكانت أقوى الاسباب بالنسبة للعربي في الجاهلية ، القرابة ، وإن نشبت خصومات عنيفة أيضاً بين أناس تجمعهم روابط الدم . وتدعي نظرية في الانساب وجود قبيلتين كبيرتين في الأصل : الاوس والخزرج ، ويبدو ، سواء كان لهذه النظرية أساس أو لم يكن ، انها طبقت في الواقع بحيث تبرر وتعمم انضمام هؤلاء أو أولئك للمحالفتين اللتين كانتا تقسمان المدينة . ولقد سنحت لنا فرص عديدة ، خلال دراستنا ، لنلاحظ ان التعلل بالنسب ، كان يذكر لتقوية الروابط التي تربط بين عدة جماعات صغيرة . ومن الممكن أن يكون الوهم في الأصل (كالقول بان زعوراء كان « أخاً » لعبد الاشهل) أصبح ، بمرور الزمن يعتبر حقيقة ، كما كانوا يستعينون بجدود تذكر أسماؤهم لتبرير القرابة بين القبائل ، فيقال بأن والد زريق وبياضة ، كان قد أوكل أمر الاول إلى الثاني ، وان زريقاً ، عند وفاته ، كلف حبيباً برعاية أبنائه ، وان حبيباً عاملهم بقسوة . نلاحظ على العموم ، إذن ، وجود نظرية غريبة تقول بأن القرابة بين القبائل ، وان لم تحل بين الحروب الاخوية ، كانت عنصر توحيد بينها .

وكان العرب في الجاهلية على علم بمختلف صور العقود التي تربط فيما بين الناس . وكان أهم هذه العقود الحلف أو التحالف الذي يعقد بين جماعات أو أفراد يصبحون بموجبه حلفاء .

وهناك عقد آخر مهم كان يدعى بالجوار ، أو حماية مؤقتة يقوم بها الجار أي حسب قول العهد القديم « حماية الذي يقيم داخل أبوابك » وكانت

هذه العادة منتشرة في المدينة . وهكذا نعلم ان بني المعلا فسخوا جوارهم مع بياضة ، وعقدوا جواراً آخر مع زريق . وحينما يقال بأن زعوراء كان أخ عبد عبد الاشهل ، فهـــذا يعني في رأيي ، ان قبيلة زعوراء كانت تتمتع بجوار عبد الاشهل ، وانه كان يسمح لأفراد هاتين القبيلتين بالزواج فيما بينهم .

ومن الممكن أيضاً ان علمـــاء الانساب المتأخرين ، الذين ندين لهم بمعلوماتنا ، كانوا عاجزين في بعض الاحيان عن إلحاق رجل ، عن طريق التحدر الابوي ، بالقبيلة التي يعرفون انـه ينتمي اليها ، فيجعلون منه حليفاً ، مع وجود قرابة تنسب هذا الرجل للقبيلة ولكن عن طريق الام. ولذلك يجب علينا الحذر حين نرى علماء الانساب يذكرون لقب الحليف .

أما فيما يتعلق بتكوين الوحدات المهمة ، فقد كان للظروف الجغرافية والمادية تأثيرها القوي . وقد أصبح من الشائع في المدينة استخدام الاطم لأسباب دفاعية ، وكان من الضروري استخدام عدد من الرجال لبنائها والاشراف عليها . فكان لا بد من انضمام جماعات صغيرة إلى جماعـــات أخرى . وهكذا وجدت جماعات أمثال « اهل راتج » وهي عبارة عن فئات تجمعت لتأمين الدفاع المشترك ثم ربطت بينها بمرور الزمن وشائج الدم .

وكان للموطن أثره في تكوين الوحدات الاضخم ، إذ كانت كل قبيلة من القبائل الرئيسية بمثابة دولة مصغرة ، لأنهـا كانت تكويناً سياسياً

مستقلا . وكان الأمن يخيم داخل أراضي هذه الدولة نوعاً ما ، لأن سفك دم عشير من القبيلة يعتبر جريمة لا تغتفر . أما خارج حدود أراضي القبيلة أو حلفائها ، فان الامن كان ضعيفاً . وقد نشأ عن فترة « الحرب الباردة » التي تبعت بعاث حالة خطر إيجابي .

ويجدر بنا أن نلاحظ ان معظم الحالات المذكورة لزيجات بين قبائل كانت في الواقع بين قبائل متجاورة . وكان بامكان الشخص أن يخاطر بنفسه في أرض قبيلة اخرى ، إذا كان يعرف ان له اصدقاء ، أما اجتياز أراضي قبيلة مجاورة للوصول إلى أراضي قبيلة ثالثة ، فكان أمراً خطيراً . وكانت شخصية الزعيم تقوم بدور مهم في نمو الجماعات المهمة . وبامكاننا أن نفهم تاريخ السنوات العشر التي سبقت الهجرة ، إذا لم نهتم بالعداوة التي كانت بين الاوس والخزرج فقط ، بل بالعلاقات الكائنة بين الزعماء الذين قادوا المعارك الرئيسية . إذ كان لا بد أن يدرك هؤلاء الزعماء بشاعة الحالة الراهنة آنذاك . وهي عبارة عن حرب الجميع ضد الجميع ، كما كان لا بد أن يروا إمكانيات الاصلاح المتوفرة لرجل ذي بأس وعزيمة ، وأن يتوسع بسلطته لتشمل القسم الاكبر من المدينة ، أو ربما المدينة بأجمعها . تلك هي الرهينة التي كانت موضع التنافس في حرب بعاث ، فلو انتصر عمرو بن النعمان ، لما استطاع أحد في المدينة مقاومته . ولقد ظهر على كل حال على أنه لم يكن سوى زعيم صعاليك بمقدرته أن يدافع عن حقوق رجاله ، ولكنه لا يعرف الشفقة أو وخز الضمير في مسلكه نحو الغرباء على عصابته . كان يستطيع أن يعد أتباعه

بالاراضي الخصبة التي كانت تمتلكها قبيلتا قريظة والنضير اليهوديتان قبل أن تنشأ أية حالة حرب . كما كان يستطيع قتل الرهائن اليهودية لأسباب تافهة . يدل مثل هذا المسلك ، على انه لم يكن رجل دولة ليرى أبعد من مصلحته القريبة ، كما كان عاجزاً ، وقد أصبح توحيد المدينة لا مفر منه ، عن تحديد الخطة التي يجب أن يسير بموجبها كل من يريد السيطرة عليها . وإن فقدان الضمير الذي كان يميز عمراً سيكون بذرة الخلافات في المستقبل ، وربما حرمه من تأييد رجال أمثال عبد الله بن ابي الذي تنبأ بمدى ضآلة الأمن الذي يوفره مثل هذا الزعيم .

ويمكن أن نتساءل عما إذا لم يكن لابن أبي نظرية أوسع . كل مانعرفه هو انه كان على خلاف مع عمرو بن النعمان بصدد رهائن اليهود لأنــه أطلق سراح الذين استولى عليهم وانه ظل محايداً في بعاث . ربمــا شعر بالخوف من عمرو ، ولكنه أدرك ولا شك بحاجة المدينة الماسة لزعيم واحد . ويقال بأن أتباع ابن أبي ، كانوا مستعدين لحمله إلى السلطة حين وصل محمد . ولقد أدرك انه يجب على هذا الزعيم ، ان لا يثير غضب فئة من فئات المجتمع ، بل عليه أن يحاول أن يعامل الجميع عـلى السواء . ولربما تأثر ابن أبي ، عن طريق أصدقائه اليهود ، بالمثل الاعلى القديم في العدالة الاجتماعية الذي نجده في العهد القديم .

ولم يكن الحضير بن سماك ، وهو الزعيم الآخر للقوى المتنازعـة في بعاث ، أكثر شعوراً بوخز الضمير من عمرو ، لأنه كان قد طرد حارثة من أراضيها ، ولا شيء مع ذلك ، يجعلنا نفترض انــه ساوى عمراً في

فظاءه ، ويدل طابع اتباعه المتنافر على انه كان عادلا معهم .

ولقد كانت الوحدة التي وصلت اليها العناصر المختلفة التي تكون قبيلة عبد الاشهل مثالا مفيداً يقتدى به لتوحيد المدينة .

ولنلاحظ ، في النهاية ، ان القبائل القوية ، حسب الارقام الناقصة التي ذكرناها ، من ناحية العدو لم تنجب « زعماء » ممتازين . إذ ان بالحبلى وبياضة اللتين ينتمي اليهما كل من ابن ابي وعمر ولم تكونا كثيرتي العدد ولم ينبغ من القبائل الكثيرة العدد ، كالنجار وسلمة أي زعيم من الدرجة الاولى ، ولا يمكن تشبيه اسعد ابن زرارة الذي ينتمي للنجار بالزعماء الذين أشرنا اليهم . وربما كانت حالة الحضير بن سماك تختلف عن ذلك لأن قبيلته عبد الاشهل كانت مهمة ، ولكن صلاته بهذه القبيلة ليست واضحة ، هذه مسألة غريبة سنعود اليها فيما بعد .

٢ ـ أتباع محمد

قوائم الاسماء الثلاث التي يقدمها لنا ابن اسحق والتي استمددنا منها أرقام الجدول التالي ، تحت عناوين « المسلمين الاول » ، « العقبة الاولى » « العقبة الثانية » ، يمكن اعتبارها على انها تمثل المراحل الثلاث لاعتناق أهل المدينة الاسلام ، أو المراحل الثلاث لاعتناق أهل المدينة السياسة التي تهدف للمجيء بمحمد إلى المدينة [١] .

وحين ننظر في هذه الارقام على ضوء العلاقات بين القبائل تتضح

---

(١) محمد في مكة ، ١٤٤ ، الترجمة الفرنسية ، بايو : باريس ١٩٥٨م ص ١٨٨

لنا عدة أمور مفيدة . وقد قـــام بالاستطلاعات الأولى الحقيقية حول مجيء محمد للمدينة إذ لم يكن للاتصالات المزعومة والدخول في الاسلام في أول الامر أي تأثير) رجال من قبائل النجار ، زريق وسلمة ، وربما كان أسعد بن زرارة من النجار الرجل الرئيسي فيها .

وقد انضم إلى هؤلاء ، في المرحلة التالية المسماة بالعقبة الاولى ، رجال من القواقلة ، عبد الأشهل ، وحضر العقبة الثانية أفراد مـن كل قبائل الأوس والخزرج ، ما عدا أوس مناة . في مثل هذه المسالة يمكن اعتبار ظفر جزءاً من عبد الأشهل . وأهم ما نلاحظ على ذلك ، ان عدد مندوبي القبائل ، كان بالنسبة لأهمية كل قبيلة ، غير ان سلمة لها ثلاثة أو أربعة أضعاف ما يحق لها من مندوبين ، بينما نجد جمـاعات أخرى ليست ممثـلة كفاية ، كعبد الأشهل وبالحبلى وقبائل سعد بن معاذ وعبـد الله بن أبي . وقد أسلم سعد قبل العقبة وكذلك ابن أبي . وإن كنا في كل ما سنقوله عنه ، لا نملك سوى القليل من التفاصيل في هذه المرحلة.

كانت هاتان الشخصيتان أهم الزعماء الذين عاشوا بعد بعاث ، وبالرغم من إسلام كل منهما ، فلم يتنازل أحد منهما لحضور العقبة ، ويجب أن نلاحظ ان ابن أبي وأمثاله الذين عرفوا فيما بعد بالمنافقين ، كانوا في السنة الاولى والثانية للهجرة مسلمين كسائر الناس . وبهـــذا يختلف ابن ابي قيس بن الاسلت من وائل الذي لم يسلم ، عن أبي عمرو الراهب من عمرو بن عوف الذي عاد إلى مكة .

تعطينا هذه الوقائع وتلك الأرقام ، فكرة عن الجماعات التي أبدت

أكثر ما يكون محمداً في المدينة في أيام الاسلام الاولى . فهل من الممكن أن نكتشف لماذا كانت هذه القبائل أول من انضم للاسلام وليس القبائل الاخرى ؟ تتصف جميع الشخصيات المذكورة أسماؤهم في القائمتين الاوليين بصفة مشتركة ، وهي انهم ينتمون لقبائل لم تنجب هي « زعماء » كباراً ، وعانت من القادة العسكريين في قبائل أخرى . اشتركت النجار وسليمة في خوض بعض المعارك ، غير انه لا يذكر أي قائد عسكري خرج منهما ، وقد ذكرنا ما آتي زريق . وأنجبت القواقلة القائد الكبير مالك بن العجلان ولكن ذلك حدث قبل عدة أجيال ، وكانت هــــذه القبيلة أيام الهجرة أضعف من بالحبلى وعلى استعداد لمد اليد إلى أعداء هذه القبيلة .

وكانت قبيلتا عمرو بن عوف ، وعبد الاشهل في وضع مختلف عن هذا الوضع . ويبدو أن الرجلين اللذين حضرا العقبة الاولى كانا مـن الحلفاء ولم يكونا إذن يمثلان رأي أهم الجماعات في كل قبيلة .

من السهل أن ندرك أن القبائل والبطون التي تجد نفسها في مثل هذا الوضع ميالة لمجيء رجل مـــن الخارج يحفظ التوازن السياسي في المدينة .

وربما شعرت القبائل ان التوحيد آت عاجلا أم آجلا ، ولكنه كان يسيئها أن تخضع لزعيم ياتي من بالحبلى أو بياضة . وكان لأي فرد من أية قبيلة في المدينة أصدقاء وأعداء في القبائل الاخرى ، وكان مـــن الصعب جداً معاملة البعض والآخرين بدون تحزب . وكان مجيء محمد من الخارج وما توحيه سيرته من ثقة باعث أمل على قيام سلطة يرضى

عنها الجميع . يضاف إلى ذلك ، انه يمكن أن يتم التوحيد على يد محمد دون ان يبدأ بحرب أهلية وخيمة .

ولما كانت قبيلة سلمة تظهر نزعات معادية لليهود ، يمكن أن نتساءل إذا لم تكن تخشى ان يعتمد ابن ابي لعلاقاته الطيبة مع القبائل اليهودية ، على هذه القبائل فيسمح لها بذلك استعادة النفوذ الذي كان لها سابقاً في المدينة . ومن المغري أن نفترض أن القبـــائل الممثلة في العقبة الاولى كانت مؤلفة من البروليتاريا (العمال) ، وان للقبائل الاخرى كانت من أصل ارستقراطي ، ولكن ليس هناك دليل كاف يسمح لنا بمثل هذه الفرضية .

يبقى علينا أن ندرس سلوك مختلف الزعماء . ولولا إسلام سعد بن معاذ لما كانت طريق الامة الاسلامية مكللة بالنصر كما كانت في الواقع . لا نعرف على التحديد قرابة سعد بن معاذ من الحضير بن سماك المنتصر في بعاث . ولكنه يبدو انه ورث قسما من سلطتة ، وعلى كل حال كان ابن الحضير اسيد على تفاهم تام مع سعد وكان مساعده ، ويمكن أن يكون سعد قد نظر بهذه الازدواجية في قيادة عبد الاشهل على انها ضعف

ومن الامور ذات المغزى بهذا الصدد ان اسلام معاذ ، حتى في رواية ابن اسحق المنمقة ، يقع رأساً بعد إسلام اسيد . ولم يكن مع ذلك هـذا هو العامل الوحيد الفعال . وأقل ما يمكن الاعتراف به لسعد انـه شعر بشيء مما تجلبه الحركة الجديدة للمدينة ، وأفضل ما نقول عنه انه آمن حتماً برسالة محمد .

وكان قريب أسعد بن زرارة ، وصديق عمرو بن الجموح من سلمة. فاتيح له إذن أن يقدر مدى قوة سيطرة الاسلام شيئاً فشيئاً على أفراد هاتين القبيلتين ، وأن يسمع للدفاع عن قضية الاسلام على ألسنة رجال كان مستعداً للاستماع لهم ، حتى إذا مـــا قرر أن يسلم وهب نفسه كلية للاسلام . لم يتردد في القيام بغزوة بدر التي تغيب عنها ابن ابي ، وحتى اسيد بن الحضير (وقد اعتذر الاخير فيما بعد لمحمد) . ولما كان سعد بن عبادة هو أيضاً غائباً عن بدر بسبب لدغة حية كما قال .

كان سعد بن معاذ في المعركة قائد الانصار الوحيد وساهم كثيراً في انتصار المسلمين .

اما موقف ابن ابي فعلينا ان نخمنه اعتماداً على المعلومات الضئيلة التي نجدها في النصوص حول مسلكه . لا بد انه أدرك ان الحركة التي أخذت تنشط لتاييد الاسلام أصبحت من القوة بحيث لا يمكن مجابهتها وان معارضتها يساوي بالنسبة اليه فقدان نفوذه . وكان يامل أيضاً بلا شك ان يمارس سلطانه على المدينة باجمعها ، وربمـــا رأى في الاسلام وسيلة تتيح له تحقيق ماربه ، إذا افترضنا ان الاسلام يقدم الاساس الديني للوحدة فيستطيع ابن ابي ان يقوم بالسلطة السياسية ، ولو ان اليهود اعتنقوا الاسلام لتحقق هذا الحلم جزئياً . ولكن اليهود رفضوا الاسلام ، وظهر محمد خبيراً بالشؤون السياسية ، وأظهر ابن ابي قليلا من الحماس من أجل القضية التي أيدها باسمه فلم يستطع إذن ان يقوم بدور مهم في الحركة الدينية . كل هذا من وحي الافتراض طبعاً . ولكن يجب العثور على مثل

هذه الاسباب لنفهم كيف اعتنق ابن ابي الاسلام ، ثم أصبح عدواً للاسلام وإن ظل مسلماً في الظاهر .

ربما كان إسلام بن معاذ ، كما يقول ابن اسحق ، هو الذي فتح الباب لقبول أهل المدينة الاسلام عـامة . و نشعر من دراسة الو ثائق التي بـين أيدينا ان قبول الاسلام ، ما عدا الشواذ التي سنذكرها ، كان عاماً وان جميع الرجال والنساء المرموقين في القبائل أسلموا ، بالاسم على الاقل . ولا نسمع عن أية شخصية مرموقة أسلمت بعد انتصار بدر ، أو حتى بعد انتهاء حصار المدينة . لنا الحق ان نفترض انه لا توجد أية شخصية مهمة نجهل أخبارها حتى ولو وجد عدد من الناس المتوسطين الذين نجهل عنهم كل شيء .

والقبائل التي لم يسلم فيها أشخاص مرموقون قبل الهجرة هي قبائل اوس مناة وهذه أسماؤها : امية بن زيد (من مرة بن مالك بن اوس) ، خطمة ، وائل وواقف (كما رفض الاسلام القبائل اليهودية) ولكن بمرور الزمن وجد بينها بعض من أسلموا . ولم تكن اية قبيلة مذكورة قوية ، وإن كان ابو قيس بن الاسلت ، من وائل ، زعيما احتل ، فترة من الزمن مكان الصدارة . ولا تذكر المصادر اي سبب لرفض هذه القبائل الانضمام للحركة الجديدة . ويقولون بأن أبا القيس كان ينوي ان يسلم ، ولكنه مات قبل تحقيق هذه النية . ومثل هذه النيات لا تتحول إلى افعال تجعلنا نشك بأنها كانت محاولة لانقاذ كرامة القبيلة . والواقعة الايجابية التي نعرفها ، هي ان ابا قيس لم يسلم . واقرب تفسير لهذا البرود تجاه محمد هو

ان هــذه القبائل كانت تربطها صلات وثيقة بالعبرانيين . ولم تكن أراضيها مستقلة بل كانت مختلطة بأراضي اليهود . كانت حالتها إذن غير مستقرة . ولهذا كانت هذه القبائل غير مستعدة للاندفاع بلا رجعة في حركة لا يرتاح اليها جيرانها العبرانيون .

ويبدو لنا من الافضل ، منذ الآن ، ان نذكر تاريخ الحوادث التي وقعت فيما بعد ، ألا وهي قصة « المعارضة الوثنية » للاسلام التي لم تكن قط لها اهمية رئيسية بالنسبة للمدينة . وقــد مات ابو قيس قبل بدر ، وابتعد سائر الرجال السياسيين المرموقين عن محمد ، ودخل بعض الناس في الاسلام . وكانوا من عامة الشعب ومن بين الشباب . اما الذين ظلوا على وثنيتهم ، فقد ملأت الحسرة قلوبهم مــن تقدم الاسلام ، ونظمت اسماء بنت مروان (من امية بن زيد من اوس مناة) وزوجة رجل من خطمة ، اشعاراً تهدد فيهــا بعض المسلمين [1] وتشتمهم . وإذا صحت الاسماء التي يذكرها ابن اسحق ، فالمأخذ الوحيد عليهم انهم كانوا يجلبون العار لأنفسهم بخضوعهم لرجل غريب لم تصلهم به صلة الدم . ولم يمض إلا وقت قصير على بدر حتى ذهب رجل من خطمة ، يسمى عمير بن عدي (أو عُدَي) إلى اسماء في الليل وقتلها ، ولم يظهر محمد استهجانه للامر ، كما لم يجرأ احد على ملاحقة . عمير واعتنق عدد من رجال القبيلة ، وربما بقية اوس مناة ، الاسلام صراحة . وقــد قيل عنهم انهم كانوا مسلمين سراً من قبل . وقــام في نفس الوقت رجل مــن قبيلة ابي

(١) ابن هشام ٩٩٥–٦ الواقدي ٩٠–٩١

عفق[1] من عمرو بن عوف باغتياله لنفس الاسباب ، وأدى لنفس النتائج ، لأن بعض فروع عمرو بن عوف ، كانت قريبة جداً من اوس مناة سواء في آرائها أو وضعها المادي . وقد أخذ ابو عفق على الناس ان يسمحوا لأجنبي بادارة شؤونهم ، ولا يميز بين الحق والباطل ويطمح لأن يصبح ملكا .

نستطيع ان نقول بانه بعد هذه الحوادث لم تظهر سوى معارضة ضعيفة لمحمد . وإذا كان لا يزال يوجد أشخاص يرفضون الاسلام . فذلك لاعتمادهم على اليهود . ولا شك انه من الصعب عليهم ان يستمروا في رفضهم بعد طرد القبائل الرئيسية اليهودية . ونجد اثناء معركة حنين بين القوات الاسلامية فرقاً من واقف وخطمة وامية[2] .

وهكذا امكن التغلب ، بسبب فشل وثنية كان عليها مواجهة حالة المدينة السيئة ، على معارضة الوثنيين القائمة على افكار قديمة حول الشرف والعصبية ، واعتنق ابناء الوثنيين الاسلام، وحطمت اصنام القبائل[3] واصبح اسم اوس مناة اوس الله .

اما قضية ابي عامر الراهب ، فهي قضية غريبة ولكن موضعها هنا لأنه لم يكن يهودياً ولا مسلماً[4] ، وكان اسمه عبد عامر بن صيفي ، وكان ينتمي لبطن ضبيعة من عمرو بن عوف . وكان موحداً قبل

---

(١) ابن هشام ٩٩٤–٥ . الواقدي ٩١–٩٢

(٢) الواقدي ٣٥٨

(٣) ابن سعد ٢٠٤ ؛ ٩٤–٩٥، ٩٠

(٤) ابن هشام ٤١١–٤١٢ ؛ الواقدي ٢٠٤–٦ . الواقدي ١٠٣ – ١٦٠ ابن سعد ٨–٢٥١–٢ (بنات)

الهجرة بسنين عديدة ، وعاد عليه زهده بلقب « الراهب » وإن لم يصل به الزهد إلى حد العزوبية . ولما وصل محمد إلى المدينة لم يخضع له كما فعل ابن خالته ، ابن أبي، بل هاجر إلى مكة . وقد حارب المسلمين في أحد على رأس خمسة عشر (أو ربما خمسين) من أتباعه . ويبدو أنه ظل في خيبر بعض الوقت . حتى إذا ما سقطت المدينة انسحب إلى الطائف ، ولما سقطت بدورها لجا إلى سورية . ولا نعرف الكثير عن آرائه سوى ما نستنتجه من تصرفاته ، وسعد مع ذلك شخصية مهمة . ويدل موقفه على أن مطالبة محمد بالنبوة أبعد عنه الكثيرين من الناس ، وكان ينتظر منهم بسبب نظراتهم العامة ، الترحيب بالدين الجديد . وإذا كان ذلك فلانهم أدركوا النتائج السياسية التي يؤدي اليها موقف محمد وإنهم كانوا يخشونها .

وهكذا أيد جميع العرب النافذين محمداً ما عدا أبي قيس وأبي عامر وأتباعها القليلين ،وذلك لأسباب عديدة عند وصوله إلى المدينةوتوجهوا ما عدا سعد بن معاذ وابن ابي إلى اجتماع العقبة الكبير . ومن المفيد أن نذكر هنا أسماء النقباء الاثني عشر الذين دعوا رسمياً لحضور الاجتماع . وكانوا رجالا مرموقين في قبائلهم وفي مجموعة الامة الاسلامية .

اسيد بن الحضير	عبد الاشهل
(ابو الهيثم بن التيهان)	»
سعد بن خيثم	عمرو بن عوف
رفاعة بن عبد المنذر	» » »

سعد بن الربيع	بالحارث
عبد الله بن رواحة	»
سعد بن عبادة	ساعدة
المنذر بن عمرو	»
البراء بن معرور	سلمة
عبد الله بن عمرو بن حرم	»
عبادة بن الصامت	القواقلة
رافع بن مالك	زريق
اسعد بن زرارة	النجار

٣ ـ المعارضة الإسلاميّة

يسمى عادة الذين عارضوا محمداً بعـــد أن اعتنقوا الاسلام شكلياً بالمنافقين ويؤكد القرآن هذه التسمية . و في رأينا، بالنسبة لموضوع بحثنا، ان الأقرب أن نقول «المعارضة الاسلامية » لأن هذه التسمية تميز موضوع دراستنا الحاضرة عـــن المعارضة الوثنية التي تحدثنا عنها ، والمعارضة اليهودية التي سوف نتحدث عنها فيما بعد . وهي لا تقصر ابحاثنا على الذين يسمون بالمنافقين. وكان بين المؤمنين أنفسهم من لا يقر سياسة محمد . غيرأن المصادر تميل إلى التقليل من شأن الخلافات التي نشأت داخل الامة وإيهامنا بأن هذه الأمة كانت متحدة أكثر مما هي حقيقة . ولا نجد ، إلا بصدد من سموا بالمنافقين ، ذكر ما قالوه أو فعلوه ضد محمد . وهذه التفاصيل

مع ذلك موجزة .

ولهذا كانت معلوماتنا ناقصة فيما يتعلق بالسياسة الداخلية في المدينة، ونجـــدنا مضطرين للاكتفاء بالفرضيات .

أ ـ السنوات الخمس الاولى :

كان اعداد الحملة، التي انتصرت على المكيين في بدر ، الفرصة الاولى التي كان على الانصار أن يتخذوا فيهـــا قراراً مهما . هل يجب عليهم الاستجابة لنداء محمد ؟ وكان أسيد بن الحضير أحد الذين لم يستجيبوا للنداء . ولكن عند عودة الجيش منتصراً ، اعتذر إلى محمد بانه ظن أن الحملة كانت مجرد غزوة، وانه لو علم بانها معركة لحضرها بصورة أكيدة، ويمكن تفسير هذا المسلك بسهولة على انه ردة فعل أثارتها انتصارات محمد.

ونستطيع أن نفترض أن أسيداً ، وقد علم بان سعد بن معاذ (عدوه في قيادة قبيلة عبد الأشهل) يتمتع بعطف محمد ، راودته فكرة الاستفادة من عدم اشتراكه فيما كان يبدو له قضية خاسرة ، حتى أصبح من البديهي انها لم تكن قضية خاسرة أسرع لتغيير خطته وقنع بمكانـــة ثانوية في القبيلة إلى جنب محمد[١] .

يضفي هـــذا التفسير ، ولو كان صحيحاً ، كثيراً من الاهمية على عداوة شخصية. كان محمد ، حتى الوقت الذي يهمنا ، أي بعد ثمانية عشر شهراً عـــلى الهجرة ، لم يحقق أي شيء مهم . ووقفت شخصيات أخرى

---

(١) ابن هشام ٤٢٨ ، ٥ الواقدي ٧٢،٣٧

بمناى عنه : ابن ابي وحتى سعد بن عبادة . ويقال بان هذا تغيب عن بدر بسبب لسعة حية ، ولكن ذلك لم يكن سوى عذر يتعلل به[1] . فلو حدث تقاعس نحو محمد فان انتصاره الرائع ومهارته في معاملة المترددين لقضيا سريعاً على ذلك .

وظل أسيد وسعد بن عبادة يحتلان مكانا سامياً من عطـــفه ، ولم يرفض ابن ابي نفسه أن يشترك صراحة في معركة أحد . أما الشخص الذي كان مثال الاخلاص والوفاء لمحمد فهو سعد بن معاذ ، وظل حتى وفاته أخلص الانصار ، وحل محله سعد بن عبادة (من ساعدة) . وكان زعيم الخزرج في بدر حباب بن المنذر (سلمة) ، ولكنه لم يقم بدور خاص في الحوارث التي تلتها .

وإذا حدث بين المسلمين تقهقر عن محمد (وقد شجع عليه بدون شك اليهود)، فمن المعقول أن يقوم محمد بتقرير الهجوم على قبيلة قينقاع ، ليس لاضعاف اليهود فقط بل لمكافاة أتباعه ، ويلقن المسلمين المترددين درساً من أمثال ابن أبي . ولنلاحظ ان بني القينقاع كانوا حلفاء ابن ابي وانهم قاتلوا مرات عديدة إلى جانبه قبل الهجرة . وكان من بين الذين تميزوا في الحرب ضد بني القينقاع سعد بن معاذ الذي يمكن تسميته بعدو ابن ابي ، وعبادة ابن الصامت من القواقلة الذي كان ، كما رأينا ، يحسد ابن ابي وبالحبلى . وكان عبادة أيضاً حليف اليهود (وذلك لأنه بدون شك انتمي هو وابن ابي إلى القبيلة القديمة بني سالم) .

---

(١) الواقدي ٦٦

ولكنه بدلا من الدفاع عنهم ، كما فعل ابن ابي أعلن بانه يتبرأ من قرابته لهم[1] .

و يبدو ان ابن ابي تعالى أمام محمد بسير المكيين للثار من المدينة .

وكان تأييد ٣٠٠ رجل مسلح من بني القينقاع عبثاً في مثل تلك الاحوال و لهذا لم يكن من المناسب طردهم وتقول رواية يمكن قبولها ان المقطع التالي المأخوذ من القرآن يتعلق بهذه الحدادث :﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم . ان الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن ياتي بالفتح أو أمر من عنده . فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾[2] .

والآية التي تحث المؤمنين ، في نفس السورة ، على أن « يتخذوا الله ورسوله والمؤمنين أولياء لهم » تتعلق بقيام عبادة بقطع كل علاقاته مع غير المسلمين .

يحاول هذا المقطع من القرآن أن يبرهن على صحة ما أظهرت الاعتبارات العامة انه ممكن الحصول ، أي ان معارضة مسلمي المدينة لمحمد ظهرت بين الذين كانت تربطهم روابط الصداقة باليهود . وتؤيد هذا الرأي مقاطع أخرى من القرآن . فجملة« الذين في قلوبهم مرض » تعبير قرآني في الدلالة على المبايعة الاسلامية لمحمد في هذا الوقت ، أي

---

(١) ابن هشام ٥٤٥ – ٧ الواقدي ٩٢ – ٣

قرآن ٥،٥٦ – ٥٧ (ترجمة مونتي طبعة بايو باريس)

أولئك الذين كانوا يهتمون بانتقادهم للقرآن ، ولا سيما بعض المقاطع التي نزل الوحي بها حديثاً[1] . وكان المنتقدون يثيرون الصعوبات خاصة حول مسائل النسخ[2] (ويبدو أن المجهود الرئيسي كان يقوم على اضعاف مكانة محمد بواسطة الحجج اللفظية)[3] . حتى إذا تأكد مع ذلك، ان خطة محمد تقوم على تحدي المكيين بمهاجمة قوافلهم ، ويمكن أن يتحول ذلك ، كما حدث في قضية نخلة ، إلى قتال دام ، خافوا جدياً .

وقد تلقى المسلمون ، قبل بدر ، عن طريق الوحي الالهي ، الأمر التالي : « إذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق ... حتى تضع الحرب أوزارها»[4] .

ونستطيع القول بأن الانصار لم يكونوا متحمسين حتى الوقت الذي نزلت فيه هذه الآية . ولا شك انهم كانوا يقولون بهذا الصدد « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة »[5] . وأصبح المسلمون الاوفياء يقبلون الآن (السياسة القائمة على تحدي القرشيين) ولكن المعارضة كانت تشتد شيئاً فشيئاً . وهاك ما يقوله القرآن بهذا الصدد . « فإذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي من الموت »[6] . وقد نشأت ضرورة في ذلك الوقت (أو فيما بعد بقليل) تدعو لعدم تحكيم محمد في الخلافات[7] .

---

(١) قرآن ١٧٦،٩ــ١٤٥،١ــ٨ راجع ٣١،٧٣

(٢) قرآن ٢٢،٥١ــ٥٢،٥٣ــ٥٤

(٣) قرآن ٤،٤٧

(٤) قرآن ٢٢،٤٧

(٥) قرآن ٢٢،٤٧

(٦) قرآن ٢٤،٤٦ــ٥٢

يعرض علينا القرآن وكتب الطبقات إذن صوراً متكاملة عن عدم الرضى الذي كان سائداً في المدينة حول سياسة محمد . ولقد حاولت انتصاراته في بدر ، وعلى بني القينقاع ، وطريقته الصارمة الناعمة في معاملة المعارضة ، دون اية محاولة لترك معسكره والانضمام لمعسكر المكيين ، حتى إذا ما تقدم القرشيون من المدينة في غزوة أحد ، ظلت الامة الاسلامية سليمة إن لم تكن متحدة تماماً ، وكان ابن ابي يحتل مكانة سامية في مناقشة المسائل الستراتيجية . وقد أيد فكرة محمد الاولى القائلة بالبقاء في المراكز القوية في وسط مواقعهم . ولكن ربما قال محمد هذا الرأي لعلمه ان خطة ترمي قبل كل شيء الى توفير السلامة هي الخطة التي يرضى بها رجال من أمثال ابن ابي . واحتج الشبان الذين كانوا يتحرقون شوقاً للقتال ووجدوا حلفاء لهم من وزن خطير لتأييدهم في القول بان بقاءهم من دون عمل بينما محاصيلهم تضيع عليهم طعنة لكرامتهم . وكان هذا الفريق المعارض لابن ابي يضم حمزة (عم محمد) سعد بن عبادة (من ساعدة) النعمان بن مالك من (قواقلة) أياس بن أوس (من عبد الاشهل) خيثمة وأنس بن قتادة (من عمرو بن عوف) وليست قائمة الاسماء هذه طويلة ، ومن الممكن أن يكون بعض المسلمين انضموا إلى جانب ابن ابي أمثال سعد بن معاذ ، واسيد بن الحضير ، حتى أذا ما مال محمد للهجوم ، بدا عليهم الاعتقاد بانه واقع تحت تأثير ما وعرضوا أن يعاد النظر في القرار ، وأن يترك الامر لسرية محمد .

ولقد روينا ما حدث فيما بعد ، فقد تمسك محمد بالقرار الذي اتخذه ،

وبعد ان تقدم ابن ابي خارج الخطوط ، انسحب مع أتباعه في الأطم .

وهاك آيات القرآن التي تتعلق بهذه الوقائع ، وما قاله ابن ابي لابنه الجريح بعد المعركة : « وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله او ادفعوا . قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر أقرب منهم للايمان ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون ، الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين »[1] .

وربما استخدم تعبير « المنافقين » لأول مرة في القرآن للدلالة على ابن ابي وأتباعه بمعناه الاصلي ، ثم أصبح اسم الفاعل « منافق » يطلق عادة على « المعارضة الاسلامية » ، وربما اخذ هذا المعنى المشتق من المقطع القرآني المشار اليه .

ومعنى الفعل الاصلي هو « الزواحف » أو « المناجذ » ولنلاحظ ان القرآن لا يتحدث هنا إلا عن جبن المنافقين ويتهمهم بالعصيان . ونستطيع أن نستنتج من ذلك ان ابن ابي في المسلك الذي سلكه لم يقطع حلفه مع محمد ، ذلك الحلف الذي ربما ذكر في دستور المدينة[2] وقد تنازل في الماضي وتحدث إلى محمد أمام الناس ، ويريد الآن ان يظهر بأنه ليس نصيراً متحمساً للنبي كسعد بن معاذ وان يُنظر اليه على انه ند لمحمد . ولما كان لا يزال مسلماً بالاسم ، ولم يرتكب أي خطأ يعاقب

---

(١) قرآن ٣، ١٦٠ الواقدي ١٤٥

(٢) راجع ص ٢٦٧ مما يلي

عليه، فان محمداً، الذي كان يعمل لاقامة الطمانينة والأمن بين الناس، لم يكن يستطيع أي إجراء قاس بحقه رغم رجاء أتباعه له . ولكن النبي نهض ذات يوم في الجامع بعد صلاة الجمعة لالقاء خطابه المعتـــاد معتزاً بنفسه فاساء اليه رجال من قبيلة مالك بن النجار والقواقلة [1] .

(اكتفى ابن أبي وأصدقاؤه، حتى الان، بالهمس ضد محمد وانتقاده هو والوحي الذي ينزل عليه، وظل موقفهم محايداً تماماً، ولا شك ان القرآن يتحدث عنهم حين يقول : « إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً ... مذبذبين بين ذلـــك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » [2]).

و يبدو ان الطريقة التي عومل بها، بعد أحد، قد اثارته فحاول خلال سنتين البحث عن الفرصة السانحة لجرح محمد أو قتله . ولقـــد وجه المسلمون، بعد خمسة أشهر على أحـــد، إنذاراً لقبيلة النضير اليهودية، فبذل ابن أبي وأفراد قبيلته كل جهدهم لدفع اليهود إلى المقاومة وذهبوا إلى حد وعدهم بمساعدة عسكرية، وقد سر بعض اليهود بذلك، ولكن العقلاء بينهم أدركوا عدم جدوى مثل هذه الوعود، ولم تلبث النضير أن خضعت . وكان رحيلها هزيمة اخرى لابن أبي . وتصف لنا سورة الحشر :

(« ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل

---

(١) ابن هشام ٥٩١، الواقدي ١٤٥ (٢) قرآن ١٣٩ – ١٣٢

الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون ، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون﴾[1] .

ولقد سنحت الفرصة للقيام بعمل ما بعد أكثر من سنة فيما بعد أثناء غزوة المريسيع . فقد تطورت الخصومة بين رجلين حول سطل ماء إلى إلى قتال بين الانصار والمهاجرين، وكان يمكن أن تكون نتيجة وخيمة لو لم يوقف على أيدي المسلمين المخلصين . ويبدو أن ابن أبي انتهز هذه الفرصة ليصرح بأن الرجل الذي جاء لاقرار السلم يدرب الناس في الحقيقة على الخصومة والنزاع ، ويبدو أيضاً انه همس ببعض كلمات تشير إلى ان الاقوياء سيطردون الضعفاء متى عادوا إلى المدينة . كما تقول سورة « المنافقين » « ويقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون »[2] ولقد علم محمد بما قال ابن ابي ، ولكنه رفض أن يتصرف بشدة نحوه بالرغم من أن ابن ابي نفسه قال بأنه مستعد لقتل والده إذا أراد محمد . وآثر محمد إرهاق الذين اشتركوا في الحملة بسير مرهق طويل .

ولم يتعلم ابن ابي مع ذلك بعد الهدوء والمسالمة . فقد تركت زوجة محمد الشابة عائشة ، قبل الوصول إلى المدينة ، في المؤخرة ، ثم وصلت

---

(١) قرآن ٥٩ ، ١١ – ١٢ . ابن هشام ٦٥٢ ، الواقدي ١٦٢ – ٦٥

(٢) قرآن ٦٣ ، ٨

بصحبة شاب جميل . فأخذت ألسنة السوء تلوك سمعتها وجهد ابن ابي في تضخيم الفضيحة ، ووجد مــــن يساعده ابن لابن عم لابي بكر ، الشاعر حسان بن ثابت ، واخت عائشة زينب . وكان هذان الشخصان يبغضان عائشة او انهما فعلا ذلك محبة لابن ابي أو كراهة بالمهاجرين . وأخذت الفضيحة بالانتشار ، خلال اسبوعين دون أن يوضع لها حد . وجاء القرار النهائي من محمد لصالح عائشة . لأنه لا يو جـــد أي دليل جدي ضدها وتسمى هذه القضية « بحديث الافك » .

ولقد ضُرب مروجو الفضيحة من عامة الشعب بالعصي . اما فيما يتعلق بابن ابي فقد كشف محمد عن أوراقه ، وجمع الشخصيات الرئيسية من الانصار « وطلب اليهم السماح له باتخاذ عقوبات بحق واحد منهم كان يطعن بعائلته ، وذلك لأن معاقبة أي فرد دون موافقة القبيلة تؤدي للمطالبة بالثأر. ولقد تبع طلب محمد خصومة عنيفة بين الأوس والخزرج ولربما كان ذلك لجعل القبيلتين تنسيان مآخذهما المشتركة على المهاجرين ، وتم الصلح بينهما بسرعة [1] .

لم يعاقب ابن ابي (وإن كان البعض يؤكد بأنه حكم عليه بالضرب بالعصا) . ولا نجد منذ ذلك الوقت أي ذكر لنشاط ابن ابي المعادي لمحمد . ولربما أدرك أخيراً انه لا يستطيع القيام بأي عمل بهـــذا العدد القليل من الاتباع • وكانت قد تقدمت به السن ليصبح مسلماً متحمساً ،

---

(١) ابن هشام ٨٣١–٤٠ ، الواقدي ١٨٤ – ٩ البخاري ٦٤–٣٤ ، نابيــا ابوت ، عائشة حبيبة محمد ، شيكاغو ١٦٤٢، ٢٩–٣٨

وكان في بعض الاحيان يعبر عن استيائه [1] . ولكنه كان مـــع ذلك ، مسلماً فرفض في الحديبية ٦٢٨م/٦ الذهاب إلى مكة للحج حين سمحت له به قريش ، بينما رفضته لسائر المسلمين [2] .

ولم يعتم أن صالح محمداً ، والدليل على ذلك وجوده في الحديبية ،كما أن محمداً أمر بنفسه القيام بالشعائر الدينية لدفنه [3] .

كان النقص في موقف ابن ابي انه كان موقفاً ضعيفاً ، وسبب ضعفه افتقاره لأسس فكرته . وكما لاحظ أحد زعماء النضير ، كما يقولون ، فان ابن ابي لم يعرف ماذا كان يريد، فهو لم يقبل تماما لا الاسلام ولا اليهودية ولا ديانـة شعبه القديمة [4] . وكان دافـعه الرئيسي الطموح الشخصي ، ولكنه كانت تعوزه النظرات التي يمتاز بها رجل الدولة ، وكان بامكان هذه النظرات أن تحمله على تقدير نتائج أفعاله المعقدة . كما كان يعوزه الحدس الذي يمكنه من استغلال الفرص واستمالة الأعوان . ولقد أدرك ان السلم شيء ضروري للمدينة ، ولكن محاولاته لتوفير هـــذا السلم لم تكن تعتمد إلا على أفكار محافظة فقدت تأثيرها . وكان سبب معارضته لمحمد عجزه عن السير مع زمنه .

ومما له مغزاه أن نقرأ في أحد النصوص انه لم يكن بين المنافقين سوى شاب واحد [5] .

---

(١) الواقدي ٢٤٧ (٢) نفس المرجع ٢٥٥

(٣) ابن هشام ٢٩٧ ، الواقدي ٤١٤ (٤) الواقدي ١٦٢

(٥) ابن هشام ٢٦٣

وربما وجدت أسباب مشابهة لرفض بعض أفراد عمرو بن عوف المشاركة في الدفاع عن المدينة حين حوصرت[1].

وكان هؤلاء مسلمين بالاسم ، لأن انتسابهم للامة الاسلامية ، لم يكن في نظرهم العنصر الرئيسي في حياتهم . وهناك شخص آخر موقفه يشبه موقف ابن ابي ، وهو الجد بن قيس زعيم قبيلة سلمة وقد خلفه محمد[2] . ويتهم القرآن المنافقين بأنهم كانوا ملحدين أيام حصار المدينة ، ويجعلنا نشعر بأن موقفهم كان أخطر مما تقوله نصوص المؤلفين بهذا الصدد . ذلك لأن هذه النصوص كتبت بعد مضي زمن طويل على انتصارات الاسلام .

« وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، وليستأذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما يلبثوا بها إلا يسيرا ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار وكان عهد الله مسؤولا »[3] .

ب ـ السنوات الخمس الأخيرة :

يمكن القول بأن خيانة أبي لبابة لبني قريظة هي الحد الذي يسبق

---

(١) الواقدي ١٩٤

(٢) ابن هشام ٣٠٩ ، ابن سعد ٢/٣ ، ١١٢ ، ابن هشام ٧٤٦ ، ٨٩٤ ، الواقدي ٢٤٨ ، ٣٩٢ ، راجع ص ٢٨٣

(٣) قرآن ٣٣، ١٢ – ١٥

المرحلة الثانية لمعارضة أهل المدينة حين كانت هـــذه المعارضة ليست موجهة ضد الامـة الاسلامية كاملة بل ضد بعض جوانب سياسة محمـد .

وقضية أبي لبابة غامضة لسوء الحظ . وهاك ما يقوله ابن اسحاق :

« ثم انهم بعثوا إلى رسول الله : ان بعث الينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف ، وكانوا حلفـــاء الاوس ، لنستشيره في أمرنا . فارسله رسول الله ، فلما رأوه قـــام اليه الرجال ، وجهش اليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرق لهم ، وقالوا له : يا أبا لبابـــة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه ، انه الذبح . قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت، اني قد خنت الله ورسوله ، ثم انطلق أبو لبابة عـــلى وجهه ، ولم يات رسول الله ، حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده . وقال لا أبرح من مكاني هذا حتى يتوب الله علي مما صنعت ، وأعاهد الله أن لا أطأ بني قريظة أبـداً ، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً .

قال ابن اسحق : فلما بلغ رسول الله خبره ، وكان قد استبطاه قال أما انه لو جاءني لاستغفرت له ، فاما إذ قد فعل ما فعل ، فما انا بالذي قد أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه »[1] .

وظل أبو لبابة مربوطاً إلى عموده ، ما عدا أوقات الصلاة حين كانت امرأته (اوبنه) تفكه ، و بعد مضي ستة أيام أعلن محمد ان الله غفر لأبي لبابة ، و فك وثاقه هو بنفسه .

---

(١) ابن هشام ٨٨٦ ، الواقدي ١١٣ — ٢١٥

القصة كما نقلت الينا جرى لها بعض التعديل .(وتكمن الخيانة الوحيدة في أن أبا لبابة كشف نية محمد في قتل رجال القبيلة)، حتى إذا ما علم بنو قريظة بذلك كان قبولهم الاستسلام أقل سهولة) ولا يبدو ان هذا ما وقع ، والعقاب ليس على قدر الاهانة ، ولا يتضح لنـــا السر على ضوء تفاصيل أخرى يذكرها الواقدي ، ولا نعرف بأية وسيلة حـــاول أبو لبابة إقناع معظم بني قريظة بالتخلي عـــن حُيي الذي كان المسؤول الرئيسي عن مقاومة محمد . ويجب أن نبحث عن تفسير ذلك في تطمين أبي لبابة لقريظة ، بأنه سيبقى وفياً للمحالفة التي عقدتها قبيلته مع بني قريظة . ولو فعل ذلك لأحدث ثغرة في الامة الاسلامية فيما لو قامت محاولة لمعاقبة بني قريظة .

وعلى كل حال فان الهدف الرئيسي لهـذه المفـاوضات هو استمرار علاقات الجاهلية مع غير المسلمين ،(ولا شيء يجعلنا نعتقد بأن أبا لبابة لم يكن عضواً مخلصاً للامة الاسلامية . ولم يفكر في الانفصال عنها ولكنه لم يكن على اتفاق مع النبي حول بعض المسائل السياسية .

هذا الموقف هو طابع المعارضة التي لقيها محمد خلال السنوات الاخيرة من حياته . فقد كان المعارضون يقبلون بالامـة الاسلامية ، ولكنهم لا يوافقون على بعض الجوانب في سياسة محمد ، وكان ذلك في أغلب الاحيان لأسباب أنانية .

ونجد مثالا آخر على المعارضة في رفض بعض القبائل البدوية الاشتراك في غزوة الحديبية في ٦٢٨م /٦ ، لأن هذه القبائل ، بدون شك ، لا يمكن

أن تستفيد أية فائدة مباشرة من هذه الغزوة[1] . ولقد كانت نظرات محمد للحوادث من البعد عن نظرات معظم أتباعه ان كان من الصعب عليه غالباً حملهم على قبول قراراته حين كانت هذه القرارات تستدعي تضحيات جسيمة .

ولقد وقعت الأزمة أثناء غزوة تبوك ٦٢٨م/٩ . فقد هبت شبه الجزيرة بأسرها الآن لمحالفة محمد . و خيل لبعض المزارعين في المدينة أن الفرصة سنحت ليستريحوا قليلا من أعمالهم ، وأن يتمتعوا بالازدهار الذي دفعوا ثمنه غالياً . ولكن النبي لم يكن ينظر للامور بهذه الطريقة . فلقد أدرك انه لا يمكن المحافظة على السلام الداخلي في شبه الجزيرة العربية ما لم يوجه الفائض من طاقات السكان نحو الخارج، و لهذا كانت الغزوات الموجهة نحو شمال البلاد ضرورية لخلق دولة عربية دائمة، وهذه سياسة طويلة الامد لا تظهر فوائدها بوضوح لعامة الشعب .

وكان بعض رجال المدينة الموسرين يعترضون على هذا القرار ، بسبب ما يسببه لهم من إزعاج ، لأنه يتطلب منهم الاشتراك شخصياً في الغزوات أو دفع الصدقات . فقبضوا أيديهم بشدة وسخروا من الذين كانوا يعطون بسخاء من أجل هذه القضية[2] . حتى إذا ما صدر الامر بالسير إلى تبوك ظل كثير من الانصار في بيوتهم[3] . وهناك ثلاثة

---

(١) ابن هشام ٧٤٠ ، الواقدي ٢٤٢

(٢) قرآن ٩ ، ٧٥ – ٨١

(٢) ابن هشام ٨٩٧،٩٠٧ – ١٣ ، الواقدي ٣٩٣ – ٤١١ – ١٣

أحداث وقعت بصدد هذه الغزوة تصور لنا حالة بعض المسلمين آنذاك .
فقد حيكت مؤامرة ضد محمد فتحدث له حادثة في الليل المظلم عند مروره بطريق خطرة[1] . ثم حدث ما سمي فيما بعد بمسجد الضرار . فقد دعي محمد ، قبيل رحيل الغزوة ، إلى حضور افتتاح مسجد في قباء بناه بعض المسلمين . غير ان محمد أجل حفلة الافتتاح إلى ما بعد عودته .
وأدرك مع ذلك ، في طريقه بشكل غامض أن تلك مؤامرة ضده ، حتى إذا ما عاد إلى المدينة أرسل رجلين لهدم المسجد . إذ ان الذين بنوه كانوا من قبيلة عمرو بن عوف من أنصار أبي عامر الراهب (الذي كان في المدينة حينئذ) وكان القصد من بناء المسجد الجديد أن يكون محل التقاء يجتمع فيه المعارضون لوضع خططهم بدون إزعاج ، وقد تبرع ابو لبابة بمبلغ من المال لبناء المسجد ولكنه لم يشترك في المؤامرة[1] .

وقد سئل ، في ذلك الوقت ، الرجال الذين لم يريدوا الاشتراك في غزوة تبوك للتأكد من صحة أعذارهم . وقوطع ثلاثة من بين الذين لم يشتركوا في مؤامرة المسجد ، ولكن لم يكن لديهم عذر مقبول للبقاء في ديارهم ، مدة خمسين يوماً . وتدل قسوة هذه العقوبة على أهمية القضية كما نجد في القرآن آيات كثيرة يستنتج منها ان الذين يسمون بالمنافقين ، في ذلك الوقت ، كانوا منبوذين من الامة ، فكان يجب معاملتهم بقسوة وتهديدهم بنار جهنم لأنهم مرتدون[2] .

---

(١) الواقدي ٤٠٩ (٢) ابن هشام ٩٠٦ ، الواقدي ٤١٠
(٣) قرآن ٩ ، ٧٤ ، ٦٦-٩

ونرى بوضوح ، بعد التفكير القليل ، انه إذاً كان على الامة الاسلامية أن تشترك في الغزوات في سورية تؤدي إلى غياب معظم الرجال القادرين على القتال مدة طويلة من الزمن ، فلم يكن مقبولا ان تاتي جماعة من الخارجين وتختبيء في ضواحي المدينة . وكان يستحسن أن يشترك جميع الرجال البالغين في المعارك حفظاً لصحة الامة الروحية .

يبدو إذن انه حوالى ذلك الوقت ، حدث تغير واضح في مسلكه تجاه المعارضة ، ومع ذلك فان « المنافقين » الذين كانوا يطاردون ويفضح أمرهم ليسوا « منافقي » الفترة السابقة ، بل هم يختلفون عنهم كل الاختلاف . لم يحضر ابن ابي غزوة تبوك (بسبب سوء صحته) ولكن عذره قبل ، ولم ينبذ ، لأن محمداً حضر جنازته بعد وقت قصير .

يمكن اعتبار هذه السلسلة من الحوادث على أنها تكون الازمة الاخيرة التي مرت بها ، خلال حياة النبي ، سياسة المدينة الداخلية . فقد أصبحت المدينة الآن مزدهرة وكان بعض الانصار ياملون أن يتمتعوا الان بازدهارهم .

ولكن محمداً مع ذلك ، اما أن يكون قد أقنع اهل المدينة بقبول سياسته في التوسع المستمر ، او انه بين لهم ان مطاليبه لا يمكن أن ترفض باستخفاف لأنه يمكن تنفيذ إرادته باستخدام قوة لا تقاوم . وهكذا أقام محمد الامة الاسلامية على أسس متينة ليمكنها في المستقبل

من أن تتحول إلى امبراطورية .

كان هناك ، طبعاً ، مواضيع أخرى لنشوء الازمة في المدينة ، ولا سيما المشاكل التي نشأت بين المهاجرين والانصار [1] و بين الاوس والخزرج. ولكن المصادر تمدنا بالقليل من المعلومات بهذا الصدد في الفترة التي عاش فيها محمد وكانت الخلافات لا تظهر، في بعض الاحيان ، إلا بعد سنوات عديدة .

(١) ابن هشام ١٩١٢ ، الواقدي ٤١٣ ، لم يظهر سوى طلحة والزبير الصداقة لكعب بن مالك من بين المهاجرين .

الفصل السادس

محمد واليهود

١ - يهود يثرب

لا شك في ان اليهود وجدوا في المدينة عند مجيء محمد [١] (ولكن لا نعرف كيف جاءوا اليها ، ومـا إذا كانوا من اصل عبراني). فهل يتحدرون عن الفارين الذين جاءوا من فلسطين بعد ثورة باركخبا ؟ (Par kohba) هل كان معظمهم عرباً اعتنقوا الدين اليهودي ؟ لقد نوقشت هـذه الاسئلة كثيراً ، ناقشها اولاً العلماء العرب ثم المختصون

---

(١) مصادر عامة لهذا القسم : السمهودي ١٠٩-١٦٠ ، ١٥٢ . أيضاً وستنفلد ، المدينة ، ٢٥-٣١ ، ابن الاثير ج١، ٢٠٠-٢٠ ، فلهوزن ، المدينة ٧-١٥ ه هرشفلد « تاريخ اليهود في المدينة » مجـلة الدراسات اليهوديـة ١٦٧،٧ - ٩٣ ، ١٠، ١٠٠ - ٣١ أ . ج . فنسنك *Mohammed en de joden fo Medina* ليدن ١٩٢٨ ، ٥٣،٣٣ ، وقد ترجم جزء منه على يد ج.ه.بوسكي . و ج.ف.بوسكي ميرندول تحت عنوان « التأثير اليهودي على اصول العبادة الاسلامية » في المجلة الافريقية ١٩٥٤، ٨٥-١١٢

الغربيون ولم يصلوا إلى اي اتفاق [1]. وكان للقبائل اليهودية كثير من العادات المشابهة لعادات جيرانهم العرب الوثنيين وكان أفراد القبيلتين يتزاوجون فيما بينهم [2]. غير ان اليهود كانوا متمسكين جداً بدينهم أو بشكل من الدين اليهودي، واستطاعوا المحافظة على حياة خاصة بهم.

حتى إذا ما وصل الاوس والخزرج إلى يثرب قادمين من الجنوب وجدوا المدينة تحت سيطرة اليهود، وكان يعيش بعض العرب خاضعين لليهود. والحد الفاصل بين العرب القدماء واليهود غامض، وكان العرب اضعف من اليهود، لا يملكون سوى ثلاثة عشر اطما مقابل تسعة وخمسين لليهود، وكانت علاقتهم باليهود علاقة جوار او حلف اي العرب كانوا تحت حماية اليهود «كجيران» او حلفاء. وربما كان افراد الجنسين يتزاوجون فيما بينهم، وكان الزوج يذهب ليعيش في قبيلة زوجته، وربما اعتنق هؤلاء العرب الدين اليهودي. وليس من المستغرب إذن أن تكون بعض القبائل العربية دعيت بالقبائل اليهودية وهكذا تحتوي قائمة القبائل اليهودية التي يذكرها السمهودي (بني مرثد) بني جذماء، بني ناغصة، بني زعوراء وبني ثعلبة، وإن كانت القبيلة الاولى في الحقيقة جزءاً من القبيلة يالي، والثانية فرع من سليم، والثالثة

---

(١) فلهوزن المرجع السابق، كايتاني حوليات ج١. ٣٨٣، س.س توري، أساس الاسلام اليهودي، نيويورك الفصل الأول د.ج. مرغوليث، العلاقـات بين العرب والاسرائيليين قبل ظهور الاسلام لندن ١٩٢٤ المحاضرة الثالثة.

(٢) ابن هشام ٣٥١ (آباء كعب بن الاشرف) ابن سعد ٨، ٢٣٦، ٢٣ « امامة بنت بشر واسد بن عبيد »

والرابعة من عرب اليمن والقبيلتان الاخيرتان من غسان [1] .

وتقول المصادر ان القبائل اليهودية الحقيقية هي ثلاث قبائل : قريظة ، والنضير ، وقينقاع ،)ولكن هذا في الحقيقة تبسيط للامر . ويقدم لنا السمهودي قائمة من حوالى اثنتي عشرة قبيلة بالاضافة إلى القبائل المذكورة على انها من أصل عربي [2] .

وكان أهم القبائل بنو هدي الذين هم أقرباء قريظة ، إلا إذا كانت قبيلة ثعلبة التي ينتمي اليها فطيَوْن ، غير ثعلبة الغسانية . وكانت قبيلة القينقاع من بين القبائل المهمة الثلاث ، لا تملك أراض للزراعة بل كانت تسكن قرية يكتظ فيها السكان ويقام فيها سوق يمارس فيها الصناع مهناً متعددة ومنها مهنة الصياغة . وكانت قريظة والنضير تملكان بعض أخصب أراضي الواحة ، وهي تقع إلى الجنوب ، وكانت مخصصة لزراعة أشجار النخيل .

ويبدو ان اليهود في هذا الموضع وفي غيره من المواضع الخصبة في القسم الغربي من شبه الجزيرة العربية ، كانوا رواد الزراعة في تلك المناطق .

ولقد سمح للاوس والخزرج بالاقامة ، وأعطيت لهم أراض بور تقع تحت حماية بعض القبائل اليهودية . ومن الدلائل على تبعيتهم « حق الليلة الاولى » (*jus Primae noctis*) الذي كان يمارسه فتيون من بني ثعلبة ،

---

(١) السمهودي ١١٤-١١٦ ، فلهوزن ، المرجع المذكور ٢ الاغاني ج ١٥، ١٦٣ ، ١٦ ، ١٩ ، ٩٥ ، ١٣

(٢) الاغاني ١٩، ٩٥، ٩

ويقال بان مالك بن العجلان (من بني عوف الخزرج) كان المحرض على ثورة ضد فتيون ، وقد دفعه إلى ذلك أخته التي أرادت أن لا تقضي ليلة عرسها الاولى مع فتيون . ولقد نجح مالك في الحصول على الاستقلال ، اما لأنه تلقى مساعدة من الخارج ، أو لأن اليهود كانوا ضعفاء بسبب التدخلات الاجنبية . ومن الصعب ، مع ذلك ، تقدير مدى نجاحه على التحقيق . يعتقد عادة ان (الأوس والخزرج أصبحتا سيدتي يثرب ، وان جميع اليهود قد خضعوا لهما . ولكن المصادر لا تقدم لنا ما يؤيد هذه الفرضية [1] ، وكل ما نستطيع قوله ، ونحن واثقون ، ان قسما من الخزرج أصبح مستقلا . ومن الممكن أن يكون كل الخزرج تقريباً ، وعدد كبير من الأوس قد تحرروا من كل تبعية ، واستولوا على الأطم) ويبدوا انهم ، بمرور الزمن ، أصبحوا أقوى من اليهود ، لأنهم أخذوا يحارب بعضهم بعضاً . أما قبائل الاوس التي رفضت في أول الأمر ، اعتناق الاسلام ، فقددخلت فيه الآن ،لأنها بدون شك، كانت على علاقات طيبة مع جيرانها اليهود .وكل تقدير لتوزيع القوى يجب أن يحسب حساب وجود نقاش حاد بين العرب وبين اليهود . ومن غير الممكن ان تكون قد وجدت جامعة تضم جميع العرب أو جميع اليهود .

ومهما يكن الأمر ، فقد حدثت تغييرات مختلفة في الامة اليهودية ، (مما يشير إلى انها أخذت تفقد قوتها) وقد أصبح الكثير من القبائل

---

(١) الرأي السائد هو ان اليهود كانوا مستقلين ، وكان بعض الخزرج حسب قول الطبري ، تفسير ج ٤ ، ٢٢ موالي اليهود ، وهذا موضع شك .

العربية ، القديمة الاصل حلفاء للقبائل العربية بدلا من أن تخضع لليهود (كأحلاف بدون شك). وهكذا بنو انيف تحالفوا مع بني الجهباء (من عمرو بن عوف) وبنو غصينة مع بني قواقلة [١] ، بينما تحالف بنو زعوراء. القبيلة المعروفة باسم « أهل راتج » مع عبد الاشهل [٢] ، وكانت جميع القبائل اليهودية الصغيرة ، أيام الهجرة ، أو الجماعات المذكورة في قائمة السمهودي قد أصبح من الصعب تمييزها ، أو انها لم تعد لها أهمية سياسية) ولا تظهر أسماؤ ها في النصوص الاصلية التي تتحدث عـــن رسالة محمد . ويسميها دستور المدينة ، بصورة غامضة ، « يهود النجـــار » « يهود الحارثة » وهكذا دواليك [٣] .

والقبيلة الوحيدة التي يظهر انها شذت عن ذلك هي قبيلة « هد » . فقد عقد أفرادها علاقات متينة مع قريظة ، ولكنا نجد ثلاثة أشخاص من هذه القبيلة ، أسلموا ونجوا بذلك من المصير الذي حل بقريظة [٤] .

ويبدو من خلال هذه الوقـــائع ان النظام القبلي قد فسد ، وان الجماعات التي انضمت لمختلف قبائل الانصار لم تكن قبـــائل صغيرة أو بطونا بل كانت جماعات تضم أناساً من مختلف الاجناس .

كانت القبائل الاربع اليهودية أثناء حياة محمد هي قريظة ، النضير ، قينقاع ، وثعلبة . ويجب أن نعد القبيلة الأخيرة بين القبائل اليهودية لأنها تذكر بينها في دستور المدينة . ولكن يقال بانها من أصل عربي [١] ،

---

(١) ابن سعد ٢،١٠٢، ٤١ — ٩٨

(٢) راجع ايضاً قائمة القبائل المعارضة لمحمد في ابن هشام ٣٥٠

(٣) راجع فيما بعد ص ٢٧٣

(٤) ابن هشام ١٣٥،٣٨٧

(٥) فلهوزن ، المدينة ١٢

وكان بنو القينقاع حلفاء عبد الله بن أبي، ولما كانوا قد أرسلوا اليه ٧٠٠ رجل (منهم ٣٠٠ مدرعين) لمساعدته في معارك سابقة، فقد كان المتحالفون على قدم المساواة[1] والقبيلتان الاخريان النضير وقريظة، لم يهاجمهما محمد حتى انتصر على القينقاع، وذلك اما لانهما كانتا قويتين جداً، أو لأن محمداً، بعد استسلام قريظة، لم يعد يستطيع الاعتماد على مساعدة حلفائهما العرب. ونستنتج من إيداعهما الرهائن عند الخزرج قبل معركة بعاث بانهما كانتا تشعران بانهما أضعف من عمرو بن النعمان البياضي وحلفائه. وقضية الرهائن، كالخصومة بين عمرو بن النعمان وعبد الله بن أبي، غامضة ولا تمدنا بأساس لمناقشة المسألة. يدل هذا الحادث على وجود رغبة عند بعض العرب بطرد اليهود والاستيلاء على أراضيهم. ولقد قررت القبيلتان درء هذا التهديد باستبدال معاهدة مع الاوس (ولا سيما مع عبد الأشهل) بحلفهما الحالي، وان دفعتا ثمن ذلك أرواح بعض الرهائن. وهما بذلك مكنتا الاوس من الانتصار في بعاث. ويبدو ان القبيلتين تصرفتا في هذه القضية بملء الحرية، فعقدتا محالفات مع القبائل العربية على قدم المساواة لأنهما لم تكونا خاضعتين لأية قبيلة من هذه القبائل، ولكنهما حاولتا أن تصبحا أقل قوة نسبياً.

لم يكن إذن بين يهود يثرب سوى وحدة متزعزعة، وكانوا في علاقاتهم السياسية يتصرفون تقريباً، كالقبائل العربية أو الجماعات

---

(١) ابن هشام ٥٤٦، الواقدي ٦٢

الصغيرة الشأن . وكانوا جميعاً حلفاء القبائل العربية ، ولكن الحلف لم يكن بالنسبة للقبائل اليهودية القوية يعني التبعية ولم يكن اليهود بأنفسهم مصدر خطر على العرب ، ولكنهم كحلفاء لعبد الله بن أبي كان يمكن أن يكون لهم تاثير كبير ، ويبدو أن هذا الاخير حاول اكتساب تاييدهم .

٢ـ اليهود أيام الهجرة

لا نجد ذكر أية مفاوضات مباشرة ، قبل الهجرة ، بين محمدواليهود. ولقد أدرك النبي الدور المهم الذي يقوم به هؤلاء في سياسة المدينة ،وحدد الموقف الذي يجب عليه اتخاذه نحوهم ، وكان يعتقد أن الوحي الذي ينزل عليه مشابه للوحي الذي نزل على اليهود والمسيحيين سابقاً [١] .

وقد خيل اليه ، وكان هذا شيئاً طبيعياً من جانبه ، ان الوحي الجديد سيبدو بديهياً لليهود كما بدا له . وبهذا يرون فيه نبياً من الانبياء . ولربما اتصل بعض عملاء محمد باليهود قبل رحيل النبي إلى المدينة . فلم يكن جوابهم يدعو لليأس تماماً ، ربما كان اليهود على استعداد لعقد اتفاق سياسي ، ولم يكونوا مستعدين لقبول دعاوي محمد الدينية) ومهما حدث قبل الهجرة ، فقد كان محمد يامل انه في الشهور الاولى لاقامته في المدينة سيستميل اليهود إلى جانبه باتصاله الشخصي .

مكانة اليهود الحقيقية في الامة الاسلامية غير محددة تماماً ، كانوا

---

(١) قرآن ١٠ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٩٠

مرتبطين بصورة غير مباشرة بهذه الامة كحلفاء للقبائل العربية التي تؤلف جزءاً من هذه الامة ، هل كانت هناك رابطة أخرى ؟ مـــن الصعب قول ذلك . وتذكر المصادر القديمة معاهدة (ويروي الواقدي انه حين قدوم محمد إلى المدينة عقد جميع اليهود اتفاقاً معه) ويقول احد احد بنوده انه يجب على اليهود أن لا يؤيدوا عدواً لمحمد . ويقول في مكان آخر انه كان على اليهود بموجب هذا الاتفاق أن لا يكونوا معه أو ضده . ووقع الوثيقة كعب بن اسد عن قبيلة قريظة وظلت هـذه الوثيقة في حوزته حتى حصار المدينة حين مزقت[1] .

ويذكر ابن اسحاق في روايته خبر معاهدة مع قريظة ، ولكنه لا يتحدث عن سائر اليهود . ولا شيء يحملنا على الاعتقاد بأنها وثيقة حقيقية[2] . وتقول القبيلة فيما يلي انها لم تعقد معاهدة مع محمد ، وربما يعني ذلك اما ان المعاهدة قد فسخت ، أو انه لم توجد معاهدة قط[3]

ويخيل الينا ان القصة قد تضخمت على أيدي الرواة ، لا يذكر ابن اسحق مصادره ، وللواقدي مصدران : حفيد للشاعر كعب بن مالك من قبيلة سلمـة ، ومحمد بن كعب (توفي حوالى ٧٣٥م/٨) ، وهو ابن مسلم لاحد أفراد قريظة ، وقد نجا من الموت أثناء استسلام القبيلة ، لانه كان طفلا وحيداً ، ولما كانت سلمة معادية لليهود ، ولما كان المسلمون غالباً حانقين على الجماعة التي انفصلوا عنها ، فلهذين الشخصين أسباب

---

(١) الواقدي ١٩٦،١٧٧

(٢) ابن هشام ٦٧٤

(٣) نفس المرجع ٦٧٥

تدفعها لتشويه سمعة قبيلة قريظة .

وبالرغم مما يمكن أن يكون قد لحق هذه الظروف الخطيرة من مبالغة طفيفة ، فانه يوجد في هذه الاخبار أساس من الحقيقة ، لا سيما اعتدال المعاهدة التي وقعت والتي لا تشترط أية شروط كبيرة ، ولم تكن في الحقيقة رابطة أشد من رابطة الحلف مع الانصار . ولربما نجد التفاهم الذي نشأ بين محمد واليهود في صورة وثيقة محددة ، ولكن من الاقرب أن يكون اليهود ذكروا فقط في الاتفاق مع الانصار (كما نجد في البند ١٦ من الوثيقة الموجودة عن دستور المدينة) . ويوجد في رواية الواقدي الاولى جملة تؤكد هذا الرأي . أقام محمد رابطة بين كل قبيلة وحلفائه (أي الانصار) ويكفي هذا أيضاً لتفسير قول أبي بكر أثناء النزاع مع فنحاص (من قينقاع)(« والذي نفسي بيده لو لا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك »)[١] . ويأتي تفصيل آخر فيؤيد هذا الرأي . حارب اليهود في أحد (ما عدا مخيرق الذي اعتنق الاسلام) كحلفاء لعبد الله بن أبي [٢] ، وقد اعترف عدد صغير من اليهود بمحمد كنبي وأسلموا وكان رئيسهم فيما يظهر عبد الله (في الاصل الحصين) بن سلام (من قينقاع) فقاطعه اليهود الآخرون [٣] ، كما أصبحت جماعة من ثمانية يهود ، من قينقاع ، منافقين [٤] ، لانهم كانوا أصدقاء ابن ابي . كما أسلم

---

(١) ابن هشام ٣٨٨ (٢) الواقدي ١٠٦، ١٢٤

(٣) ابن هشام ٣٥٣، ٣٨٧ القرآن ٣ : ١٠٩، ١١٣ ، اسد ج٣، ١٧٦

(٤) ابن هشام ٣٦١

أسلم آخرون فيما بعد يوم أحد مثلا [٥] ، وأثناء الهجوم على النضير [١] ، وقريظة [٢] .

وكان عدد هؤلاء المسلمين يكفي لكي يذكرهم القرآن في المقاطع التالية : « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما انزل اليكم ، وما انزل اليهم خاشعين لله » [٤] .

ويشير مقطع آخر إلى بعض اليهود الذين اعترفوا بمحمد ولكنهم لم يندمجوا تماماً مع المسلمين فالفوا امة منفصلة .

ب « ليسوا سواء من اهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الاخر ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات اولئك من الصالحين » [٥] .

وعلى كل حال فان معظم اليهود لم يعترف بمحمد فقط ، بل أخذ يعاديه شيئاً فشيئاً ، والنداءات العديدة الموجهة إلى اليهود والتي نجد ها في القرآن يمكن أن تعني تقريباً انهم كانوا يرفضونها ، وقد اتضح بعد زمن قليل على الهجرة ان عدداً صغيراً فقط من اليهود يريد الاعتراف

---

(١) مخيرق (من ثعلبة) ، ابن هشام ٣٥٤ ، الواقدي ١٢٤

(٢) بنيامين بن عمير ، ابو سعد بن وهب ، الواقدي ١٦٤، ٩٨

(٣) اسد بن عبيد ، ابن هشام ٣٨٧ (؟) رفاعة بن سموأل ، اسد ج ٢، ١٨١ ابن سعد ج ٨، ٣٣٥ ، ابن حنبل القاهرة ١٨٩٥ — ١٣١٣ ج ٦ ، ٣٧ ، ٥٦ ، ١٩٣ — ٥٠ ، الواقدي ٣٤٩، ابن سعد ١/١ ، ١٢٣ و ٥ — ١٥

(٤) قرآن ٣، ٩٨ (٥) قرآن ٣، ١٠٩ — ١٠٠

بمحمد نبي الاميين[1] .

٣ ـ محاولات محمد للتفاهم مع اليهود

أدرك محمد منذ بداية رسالته التشابه الكائن بين الرسالة التي أوحي بها اليه وتعاليم اليهودية والمسيحية ، وقد قال له ورقة بعد أول ما نزل عليه من الوحي ، ان ما يوحى اليه شبيه بالناموس أي النصوص المقدسة اليهودية .ويبدو أن محمداً، بعد أن أصبح من الممكن رحيله إلى المدينة ، أراد أن يصوغ الاسلام على (شاكلة أقدم الاديان) وقد طلب مصعب بن عمير ،الذي كان يقوم في المدينة بدور مبعوث محمد ، في السنة السابقة على الهجرة ، أن يسمح له بجمع المؤمنين ، فاجيب بانـــه يمكنه أن يجمعهم شريطة أن يحترم اليوم الذي يقضيه اليهود في إعداد السبت (أي يوم الجمعة)[2] .

وهكذا يكون لاقـــامة صلاة الجمعة أصل عبري . ويبدو ان محمداً نفسه لم يمارس يوم الصلاة هذا حتى الجمعة الاولى التي قضاها في المدينة[3] .

وهناك تعليم آخر سار فيه محمد على هدى الطقوس اليهودية ، حين

---

(١) راجع بصدد « امي » هورروفتس *Koranische Untersuchungen* ٥١ ــ ٥٣ ر.باريت مقالة « امي » في دائرة المعارف الاسلامية،ه،ل.فيشر *Kleinere Schriften* ليبزغ ١٨٨٨ ج ٢، ١١٥ ــ ١١٧

(٢) ابن سعـــد ١/٣ ، ٨٣، ٢٣ ليتجهزوا . راجع بيكر في *Der islam* ج٣ ؛ ٣٧٩ . فنسنك المرجع المذكور ١١ ، ١٤ ؛ بهل « محمد » ٢١٤

(٣) طبري ١٢٥٦ ؛ ٢٠ ؛ راجع كايتاني ج١ ، ٣٧٥ الذي كتب بدون الرجوع لابن سعد ١/٣

كان لا يزال في مكة ، وهو التوجه نحو القدس للصلاة ، ومن الاكيد أن ان القدس كانت قبلة المسلمين في أول الفترة المدنية ، ولا نستطيع التأكيد ما إذا كان الأمر كذلك في مكة ، أو فيما إذا كان للمسلمين قبلة أخرى ، أو فيما إذا لم يكن لهم قبلة قط . وهناك نظرية تقول بأن المسلمين ، حتى قبل الهجرة ، كانت القدس قبلتهم ويقوم هذا الرأي على رواية تتعلق بأبي البراء بن معرور ، زعيم مسلمي بني سلمة . فقد رفض أثناء غزوة مكة ، قبيل الهجرة ، أن يدير ظهره للكعبة ليصلي باتجاه القدس ، رغم احتجاج أصحابه . واستشير محمد في مكة فقال للبراء بن معرور بأن يحتفظ بالقبلة التي كان يتوجه نحوها دائماً ، أي سورية ، يعني القدس[1] ، ويمكن أن يكون محمد نفسه ، في هذا الوقت ، لم يكن له أية قبلة ، ولكنه كان يرغب في أن يجعل دينه في هذه الناحية على غرار دين اليهود ، وإذا كان محمد في الفترة المكية ، يصلي باتجاه القدس ، فان هـــذا لا يشير حتماً إلى إلى تأثير يهودي أو رغبة في تقليد اليهود ، لأن هذه العادة ، كما يبدو ، كانت أيضاً عند المسيحيين[2] . ولقد رأى محمد سنة ٦٢٤ م ، مع ذلك أن هناك فروقاً بين طقوس المسيحية الدينية والطقوس اليهودية[3] .

وفي النهاية فان الذي يمكن أن يكون قد حدث هو أن محمداً اتخذ من القدس قبلة مجاراة لمسلمي المدينة ، ويبدو ان ذلـــك صحيح ، لأن

(١) ابن هشام ٢٩٤ ، طبري ١٢١٨

(٢) توراندراي *Ursprung des Islam* ٤ بهل ٢١٨

(٣) قرآن ٢٠٠ – ١٤ ٥٤ بل : اصل الاسلام ١٤٤

النقطة الاساسية في رواية أبي البراء يؤيدها القرآن (٢: ١٤٥ـ١٥٠)[١] .

ويحوم شك أقـــل حول صيام عاشوراء [١] الذي يقع في يوم عيد الكفارة اليهودي . وحينما حل العاشر من شهر تشرين اليهودي ، أمر محمد المسلمين بصيام هذا اليوم ، وإن كنا لا نعرف على التاكيد في أي شهر هجري يقع هذا الصيام ، وربما كان من عادة بعض مسلمي المدينة صيام هذا اليوم لأنـــه حين فرض صيام شهر رمضان ، لم يحرم صيام عاشوراء بل لم يعد واجباً . كما فرضت صلاة الظهر وذلـــك مجاراة للعادات اليهودية ،ويبدو انه لم يوجد في مكة سوى صلاة الصبح والمغرب ما عـــدا القيـــام في الليل [٣] ، ولكن القرآن يامر في المـــدينة : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » [٤] .

ولقد قيل أيضاً بأن محمداً حين بنى مسجد المدينة بناه على شكل كنيس اليهود ،غير ان ما أصبح مسجداً كان في الأصل بيت النبي وحديقته ولدينا أسباب وجيهة تدعو للشك في أن يكون تقليداً لأي بنـــاء ديني [٥] .

---

(١) فنسنك المرجع المذكور ١٠٨٠،١٠٠ ، بهل ٢١٦–١٨ وغوليوث في جريدة الجمعية الملكية الاسيوية ١٩٢٥،٤٣٧

(٢) قرآن ٢،١٧٩–٨٣ ، طبري ١٢٨١ فنسنك ١٢٢–٥ بهل ٢١٤ ، كايتاني حوليات ج١،٤١،٣٤٠ .

(٣) قرآن ١١،١١٤–١١٦ ، ٢١٥٠ ، فنسنك ١٠٦–٨

(٤) قرآن ٢،٢٣٩

(٥) بهل ٢٠٤ كايتاني ج٢،٤٣٢ فنسنك ١١٦ س.ه بيكر *islam studien* ١٩٢٤ ج١،٥٠٠ *Noldeke Fests chrift Giréssen* ١٩٠٦،٣٣١

وبالرغم من هذه الملاحظات فانه من البديهي ان محمداً قبيل الهجرة وبعدها ، كان يميل لصياغـة ديانته على شكل الديانة اليهودية وتشجيع أتباعه في المدينة على الاحتفاظ بالطقوس اليهودية التي تبنوها .

ولا شك أن نفس الفكرة في استمالة اليهود هي التي أوحت بآيات القرآن التي تحل للمسلمين طعام الذين أوتوا الكتاب ومحصناتهم (قرآن : ٥ ، ٥ _ ٧) .

ولا شك أن ذلك يشير إلى اليهود ، ومن الممكن ان مسلمي مكة لم يدركوا في أول الامر ان الدين اليهودي يحتوي على عـدة محرمات فاعتقدوا ان المحرمات المذكورة في القرآن هي الوحيدة كتحريم الدم ولحم الخنزير والميتة وما أهل لغير الله ، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع [1] . ومن الغريب أن نلاحظ ان هذه القائمة من المحرمات ، ما عدا تحريم لحم الخنزير ، تشبه كثيراً القائمة التي نجدها في أعمال الرسل (١٥، ١٨) .

ولنا أن نتساءل عما إذا كانت هـذه المحرمات لا تمثل عـادة مشتركة عند الشعوب الموحدة في شبه الجزيرة العربية ، سواء كانوا يهودا مـن أصل عربي ام مسيحيين . وعلى كل حال لم يقل احد بأن محمداً انتظر من أتباعه أن يراعوا جميع المحرمات اليهودية ، حتى إذا ما قطع علاقاته مع اليهود ، ينفي القرآن أن تكون هذه المحرمات جزءاً مـن الوحي الالهي الذي نزل على اليهود ، مشيراً إلى انهـا كانت عقوبات

(١) قرآن ٥، ٣ - ٤-١٦، ١١٥، ٦ -

لهم [١] . وربما تعني بعض جمل القرآن انه كان من عادة المسلمين اتباع العادات اليهودية [٢] .

دعا إلى كل هذه التشريعات، في الدين الجديد، التي كانت تهدف إلى جعله مطابقاً تماماً للدين القديم، عاملان : أولا الرغبة في استمالة اليهود، ثم التصميم على إظهار صفة النبوة لمحمد باظهار التماثل في الاصل بين الوحي الذي نزل عليه والوحي القديم، وقد سيطر العامل الثاني فيما بعد. ولكن الاول كانت له أهمية في أول الامر . ونجد آثاراً خفيفة لاستعداد محمد للقيام بتنازلات كان يمكن أن تكون لها نتائج عظيمة .

عرضنا في القسم الأول من هذا الفصل النظرية (وهي المقبولة عادة عند العلماء الغربيين) القائلة بأن الدعوة التي وجهها محمد لليهود، كانت دعوة للدخول في الاسلام أو أن يصبحوا مؤمنين، على قدم المساواة مع اوائل اتباع محمد، ولقد لاحظناه مع ذلك يتحدث عن بعض اليهود الذين استجابوا لدعوته بالظاهر، على انهم يؤلفون امة منفصلة . وحينما نرى ان هذه المسألة الاخيرة مرتبطة بمسائل اخرى سوف نتحدث عنها قريباً، يحق لنا أن نعتقد ان محمداً، في وقت ما، خلال السنة الاولى أو الثانية التي قضاها في المدينة (وليس بالضرورة خلال الاشهر الاولى) فكر بمنظمة دينية وسياسية تضمن شيئاً من

«١» قرآن ٣، ٧٢–٧٨، ٤، ١٥٨ – ١٦٠، ٦، ١٤٦–٤٧

«٢» قرآن ١٦، ١١٦ – ١٧

الوحدة للامة الاسلامية ، دون ان يطلب من اليهود التخلي عن عقيدتهم أو أن يعترفوا بمحمد كنبي طلب اليه ان يبلغهم رسالة إلهية . يتفق مثل هذا المشروع مع الفكرة العامة القائلة بأن كل نبي يرسل إلى أمة معينة ، فيكون محمد قد أرسل للعرب . نجد في القرأن آية تدعو لتفاهم قائم فقط على التوحيد (يمكن أن تكون هذه الآية قد نزلت في السنة الثانية من الهجرة) « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله »[1] .

ناهيك عن أن الاية التي تحل المسلمين طعام أهل الكتاب (٥، ٥ ـ ٧) يصبح لها معنى أخر إذا اعتبرنا انها تنظم علاقات الجماعتين الدينيتين في داخل امة واحدة من الناحية السياسية . ويفسر لنا هذا ، كيف ان هذا النص يشرع لليهود قانونا بالسماح لهم بتناول طعام المسلمين نفسه ، وهو موقف ربما اعتبره اليهود دليلا على التعالي والكبرياء .

ولا نجد في النصوص الموجودة ذكر يهود تزوجوا من مسلمات وذلك اما لأن هؤلاء كن قليلات ، واما ان مثل هذه الزيجات وجد ، ثم انقرض بعد زوال هذه العادة .

إذا وجد إذن في نفس الوقت امة يهودية وامة اسلامية داخل نفس الجماعة السياسية ، فمن المعقول ، وإن كان بعيداً ، ان كلمة « الناس » ، الواردة في جملة دستور المدينة الخاص بالمهاجرين الذين يؤلفون امة

«١» قرآن ٣،٧٠٥ للجملة الاخيرة راجع ٣١٠٦

عليه الوحي يامره بأن يتوجه نحو الكعبة وليس نحو سورية . فتوجه نحو الكعبة ، وفعل مثله الحاضرون ، وأصبح هـــذا المكان موضع « مسجد القبلتين » [١] .

وهناك رواية أخرى لهذا الحادث، وهي أنه نزل علـــيه الوحي بالآيات ١٣٩ ـ ١٤٤ من سورة البقرة في الليل وانه أخبر المؤمنين بذلك في اليوم التالي [٢] .

والتاريخ المعترف به عادة هو ١٥ شعبان من السنة الثانية للهجرة (١١ شباط ٦٢٤ م) [٣] .

ونجد من ناحية أخري ان الآيات المتعلقة بتغيير القبلة (قرآن : ٢ ، ١٣٦ ـ ١٤٢ و ١٤٧ ـ ١٥٢) تختلف في تاليفها وانها نزلت في أوقات مختلفة .

ويقترح ريشارد بل في كتابه « تفسير القرآن » أنه مرت فترة بين التخلي عن القدس كقبلة واتخاذ الكعبة . ويبدو انه حدثت فعلا فترة تردد ، ويقال بأن اليهود سخروا من المسلمين قائلين عنهم بانهم لا يعرفون إلى أية جهة يتوجهون للصلاة (حتى دلهم اليهود ذات يوم ، ولهذا أراد محمد تغيير القبلة) [٤] . وربما انقسم المسلمون فيما بينهم . وربما كان من الامور ذات المغزى ، ان هذا التغيير للقبلة وقع في محلة بني سلمة ، وكان البراء

«١» الديار بكري الخميس ج١، ٤١٤ ، ١٧ — ٢٠

«٢» البخاري صلاة (٨) ٣٢ راجع تفسير « ٦٥ » حول قرآن ٢، ١٣٩ — ١٤٤

(٤) ابن هشام ، راجع ٣٨١ ، طبري ١٢٧٩ «٤» نفس المرجع ١٢٨١

بن معرور ينتمي لهذه القبيلة ، وهو الذي دعا ، قبل الهجرة ، إلى اتخاذ الكعبة قبلة . وإذا صح التاريخ التقليدي لتغيير القبلة ، فانه يكون قد حدث أيام غزوة نخلة التي كانت بمثابة تحد للقرشيين ، ووقعت قبل بدر رأساً .

وقد شرع محمد صيام رمضان ، وأعلن أن صيام عاشوراء لم يعد واجباً [1] في نفس الوقت وفي شهر شعبان (٨) ولكن الأقرب أن يكون في شهر رمضان (٩) بعد بدر حوالى التاسع عشر من الشهر (١٥ آذار) . وتختلف الآراء حول أسباب هذه البدعة . وهناك من أشار إلى صيام المسيحيين وعادات المانويين والعرب الجاهليين [2] .

ولقد أوضحت نظرية « بل » أهمية الصيام بالنسبة لمحمد : كان كان انتصار بدر ، كما يقول ، الفرقان ، أي مصيبة مقدرة على الكافرين وخلاصاً موعوداً للمؤمنين ، يشبه حادثة البحر الأحمر بالنسبة لموسى واليهود ، و تخليداً لهذا الفرقان شرع صيام رمضان .

ويبدو اننا نجد تاكيداً لصحة هذا الرأي في قول الطبري بأن النبي (صلعم) حينما قدم المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسألهم فاخبروه بانه اليوم الذي أغرق الله فيه جيش فرعون وأنقذ موسى ومن معه فقال محمد نحن أحق منهم فقام ودعا الناس إلى الصيام حتى إذا ما شرع صيام شهر رمضان لم يدعهم لصيام يوم عاشوراء ولم يمنعهم عنه .

لا تعتمد هذه الرواية على أي إسناد ، ولكنها تستطيع مع ذلك أن تسجل في رواية أخرى مختلفة ذكرى وقائع حقيقية ، فهي تطلعنا كيف ربط محمد في الأصل بين صيام رمضان وانتصاره ، وذلك على مثال الربط بين صيام اليهود وخلاص موسى . والصعوبة الرئيسية فيما لو اتبعنا « بل » تأتي من تاريخ الحوادث ، فالطبري يذكر فيما يتعلق بتاريخ

---

(١) كايتاني ج ١ ، ٢٨٠ فنسنك ١٣٧ بهل ٢٢٧

(٢) اصل الاسلام ص ١٢٤

دون الناس ، لا تعني الناس عامة وانما الشعب المختار [1] (كذا) .

بالرغم من التنازلات التي كان محمد مستعداً لها ، وبالرغم من جهوده لجعل الدين الجديد مماثلا لدين اليهود ، فإن هؤلاء ، بمرور الزمن ، لم يغيروا موقفهم منه ، بل اشتدت على العكس عداوتهم له . وكانوا يعلنون على الملأ انتقاداتهم اللاذعة لنبوة محمد يمكن أن تكون الأسباب التي دعتهم لمثل هذا الموقف دينية جزئياً ، لأنه كان يوجد تناقض واضح بين أقوال محمد وموقف اليهود الأساسي فيما يتعلق بالعقيدة .

وليس لدينا ، مع ذلك ، أية وسيلة لمعرفة قيمة هذا السبب ، لأن المسألة كان لها جانب سياسي ، وكان لهذا الجانب أيضاً أهمية ، فلو نجح مخطط محمد لفقد اليهود كل أمل في السيطرة . ولربما أدرك اليهود أن تاثير المهاجرين علـى محمد سيكون أقوى من تاثير الانصار . وكان من ناحية ثانية ، حظ محمد في النجاح ضعيفاً حتى معركة بدر ، وربما فكر اليهود بان مصيرهم سيكون أفضل فيما لو عادت الامور كما كانت في الماضي . وقد وضع بعضهم أملهم في التفاهم مع ابن أبي ، كما كانوا بعيدين عن الوحدة ، وكانت دواعي العمل تختلف باختلاف القبائل . ولكنهم رفضوا جميعهم ، ما عدا بعض الشواذ ، دعوة محمد .

تظاهر محمد بالصبر بعض الوقت . ثم غير موقفه فجاة إذا صدقنا رواية ليست في المصادر القديمه :

بينما كان محمد يصلي ذات يوم في المكان المعين في حي بني سلمة نزل

---

(١) دستور المدينة المقطع الاول والمقطع ١٥

الصيام بتردد شهر شعبان . ولا شك انه استخلص بأن الصيام يجب أن يشرع قبل التاريخ الذي يبدأ فيه . ويقال بأن محمداً صام يوماً أو يومين وهو في طريقه إلى بدر ، بالرغم من إعفاء المسافر من الصيام [1] . ولما كانت هذه هي المرة الاولى التي يطبق فيها الصيام كان المنتظر أن يكون الراوي أوضح في روايته . ومـــن الصعب أن لا نستخلص بأن صيام رمضان لم يطبق تماماً حتى السنة الثالثة من الهجرة .

تدل هذه الوقائع التي تعلن قطع الصلات باليهود ، على اتجاه جديد ، اتخذه (محمد في ميداني السياسة والدين) [2] . وأخذت دولة المدينة عندئذ بارسال سلسلة من الهجمات ضد اليهود على المستوى المادي ، كما شرع القرآن ، على المستوى الفكري ، بخصومة ضد اليهودية .

ولسنا بحاجة لأن نذهب بعيداً في البحث عن أسباب هذا الموقف الجديد . طالما كان محمد يدعي تلقي وحي مشابه للوحي الذي تلقاه اليهود كان بامكان هؤلاء اما مساعدة محمد بالاعتراف بهذا الشبه بين الوحيين أو الاساءة اليه باظهار الفروق بينهما . وكان أن اتبعوا الخـــطة الثانية فاصبحوا خطراً على محمد يهدد بالقضاء على الأساس الفكري لموقـــفه السياسي والديني .

كان محمد شديد الحساسية فيما يتعلق بهذا الهجوم الفكري ، ولهـذا عامل الشعراء بقسوة حين عارضوه في أشعارهم . ولم تكن قسوته نحو

---

(١) الواقدي ٤٦

(٢) بهل ٢٢٨ ، م.ج.مرغوليوث « محمد وظهور الاسلام » لندن ١٩٠٥ ،٢٥٠

اليهود حين لم يلبوا دعوته مجرد غيظ أثاره رفضهم ، بل كانت رد فعل رجل يشعر بالخطر نحو الذين يسببون هذا الخطر بعنادهم .

٤ـ النضال ضد اليهود على المستوى الفكري

تحتل ديانة ابراهيم مكانة مهمة في الخصومة التي تتردد في القرآن تجاه اليهود . وهذه فكرة لا نجدها في السور المكية، ولا أساس لها في الأساطير الجاهلية . نجد في سور القرآن المكية ان موسى مقدم على ابراهيم بسبب أهميته كنبي كان رائداً لمحمد . وابراهيم في السور المكية هو أحد أنبياء كثيرين ولا تحدد الشعوب التي أرسل اليها . ويبدو انه من المفهوم ان ابراهيم لم يرسل للعرب ، لأن محمداً أرسل لشعب لم يعرف الرسل ، كما لا تذكر أية علاقة بين ابراهيم واسماعيل والكعبة . ويذكر اسماعيل في سلسلة من الانبياء بدون أية تفاصيل عنه [٢] . ويفترض ان المسلمين في اول الامر لم يعرفوا شيئاً عن الصلة بين اسماعيل وابراهيم والعرب (حسب العهد القديم) . حتى إذا ما انتقلوا للمدينة ، واتصلوا باليهود ، اطلعوا على هذه المسائل . ثم حلت القطيعة بين اليهود والمسلمين ، واحتفظ ابراهيم في نظر المسلمين بصفتين مهمتين تستدعيان احترامهم،

---

(١) قرآن : ٢،٣٢-٢،٣-٤،٣،٣،٤-٤٤،٣٦،٦٠٥ راجع :

C.Snou ch Hurgronje verspreide Ges chriften , Bonn 1923-27 I 22 29 , 334 . 8 cf Buhl 229 , 31 . Bell origin 129 : 31 cf Beck . Museon L X V 1952 . 73 . 94

(٢) قرآن ٦٦،٦ (؟) ٨٥،٢١ (؟) ، ٤٨،٣٨

كان اب العرب واليهود ، وقـــد عاش قبل نزول التوراة على موسى والانجيل على المسيح . فلم يكن إذن يهودياً أو مسيحياً .

و لهذا يطالب القرآن من محمد والمؤمنين ألا يعتبروا أنفسهم يهوداً أو مسيحيين ، بل هم امة متميزة عن اليهودية والمسيحية، اتباع ملة ابراهيم. وأما ابراهيم فهو « حنيف » و « مسلم » أي مستسلم لارادة الله وليس من الوثنيين [1] ، ودين ابراهيم هو دين الله الصافي لأن جميع الانبياء تلقوا نفس الوحي . ومع ذلـــك يعتبر القرآن اليهودية والمسيحية كمظهرين ناقصين لهذا الدين الالهي . ولهذا يجب تسمية هذا الدين باسم جديد . يستعمل القرآن أولا كلمة « حنيف » ثم « مسلم » لنعت اتباع الدين الحقيقي وقد استعملت كلمة « حنيف » عند اليهود والمسيحيين اما مرادفـــة لكلمة « وثني » او «تابع ديانـــة سورية عربية متأثرة بالهيلينية ». يجعل القرآن إذن لهذه الكلمة معنى جديداً [2] . وربمـا كانت كلمة « مسلم » جديدة . ويقول القرآن بأن ابراهيم هو الذي بنى الكعبة بمساعـــدة اسماعيل ، وانه دعا الله أن يرسل رسولا من ذريته [3] لأهالي مكة .

ويقول القرآن في مخاطبة المؤمنين : « ملة أبيكم ابراهيم » [4] . وهكذا تعتمد عادة التوجه إلى مكة للصلاة على أسس عقائد متينة .

يستتبع هذه النظرة لديانة ابراهيم ان الديانة اليهودية ليست دين

---

(١) قرآن ٢٠،١٢٤ — ١٣٠،١٣٥ — ١٤١،٣٠،٥٨ — ٦٥،٦٤ — ٧١،٥،٤٤ — ٤٨،٦ — ١٥٩ — ٥-١،١٤،٣٥ — ٣٨،١٦،١٢٠ — ١٢٤

(٢) محمد في مكة ص ٢٠٥

(٣) قرآن: ٢،١١٩ — ١٢٥،١٢٩

(٤) :٢٢،٧٧ — ٧٨

ابراهيم الصافي . نجد هذه الفكرة ضمنياً في عدد من الآيات ثم تتضح في أخرى معينة ، حيث نجد في إحداها ان اليهود قطعوا الميثاق بينهم وبين الله على جبل سيناء ، وانهم عبدوا العجل بدلا من عبادة الله [١] ، ويتهم اليهود في مكان آخر انهم يرفضون الكتاب الذي نزل عليهم وانهم يعصون شريعة الله [٢] ، ودَين الربا مثال على هذا العصيان [٣] ، ويدل اليهود بمسلكهم على تعلقهم بالحياة الدنيا [٤] ، يضاف إلى ذلك ان كل ما يزعمون في الكتاب الذي نزل عليهم ، ليس في الحقيقة جزءاً من هذا الكتاب ، ولا شك ان ما يقوله القرآن يشير إلى الشريعة الشفوية ، ويفسر لنا خلو الوحي الذي نزل على محمد [٥] من هذه التشريعات ، وكذلك يتهم القرآن اليهود بانهم « يحرفون الكلم عن مواضعه » [٦] .

وهكذا نجد في السورة الثانية (الآيات ٧١ ـ ٧٦) ان القرآن بعد أن يتهم بعض اليهود بالتحريف ، يصف الذين يتظاهرون بالايمان (أي يتظاهرون بالاعتراف بمحمد) « وإذا خلا بعضهم إلى بعض قـــالوا اتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم » . وترمي الاشارة في بعض الايات إلى إخفاء اليهود لبعض الامور بأن ابراهيم ، مثلا ، كان أبا العرب ، ولم يكن يهوديا ، ولا نكاد نشك فيما تخفيه الاية المذكورة ،

---

(١) قرآن: ٢٥٠،٢ – ٣٨،٢٧ – ٧٧،٤٠ – ١٥٣،٤،٨٣ – ١٢،٥،١٥٤ – ١٥

(٢) قرآن: ٧٩،٢ – ٥،٨٥ – ٧٨ – ٥،٦٢،٨٢

(٣) قرآن: ١٥٩،٤ – ١٦١

(٤) قرآن: ٨٠،٢ – ٨٦

(٥) قرآن: ٧٢،٣ – ٨٧،٧٨ – ٩٣

(٦) قرآن: ٤٦،٤ – ١٣،٥،٤٨ – ١٦

وهو أن رسالة محمد قد ورد ذكرهـــا في التوراة كما يقول القرآن في مكان آخر [1] .

يظهر اليهود في هذه الاية على انهم عالمون بان محمداً يجمع الصفات التي تذكرها كتبهم لنبي ياتي في المستقبل (كما هو شان ، يهودي أسلم ، وهو عبد الله بن سلام في رأي ابن اسحق) [2] ويقول القرآن ان هؤلاء اليهود ، وإن ادعوا الايمـــان ، لا يعملون بهـــذا الايمان فيصبحون أتباعاً مخلصين لمحمد ، ولهذا سوف يعاقبون عقابا شديداً في الاخرة ، لان الله يعلم ما يخفون ، وليس بحاجة لان يخبره المسلمون بذلـــك . ويتهم القرآن اليهود في آيات أخرى بانهم يكتمون الحق [3] . غير ان كل ما يقال انما هو وسيلة غير مباشرة لذكر صفات محمد النبي . إذ يروي ابن اسحق كيف حـــاول بعض اليهود كتم سورة في التوراة تعاقب الزنا بالرجم ، ولكن هذه القصة تنتمي لزمن لاحق على الزمن الذي نتحدث عنه ، لا يمكن اتخاذها كأساس لنقد غير متحيز للنصوص إذا أردنا أن نحدد المعنى الحقيقي للقرآن) [4] . كان من الممكن ان تظل الكلمة الاخيرة لليهود في مناقشاتهم مع المسلمين ، طالما ان هؤلاء كانت معلوماتهم قليلة عن النصوص المقدسة لليهود . ولكن معلومات المسلمين أخذت تزداد وأصبح باستطاعتهم استعمال الكتب المقدسة لافحام

---

(١) قرآن ١٥٦،٧-١٥٧،٤،٣٧-٤١،الطبري تفسير آية ٤١ ابن هشام ٣٨٨ ، بصدد المسألة الرئيسية راجع تفسير عبد القادر فيوري(سيل) حول سورة ٢ آية٧١-٧٦ (١٠٣١٧)

(٢) ابن هشام ٣٥٣ راجع كنانة بن صورياء في الواقدي ١٦١

(٣) قرآن ٢؛٣٩-١٤١،٤٣-١٥٤،٤٦-١٦٩؛٥٩-٧٤،٧؛٦٤-١٥،٧١-١٨ ٩١،٦٠

(٤) ابن هشام ٣٩٤

اليهود . وقد ذكرنا القول بأن ابراهيم لم يكن يهودياً . وكانت التوراة تقدم أساساً ممتازاً لدحض رفض اليهود الاعتراف بمحمد ، فلقد اضطرب بعض أتباع النبي حين رأوا اليهود ، الذين يحترمونهم من الناحية الدينية ، لأنهم أهل الكتاب ، يرفضون الاعتراف بمحمد . غير أن تاثير هـــذه الملاحظة خف كثيراً حين تاكدوا بان هـذا ليس شيئاً جديداً في تاريـخ الشعب اليهودي،فقد امتلأت كتبهم المقدسة بالامثلة على رفضهم الاعتراف بالانبياء الذبن أرسلهم الله اليهم :

« فان كذبوك فقد كُذب رسل من قبلك ، جاؤا بالبينات والزبر والكتاب المنير »[1] . ويقول القرآن فيما بعد أن اليهود رفضوا الاعتراف بمحمد لأسباب وضيعة كالحسد والغيرة[2] .

وكانت قوة اليهود تكمن في اعتقادهم المطلق(بانهم شعب الله المختار) ويذكر القرآن أمثلة على هـــذا الغرور ، فهم يعتقدون انهم وحدهم « العادلون » وانهم وحدهم يدخلون الجنة ، وانهم لو ذهبوا إلى النار فلمدة قصيرة[3] ، و يرد القرآن على مثل هـــذه الادعاءات التي تساوي رفضاً للاسلام على انه باطل بصور مختلفة . فهو ينكر ذلك عليهم حين يقول بان الحكم في اليوم الأخير يعتمد على عدالة الانسان وطاعته لأوامر الله[4].

---

(١) قرآن ٣ ، ١٨١

(٢) قرآن ؛ ٢،١٩٩ — ١٠٥،١٠٣،١٠٩،٢،٨٥ — ٩٠،٤،٥٤ — ٥٧

(٣) قرآن ٤،٤٩ — ٢،٥٢،٨٨ — ٩٤،٧٤ — ٨٠،٣،٢٣ = ٢٤

(٤) ٢،٧٤ — ٨٠،٣،٢٣ — ٢٤

كما ينفي ذلك ضمنياً حين يتساءل : « وقالت اليهود والنصارى ،نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم؟ »[1] . كما يتحدى اليهود ، على الطريقة العربية القديمة ، ان يقسموا انهم أولياء الله وانهم وحدهم يدخلون الجنة[2] .

ولكن الحجة الاولى التي كانت بيد المسلمين هي ان اليهود والمسيحيين يابى كل منهما على الآخر الحق الذي يطالب به لنفسه ، ولهذا فليس من غير المعقول في نظر المسلمين ، الافتراض بأن كلا من اليهود والنصارى كانوا يتخطون حدود الوحي الذي نزل على كل منهما . وكان لهذه الحجة قوتها لأن المسلمين كانوا يعتبرون اليهود والنصارى أبناء إسرائيل ، أما فيما يتعلق بمسائل الخلاف بينهما فان الحكم الاخير يصدر في يوم الحساب[3] .

ولكي يظهر عناد الديانتين القديمتين ، يتحدث القرآن عن بعد نظر نظر المسلمين وتسامحهم باعترافهم بجميع الانبياء السابقين[4] . ويبدو أن ان الفكرة التي تعبر عنها الآية (٧) من السورة (٣) وتقول بوجود ميثاق بين الله والانبياء تعهد هؤلاء فيه بالاعتراف بكل نبي ياتي برسالة مصدقة للرسالة السابقة هي تعبير عن حقيقة مهمة في صورة اسطورية[5]

«١» قرآن ٥، ١٨ — ٢١

«٢» قرآن ٢، ٨٨ — ٩٤، ٦٢، ٦٠

«٣» قرآن ٢، ١٠٥ — ١١١

«٤» قرآن ٤، ١٤٩ — ١٥٠

«٥» قرآن ٣، ٧٥ — ٨١

تلك هي أهم نقاط الهجوم القرآني على اليهود . وهناك مسائل اخرى تفصيلية ، وقد تحدثنا عنها كفاية لنظهر ان موقف الاسلام نحو اليهود قد تحدد جيداً . ويدل هذا التطور على الاهمية العظمى التي كان يضفيها المسلمون على المسألة اليهودية . وكان هذا النضال في نظر « الزعماء » المسلمين أهم من الصعوبات التي نشأت مع مكة . ولن ننسى هذه الاعتبارات في دراستنا للاصطدام الحقيقي الذي قام بين محمد واليهود .

٥ - النضال ضد اليهود على المستوى المادي

حدثت خلال الاشهر والسنوات التي تلت تغيير القبلة عدة اصطدامات مسلحة بين المسلمين واليهود . من السهل جمعها معاً ، من وجهة النظر التاريخية ، ولكن لا يجب الظن ، بدون فحص دقيق، ان هذه الحوادث نتجت عن سياسة مقصودة ربما اتبعت في ٦٢٢م/٢ قبل بدر ، وكان هدفها طرد اليهود أو التخلص منهم. ولكي نعرف ذلك يجدر بنا مناقشة الوقائع . ويمكننا تاجيل هذه المناقشة حتى ننتهي من وصف الحوادث التي نعتمد عليها وصفاً موجزاً .

الواقعة الاولى المهمة هي حصار قبيلة القينقاع وطردها [١] إذ كرر محمد ، بعد عودته من بدر ، دعوته لليهود ، مشيراً إلى الخسائر الضخمة التي تكبدتها مكة . وان ذلك مثل على مصير الذين لا يستجيبون لرسالة

---

(١) ابن هشام ٥٤٥ -٧ الواقدي ١٧٧-١٨١ ، ٩٢-٩٤ الطبري ١٣٦٠-٢

الله . ولم يكن اليهود ، مع ذلك ، أكثر استعداداً من ذي قبل لاتباع محمد .
وقد وقعت حادثة بعد أيام إذ قـــام بعض اليهود بربط ثوب امرأة عربية [١] بينما كانت جالسة تبيع بضاعتها في سوق القينقاع ، فلما نهضت ظهر قسم كبير من جسمها . وقد اعتبر احد المسلمين الذي كان حاضراً هذا المشهد وما أثاره من ضحك إهانـــة ، فقتل اليهودي الذي ثأر له أصدقاؤه حالا . تحصن اليهود في اطمهم ورأى محمـــد في القضية سبباً للحرب ، فجمع قوات مسلحة لمحاصرة القبيلة . وابتدأت المفاوضات التي لا نعلم عنها شيئاً . ثم استسلم اليهود بعد حصار خمسة عشر يوماً فاجبروا على مغادرة المدينة حاملين معهم نساءهم وأطفالهم ، وأعطوا مهلة ثلاثة أيام لجمع الاموال التي لهم عند الناس ، ولكنهم تخلوا عن أسلحتهم وربما عن قسم من ممتلكاتهم كأدوات الصياغة مثلا (وتقول النصوص عادة انهم ذهبوا إلى المستعمرة اليهودية في وادي القرى ، ثم رحلوا بعد شهر إلى أذرعات في سورية .

من المهم أن نلاحظ الدور الذي قام به في هذه الحوادث عدد مـــن العرب ، وفي مقدمتهم ابن ابي لأنه تدخل عند محمد لمصلحة بني القينقاع . ويبدو ان القبيلة اليهودية لم تقبل بالنفي إلا بعد أن أدركت أن حليفها ابن أبي الذي كانت تنتظر منـه المساعدة ، كان تاثيره ضئيلا في سيـاسة المدينة ، حتى إذا ما حاول ابن ابي أن يصل لمحمد دفعه الحارس بشده إلى الحائط حتى شج رأسه . ويبدو انـه كان عاجزاً عن الثار أو طلب

---

(٢) راجع بصدد حادثة مشابهة كوسين دوبرسفال ج١ ٢٩٧

الدية . ويذكر آخرون في المصادر على انهم كانت لهم أهميتهم من ناحية المسلمين في قيادة العمليات وهم : عبادة بن الصامت ، المنذر بن قدامة ، محمد بن مسلمة وسعد بن معاذ . ينتمي الاولان لفرعين من قبيلة سالم [١] القديمة ، وهي القواقلة وغنم بن مسلم . وكان ابن ابي ينتمي لبالي وهي فرع من سالم .

ولما كان عبادة حليفاً أيضاً لبني القينقاع ، ولكنه تخلى علنا عن هذا الحلف حين بدأت الازمة،نستطيع أن نستخلص من ذلك أن بني القينقاع كانوا في الاصل حلفاء كل قبيلة سالم . وكان العربيان الاخران ينتميان لقبيلة عبد الاشهل التي تحالفت مع بني النضير و بني قريظة قبيل معركة بعاث . ويمكن أن يكونا هما أيضاً على صلة ببني القينقاع . وربما كان دور سعد بن معاذ هو (منع سائر القبائل اليهودية من) التدخل في هذه القضية .

وتقول المصادر ان بني القينقاع كان عندهم ٧٠٠ محارب منهم ٤٠٠ مسلحون ، وان محمداً لم يكن ليستطيع الانتصار عليهم دون تاييد جميع محالفيه العرب). ولا شك ان المجد الذي عاد على محمد بعد بدر قد سهل له الفوز بمثل هذا التاييد).

وبعد مضي حوالى أربعة أشهر (في أوائل أيلول ٦٢٤ م أي في الشهر العاشر من السنة الثالثة للهجرة) وقع مقتل كعب بن الاشرف [٢] .

«١» راجع فيما سبق ص ٢٠١

(٢) ابن هشام ٥٤٨–٥٣ ، الواقدي ١١٥–١٧ ، ١٨٤ – ٩٠ الواقدي ٩٤ – ٩٩ الطبري ١٣٦٨ – ٧٢

وكان كعب ابن عربي ينتمي لقبيلة طيء البعيدة ، ولكنه كان يتصرف وكأنه ينتمي لقبيلة أمه وهي النضير . وقد ذهب بعد بدر إلى مكة ونظم أشعاراً ضد المسلمين ، فانتشرت في كل مكان . وقد هجا حسان بن ثابت، بتحريض من محمد، ضيوف كعب من المكيين وأجبره على العودة إلى المدينة حيث استمر في نشر دعايته ضد الاسلام . وقد أعلن محمد انه سيكون سعيداً لو تخلص من كعب ، حتى إذا ما تآمر خمسة لقتله سمح لهم بأن يقولوا ما يشاؤون على لسانه . وقد كسب ثقة كعب كل من محمد بن مسلمة « من حارثة » ، وكان قد انضم إلى عبد الاشهل ، وابي نائلة « من زعوراء » وكان ينتمي أيضاً إلى عبد الاشهل ، وكانا أخوين في الرضاعة لكعب ، فشكوا اليه ما يقاسيانه من النظام الذي أقامه محمد ولاسيما من نقص الغذاء . فرضي كعب أن يقرضهما مالا ويأخذ منهما أسلحة رهينة ، وترك منزله في الليل ليحصل على الاسلحة فانقض عليه المتآمرون الخمسة في مكان قفر وقتلوه بعد مقاومة عنيفة ، ثم رجعوا إلى مكان يستطيع محمد منه أن يسمعهما ، وكان يترقب عودتهما فاخبروه بنجاحهم صائحين : الله أكبر . لنلاحظ ان المتآمرين الخمسة كانوا ينتمون جميعهم لعبد الاشهل أو حارثة . ولما كانت النضير حليفة عبد الاشهل (فلن تودي الجريمة إلى المطالبة بالثار). وقد تأثر اليهود لهذا الاغتيال وشكوا إلى محمد ثم وقعوا معاهدة معه .

وبعد مضي سنة تماماً على وفاة كعب في الشهر الثالث من السنة الرابعة للهجرة اي في نهاية آب أو مطلع أيلول ٦٢٥ م طردت قبيلة اخرى من

المدينة وهم بنو النضير[1] .

وتقول القصة ان محمداً ذهب إلى حي النضير ليطلب من اليهود مساعدة لدفع دية القتيلين من بني عامر بن صعصعة اللذين قتلهما الناجي الوحيد من بئر معونة[2] . ولما كانت النضير حليفة عامر ، فلا شك ان تعقيدات نتجت عن ذلك ، وإن كانت المصادر لا تتحدث عنها ، ولربما فكر (محمد بان على اليهود ان يدفعوا اكثر مما يدفعه متوسط سكان المدينة فراق لليهود ان يدفعوا أقل). ومهما كان موضوع الخلاف ، فقد أعلن بنو النضير انهم على استعداد لاعطاء جواب مرض ، ورجوا من محمد ان يستريح بينما كانوا يعدون له الطعام .وجلس محمد واصحابه وظهورهم إلى حائط احد البيوت . ثم ذهب محمد ولم يعد ولحق به اصحابه حتى إذا ما التقوا به في منزله أخبرهم بانه تلقي إنذاراً من السماء بان النضير كانت تتآمر للغدر به وذلك باسقاط حجر على رأسه وهو جالس إلى الحائط وقتله . فارسل النبي محمد بن مسلمة ومعه إنذار بان على القبيلة اليهودية ان تغادر المدينة تحت طائلة الموت في مدة عشرة أيام . ويحتفظ اليهود مع ذلك بملكية نخلهم وباخذ نصف المحصول . بيد أن هذا الانذار لا يتناسب مع الاهانة او الادعاءات الغامضة بصدد خيانة مقصودة ، ومع ذلك يمكن لهذه الادعاءات أن لا تبدو غامضة لرجل غربي في أيامنا هذه . فقد كان

---

(١) ابن هشام ٥٦٢ -٦ ، الواقدي ٣٥٣-٦٢ ، الواقدي ١٦٠-٧ طبري ١٤٤٨ - ٥٣

(٢) راجع عن ابي وافع ابن هشام ٧١٤-١٦، ٩٨١ ، الواقدي ١٧٠ - ٧٢ ، الطبري ١٧٣٥-٨٣ ، كايتاني ح١، ٥٩٠-٢ عن عسير ، ابن هشام ٩٨٠ ، كايتاني ج ١، ٧٢

الفريقان يعلمان كيف عامل بعض المسلمين كعب بن الاشرف ، وكان محمد يعلم جيداً ، حسب الاراء السائدة في شبه الجزيرة ، آنذاك ، انه إذا سنحت الفرصة المناسبة انتهزها أعداؤه وقتلوه . وكان التاخير في إعطاء الجواب لاتاحة الفرصة لقتله ولهذا اعتبر عملا عدائياً .

كان اليهود في أول الامر ميالين لتنفيذ مطالب محمد ولاسيما حين رأوا ان الناطق بلسانه كان إحدى الشخصيات المرموقة في القبيلة التي كانوا ينتظرون مساعدتها . وكانوا مع ذلك يعانون من الانقسامات الداخلية، وكان حيي بن اخطب، وهو زعيم القبيلة ،لا يميل إلى الاستسلام أقل من الاخرين مثل سلام بن مشكم. وبينما كان حيي متردداً أرسل اليه ابن ابي رسائل يعده فيها بمساعدته ويعلن ان بعض البدو الحلفاء على استعداد لمهاجمة محمد .ولهذا رفض اليهود ان يخضعوا لمطاليب النبي فقام بحصارهم واستمر الحصار خمسة عشر يوماً ، وقد هنت عزيمة النضير حين رأت المسلمين يحطمون أشجار النخيل ، ولم يقم ابن ابي بأي شيء لمساعدتهم فادركوا انهم حتى (لو اتيح لهم البقاء في المدينة فان موارد رزقهم قد زالت). فاعلنوا عندئذ انهم على استعداد للخضوع للشروط المطلوبة سابقاً، غير ان محمداً فرض عليهم عندئذ شروطا اخرى اشد واقسى . وأوجب عليهم التخلي عن أسلحتهم وأن لا ياخذوا شيئا من محصول النخيل، فاضطروا للقبول و ساروا باعتزاز في قافلة من ٦٠٠ بعير باتجاه خيبر حيث كانت أراضيهم . وكانت السيوف والدروع والخوذ من نصيبه محمد ، الذي كان يفكر باللقاء المسلح المقبل مع قريش ، ووافق الانصار

على ان المساكن ومزارع النخيل تعطى للمهاجرين فيستطيع هؤلاء القيام باودهم ولا يعيشون على قِرى الانصار .

ومن بين المسلمين المذكورين في المصادر بصدد هذا النجاح ، محمد بن مسلمة وسعد بن عبادة في الدرجة الاولى ، ومما له مغزاه ان سعد بن معاذ قدم لمحمد خيمة جميلة وثوراً للجيش باجمعه ، مما يدل على أنه كان يعتبر نفسه زعيما للخزرج مقابل ابن ابي،وكان احد الانصار بين المعوزين اللذين أخذا نصيبهما مع المهاجرين عند توزيع ممتلكات اليهود ، أبا دجانة من قبيلة ساعدة التي ينتمي اليها سعد بن عبادة .

لم يكن طرد بني النضير نهاية الصدام بين هذه القبيلة ومحمد فقد استمر بعض اليهود في التآمر من خيبر ضد المدينة وقاموا بدور كبير في إنشاء الحلف الكبير الذي جاء لحصار المدينة في نيسان ٦٢٧ (١١/٥) .

ليس من العجيب إذن أن يقتل زعيمان من زعمائهم وهما أبو رافع سلام بن أبي الحقيق ، وأسير (أو يسير) بن رازم ، على يد المسلمين . وتاريخ هذين المصرعين عند الواقدي هو ٤/١٢ (أيار ٦٢٦ م) و ٦/١٠ (شباط ـ آذار ٦٢٨) ولكن هناك من يجعل المصرع الاول بعد حصار المدينة والهجوم على قريظة [1] ، وهذا أقرب للواقع [2] . ويقول الواقدي [3] ان اسير بن رازم تولى قيادة النضير بعد موت أبي

---

(١) ٧٤٠ ، لاجل ابي رافع راجع ابن هشام ٧١٤-٩٨١الواقدي ١٧٠ - ٢ طبري ١٣٧٥-٨٣ ، كايتاني ج١، ٥٩٠-٢ لاجل عسير راجع ابن هشام ٩٨٠ ، الواقدي ٢٣٩ ، كايتاني ج ١، ٧٠٢

(٢) راجع بهل ٢٧٧ رقم ٤٨

(٣) الواقدي ٤، ١٧، ٥٢٣٩

رافع . وإذا كانت القيادة التي مارسها أبو رافع هي نفس قيادة حيي بن اخطب فان أبا رافع لايمكن أن يكون قد تولاها إلا بعدموته حيي مع قريظة ، ولا يمكن أن يكون قد قتل إلا بعد هذه الحوادث .

وكان سبب مقتل أبي رافع واسير مؤامرتهما مع غطفان ضد المسلمين ، وهذا ما يتفق مع التاريخين .

كان اغتيال ابي رافع من صنع خمسة رجال من بني سلمة ، وقد دفعهم اليه رغبتهم في أن يظهروا أن مقتل كعب بن الأشرف على يد الأوس يمكن أن يجاريهم فيه الخزرج . وقام عبد الله بن عتيق بدور مهم في هذه المسالة ، وكان يتكلم العبرية ، وكانت أمه يهودية متنباة في خيبر (يمكن أن تكون امرأة من النضير) ويبدو أن المحرض على القتل والذي قام به هو عبد الله بن أنيس ، وقد عمل المتآمرون على الدخول على أبي رافع ولم يكن من الصعب عليهم أصابة الكهل بجراح مميتة ثم اختبأوا حتى انتهى البحث عنهم وعادوا سالمين إلى المدينة .

ويبدو أن عبد الله بن انيس كان مسؤولا أيضاً عن مصرع أسير وإن كان زعيم المتآمرين عبد الله بن رواحة (من الحارث) وقد توجهوا إلى خيبر كمبعوثين من محمد لدعوة أسير إلى المدينة للتفاوض معه ، فذهب أسير ، بالرغم من تحذير أصدقائه ، بصحبة ثلاثين من أصحابه إلى المدينة ، وقد ركب كل واحد منهم بعيراً وراء مسلم ، وقد ساور عبد الله بن انيس الشك في الطريق ، وخيل اليه ان اسيراً ، الذي كان وراءه ، حاول مرة أو اثنين البحث عن سيف عبد الله ، ولا شك ان اسيراً ندم على قراره

بالذهاب إلى المدينة ، ويمكن أن نفترض على أساس ذلك وان اسيرا دافع عن نفسه فيما بعد بغصن شجرة، ان اليهود لم يكونوا مسلحين ، وقد عمل عبد الله لكي يبطىء بعيره ويظل وراء الآخرين ، حتى إذا ما خلا بهم قتل اسيراً ، كما قتل اليهود الاخرون فيما بعد ما عدا واحداً منهم .

كان لا يزال يوجد في المدينة عدد من الجماعات اليهودية ، وكان أهمها قبيلة قريظة (وقد ظلت هذه القبيلة ، أثناء حصار المدينة) على الحياد فيما يتعلق بالعمل العسكري ، ولكنها قامت بمفاوضات مع أعداء محمد ولو انها وثقت من قريش وحلفائهم من البدو لانقلبت على محمد . وقد هاجم محمد قريظة [1] بعد أن تخلص من أعدائه . ليظهر ان الدولة الاسلامية الفتية لا تسمح بمثل هذا الموقف المشبوه . وانسحبت قريظة إلى اطمها ، ولم ترد على الهجوم بحماس . ثم ارسلت وفداً تطلب الاستسلام بنفس الشروط التي استسلم بها بنو النضير . فأجيبت ان عليها ان تستسلم بدون قيد أو شرط ، فطلب اليهود استشارة أبي لبابة فلبى نداءهم ، أما ما جرى بينهما فلا يزال سراً [2]، ولا شك ان ابا لبابة ارتكب اهانة خطيرة لا تذكرها المصادر . ولا شك انه لم ينكر الحلف القديم بين قبيلته (عمرو بن عوف) وقريظة ، وكان عليه أن يستخدم نفوذه بصورة أو بأخرى لصالح اليهود .

وبعد استسلام قريظة بدون قيد أو شرط ، كلف محمد بن مسلمة

---

(١) ابن هشام ٦٨٤ — ٩٩،الواقدي ٢١٠—٢٤ ، طبري ١٤٨٥-٩٨

(٢) راجع ص ٢٢٦ مما سبق .

بالرجال وعبد الله بن سلام بالنساء والاطفال . ويقال بأن بعض الأوس طلبوا إلى محمد أن يعفو عن قريظة إكراماً للاوس ، كما عفا عن القينقاع إكراماً لابن ابي والخزرج ، ولا يذكر أسماء الذين تقدموا بهذا الطلب ، ولكن النص يذكر فيما بعد ان اربعة اشخاص نزل بهم المصير السيء الذي نزل بأهالي قريظة وهم : الدهاق بن حنيفة ومسلمة بن سلامة (من عبد الاشهل) ، ومعتب بن قشير (ضبيعة بن عمرو بن عوف) وحاطب بن امية (من ظفر) .

وتدل هذه الواقعة على انه كان يوجد عند الأوس ميل واسع لاحترام الحلف القديم المعقود مع قريظة . وقد أجاب محمد على طلبهم ان اقترح بأن يقرر مصير اليهود أحد حلفائهم فقبلوا ، فعين محمد حكماً سعد بن معاذ زعيم الأوس ، الذي جرح بعد الحصار والذي مات بعد أن أصدر حكمه على قريظة بوقت قصير . حتى إذا ما حمل إلى محمد اقسم جميع الأوس وغيرهم من القبائل الحاضرين النزول على حكمه . فحكم بأن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء ، وقد نفذ هذا الحكم في اليوم التالي على ما يبدو .

انتقد بعض الكتاب الاوروبيين هذا الحكم ووصفوه بأنه وحشي وغير إنساني . وسنناقش فيما بعد[1] الفكرة العامة التي تتدخل هنا ، ولكن لنلاحظ رأساً ان الذين اشتركوا في هذه الحوادث (والذين نقلوها

---

(١) واجع ص ٣٩٩ مما يلي .

الينا) لا يبدوا انهم ذعروا من القسوة المزعومة لهذا الحكم [١] وموضوع الخلاف هنا هو معرفة ما إذا كان الولاء للامة الاسلامية فوق كل ولاء .
يجب أن نذكر بهذا الصدد ان التقليد العربي القديم كان يطلب مساعدة الحلفاء ، مهما كان مسلكهم مع الاخرين، إذا ظلوا أوفياء. ويبدو ان الأوس الذين طلبوا التسامح مع قريظة اعتبروها غير وفية لمحمد وليس للأوس . وهذا يعني ان انصار الشفقة كانوا يعتبرون أنفسهم قبل كل شيء أفراد الأوس وليس أفراد الامة الاسلامية .

لا جدوى إذن من أن نظن بأن محمداً ضغط على سعد بن معاذ للحكم على قريظة كما فعل . فلقد أدرك رجل بعيد النظر كسعد ان السماح للعصبية القبلية بالتغلب على الولاء للاسلام يؤدي للعودة إلى الحروب الاخوية التي كانت المدينة تأمل التخلص منها بمجيء محمد . ويقال بان سعداً حين أدخل على محمد ليصدر حكمه ، اجاب الذين طلبوا منه أن يحسن في مواليه « لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم » ويريد بدون شك بذلك ان عليه ، وقد أوشك على الموت ، ان يقوم بواجبه نحو الله ويضع الامة الاسلامية فوق الولاء القديم ، ومن المفيد ان نلاحظ ان قوله «لومة لائم» نجده في آية من القرآن تحذر المؤمنين من التخلي عن دينهم [٢] .

---

(١) راجع بصددالحكم على يهود قريظه مجلة العالم الإسلامي · العدد ٩٢ (١٩٥٢) ص ١٦٠ — ٧١ ولا سيما ص ١٧١ (المقطع الثاني من ص ١٦٠ سرد كيتاني)

(١) ابن هشام ٦٨٩ ، ١ ، قرآن : ٥٩،٥ ، ابن سعد ، ح ٣ ، ٢ ، ٤ ٨ الواقدي ٢١٥

وتطلعنا رواية الواقدي عـــن الاخطار الكامنة التي كانت تحيط بالوضع . فقد قال سعد بن عبادة والحباب بن المنذر ، زعيما الخزرج، ان الاوس تعارض قتل رجال قريظة . ولم يكن لهـــذا القول إلا أن أثار الاوس وقد أكد سعد بن معاذ لمحمد ان جميع المؤمنين الأتقياء بين الاوس يوافقون على الحكم. وهكذا اعطيت كل قبيلة رجلان (عبد الاشهل ، حارثة ، ظفر ، معاوية ، عمرو بن عوف وأمية بن زيد) فقتلوا اجميعهم ، وبذلك تكون كل قبيلة قد اشتركت في إهدار دم قريظة .

ولما كانت النصوص تقول بان القتل جرى تنظيمه على أيدي علي والزبير ، فان معظم اليهود « ٦٠٠ شخص » ربما قتلوا على يد المهاجرين، وإن كان الخزرج قد ساعدوا في ذلك لأنهم، ما عدا ابن ابي ، لم يعودوا حلفاء قريظة ، ولا نجد في الموضع الذي تتحدث فيه النصوص عن تقسيم النخيل أي ذكر لبني عوف من الخزرج ، وهي قبيلة كان ينتمي لها ابن ابي . ولا شك ان سعد بن عبادة اشترك في هذه القضية ، ومع ذلك فان قبيلته ساعدة لا تذكر عند تقسيم النخيل ، ربما كان ذلـــك نتيجة خطأ ، ولكن ربما كان السبب ان ساعدة كانت تملك الكثير من النخل ، لأن سعد بن عبادة قام، في كثير من الاوقات، بتأمين تموين قوات محمد [٢] ، إذا كان ذلك هو السبب الحقيقي ، فان غياب عوف وبياضه من قائمـــة المستفيدين من توزيع النخل يفسر بانهم لم يشتركوا بالقتال . ومهما كانت

---

(١) الواقدي ٢٢٠

(٢) الواقدي ١٥٠ – ١٦٣ – ٢١٢

حقيقة هذا التفصيل الاخير ، فان الشيء الاكيد هو ان الولاء للقبيلة وللعادات القديمة التي تتعلق بها كان لا يزال قوياً ، ولم يكن تعيين سعد بن معاذ ليحكم على قريظة حكمة تخيلها محمد ليخفي السلطة الدكتاتورية التي كان يؤاخذ عليها، لانه في ذلك الوقت لم يكن يملك هذه السلطة ، ولكنها كانت الطريقة الوحيدة ، بالنسبة اليه ، ليخرج من هذا الوضع الحرج .

لم يبق بعد إزالة قريظة أية جماعة مهمة يهودية في المدينة ، ولكنه لا يزال يوجد عدد من اليهود ، وكان احـــدهم ابو الشهم الذي كان ينتسب لبني ظفر ، وكان تاجراً ومدنياً وقد اشترى قسما مـن نساء قريظة وأطفالها [1] . وإذا كان تاريخ دستور المدينة صحيحاً فانه وجد في ذلك الوقت عدد مـــن الجماعات الصغيرة اليهوديـــة المنتشرة في المدينة .

ووجود بعض اليهود ، على الاقل ، باستمرار في المدينة حجة في آراء بعض العلماء الاوروبيين الذين يقولون بأن محمداً ، اتبع في السنة الثانية للهجرة «سياسة شديدة فطرد جميع اليهود من المدينة لا لسبب إلا لانهم يهود وانه وضع هذه الاجراءات موضع التنفيذ بشدة متناهية»، غير انه لم يكن من عادة محمد اتباع سياسة قاسية بهـــذا الشكل ، بل كانت نظراته معتدلة ، يحسب حساب المشاكل الرئيسية التي تؤثر في الحـــالة

---

(١) ابن سعد ١/٢ ، ١٧٣ ، ١٤ ، الواقدي ٢٢ ، ١٧٤ ، ٢٦٤ ، ٢٧٨.

الراهنة والاهداف البعيدة التي يسعى لتحقيقها . واعتماداً على هـذه المعطيات كان يكيف موقفه يوماً بيوم منسجما مع العوامل المتغيرة التي تنتج عن الحوادث اليومية . والظروف التي ساعدت على مهاجمة قينقاع والنضير لم تكن سوى ظروف وعلل « ربما كانت حقيقية) وللمؤرخ الحق في البحث عن الاسباب العميقة لهذه القرارات ، ولا يجب البحث عنها بعيداً . فقد ظهر اليهود خلال السنتين اللتين قضاهما محمد في المدينة (على انهم اخطر معارضيه بانكارهم عليه نبوته) وبهذا كان حماس اتباعه الديني ، وكان هذا عنصراً مهما ، معرضاً للفتور ، إذا لم يقض على المعارضة اليهودية بالسكوت أو العجز . وكان من الصعب ، مع ذلك ، على محمد أن يجعل معظم اتباعه يشاركونه في تقديره الشخص للدور المهم الذي يقوم به اليهود في الوضع السياسي والديني ، حتى إذا ما اصبحت الظروف مواتية « اي حين بلغت زعامته الذروة وزعامة ابن ابي الحضيض » ، وسنحت الفرصة لبدء الحرب قام محمد بذلك ، وبهـذا تكون افعاله تلقائية وليست مبيتة ، يضاف إلى ذلك ان اليهود كلما غيروا موقفهم ولم يعادوا محمداً كف عن اضطهادهم ، كما يدل عليه مثل ابي الشهم . وقد كفت الانتقادات اللفظية ، بعد الحوادث الاولى ، فيما يتعلق بالوحي القرآني إلا في الاحاديث الخاصة . وقد استعيض عن هذا النوع من المعارضة بنوع آخر من العمل العدائي ، ألا وهو المؤامرات الدبلوماسية ضد محمد) ولقد أصبح اليهود بعد ما رأوا ما حل بقريظة ، حذرين وتجنبوا كل علاقة مشبوهة وإن كانت عواطفهم أيام غزوة خيبر

إلى جانب إخوانهم في الدين [1] .

إذا كان يهود المدينة قد عادوا إلى الهدوء ، فان يهود خيبر الذين كان زعماء النضير يعيشون بينهم ، كانت تدفعهم رغبة الثأر من محمد . فكانوا يقدمون أموالهم لحمل العرب المجاورين ، ولا سيما قبائل غطفان القوية ، على الانضمام اليهم ضد المسلمين . فكان هذا سبباً كافياً حمل محمداً على مهاجمة خيبر . وكان الوقت الذي اختاره لهذا ، أيار ـ حزيران ٦٢٨ م (٧/١) ، أي بعد غزوة الحديبية بوقت قصير ، فترة يهمه أن يحصل فيها على الأسلاب لتوزيعها على أتباعه الذين خابت آمالهم من هذه الناحية في الحديبية . ولقد علم أهل خيبر باستعدادات محمد ، ولكن سيره إلى خيبر جرى بسرعة وسرية ، وقد فوجىء اليهود فلم يستطيعوا اتخاذ الاجراءات الضرورية في الوقت المناسب لمقاومة الحصار ، وكانت خيبر تحتوي على عدد من التحصينات التي اقيم كثير منها على رؤوس الجبال ، ويستحيل الاستيلاء عليها . وقد هاجمها المسلمون حصناً حصناً مبتدئين باعظمها المسمى « النطاة » . وكثر التراشق بالسهام ، كما وقعت مبارزات شخصية . حتى إذا ما حاول المحاصرون الخروج ردهم المسلمون بشدة وطاردوا اليهود داخل جدرانهم . ويرجع الفضل في نجاح المسلمين إلى مساعدة اليهود الذين كانوا يعتقدون انهم بذلك يضمنون سلامتهم وسلامة عائلاتهم . وبعد سقوط حصون النطاة والشق ، لم تبق سوى

---

(١) الواقدي ٢٦٤ ـ ٢٦٦

مقاومة ضعيفة ، ثم جرت المفاوضات للاتفاق على استسلام الحصون الباقية وهي حصن الكتيبة ، والوطيح والسلالم ، وكان مبدأ الاتفاق أن يستمر اليهود في زراعة أراضيهم على أن يسلموا نصف المحصول لمالكيها المسلمين ، أي إلى الـ ١٥٠٠ رجل الذين اشتركوا في الغزوة ، أو إلى الذين يتنازل هؤلاء لهم عن نصيبهم . وقد قتل كثير من رجالات خيبر في المبارزات ، كما قتل كنانة بن أبي حقيق ، القائد ، وأخوه بعد الاستسلام لأنهما أخفيا أموال العائلة . وهكذا استبعدت خيبر وذهب شرها [(١)] .

وقد فرضت في نفس الوقت معاهدات على المستعمرات اليهودية في فدك ووادي القرى وتيماء . حتى إذا ما ترامت أخبار سقوط خيبر لم يعد يجرأ أحد على المقاومة وقد عرض على فدك ووادي القرى شروطاً مشابهة لشروط خيبر ، أما تيماء فاخذت منها الجزية ، وربما عوملت المدن المحصنة معاملة خاصة لأن المدينتين الاولين كانتا شديدتي العداء لمحمد وألبتا عليه القبائل العربية المجاورة وهي سعد وربما بدر من فزارة [(٢)] .

ساعدت عدة عوامل على هذا النجاح الذي أحرزه المسلمون ، فقد كان اليهود شديدي الثقة بمواقعهم في خيبر ، ولم يهتموا بالتزود بالماء الكافي للحصار حتى ولو كان قصير الأمد . وإذا قارنا بين الرجال ، فقد كان المسلمون جنوداً ممتازين ، ولكن لا يحسب حساب هذا كثيراً في الحصار إلا

---

(١) ابن هشام ٧٦٦ – ٨١، الواقدي ٢٦٤–٩٦ الطبري ١٥٧٥ – ٩٠

(٢) بصدد فدك راجع ابن هشام٩٧٥، الواقدي ٢٣٧ ، ضدد وادي القرى راجع ابن هشام ٩٧٩ ، الواقدلله ٢٣٦.

في حالة اضطرار المحاصرين للخروج ، وقد اضطروا لهذا الخروج بعد نفاد الماء والطعام . ويبدو ان المسلمين كانوا بحاجة للغذاء طالما انهم لم يستولوا على حصن فيه زاد كثير . وكان فقدان الوحدة عند أهالي خيبر ضعفاً مكن محمداً من أن يجد اليهود على استعداد لمساعدتـــه . كما ان العرب الموالين لليهود لم يكونوا سوى جماعات صغيرة ، ولهذا تخلوا عن ولائهم ، وذلك بفضل دهاء محمد الدبلوماسي ، فقد غزا علي في فدك بني سعد منذ أشهر ، كما ان غطفان رغم تظاهرها بالتأييد لليهود لم تتدخل بشكل فعال أثناء عمليات خيبر .

٦ ـ الخلاصة

يمكن اعتبار سقوط خيبر واستسلام سائر المستعمرات اليهودية على انها توقف المقاومة اليهودية . وقد استمر هذا التوقف طيلة حياة محمد . ولن نبحث هنا في طرد الخليفة عمر ليهود الحجاز . فقد عارض اليهود بكل قواهم محمداً وقضى عليهم قضاء مبرماً . وقد ظل كثير منهم في مواطنهم القديمة سواء في المدينة أو في غيرها ، ولم يعد يحسب حسابهم في السياسة العربية ، كما فقدوا الكثير من ثرواتهم .

من المفيد أن نتخيل ما كان يحدث لو أن اليهود انضموا إلى محمد بدلا من معاداته . وكان بامكانهم في بعض الاوقات أن يحصلوا منه على شروط مفيدة لهم جداً . ومنها الاستقلال الديني فتقوم على هذا الاساس امبراطورية عربية يؤلف اليهود جزءاً منها ، (ويصبح الاسلام بذلك

طائفة يهودية ؟ (كذا) ولتغير وجه العالم اليوم . وقـــد غرست في الشهور الاولى التي قضاهـــا محمد في المدينة ، بذور مأساة رهيبة وضاعت فرصة جميلة . ويبدو ان الاسلام على المستوى الديني أسهل بالنسبة لليهود مما هو بالنسبة للمسيحيين ، ومع ذلك فان تأكيد محمد بصدد الرسالة الالهية التي كلف بها يتعارض مع العقيدة الغالية عـــلى قلب اليهود ، وهي انهم شعب الله المختار أي الشعب الوحيد الذي ظهر الله بواسطته إلى الناس. فاذا كان يهود المدينة رفضوا محمداً فان ذلك تبعاً للنظريات اليهوديـــة التقليدية ، حتى لو وجد رجال أبعد نظراً من زعماء اليهود في ذلـــك الوقت لتصرفوا بطريقة مماثلة) ولم يكن من الضروري بالنسبة لليهود ان يسخروا من الاسلام كما فعلوا ، حتى إذا ما قرروا رفض دعوة محمد كان عليهم أن يبرروا هذا الموقف عـــلى الاقل في نظرهم ، وكانت انتقاداتهم خطراً عـــلى التجربة الاجتماعية والسياسية الكبري التي اندفع فيها محمد ، ولا يمكن تجاهل مثل هـــذا الخطر وهكذا توالت الاحداث .

القول بان محمداً كان يجهل غني اليهود تقليل مـــن شان ذكائه ، ولكن الاعتقاد بان هـــذا الغنى كان السبب الوحيد لهجمات محمد ضد ضد اليهود هو اتخاذ موقف مادي لا مبرر له ، ولا شك ان غنى اليهود كان بدون شك عونا كبيراً لمحمد ، وحسن كثيراً وضعه المالي

---

(١) فنسنك المرجع المذكور ٨٠، ١٠١ ، بهل ٢١٦–١٨ ومرغوليوث في جريدة الجمعية الملكية الاسيوية ١٩٢٥، ٤٣٧

ولا شك ان ترقب مساعدة مالية أثر في النبي لتحديد وقت الهجوم علـى اليهود ولكن السبب الرئيسي للنزاع كان ، بالنسبة للفريقين ، دينيا .

كان اليهود يعتقدون ان الله اختارهم من دون الناس ، وقد أدرك محمد ان صفة النبوة تسمح بايجاد الاساس الممكن للوحدة العربية ، وكما يحدث غالبا في تاريخ الشرق الاوسط فقد امتزج الدين بالسياسة .

الفصل السابع

معالم الدولة الإسلامية

١ ـ دستور المدينة

احتفظ ابن اسحق بوثيقة قديمة تسمى عادة دستور « المدينة » وهو بعد أن يقدم له ببضع كلمات ، لا يذكر شيئاً عن الطريقة التي وصلت بها الوثيقة اليه ، ولا متى وكيف طبق هذا الدستور . اما وضع الوثيقة في مطلع حديثه عن الفترة المدنية ، فليس له من سبب سوى التسلسل المنطقي .

أ ـ نص الوثيقة :

قال ابن اسحق « وكتب رسول الله كتاباً بين المهاجرين والانصار ،

---

(١) ابن هشام ٣٤١ ـ ٤٤ ؛ ترقيم المقاطع حسب فنسنك *Mohammed en de joden* ٧٤ ـ ٨١ الا فيما يتعلق بالجملة الاخيرة من المقطع ١٩ التي وضعت في مطلع المقطع ٢٠ ، راجع ايضاً فلهوزن ج ٤ ، ٦٥ ـ ٨٣ وكايتاني ج ١ ، ٣٩١ ـ ٤٠٨ .

وادع فيه يهود وعـــاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمـــد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

١) انهم امة واحدة من دون الناس [١] .

٢) المهاجرون مـــن قريش على ربعتهم [٢] يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٣) وبنو عوف على ربعتهم يتعاقبون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين [٣] .

٤) وبنو الحرث عـــلى ربعتهم (حسب المقطع الثالث)

٥) وبنو ساعدة « « « « «

٦) وبنو جشم « « « « «

٧) وبنو النجار « « « « «

٨) وبنو عمرو بن عوف « « « «

٩) وبنو النبيت « « « « «

١٠) وبنو أوس « « « « «

---

(١) اي متميزين عن الناس ، ويمكن ان يعني ذلك اليهود ، ولكن هذا بعيد

(٢) يقول لين ان « على ربعتهم » تعني «حسب وضعهم الأول » ولا مجال للقول ان هـــذا اشارة الى « الربـــع» بل يعني امـــا ان كل جماعـــة تبقى منفصلة او انها تستمر في اتباع عاداتها . وينص البند على وجوب اتباع تقسيم عادل بـــين مختلف الجماعات داخل القبائل .

(٣) « على معاقلهم الأولى » اي « دفع الديات يجـــري حسب القوانين السائدة سابقاً » « بين المؤمنين » يمكن ان تعني استبعاد غير المؤمنين المنتمين لبني عوف .

١١) وان المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم وان يعطوه بالمعروف في فداء او عقل .

١٢) ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

١٣) وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى ، وسبقه ظلم أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وان أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .

١٤) ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن .

١٥) وان ذمة الله واحدة : يجير عليهم أدناهم ، وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

١٦) وان من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا تناصر عليهم .

١٧) وان سلم المؤمنين واحدة : لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

١٨) وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا[١] .

١٩) وان المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

٢٠) وانه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن .

---

(١) يمكن ان تطبق هذه الجملة على ركوب البعير ، راجع فلهوزن ، ابن هشام ٤٣٣ اوعلى اي واجب عسكري، راجع كايتاني،

٢١) وانه من اعتبط مؤمناً قتلا عن بينة فانه قود به الا ان يرضى ولي المقتول ، وان المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

٢٢) وانه لا يحل لمؤمن أقر بما في هـــذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ان ينصر محدثاً [١] ولا ياويه وانه من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

٢٣) وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده إلى الله وإلى محمد.

٢٤) وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٢٥) وان يهود بني عوف امة مع المؤمنين : لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وانفسهم إلا من أظلم واثم فانه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته

٢٦) وان ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف .

٢٧) وان ليهود بني الحرث مثل ما ليهود بني عوف .

٢٨) وان ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .

٢٩) وان ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف .

٣٠) وان ليهود بني الاوس « « « «

٣١) وان ليهود بني ثعلبة « « « « إلا من ظلم واثم فانه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

٣٢) وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

٣٣) وإن لبني الشطيبة [٢] مثل ما ليهود بني عوف وان البر دون الاثم

---

(١) المحدث اي الشخص الذي يحدث اضطراباً في الوضع القائم

(٢) فنسنك ٧٩ يذكر « بني الشطبة » راجع السمهودي ١٥١ .

٣٤) وان موالي ثعلبة كانفسهم .

٣٥) وان بطانة يهود كانفسهم[١] .

٣٦) وانه لايخرج منهم أحد إلا باذن محمد وانه لا ينجز على ثار جرح وانه من فتك بنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وان الله على ابر من هذا.

٣٧) وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم ، وانه لم ياثم امرؤ بحليفه وان النصر للمظلوم .

٣٨) وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٣٩) وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

٤٠) وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

٤١) وانه لا تجار حرمة إلا باذن أهلها .

٤٢) وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده فان مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله وان الله على اتقى ما في هذه الصحيفة وابره .

٤٣) وانه لاتجار قريش ولا من نصرها .

٤٤) وان بينهم النصر على من دهم يثرب .

٤٥) وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه فانهم يصالحونه ويلبسونه وانهم

---

(١) معنى بطانه غامض ، ربما تعني الذين تربطهم روابط وثيقـــة مع بعض يهود المدينة . وهذه روابط الصداقه وليس الدم . راجع قرآن ٣، ١١٤ - ١١٨ ابن هشام ٥١٩، ٤ ،الاغاني ح ١٧ ، ٥٦ ، ٢٢ . فنسنك ٧٨ يقول انها تعني العرب الذين انضموا لليهودقبل مجيء الاوس والخزرج

إذا دعوا إلى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين [1] إلا من حارب في الدين ، على كل اناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ٠

٤٦) وان يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هـــذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة، وان البر دون الاثم ٠

٤٧) لا يكسب كاسب الاعلى نفسه [2] ، وان الله على اصدق ما في هذه الصحيفة وابره وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وانه من خرج آمن و من قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم واثم وان الله جـــابر لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله ﷺ ٠

ب ـ صحة هذه الوثيقة ، تاريخها ، وحدتها

اعتبرت هذه الوثيقة عـــلى العموم صحيحة وإن لم يعط الاهمية التي يستحقها نص من هذا النوع ٠ ولقد عرض فلهوزن أسباب هذه الصحة [3] ٠ ولم يكن بامكان أي مزور في عصر الامويين أو العباسيين أن يضم غير المسلمين إلى الامة الأسلامية ، أو يحتفظ ببنود ضد قريش ويجعل لمحمد هذه المكانة المتواضعة ٠ كما ان اسلوب الوثيقة قديم وبعض تعابيرها كاستعمال كلمة « المؤمنين » للدلالة على المسلمين يرجع إلى الفترة الاولى المدنية .

---

(١) ربما يعني ذالك «هـــذا دين لهم على المؤمنين » (راجع ف . رايت « النحو العربي »
(٢) كمبردج١٨٩٦ – ٩٨ج٢١٦٩٢ أ او يعني « عليهم ان يحكموا دون الاهتمام بالمؤمنين»
(راجع نفس المرجع ١٧٢ أ
(٣) راجع قرآن، ١١١٠٤،ذكره فنسنك

ولقد جرى مع ذلك نقاش حول تاريخ الوثيقة وهل يجب تأريخها قبل معركة بدر أم بعدها ؟

يضعها فلهوزن قبل بدر ، بينما يضعها هدبير جريم [1] بعد بدر ويذكر الاسباب التالية : تدل الوظائف المنسوبة لمحمد في البندين ٢٣ و ٣٦ على ان سلطته كانت معترفاً بها على العموم ، ويبدو ان الاشارات إلى القتال في سبيل الله (بند ١٧ ، ١٩ ، ٤٥) • تعني ان القتال قد وقع ، الموقف المعادي من قريش لا يمكن أن يطلب من المؤمنين المدنيين إلا بعد بدر .

ويبرهن كايتاني [2] على أن هذه الحجج ليست مفحمة كما يظن جريم، ويعتقد انه من الافضل اتخاذ تاريخ سابق على بدر •

يفترض هذا النقاش حول تاريخ الوثيقة ان لها وحدة عامة • وهذه هي المسالة التي يجب بحثها قبل كل شيء •

هناك اسباب تحملنا على الاعتقاد بأن البنود (التي كتبت في اوقات مختلفة قد جمعت فيما بعد) [3] • ونجد في هذه البنود فروقاً لغوية • وهكذا يشار إلى المؤمنين بضمير الغائب «هم» وفي بعض الاحيان بالضمير «أنتم» وفي أحيـان اخرى « نحن » (راجع بند ٢٣، ١٦ ، ١٨) ويطلق عليهم في

---

(١) skizzen ج٤، ٨٠ ؛ كايتاني ح١، ٤٠٣

(٢) محمد ، مونستر ١٨٩٢ ،ج١، ٧٦

(٣) المرجع المذكور، ٤٠٤

(٤) ادين كثيرا بهـــذا الموضوع للمرحـــوم ريشارد بل الذي حملني على بحث هذه المسألة بالحاحه عليها اثناء محادثاتنا .

أغلب الاحيان اسم « المؤمنين » ما عـــدا في موضعين حيث يسمون « بالمسلمين » (بند٢٣ ، ٢٧) • وكذلك فان بعض البنود تكرار لبنود أخرى ، وتعالج نفس المسائل مع اختلاط بسيط • نجد في البندين٢٣،٤٢ أن محمداً يفصل في الخلافات و إن كان البند ٤٢ أدق ، والبندان ٢٠ ، ٤٣ موجهان ضد القرشيين • وما يقال عن اليهود في البندين ١٦،١٤ مشابه لما يقال في البندين ٣٧،١٨ ، كما أن البندين ٢٤،٣٨ متماثلان تماماً •

ويتحدث البندان ٣٠،٤٦ عن اليهود الذين كانوا قسما من الاوس • ولنلاحظ ان البنود المتشابهة لا تتتابع ، على غير ما ينتظر من بنود تعالج مختلف نواحي مسالة واحدة •

وهناك على العكس سلسلة تبدأ من ١٦ ــ ٣٠ ، وسلسلة اخرى من ٣٧ ــ ٤٦• تكفي هذه الملاحظات لتبرير الفكرة القائلة بأن هذه الوثيقة، كما هي الآن لاتحتوي على بنود كتبت في وقتين أو أوقات مختلفة

حتى إذا ما اقتنعنا بمثل هذه الامكانية ، عدنا إلى ما يقال لنا عـــن اليهود • اما ان يكون اليهود جزءاً من الامة فان هـــذه حجة خطيرة للقول بتاريخ سابق على بدر [١] ، كما ندهش لاغفـــال ذكر ثلاث قبائل كبرى • ونستطيع تفسير ذلـك بافتراض ان محمـداً صنف اليهود حسب القبائل العربية التي يعيشون على أراضيها ، فضم النضير وقريظة إلى يهود الاوس وثعلبة لانهم كانوا يقيمون بين أوس الله وثعلبة بن عمرو بن عوف [٢] • وهناك مع ذلك اسباب وجيهة للاعتقاد بأن القبائل الثلاث

---

(١) فلهوزن ، لنفس المرجع ٨٠ (٢) نفس المرجع ٧٥

اليهودية الرئيسية لا توجد في الوثيقة . ومن الممكن أن تكون شبه جملة « يهود بني عوف » تعني « اليهود الذين كانوا حلفاء هذه القبيلة » وقد أصبحت الجماعات اليهودية الصغيرة ، كيهود راتج [1] ، حلفاء القبيلة العربية التي تحيط بها ، غير أن النضير وقريظة كانتا تمتلكان أراضيهما الخاصة وأصبحتا في نهاية الامر حلفاء عبد الاشهل التي كانت تعيش بالقرب منها ، وكانت جزءاً من قبيلة النبيت التي لا تذكر في البنود ٢٥-٣٥ بين القبائل التي انضم اليها اليهود ثانياً . ويذكر ابن اسحق [2] قائمة بأسماء سبعة وستين يهوديا معارضين لمحمد ويوزعهم كما يلي :

١٢ من بني النضير
٣ » » ثعلبة بن فطيون
٣١ » » القينقاع
١٧ » » قريظة
١ » » زريق
١ » » الحارثة
١ » » اوس بن عوف
١ » » النجار

من الممكن إذن أن يهود بني ثعلبة في البند ٣١ هم الذين يذكرهم ابن اسحق والسمهودي ، على أنهم قبيلة يهودية وهذا يدل على أنه عرفت ، في

---

(١) راجع ما سبق ص ١٩١ ، ٣٣٣
(٢) ابن هشام ٣٥٠

وقت من الأوقات ، بعض الجماعات اليهودية الصغيرة ، باسم يهود «القبيلة العربية الفلانية ، أو القبيلة العربية الاخرى» .

ويبدو طبيعياً أن القبائل الثلاث اليهودية الرئيسية لم تذكر في هذه الوثيقة . وإذا كان الأمر كذلك فان الوثيقة في شكلها الحالي، يمكن أن ترجع للزمن الذي تلا إزالة قريظة. إليس غريباً أن تحاط قضايا اليهود بكل هذا الاهتمام في الوقت الذي كانوا فيه أقلية في المدينة ؟ يمكن أن نفسر ذلك إذا افترضنا ان الوثيقة في شكلها النهائي وضعت لتكون عهداً لليهود الذين بقوا في المدينة وانها كانت تحتوي على جميع البنود المتعلقة بهم الموجودة في صور دستور المدينة القديمة .

ويمكن إعادة تكوين تاريخ الوثيقة بصورة افتراضية على الشكل التالي:

أقدم البنود حتى البند ١٥ أو ١٦ (أو ١٩ أو ٢٣) يمكن أن تمثل نص اتفاق أصلي وقع بين محمد وقبائل المدينة في العقبة ، أو يمكن أن يكون قد أعدها النقباء بعيد الهجرة . وهي تعالج المشاكل التي أثارتها ضرورة المحافظة على السلم بين القبائل العربية . ثم اضيفت إلى هذه البنود بين وقت وآخر ، حسب الحاجة ، بنود جديدة ، كما حذفت البنود القديمة ، كالبنود المتعلقة بقريظة والنضير . وتعني كلمة « صحيفة »التي نجدها في البنود ٢٢ ـ ٤٧ وثيقة مكتوبة يرضى بها الفرقاء .

وتعني شبه جملة « أهل هذه الصحيفة اليهود والمسلمين معاً، وينتمي للوثيقة ، بالمعنى الذي أشرنا اليه البنود العديدة المتعلقة باليهود من ١٤ ـ ٣٥ (أو من ١٤ ـ ٣٨ وإذا أولنا البند ٣٦ على أنه يتعلق باليهود) . وربما

كان البند ١٦ جزءاً من المعاهدة التي وقعت في العقبة مع الأوس والخزرج، التي سبقت الاتفاق الرسمي الذي عقد مع اليهود في الصحيفة .

وإذا كان العلماء موافقين على مثل هذه النظريات حول نص دستور المدينة الموجود حالياً . فان هناك مسائل كثيرة لا تزال غامضة خاضعة للفرضيات . مثال : هل البند ٤٤ هو صيغة اولى للموضوع الموجود وسط البند ٣٧ ؟ هل أعطي يهود بني عوف مكانة خاصة لأن عبد الله بن أبي كان في الماضي قد استطاع الحصول لهم على شروط مناسبة ؟ لماذا يذكر يهود بني الاوس مرتين ؟ هل بنو الاوس هؤلاء وبنو الاوس في البند ٣٠ هم نفس بني الاوس في البند ١٠ (الذين يعرفون باسم أوس الله) ام أن الحديث عن قبيلة بني الاوس جمعاء .

ليس هنا موضع التمادي في البحث إلى أبعد من ذلك . وتكفي دراستنا الحالية لنص الدستور لتبرير استخدامنا له ، فهو المصدر الذي نجد فيه النظريات الفكرية التي كانت أساس الدولة الاسلامية في السنوات الاولى من تكوينها كما تدلنا هذه الدراسة على انه لا يجب إقامة النقاش على تاريخ بند من بنود الدستور فقط .

٢ ـ مكانة محمد في المدينة

ليس دستور المدينة دليلا صادقاً على مكانة النبي حين وصوله إلى المدينة في أيلول سنة ٦٢٢ (١/٣) غير ان سلطاته ، كما يحددها الدستور ليست واسعة ولا بد انها كانت أضيق في مطلع إقامته في المدينة . والشيء

الوحيـد الذي يقرره الدستور صراحة هو أن جميع الخلافات يجب أن تعرض على محمد (البندان ٢٣، ٤٢) . وتظهر شبه جملة « محمد النبي» في المطلع. كما أن وضع المهاجرين على قدم المساواة مع إحدى قبائل المدينة، يعني أن محمداً، كزعيم للمهاجرين، كان مساوياً لزعماء مختلف القبائل . ولما كان المهاجرون مذكورين قبل غيرهم فلربما كان لمحمد أوليـــة شرفية بين زعماء القبائل . ومع ذلـك لم يكن النبي رئيس دولة او توقراطية . فهو ليس سوى شخصية مهمة بين شخصيات أخرى . وربما كان لعدد مـن الشخصيات، في السنة الاولى التي قضاها محمد في المدينة، نفوذ أعظم من نفوذ محمد . والبند الذي يقول بعرض جميع الخلافات على النبي لم يكن هدفه زيادة سلطانه إلا إذا كان له من الحس السليم والدبلوماسية ليجد التسوية التي تؤدي إلى اتفاق عام .

وتدل عدة حوادث وقعت في النصف الاول من الفترة المدنية على ضعف المكانة التي كان يحتلها محمد . بعد «حديث الافك» الذي تعرض لعفة عـائشة وحيث أظهر ابن أبي رغبته في نشر النميمة ، لم يستطع محمد التعرض مباشرة لابن ابي ، فكان علـــيه أن يجمع الانصار ويطلب الاذن بملاحقة ابن ابي من اولئك الذين ربما خيل اليهم ضرورة الثار لكل إهانة تلحق بابن أبي ، وقد نال محمد ما يريد سواء بالصدفة أو الحيلة ، لأن كراهيته للاوس والخزرج كانت محتـدمة ، ولأن افول نجم ابن ابي بـدا واضحاً[1] .

---

(١) راجع ما سبق ص ٢٢٤

وكذلك حين عرضت مشكلة معاقبة قريظة على خيانتها لم يغامر محمد في إصدار أي حكم بنفسه، فلو انه قرر سفك دماء قريظة لدعا الشرف بعض حلفاء اليهود، ولو كانوا مسلمين، إلى الثار لهم، ولهذا ترك تقرير العقوبة إلى زعيم القبيلة التي كانت قريظة حليفة لها.

تلك أمثلة واضحة تدل على مدى سلطة محمد. وليست تلك أمثلة فريدة. إذ ان كل تاريخ نضال محمد ضد اليهود يقوم على وجود أساس من العلاقات القبلية ويطلعنا على انه يجب أن يحسب حساب هذه العلاقات عند اختيار الوسطاء [٢]. ويبدو محمد زعيم جماعة من الجماعات العديدة المتضامنة للقيام بعمل مشترك، ولا شيء سوى القليل يميز النبي عن سائر الزعماء.

أما الدعوة لوجوب حمل جميع الخلافات إلى محمد فان لها علاقات متينة بالاعتراف به نبياً. ويقول نص دستور المدينة بأن الخلافات ردها (إلى الله وإلى محمد) ويعبر القرآن عن الفكرة القائلة بأن من وظائف النبي أن يقيم العدالة «ولكل امة رسول، فاذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون» [٣].

وهذا فضل أدركه أهل المدينة حين اعترفوا بمحمد نبياً، وكان جزءاً من ميلهم إليه أملهم بانه يستطيع وضع حد للمنازعات الداخلية التي جعلت الحياة لا تحتمل في المدينة [٤].

(١) راجع مما سبق ٢٦٠ (٢) راجع مما سبق ٢٢٠–٢١
(٣) قرآن ١٠، ٤٨ (٤) راجع نولدكه، تاريخ القرآن، طبعة شفالي، ليبزغ ١٩٠٩، ج١ ص ١٦٥

وإذا كان أهل المدينة حين قبلوا محمداً نبياً لهم ، وحين نظموا مجيئه إلى مدينتهم ، لم يعترفوا له صراحة بحقه في أن يحكم بينهم ، فانهم لم يعتموا ان قبلوا ذلك بالقوة فقد نزل الوحي يأمره بالرجوع إلى الله في كل الخلافات [1] . يعني ذلك أن كل خلاف سيقضي فيه بواسطة وحي خاص يوحي به الله إلى محمد . وكان محمد في الواقع ، ينظر اليه بدون شك ، على انه يعلم أفضل من أي إنسان آخر ، حكم الله في أمر لا يتطلب وحياً خاصاً . وكلمات مطلع هذه الآية : « وما اختلفتم فيه من شيء » مماثلة لكلمات البند ٢٣ من دستور المدينة ، مما يحملنا على الاعتقاد بوجود علاقة متينة بين النصين ، والجملة غامضة يمكن أن تطبق على الخلافات السياسية ذات النتائج الواسعة كما تطبق على المنازعات الصغيرة بين الجيران .

نعرف الآن مكانة محمد كما تظهر من ألفاظ الدستور ومن تاريخ سنواته الاولى في المدينة . فالى أي حد تحددت هذه المكانة بموجب اتفاقية العقبة؟ من المستحيل الاجابة على ذلك ، وتتبع بيعة النساء نص آية قرآنية نزلت بعد الحديبية ولا يمكن قبولها على انها وعد وعد به محمد [2]

وتقول الرواية التقليدية عن اتفاقية العقبة الثانية انه وقعت فيها بيعة ثانية هي بيعة الحرب . ونجد في رواية ابن اسحاق ان الكلمات المهمة هي التي قالها البراء بن معروز : « والذي بعثك بالحق لنمنعك مما

(١) قرآن ٢،٤٢ ٨ــ ٠،١٠ ٤،٩ ٥ــ ٦٢،٢٤ ٦٢،٤ ٤ــ ٤٧،١ ٥١ــ ٥٢
(٢) قرآن ٦٠،١٢، ابن هشام ٢٨٩ ، محمد في مكة ١٤٦ ، ج.م شترن في *Bulletin of the school of oriental studies* ١٠،١٨٥ــ١٩٧

نمنع به أزرنا » .

ولا نجد في المحالفة بين محمد وأهل المدينة ، عدا الاشارة إلى نبوة محمد ، ما ينبيء بانها تختلف عن أية محالفة أخرى . ونستطيع أن نقول نفس الشيء عن جواب محمد على سؤال حول إمكانية نزول الوحي بامره بالعودة إلى مكة . وقد أجاب محمد بأن أهل المدينة ينتمون إليه وانه ينتمي إليهم ، وانه يحارب من يحاربه أهل المدينة ويسالم من يسالمه أهل المدينة . ولكن الامر هنا يتعلق بمحالفة عسكرية ولا تطلعنا هذه الرواية على مكانة محمد في حياة المدينة ، إلا فيما يتعلق بالاعتراف بنبوته . ويمكن أن يكون محمد قد اكتفى حتى وصوله إلى المدينة بأن ينظر إليه على انه نبي وانه لم يطالب باي امتياز آخر (إلا ان يكون هناك شيء ضمني في طلبه النقباء الذين يستطيع التفاوض معهم) . وقد أصبح محمد ، منذ اللحظة التي اعترف فيها بنبوته ، يملك الاساس الذي يستطيع أن يقيم عليه سلطته [١] .

وأغرب ناحية في مكانة محمد خلال إقامته في المدينة هي الناحية العسكرية و « بيعة الحرب » لا تتحدث إلا عن العمل الدفاعي ولا تتحدث عن عمليات هجومية ، كما لا نقول في حالة الدفاع ، من يتولى القيادة .

ولقد حدث أن كانت الغزوات الاولى هجومية ، وكانت تخرج من المدينة على أمل أن تنصب كميناً لبعض القوافل المكية . وليس أكيداً أن

---

(١) أ.أ. ايفنس برتشارد *The Sanusi of cyrenaicor* ١٩٤٩ ص٥٩

أهل المدينة قاموا بدور في هذه الغارات ولكن يمكن أن يكونوا اشتركوا فيها[1] .

وعلى كل حال فقد كان « الزعيم او القائد » اما محمداً او احد المهاجرين وقد عينه محمد . وإذا كان الحال كذلك فليس سبب ذلك اتفاق شفهي بوكل قيادة الحرب للمهاجرين . بل لأن منظمي هذه الغزوات كانوا المهاجرين بينما كان الانصار يكتفون بالانضمام إليهم ، ويذكر أن محمداً استعان بالمتطوعين[2] خلال غزوة العشيرة ، ولما كانت هذه الغزوات مجرد غارات هدفها الحصول على الغنائم دون المخاطرة الشديدة فلم يعتقد اهل المدينة انهم بذلك يتعرضون لردة عنيفة ضد المدينة كالتي قام بها اهل مكة في احد . ويبدو ان محمداً بذل جهده لجمع رجال يخوض بهم معركة بدر . ولكن يبدو انهم لم يلبوا جميعهم نداءه حتى بين الذين كانوا يؤمنون بنبوته . ويقال بأن الذين لم ينضموا إلى محمد لم ينلهم أي تأنيب . ويبدو أن محمداً جمع الـ ٣٠٠ رجل عن طريق مجرد الدعوة أو التشجيع .

وقد وزع فيء بدر ، كما يبدو ، حسب رأي محمد . وهذا مايؤيد الرأي القائل بأنها كانت غزوة شخصية نظمها محمد ودعا الآخرين للاشتراك فيها . ويقال بانه ، قبل المعركة ، وعد بمكافأة الذين يقتلون عدواً أو ياسرونه ، وبعد أن وفى بوعده (واحتفظ ببعض الفيء لاستهلاكه الشخصي) وزع الباقي بالتساوي على المشتركين . وربما أحس محمد فيما بعد

---

(١) راجع ما سبق ص ٩٥

(٢) الواقدي ٣٤

ان هذه الطريقة في القتال وتوزيع الغنائم ليست حكيمة أو ان اصداء بدر في المدينة حتمت اجراء تغييرات . ومهما كان الأمر ، فقد قرر أثناء القيام بالغزوة ضد قينقاع ، في الشهر الذي تلا بدراً ، ان خمس الغنائم التي تؤخذ في غزوة من الغزوات من نصيب محمد . وهذا التغيير يعني حدوث تغييرات أخرى كثيرة . وأولها الاعتراف بمحمد أنه قائد الامة . وكان من عادة العرب في شبه الجزيرة العربية أن يأخذ شيخ القبيلة ربع الغنيمة وذلك لاستهلاكه الخاص ولكي يستطيع القيام ببعض المهمات باسم القبيلة كمساعدة الفقراء وقرى الضيف[1] واستبدال الخمس بالربع يدل على الفرق بين زعيم أمة وزعيم قبيلة ، أما الآية التي تقرر ان خمس الغنيمة لمحمد[2] (ربما نزل الوحي بها رأساً بعد بدر) فهي تشير إلى ان هذا الخمس يجب أن يستعمل جزء منه لخير الامة .

تدل هذه التفاصيل والاعتراف بمحمد كزعيم للامة على أن النبي قد نجح في إقناع غالبية الامة بانه يجب قبول نتائج بدر . فقد أدرك الجميع في المدينة ان اهالي مكة سيحاولون الثار لهذه الهزيمة ، كما رأى ذوو النظر البعيد ، انه ليس من السهل التغلب على أهالي مكة مرة ثانية . وقدقرر الانصار بجموعهم ، بالرغم من المستقبل الخطر ، تاييد محمد بكل قوة ، ونزل الوحي ليشد من أزرهم ويحثهم على مقاتلة أهالي مكة ، حتى لا

---

(١) ابو تمام ، الحماسة ، طبعه ج ، فريتاج ، بون ١٨٢٨ - ٤٧، ج ١، ٢٠ ، ٤٥٨ ، اغاني ١٦٠، ٢٥٠ لين ج. بهل ، محمد ٥٣١

(٢) قرآن : ٨، ١٤ ، لامنس ، مكه ، ١٥٣-٢٤٩

تكون فتنة ويكون الدين كله لله »[1] .

وهذا الوقت هو الوقت الذي يمكن أن تكون كتبت فيه بنود دستور المدينة الموجهة ضد قريش وغيرها من البنود التي تظهر وحدة الامة سواء في الحرب أم في السلم ، وانه لمن العسير أن نرى الأنصار يقبلون مثل هذه البنود في وقت سابق حين لم تكن القطيعة قد حدثت مع مكة .

وقد لقي محمد في المدينة بعض المقاومة ، وقام ابن ابي بدون شك بدور مهم فيها ، ويدل اعتراض اتباع ابن ابي وقولهم: (لولا نزلت سورة) على أنهم كانوا مستعدين للعمل بعد نزول الوحي الالهي ولكن ليس بعد كلام محمد فقط . ولكن «فإذا نزلت سورة محكمة» لم يذهب ترددهم[2] .

ولا شك أن الفترة الممتدة بين بدر وحصار المدينة كانت مفعمة بالصعوبات التي اعترضت محمداً حين كان يحاول تثبيت سلطته على المدينة . وتتردد كلمات « أطيعوا الله والرسول » وغيرها من كلمات التوبيخ ، أكثر من أربعين مرة في القرآن . ويمكن أن يكون تاريخ نزولها الأشهر التي سبقت احدا او تلتها .

ويوجد في القرآن سلسلة من القصص تتعلق بأنبياء جاءوا قبل محمد حيث نسمعهم يقولون « فاتقوا الله ، وأطيعون »[3] . ونجد بعض الايات « من يطع الله ورسوله يدخله (الله) جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها »[4] . « ومن يعص الله ورسوله . . يدخله ناراً خالداً

(١) قرآن : ٣٩،٨ ربما يرجع تاريخ الآية ٤ من السورة ٣٧ إلى ما بعد بدر إذا قبلنا بأن معارك بدر كانت غير مبيتة . (٢) قرآن : ٢٢،٤٧ ، راجع ما سبق ص ٢٢٤

(٣) قرآن : ١٠٨،٢٦ – ٧٩ ، نجد ثمانية أمثلة على ذلك يرجع تاريخ نزولها للمدينة (حسب بل) راجع ٣٦،٤٣ ،٣،٧١ : ٤٤ – ٥٠ (٤) قرآن : ١٣،٤ – ١٧

فيها »[1] . ويتحدث القرآن في مواضع أخرى عن الانفال [2] وتحريم الخمر والميسر [3] . وليس لهذه الآيات علاقة خاصة باحد . ويبدو أن بعض الآيات ترجع لعهد لاحق [4] . ويشير الكثير منها إلى المعارضة التي لقيتها سياسة محمد بعد بدر عامة [5] أو في بعض النواحي كالنضال ضد أهل مكة ، أو تحكيم محمد في الخلافات [6] .

نرى من ذلك ، أنه أصبح من الضروري ، بالنسبة لمحمد ،أن يحدد موقفه بصورة واضحة ، مع أن الآيات التي أشرنا اليها تحض ولا تامر . ولا يوجب دستور المدينة الطاعة ، ولم يستحق ابن أبي وأتباعه التوبيخ بعد أحد لعصيانهم بل لتخاذلهم .

وعلينا أن نستخلص ان الطاعة الكاملة لمحمد ، في هذا الوقت (التي تختلف عن طاعة أمر من أوامر القرآن) لم تكن واجبة صراحة.

واستمر الحال كذلك حتى غزوة الحديبية في آذار ٦٢٨ (٦/١١) . وقد نزل العقاب بأبي لبابة في أيار ٦٢٧ (٥/١٢) ليس على يد محمد بل على يد أبي لبابة نفسه ، ويبدو انه اخلي سبيله بامر صدر عن محمد اثروحي نزل عليه (وان لم نجد آية من القرآن تنطبق على حالته) .

من الممكن إذن أن تكون « بيعة الرضوان » تقوم ، كما اقترحنا

---

(١) قرآن : ٦٦،٣٣ (٢) قرآن : ٢،٨ هذه الاية نزلت بالتأكيد تقريباً في بدر . راجع حول الانفال الطبرى تفسير ج ٩،٦٠١٠-١٢

(٣) : قرآن ٩١،٥-٩٣ (٤) قرآن : ٧١،٩-٧٢،٧٤،٦١،٩٤،١٤

(٥) قرآن : ٥٣،٢٤، ٣،٢٩-٣٧،راجع ٤،٥٨٠-٨٢ الخ .

(٦) ابن سعد ج ٣ ٢،١١٢ ، راجع الواقدي ٢٢٨

سابقا ، على قسم بتنفيذ كل ما يامر به محمد ، أي بطاعة محمد . ولا نتبين بوضوح ما إذا كانت هذه الطاعة واجبة على جميع المسلمين أو من الذين اقسموا فقط ، ولكن إذا كان الذين لم يقسموا لم يطالبوا ، فترة من الزمن ، بطاعة محمد ، فانه بدا من الصعب عليه معارضة محمد ـ فقد أخذت سلطته بالازدياد ، حتى إذا ما حاولت القبائل ، التي يعرف ضعفها مخالفته ، كان يطلب منها الوعد بالطاعة مقابل ذلك ، وتؤنب آية من القرآن الذين يعترضون على قرارات محمد (سورة الاحلاف آية ٣٦) وهي ترجع لسنة ٦٢٨ ، ومعظم السورة من سنة ٦٢٧ (السنة الخامسة أو السادسة من الهجرة) ولكن ريشارد بل يرى أن الآية ٣٦ أضيفت فيا بعد [١] .

وهناك أمر كان بإمكانه أن يطلعنا على مدى سلطة محمد بعد الحديبية ، وهذا الامر لا يزال لسوء الحظ غامضاً . إذ يقال أن محمداً سال بعض أفراد قبيلة سلمة المدنية : « من سيدكم » ؟ فاجابوا ، « الجدبن قيس » فقال محمد : « كلا ، بل بشر بن البراء بن معرور » . ربما كانت تلك إقالة لسيد القبيلة ، أو دعوة للقبائل الموالية إلى إقالة الجد ، كما أنها يمكن أن تكون مدحاً لبشر . وإن كانت تلك طريقة غريبة لاقالة سيد قبيلة رسمياً ، فمن المقبول أن يكون ذلك الذي حدث . وإذا كان كذلك فقد كانت تلك وسيلة لمحمد لممارسة سلطته التي كانت مطابقة

---

(١) تفسير ابن سعد ٢،٣،٢،١١٢ ، راجع الواقدي ٢٤٨

« لبيعة الرضوان » ولهذه الحادثة ، في الواقع ، علاقة متينة بالبيعة المشهورة ، وقد جرت تقريباً رأساً بعدها . كان الجد في الحديبية الوحيد من جانب محمد ، الذي رفض البيعة « بينما كان بشر ، على العكس ، اهلا لأن يكون سيد القبيلة ، لأنه كان ابن البراء بن معرور ، سيد سلمة ، وكان أول من انضم « لبيعة الحرب » في العقبة ، ولكنه لم يلبث أن توفي أيام الهجرة . فقد أكل سمكاً مسموماً في خيبر بعد شهرين من الحديبية . ونستطيع القول أن تلك كانت طريقة محمد لتأكيد سلطته الاوتوقراطية ، ولهذا يمكن لهذا الحادث أن يكون وقع بعد البيعة في الحديبية مباشرة .

وإذا لم يكن سوى إنذار موجه إلى شيوخ القبائل الموالين فانه مثال مفيد على الطريقة التي كان يستعملها محمد لفرض قراره الذي يراه ضرورياً حين لا يستطيع التمسك بسلطة مقدسة .

وتدل حادثة أخرى ترجع إلى مطلع سنة ٦٣١ (السنة ٩ من الهجرة) ان محمداً في ذلك الوقت عرف كيف يجعلهم يطيعونه . حين تمنع كعب بن مالك ورجلان آخران ، بدون عذر معقول ، من الاشتراك في غزوة تبوك ، قاطعهم المسلمون ، وكان ذلك اثر امر صدر عن محمد . ومن المفيد أن نلاحظ بهذا الصدد أن محمداً ألح على انه إذا رفعت العقوبة فليس بأمره ولكن بأمر الله (راجع حول هذا الموضوع السورة ٩ الآية ١١٨)[١] .

وربما كان حرمان المنافقين (من الانتماء للامة الاسلامية) في ذلك

(١) ابن هشام ٩٠٧، ٢١٣ الواقدي ٤١١ – ٤١٤

الوقت بوحي إلهي وليس بأمر صدر عن محمد [1] .

وترجع المعاهدات والرسائل التي نقلها الينا ابن سعد (١/٢) إلى الفترة الأخيرة من حياة محمد ،فليس من المدهش إذن أن نجد فيها اسم النبي مقروناً باسم الله في مثل هذه الجمل « ذمة الله وذمة محمد بن عبد الله » أو «آمن بامان الله وأمان محمد » [2] .

ولا نجد ، إلا في بعض الوثائق النادرة ، طلب الطاعة لمحمد ، وإن كان ذلك ضمنياً [3] . وتؤكد النصوص الموجودة ، إذن ، الرأي القائل بأن محمداً أيام فتح مكة ، كان يتصرف كانه سيد الامة الاسلامية غير المنازع في الشؤون السياسية والدينية . وإذا كان محمد قد كتب رسائل إلى رؤساء الدول المجاورة (وإن كان نص الرسائل غير صحيح) فذلك لأنه أدرك حينئذ انه سيطر على كل معارضة جدية [4] . وربما لأن استعمال لقب «محمد النبي » أو رسول الله يفترض حسب العادة الجاهلية ، الحق في القيام بدور الزعيم السياسي [5] .

ويظهر مدى سلطة محمد الاوتوقراطية ، خلال السنتين أو الثلاث سنوات الاخيرة من حياته ، أيضاً من تسميته « العمال » الذين يحلون محله في مختلف المناسبات ، كما تظهر هذه السلطة في مجموع التسميات الادارية. فقد سمى محمد منذ البداية عدداً من الشخصيات التي تقوم مكانه ببعض

---

(١) راجع ما سبق ص ٢٣٠ (٢) ابن سعد ٢، ١، ٢٣، ٢٦، ٢٤، ٢

(٣) نفس المرجع ٢٣، ١٠ (٤) راجع ما سبق ص ٥٨

(٥) راجع ج . ريكمان « الملكية في شبه الجزيرة الجنوبية في الجاهلية » ٣٢٧ ـــ ٩ تظهر نقوش أهمية لقب الملك وفخامة الاحتفالات التي تتبعه ، .

المهمات التي كان مسؤولا عنهـــا . وهكذا كان يعين القواد العسكريين للغزوات التي لا يحضرها شخصياً .

ربما ظل الحال كذلك، حتى بدر ، فيما يتعلق بقيادة المهاجرين ولكنه في الاخير أخذ يتصرف باسم مجموع الامة الاسلامية لانه كان يختار بعض القواد من بين الانصار او حتى من بين القبائل البدوية [1] . وكان يحدث أن يسمح لرجل ، يحقد على عدو لمحمد ، بتنظيم غزوة باسم الامة. وكان يوافق هذا الزعيم على ان يدفع لمحمد خمس الغنيمة . ويبدو أن عيينة قاد مثل هذه الغزوة ضد تميم قبل أن يسلم [2] .

وهناك تعيين الشخص الذي ينوب عن محمد في الوقت الذي يغيب فيه عن المدينة . وقد وجد خلال غزوة بدر ممثل آخر عن ضواحي قباء، وربما كان ذلك لان هذه المنطقة كانت في غالبيتها غير مسلمة [3] ، وهناك تعيين المشرفين عـــلى الغنائم والاسرى [4] . وكان جميع هؤلاء العمال يمارسون سلطاتهم في الميادين التي اعترف لمحمد بتدبيرهـــا . ويقول الدستور (بند ٣٦) بأن الغزوات الحربية لا ترسل إلا بموافقة محمد .

وكلما اتسع نفوذ محمد كلما مست الحاجة لوظائف جديدة . وهكذا بعد توزيع مغانم خيبر أصبح من الضروري تعيين موظف لتقدير نصف

---

(١) مثلا : محمد بن مسلم ، غالب بن عبد الله الليثي .
(٢) ابن هشام ٩٢٣ – ٣٨ ، راجع ما سبق ص ١١٦
(٣) عاصم بن عدي ، ابن سعد ٢، ٣٦٠٣ . الواقدي ٦٦ . ابن هشام ٤٩٤
(٤) عبد الله بن كعب المازني كان عامل المغانم في بدر ، راجع ابن هشام ٤٥٧ . الواقدي ٧٠ . ابن سعد ٢، ٧٣٠٣ ، بديل بن ورقة (خزاعة) عين مشرفاً على الاسرى بعد حنين . الواقدي ٣٦٨ .

الحاصيل السنوية واستيفائها [1] وتقول النصوص بانـــه عين حكام للمستعمرات اليهودية المجاورة لوادي القرى وتيماء [2].

وكان محمد في علاقاته مع القبائل المجاورة للمدينة يستعمل وجهاء القبيلة ، إذا كانوا على استعداد للتعاون معه .

وكان من الوظائف الاولى التي أسندت اليهم دعوة رجال القبيلة إلى الاشتراك في الغزوات التي ينظمها محمد كالغزوة ضد مكة وتبوك [3]. وكان الذين يرسلون النداء لحمل السلاح ، غالباً ، هم الذين يقودونـه في ساحة القتال [4]. كما كان يستعين بهؤلاء الوجهاء لجمع الصدقة ، أو كان يعين من يراه أكفأ للقيام بهذه المهمة [5]. وهذا ما حدث للقبائل اسلم ، جهينة وكعب ، فقد قام جامع الصدقة في أسلم بجمعها من قريبتها جفار .

وأرسل إلى بعض القبائل التي لم تتصل بمحمد منـــذ زمن طويل جامعون للصدقـة مـــن قريش والأنصار ، كما حدث لسُليم ، فزارة ، والمصطلق . وربما كان لارسال الضاري إلى مزينة سبب آخر لأنه كان ينتمي للاوس ، وكان بذلك حليفاً قديماً لهم . والسبب في ذلك انه لم يكن يوجد في مزينة أي رجل يستطيع تحمل هـــذه المسؤولية ، حتى ان سيد القبيلة بلال بن الحارث أسندت إليه مهمة إعداد المراعي لخيول محمد [6] ،

---

(١) عبد الله بن رواحة ، ابن هشام ١٧٧ ، الواقدي ٢٨٦

(٢) عمرو بن سعيد بن العاص ويزيد بن ابي سفيان ، راجع كايتاني ج ٢ ، ٥٠ (البلاذري ٣٤) اليعقوبي ج٢ ، ٨١ حيث يقول بأن عمراً كان يحكم قرى عربية .

(٣) الواقدي ٣٢٦ ، ٣٩١ (٤) الواقدي ٣٥٨ (٥) الواقدي ٢٨٥

(٦) « ١٨٤ راجع فقر عمر بن عوف المزني ، الواقدي ٣٩٢

وهي مهمة وضيعة. تصور لنا هذه الوقائع محمداً وهو يستعمل أذكى رجال القبائل الصديقة وكانوا يتمتعون في قبائلهم باحترام كبير، كما كان يرسل للقبائل الاخرى ممثلين عنه معترف بكفاءاتهم الادارية سواء كانوا من مكة أو المدينة.

وكانت أقوى قبائل الوسط والشمال الشرقي من شبه الجزيرة، تفاوض محمداً عن طريق أسيادها أو بواسطة رجال يطمحون للسيادة، كلما سعت للتحالف معه. ومن الممكن أن لا تكون هذه القبائل قد ساعدت على ملء خزان محمد. ولهذا لم يكن يحسب حساب الضرائب التي تدفعها وكان شيخ القبيلة هو الذي يتحمل مسؤولية جمع الصدقة. ولم يكن بالامكان إقامة نظام إداري إلا في الوسط الشرقي وفي الجنوب الغربي من شبه الجزيرة. وكان على محمد أن يهتم في هذه المناطق، بشؤون عدد كبير من الجماعات الصغيرة المختلفة، منها ما كان موالياً له ومنها ما كان عدواً، وكان يستعمل الشخصيات المهمة التي يجدها أمامه. ولكنه كان يفضل في أغلب الأحيان استعمال «عمال» من مكة أو المدينة. ويبدو ان بعض هؤلاء كان مسؤولا عن الأمن، وجمع الاموال، كل في منطقة معينة.

وقد كلف أحدهم، على الأقل، وهو معاذ بن جبل، بمهمة في اليمن وحضرموت في مناطق تخص عمالا آخرين، وكانت هذه المهمات تقوم على اطلاع القبائل على تعاليم الدين الاسلامي، واستيفاء الصدقة في بعض البلاد غير انه لا يذكر انها تتعلق بالاشراف على العمال المحليين [1].

---

(١) طبري ١٨٥٢، ابن سعد ٢،١٦٢ ٢٠

وكان هؤلاء العمال ، أثناء حروب الردة ، يقودون الجيوش التي جاء قسم منها ، على الاقل ، من المدينة . ولم يكن لعمال محمد ، قبل الردة ، أي سند عسكري ما عدا اثني عشر جندياً أو عشرين من مواطنيهم من المدينة أو مكة . وإذا مست الحاجة استعانوا بالحزب الموالي للمدينة في كل منطقة .

وكان لمكة نظام خاص، كما لاحظنا ذلك سابقاً ، فقد عين محمد مندوباً عنه شاباً من قبيلة عبد شمس هو عتاب بن أسيد، وسنحاول أن نكتشف المهمات التي كلف بها حقيقة [1] . وتشير المصادر إلى وظائف أقل أهمية في مكة كتفتيش الاسواق ، وتحديد المنطقة الحرام ، وهناك موظف ثالث لم تحدد مهمته [2] .

تدل تعيينات محمد الادارية على طبيعة سلطته ومدى اتساعها، ومحمد ، نظرياً ، ليس سوى الحليف الرئيسي بين عدد من الحلفاء الانداد . وتأتي أفضليته من نبوته ، ولأن كثيرين من حلفائه قرروا إطاعته . والرجال الذين يرسلهم للقيام بمهمة أو أخرى ، ليسوا موظفي إدارة أغفالا بل هم « عمال » محمد ، وهم ينفذون ما يسمح لهم بتنفيذه ، أو ما يسمح له نفوذه الشخصي بتنفيذه . ولا شك ان عمال النبي كانوا ينفذون عن طريق الاقناع وليس التهديد . وكان نفوذ محمد الشخصي يبدو لمعاصريه كالاسمنت

---

(١) راجع مما سبق ص ٦٩

(٢) سعيد بن سعيد بن العاص (راجع ابن حجر العسقلاني الاصابة، كلكوتا ١٨٥٦ ج٢، رقم ٥٠٨٣ ، اسيد ج٢، ٣٠٩ راجع ابن هشام ٨٧٥ (قتل في الطائف) . تميم بن اسد الخزاعي ، الواقدي ٣٤١ . الحارث بن نوفل (ابن سعد ١، ٤، ٣٩) .

يشد البنيان بعضه لبعض . ومع ذلك فقد كان هذا البنيان أمتن مما يظهر ، وأقل تعلقاً ، مما يظن ، بشخصية النبي . ولقد برهنت الاحداث التالية على ان هذا البنيان كان يملك في نفسه ما يمكنه من التحول إلى إدارة إمبراطورية .

٣ ـ مَلامح الأُمّة

كانت أفكار العرب السياسية تدور ، أيام محمد ، حول التنظيم القبلي وكانت القبيلة جماعة قائمة على القرابة ، وان تغير هذا العنصر الاساسي بصور مختلفة في الواقع .

وكان بامكان عدد من القبائل تكوين محالفة ، كانت غالباً لتحقيق أهداف محددة كالنضال ضد محالفة أخرى . كما كان بامكان فرد من القبيلة أو العائلة ، لأسباب عملية ، أن يصبح عضواً في قبيلة أخرى « كحليف » أو « جار » أو « مولى » . ولم تكن هذه التحولات ، تقلل من شان الفكرة السائدة عن القبيلة . كانت القبيلة اساس ما يمكن أن تأمله الجماعة من ناحية الامن .

وكان انتماء الانسان للقبيلة ، هو الذي يجعل الحياة ممكنة ، ولهذا كانت القبيلة ، مقابل ذلك ، تطالبه بالولاء التام . وكانت القبائل الرئيسية تؤلف وحدات سياسية سيدة مستقلة . وكان العرب على اطلاع سطحي على الامبراطوربات البيزنطية والحبشية والفارسية ، وكانت تراودهم أفكار غامضة عن الملكية ، وكانت هذه

الصورة من الحكم ، غـــير محببة إلى نفوسهم [١] . وظلت نظرياتهم السياسية لا تتبدل : فكانوا يتصورون الامبراطوريات بأن يطلقوا عليها الفاظ النظام القبلي الخاص . مثال في رواية خبر رسالة محمد إلى هرقليوس ينظر اليه على انه شيخ قبيلة عربية [٢] . وهكذا لا ننسى في دراستنا لملامح الدولة والامة اللتين أوجدهما محمد ، موضوع بحثنا الا وهو إلى أي حد تشبه الامة القبيلة ثم إلى أي حد تختلف عنها [٣] .

الفرق البديهي بين الامة والقبيلة هو أن الامة تقوم على الدين بينما تقوم القبيلة على القرابة ولا نجد هذه الفكرة في أية نظريـــة ولكنها فكرة ضمنية كامنة .

كانت هذة الفكرة وراء استقبال الانصار لمحمد على انه رسول الله . وإذا كان محمد حقاً رسولا فذلك لأنه يوجد رسالة ، وفكرة الرسالة تتضمن ان الله هو الذي يصدر اوامره توجيهاته للامة في حياتها اليومية . ومحمـــد ، في كثير من الحالات ، لا يتصرف بموجب إلهامـــه الشخصي بل هو يعلن أوامر الله . وكان ينظر في دستور المدينة (بند١٥) إلى الامن الذي يتمتع به أفراد الامة ، وسائر الجماعات المرتبطة بها ، على انه نتيجة لذمة الله ، والذمة هي الميثاق المعقود مع الله والضمانة التي يعطيها لعباده . ونجد في المعاهدات والرسائل التي جمعها ابن سعد ان اسم الله يذكر مقرونـــاً باسم محمد . كما تمنح ذمة الله ومحمد إلى عدد مـــن

---

(١) راجع : محمد في مكة ، كذلك راجع ركان : المرجع المذكور .
(٢) ابن سعد ٢، ١، ١٦ (مقطع ٢) (٣) راجع برترام توماس ، العرب ، لندن١٩٣٧

الجماعات [١] ، كما يقال عن البعض انهم يملكون أمان الله ومحمد [٢] . بينما البعض الآخر ،وكلهم مسيحيون كمايبدو، لا يملكون سوى جوار الله وذمة الله [٣] . وقد استمر هذا الاستعمال في بعض الاوساط فعرف مال الدولة « بمال الله » [٤] .

ليست هذه النظرية للمجتمع التيوقراطي مستوحاة من العهد القديم، بل هي من صنع عربي مستقل صيغت من بعض الافكار الاساسية المستقاة من العهد القديم كفكرة الله ، والوحي ، والنبوة . ولا تشبه الامة إلا قليلا التيوقراطية الاسرائيلية أيام القضاة. وهي أقرب إلى التيوقراطية أيام موسى . وبالرغم من وجود روايات كثيرة عن موسى فإنها لا تخبرنا كثيراً عن التنظيم السياسي لهذه الفترة . ويقدم لنا القرآن ، في الحقيقة، صورة عن العلاقات بين النبي والامة ، ونجد في هذه الصورة بشكل غامض نموذج العهد القديم ولكنه مصبوغ بالصبغة العربية الخاصة .

وقد لاحظنا سابقاً الملامح العربية الصرفة التي تميز مكانة محمد ، كما قارنا بين خمس الغنيمة العائد للنبي ، والربع الذي كان من نصيب شيوخ القبائل .

ونلاحظ حين نقرأ القرآن تطوراً في معنى كلمة أمة ، فهي ليست مشتقة من الجذر العربي الذي نجده في « أم » بل هي مشتقة على الاغلب من السومرية ، ويبدو ان هذه الكلمة دخلت إلى اللغة العربية منذ زمن

---

(١) ابن سعد ٢١،١،٢ (٢) نفس المرجع ٢٣ (٣) نفس المرجع ٢١

(٤) قرآن ٢٤، ٣٣

سحيق ، ولا نعلم ما إذا كانت جاءت مباشرة من السومرية أو بصورة غير مباشرة عن طريق العبرية أو الآرامية [1] .

وترجع معظم الآيات التي ترد فيها كلمة « امـــة » حسب تواريخ نولدكه لسور القرآن ، الى العهد المكي ، بينما لا يجد ريشارد بل سوى أمثلة مكية حقاً [2] ، وإن وجدت أمثلة كثيرة اخرى مكية (؟) (ومكية متاخرة أو مدنية متقدمة) من الممكن إذن أن لا تكون هذه الكلمة وردت في القرآن ، الا بعد أن ظهرت النية في انشاء امة من نموذج جديد في المدينة . وكانت كلمة (امة) هي التي يمكن أن يجعل لها معنى جديداً وكان بامكانها ان تتطور فيما بعد . وكان يقال حتى ذلك الوقت ان النبي يرسل الى قومه، ولكن كلمة «قوم» التي يمكن تفسيرها (بقبيلة) كانت منذ زمن طويل قد اصبحت تعني الجماعة التي تتصل بعلاقة النسب ، وهو التنظيم السياسي الوحيد المعروف في شبه الجزيرة العربية ، وحـــين استعملت كلمة (امة) في القرآن لأول مرة ، كانت تكاد تختلف عن (قوم) . ويقول القرآن : (وما من دابـــة في الارض ولا طير يطير بجناحيه الا امم امثالكم) [3] . والامة ، مع ذلك ، غالباً هي جماعة ارسل اليها نبي . (ولكل امة رسول) [4] . ثم اصبحت كلمة (امة) شيئاً فشيئاً تعني جماعة دينية ، وهي في الامثلة الاخيرة لا تطلق الا على الجماعات

(١) رودي باريت : مقالة « امة » في دائرة المدارف الاسلامية ، أ . جفري : معجم ، ج
هوروفتس : *Koranirche Untersuchungen* ٥٢
(١) قرآن : ٦، ٣٨ ؛ ١٠، ٤٧، ٤٨ ؛ ١٣، ٢٩ – ٣٠
(٣) قرآن : ٦ ؛ ٣٨ (٤) قرآن : ١٠ – ٤٨

الاسلامية، واليهودية والمسيحية، أو على فئة من هذه الجماعات. وهكذا يقول القرآن « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً »[1]. كما يقول « كنتم خير أمة »[2]. و « ان من أهل الكتاب أمة يأمرون بالمعروف». هناك فرق كبير بين هذا الاستعمال المتأخر لكلمة أمة والاستعمال السابق، حيث يقول القرآن بأن امة بأكملها كذبت برسالة الرسول الذي أرسله الله اليها[3].

وما نعلمه من القرآن يتممه نص دستور المدينة. يقول البند الأول ان المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب أمة واحدة، وتضم هذه الامة أيضاً « من تبعهم ». الامة هنا إذن هي الامة المعقدة في المدينة، التي كان يعتقد انه ارسل اليها. ويؤكد البند ٢٥ ان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، ويمكن أن تعني هذه الجملة ان اليهود يؤلفون امة موازية لامة المؤمنين، ولكنها على الاغلب تعني ان اليهود انضموا للامة الواحدة.

ولما كان الدستور ينص على ان « لليهود دينهم » يمكننا أن نستخلص من ذلك ان الامة لم تعد امة دينية خالصة. وإذا كان أحدث استعمال لكلمة امة في القرآن، يرجع لزمن لاحق قليلا لأحد، بينما هذا البند من الدستور كتب بعد قتل بني قريظة (كما نفترض) فليس هناك من تناقض بل انما هو تطور استدعته الظروف.

والتطور الذي أشرنا اليه دليل على أساس ثالث ممكن لتكوين امة لا تقوم على روابط القرابة، ولا على الدين، بل على الاقامة في منطقة واحدة وهذا في الواقع، إن لم يكن الاساس الوحيد، عامل مهم في تكوين كثير

---

(١) قرآن : ١٣٧،٢
(٢) « : ١٩٦،٣
(٣) قرآن ٤٠ — ٥؟ ٢٨، ١٧ — ١٨، ٢٧، ٨٣ — ٨٥

من الجماعات الحضرية . ونحن إذا فحصنا مختلف القبائل في المدينة رأينا انه ، في بعض الحالات ، كما هو الحال في « أهل راتج » ، قد حل محل التنظيم القائم على النسب ، تنظيم قائم على المكان . ويتضح للملاحظ الخارجي ان الامة ، كما تظهر في دستور المدينة ، لها في الحقيقة أساس اقليمي ، كما يتضح أيضاً ان هذا الاساس الاقليمي لم يكن معترفاً به رسمياً من أعضاء الامة .

كان نواةَ الامة ، في هذا الوقت ، المسلمون المقيمون في يثرب ، ولكن كان ينظر اليها على انها جماعة مكونة من القبائل وحلفائها ، وغيرهم من الاتباع ، ولا يمكن لهذا التنظيم أن يكون إقليمياً بحتاً لانه ربما كان يضم حلفاء الانصار البدو لقبيلتي جهينة ومزينة . وقد عادت النظرة الاقليمية للظهور أيام الخليفة عمر حين أجبر جميع غير المسلمين ، على مغادرة شبه الجزيرة العربية ، ولكنه سمح ليهود وادي القرى بالبقاء لانهم لم يكونوا في الحجاز وإنما في سورية [(١)] .

ساعدت الاقليمية إذن على تكوين الامة من الناحية العملية ، ولكن هذه الصيغة غير معترف بها لأن كل الجماعة يجب أن تتكون ، نظرياً ، تحت شعار النسب .

ولقد ظهر شيء من نفس النوع بصدد الهجرة . ولا يرى الاوروبي فيها سوى تغيير الاقامة ، بينما يبدو ان العربي رأى فيها تغييراً في

---

(١) الواقدي ٢٩٢

العلاقات مع القبيلة إذا المهاجرة كانت تعني ترك القبيلة والانضمام إلى الامة[1]. ولنعرض الآن لخاصتين تتعلقان بالهجرة : الاولى هي إطلاق هذه الكلمة على أفراد القبائل البدوية الذين أقاموا في المدينة ، وكان عددهم كبيراً ، حتى إذا بايعوا محمداً ، يبدو انه نشأ تمييز بين بيعة العربية وبيعة الهجرة[2]. ولا يذكر اسم الشخصيات في الدستور بل يكتفي بذكر « المهاجرين من قريش » ، وربما نال هؤلاء جوار محمد .

والخاصية الثانية التي يجب الاشارة اليها هي أن صفة « المهاجرين » منحت لقبائل أسلم وخزاعة ومزينة بواسطة معاهدة[3].

ولا نستطيع أن نعرف بالتأكيد ما كان ذلك يعنيه . ربما كان ذلك يعني بالنسبة لمزينة ان افرادها ينتمون للامة بصفتهم أبناء القبيلة وليس بصفتهم حلفاء للاوس. ولا نذكر ماثرة لمزينة تبرر مثل تلك المكافاة ، بينما قدمت اسلم وخزاعة خدمات جلى لمحمد. وكما قلنا سابقاً ، فان منح صفة المهاجرين يربط القبائل ربطاً محكما إلى محمد ويقوي مكانته في المدينة بالنسبة للانصار .

ناتي الآن للحديث عن علاقات الامة بسائر الجماعات ، فنرى ان مفهوم القبيلة القديم لا يزال قائماً ، فاعداء الامة هم الكفار والوثنيون ، وهذا

---

(١) س.سنوك هرونج *Verspeide Geschriften I Twce populaire Dwalingen Vèrbeterd I De hidjra* ٢٩٧–٣٠٥

(٢) ابن سعد ٢ ، ٤ ، ٦٦ ، ٣ ، راجع ما سبق ص ١٠٧ ، بصدد بيعه راجع محمد في مكة ص ١٨٥

(٣) ابن سعد ٢ ، ١ ، ٢٤ ، ١٧ ، ٢٥ ، ١٤ ، ٣٨ ، ١٨ راجع ما سبق ١٠٦

يتفق واسس الجماعة الدينية . ولكن الموقف من هؤلاء هو نفس الموقف من القبائل المعادية . ولم يكن هناك مواثيق تحد من عمل القبيلة في نزاعها مع قبيلة عدوة ، ولم يكن للغريب في شبه الجزيرة العربية أيام الجاهلية سوى حقوق قليلة إلا إذا قدم له شخص حمايته له ، ولم يكن المسلمون يعبأون بالمواثيق والحقوق إذا كانت مرتبطة بالدين القديم ، وكان تصرفهم في بعض الاحيان يبدو بشعاً في نظر أعدائهم الوثنيين [1] . فقد كان سلوك المسلمين مع أعدائهم كسلوك قبيلة مع قبيلة أخرى معادية مع احتقار كامل لبعض المواثيق ولم يكن للعرب أية صلة بأعدائهم ، ولم تربطهم بهم أية صلة نسب حقيقية . فلم يكن هناك سبب لمراعاة المواثيق إلا حين يصبح اهمالها انحطاطاً بالنفس (كالتمثيل بالجثث) [2] ، أو التعرض للثأر الشديد من قبل العدو .

ويدل تحريم التزاوج بين المسلمين والوثنيين على الانفصال التام بين أتباع محمد والوثنيين ، وقد نزل الوحي بعد وقت قصير من الحديبية ، يحرم على المسلمات البقاء في عصمة وثنيين ، وعـــلى المسلمين الاحتفاظ بزوجات وَثنيات . وكان عمر لا يزال زوجاً لوثنيتين (لم تبقيا بدون شك في المدينة) ، فلما علم بهذا الامر طلقهما [3] . وكان هذا الوحي جزءاً من المخطط الستراتيجي العام . ولما كان قد نزل بعد الحديبية ، فهو يظهر

---

1 *Goldziher Huhammedanische Studien Halle 1888 I 69*

(٢) ابن هشام ٥٨٥،٤٦٣ ، الواقدي ١٣٥،٦٩ الخ

(٢) قرآن : ١٠،٦٠ راجع ابن هشام ٧٣٥ . الواقدي ٢٦٣ ؛ ابن سعد ١٩٠،٣،١ ، لايذكر اسم الزوجة الاولى لعمر .

استحالة قيام علاقات طيبة مع محمد دون الايمان باقواله . وهو يستبعد كل مصادر العقائد الخاطئة ويقضي على الصلات التي ربما جعلت من الصعب مواصلة الحرب. غير ان هذا التحريم لا يحول دون علاقات غير علاقات الزواج مع الوثنيات .

وكانت الامة تقيم علاقاتها الفعلية مع القبائل كما تفعل ، تقريباً ، القبيلة القوية ، وكان الجوار يمنح باسم الله وباسم محمد[1] ، وأصبحت الفكرة الرئيسية في علاقات الامة مع سائر الجماعات ، هي الفكرة الكامنة في كلمة « الذمة » . وهذه الكلمة غامضة من بعض النواحي . ويبدو ان معناها القديم هو « ميثاق » او « محالفة » وان كان هذا المعنى بعيداً جداً عن معنى الفعل « ذم » (اي وبخ) . وتستعمل كلمة « ذمة » مرتين في القرآن بمعنى « ميثاق »[2] . ثم اتسع هذا المعنى وأصبح عن « ميثاق يضمن الامن » ثم أصبحت كلمة ذمة تعني « ضمانة الامن » أو « حماية » . وربما لم تستطع في الحقيقة ، عقولنا الغربية ، التوصل إلى معرفة المعنى الدقيق لكلمة « ذمة » . وهكذا وجدنا هذه الكلمة الغامضة في منتصف الطريق بين معنيين . وأفضل شيء هو الاستعانة بالامثلة .

حين يقول البند ١٥ من دستور المدينة « ان ذمة الله واحدة » فربما يعني ذلك ان الميثاق الذي يضمن الأمن واحد ، وهذا يفترض (كما سنرى فيما بعد) ان جميع أعضاء الامة متساوون في الحماية وانهم جميعاً

---

(١) ابن سعد ٢، ١، ٢١، ٤، ١٤، ٢٩، ١٠، ٣٦، ٧، ١٣ نقرأ في المقطع الاخير جوار الله وذمة محمد النبي ، ابن هشام ٩٨٦، ١٠ (٢) قرآن : ٩، ٨، ١٠

يستطيعون منح الحماية التي يجب على الامة باجمعها أن تنفذها وان كل اعضاء الامة تربط بينهم علاقة الحامي بالمحمي ، وانه لا يجوز ان يكون احدهم يحميه ، إلا موقتاً ، رجل غريب على الامة .

تذكر في الرسائل والمعاهدات التي جمعها ابن سعد ، غالباً ، « ذمة الله وذمة محمد » وترجمتها « بحماية » مناسبة في كثير من الاحيان ، وهي في بعض الاحيان الترجمة الوحيدة الصالحة . مثلا حين يقال : ان النبي عاهد (قبيلة جفار) ذمة الله وذمة رسوله [1] . ونجد ، من ناحية ثانية ، في بعض الاحيان، فكرة ميثاق بين الله ومحمد . وتقول رسالة بعث بها محمد إلى قبيلة « حدس » من لخم ان المسلم الذي يقوم بواجبه تكفله « ذمة الله وذمة محمد » . فاذا ارتد « فذمة الله وذمة محمد رسوله بارئة منه » ويضاف إلى ذلك ان الرجل الذي يشهد على اسلامه مسلم لا تكفله إلا ذمة محمد فقط [2] . وليس واضحاً سبب حذف اسم الله ، فلربما نشأ في ذهن محمد تمييز دقيق لانه يتحدث في رسالة أخرى عن « جوار الله وذمة النبي » .

وهناك تعبير شائع يقول عن بعض الناس ان « لهم الذمة » [3] . وفي حالة من هذه الحالات يقال عن الذمة « عليهم » [4] . وترجمة الذمة « بضمانه الامن » صحيحة في معظم المقاطع إلا حين يقال بأن ذمة محمد بارئة ، إذ تبدو هذه الذمة على انها جزء من شخص المحمي .

---

(١) نفس المرجع ٢١، ١٤، ١٩ ، ذمة محمد بارئة ممن يعصيه

(١) نفس المرجع ٣٦، ٣ ، (٣) نفس المرجع ٢٩، ٢١

(٤) « « ٢٧، ٦

ربما تكمن الصعوبة في تحديد معنى الذمة بدقة ، في ان مفهوم الذمة نفسه كان غير محدد ، وكانت إحدى مهمات القبيلة الرئيسية أن تؤمن سلامة أعضائها وأمنهم . وكانت تلك نتيجة عادة معترف بها من الجميع . وكانت المشكلة التي اعترضت محمداً ، هي اكتشاف دافع يحل في امة قائمة على اسس دينية محل الواجب القديم . وقد حل المشكلة بتنمية العادة الجاهلية في المحالفات . ويستعمل محمد الكلمة القديمة (حالف) في رسالة بعث بها إلى نعيم بن مسعود [1] . ولكن يبدو ان هذه الكلمة قد استعيض عنها فيما بعد بتعابير تحتوي على كلمة أمان أو ذمة . وسوف نشرح سبب هذا التغيير فيما بعد . كانت بيعة الحرب التي حدثت في العقبة عبارة عن اقامة تحالف أو ما يشبهه . ويمكن أن ينضم لهذه المخالفة آخرون كما فعل نعيم بن مسعود . وبالرغم من عدم استعمال كلمة تحتوي على الجذر « حلف » فان الشروط كانت شروط حلف ، كالمساعدة المتبادلة مثلا .

ويبدو انه عقدت في السنوات الاولى اتفاقات مع غير المسلمين من الوثنيين بدون شك [2] ، أثناء غزوة حمزة لسيف البحر . وربما كانت قبيلة جهينة الاولى التي تقوم بعمل كحليفة للمسلمين ، كما أن الرسائل المرسلة إلى قبيلتي حمزة وجفار ، تؤكد لهما ذمة الله وذمة محمد مع الاشتراط عليهما مساعدة محمد . ولا تحتوي هذه الرسائل على أي شيء يشير إلى انها مرسلة الى مسلمين . نستطيع اذن أن نفترض ان القبيلتين

---

(١) نفس المرجع ١٩،٢٦

(٢) ميثاق في القرآن ٣٧٧،٨ بيد انه كان اتفاقاً مع غير المسلمين

المذكورتين لم تكونا بعد قد دخلتا في الاسلام . وكان على محمد أن يتساءل بعض الوقت ما إذا كان غير المسلمين يستطيعون أن ينالوا ذمة الله . وربما كان هذا يفسر لنا ، لماذا لا نجد في بعض النصوص سوى ذكر ذمة محمد فقط .

ويبدو ان محمداً في نهاية حياته ، قد وسع نطاق الاستفادة من ذمة الله لتشمل جميع الذين قبلوا واجب الأمن المتبادل ، وقد عرف فيما بعد عضو غير مسلم في الدولة الاسلامية بأنه « ذمي » أو فرد « من أهل الذمة » وإذا كان محمد متردداً في ذلك إلا فيما يتعلق بتوسيع نطاق ذمة الله إلى خارج الامة الاسلامية . لأنه لم يتردد قط في قبول حلفاء غير مسلمين . ويوجد ، عدا وثني حنين المكيين ، أمثلة كثيرة لعرب قاتلوا تحت أوامر محمد قبل أن يسلموا [1] .

وكانت النظرية العربية القديمة عن الحلف ، تفترض المساواة بين الفرقاء المتعاقدين ، إن كان أحدهم أقوى من الآخرين . وتوجد هذه الفكرة في بعض المعاهدات القديمة في النص على أن النصر متبادل . ومع ذلك لم تعد المساواة قائمة ، كلما كان الأمر يتعلق بالله الحامي . وبعد أن أصبح محمد أقوى رجل في شبه الجزيرة العربية . ولهذا كان يطلب في المعاهدات الأخيرة ، كشرط للحصول على ذمة الله ومحمد ، الوعد بإتمام فروض المسلمين الدينية ولا سيما دفع الزكاة ، كما يشترط بعض الواجبات

(١) راجع ما سبق ص ١١١ ، وكذلك أبا الرهم الجفاري ، الواقدي ٥٦ . بصدد اليهود الواقدي ٢٨٣ .

الكلامية في بعض الحالات الخاصة .

كان يطلب من غير المسلمين الذين يتحالفون مع محمد الجزية ، وكان ينظر لهذا المال الذي يدفعه غير المسلمين على انه تعويض عن الحماية . وكان من المعروف في العصر الجاهلي ، أن تدفع القبائل الضعيفة أو الجماعات الحضرية مبالغ من المال مقابل الحماية التي تؤمنها القبائل القوية البدوية . حتى إذا لم تقم بتامين هذه الحماية ، رفضت قبول المال . وكذلك إذا رفض فرد أو رفضت قبيلة دفع الضريبة المفروضة خسر كل منهما الحماية [1] . ولقد اضطر المسلمون ، أيام الخليفة عمر ، إلى الانسحاب من حمص فاعادوا الخراج الذي دفع اليهم [2] .

لا يبدو انه وجد لفظ محدد للدلالة على الامة الاسلامية بعد ان انضمت اليها مكة و تحالف معها كثير من القبائل . ولم تعد ، في ذلك الوقت ، تستعمل كلمة امة في القرآن و لا في المعاهدات ، بل نجد عوضاً عنها ألفاظاً كالجماعة [3] أو حزب الله [4] . وربما لم تكن هناك حاجة للفظ رسمي لأن الدبلوماسية كانت محمية باسم الله ومحمد ، وكان أفراد القبائل المسلمة المحالفة لمحمد يعتبرون على ما يبدو ، اعضاء كاملي الحقوق في الامة (على عكس غير المسلمين) .ولا نستطيع القول متى حدث هذا التغيير وما أدى

---

(١) راجع *D.C. Dennett jr . Con version and the poll – taxin Early Islam Cambidge u.s.a 1950 117*

(٢) البلاذري ٤٣٨–٩٠٦ ، المرجع السابق ٥٥–٥٧ (٣) ابن سعد ٢، ١، ٢٧–٩

(٤) نفس المرجع ٨٣–٤ ، قرآن ٥٦:٥–٦١:٥٨، ٢٢

اليه . فبعد أن حدد عمر في سنة ١٥/٦٣٦ المبالغ الممنوحة ، تلقى جميع اعضاء الامة الكاملي الحقوق مبلغا من المال ، ولا شك ان مثل هـــذه التسويات قد حدثت سابقاً وان كنا نجهل تفاصيلها .

ويبدو انه كان على الانسان، إذا أراد الانضمام إلى الامة ، ان ينتمي لجماعة تعقد معاهدة مع محمد ، أو كانت حليفة له او ينتمي لإحدى القبـــائل المذكورة في دستور المدينة. أو إلى قبيلة عقدت معاهدة مؤخراً . وهذا يفسر لنا اهتمام كل قبيلة بالاعلان عن انها ارسلت وفداً لمحمد . وهـــذا يجعلنا نفهم أيضاً لماذا كان على غير العرب ، إذا اسلموا ، ان يصبحوا بالضرورة ، موالي القبائل العربية[1] . ولم يوقع سكان المناطق المحتلة ، في مجموعهم أية معاهدة مع محمد او خلفائه ، بينما المدن التي وقعت معاهدة فانما فعلت ذلك بصفة السكان غير المسلمين . ولقد لاحظنا سابقاً كيف ان العرب الذين يتركون قبائلهم ويأتون للاقامـــة في المدينة يسمون مهاجرين .

يبدو من ذلك ان الامة الاسلامية لم تعتبر قط مجموعـــة أفراد بل مجموعة جماعات كانت ، بصورة أو بأخرى ، حليفة محمد أو مواليه ، وكان سبب المحافظة على الجماعات اعتبارات إدارية[2] . وينص دستور المدينة على ان القبائل مسؤولة عن الديات . وربما كان فيما بعد، للتقسيمات

---

(١) راجع *Dennet* المرجع المذكور ص٥٨

(٢) ابن هشام ٣٤٥ حيث يقول ان عمر سجل بلالا وجميع المسلمين الاحباش في جماعة خثعم لأن بلالا في الاصل قد تآخى مع رجل ينتمي لخثعم .

إلى بطون وقبائل ، فائدة في تنظيم دور كل منها في الدفع .

ومع ذلك فقد كانت نزعة الاسلام شديدة لالغاء هذه التقسيمات . ويقول الدستور ان المؤمنين بعضهم موالي بعض ، كما يقول بأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى ، ظلم أو اثم او عدوان او فساد بين المؤمنين .

وهكذا كانت هذه التقسيمات بدون جدوى نظرياً وربما كانت مضرة في ذاتها . وهناك مبدأ نسب ، بحق ، لمحمد ويقول : لا حلف في الاسلام ، اي انه لا يجوز لجماعتين قائمتين داخل الامة الاسلامية ان تعقدا بينهما علاقات وثيقة [1] . إذ ان مثل تلك الاحلاف تساوي رفضاً للاسلام لأنها تفترض عدم كفاية الحماية التي يؤمنها محمد او خلفاؤه . (كان من الافضل عدم استعمال كلمة حلف في حالة عقد اتفاق بين جماعة صغيرة ومحمد . لأن كلمة حلف تتضمن شيئاً محرماً بصورة أخرى) .

ويحيط الغموض بارسال النقباء إلى اجتماع العقبة الثاني بحيث لا يعلمنا إلا القليل عن طبيعة الامة ، وإن كان ذلك يؤيد الفكرة القائلة بأن هذه الامة كان ينظر اليها على انها مجموعة قبائل . لم يكن النقباء مجرد اثني عشر رجلا مغمورين كلفوا بالنيابة عن الانصار ، بل كانوا ممثلي القبائل . وهكذا كان أسعد بن زرارة نقيب بني النجار ، حتى إذا ما مات بعد الهجرة اهتمت القبيلة باختيار خلف له . ولكنه اقتنع

---

(١) جولدزيهر المرجع المذكور ج ١ ص ٦٩ ، راجع الدستور المادة ١٢ ، كذلك البخاري أدب (٧٨) ٦٧ . وابن حنبل المسند ج١، ١٩٠

باختيار محمد الذي كان ينتسب للقبيلة عن طريق جدته لابيه . وتقوم نسبة نقباء كل قبيلة[1] على عدد أفراد القبيلة الذين حضروا العقبة ومكانتهم.

ولم يكن لاية قبيلة أكثر مـــن نقيبين ، ولكن بينما لم يكن لقبيلة بياضة ، التي حضر منها ثلاثة أفراد ، اي نقيب ، فان قبيلة ساعدة التي حضر منها شخصان ، كان لها نقيبان .

كان هؤلاء النقباء الاعضاء الرئيسيين في القبائل ، وكانوا جميعهم مسلمين . والنقص في مؤسسة النقباء هو غياب بعض الرجال المرموقين في المدينة عنها ، وليس فقط من بين الاتباع الذين كانت عاطفتهم فاترة نحو محمد كابن أبي ، بل من أمثال سعد بن معاذ الذي ظل منذ بدر حتى وفاته أعظم شخصية في الانصار . وان عدم اختيار « الزعماء » الحقيقيين للقبائل كان بمثابة فشل ، وهذا ما يفسر لنا لماذا لا نعرف شيئاً عن منظمة النقباء من النصوص ذلك لأن هذه المنظمة كانت في الحقيقة غير قائمة .

ولا تساعدنا المواخاة أيضاً على إدراك طبيعة الامة الحقيقية . ولكن يجب علينا مع ذلك أن نذكرها . جرى أهم مثل على المؤاخاة قبل بدر مباشرة ، فقد آخى الرسول بين المهاجرين والانصار وكان على الاخوين الجديدين ، أن لا يترك أحدهما الآخر أثناء المعركة . وكانت هـــذه البدعة تهدف إلى منع مختلف فرق المحاربين من أن ترد على هجوم العدو بشكل موزع . فإذا قتل أحد الاخوين ورثه الآخر هكذا قدم سعد بن الربيع (بلحارث) الذي آخاه عبد الرحمن بن عوف ، نصف ثروته

---

(١) راجع الجدول ص ٢٠٧ محمد في مكة .

بعض الوقت[1] .

تحاول هذه الوقائع الاخيرة التدليل على ان المحاولات الاولى لمؤاخاة المهاجرين والانصار في المدينة كانت تهدف إلى تقوية اللحمة بين الفرق المقاتلة ،ويمكن أن ينظر لهذه العملية على انها اقتباس للتحالف في الجاهلية ، وكان هدفها معالجة المساوىء الناتجة عن تأثير الجماعات التي تربط بينها روابط النسب[2] .

٤ ـ المالية

تستحق مالية الامة الاسلامية أن تدرس بالتفصيل . وكانت الامة اثناء الفترة المكية ، لا تملك شيئاً يشبه دائرة المالية العامة ، وإن كان أبو بكر ، وربما غيره ،قد صرفوا الاموال الكثيرة لتحرير الارقاء الذين سيعتنقون الاسلام[3] .

ويعالج عدد من بنود دستور المدينة المسائل المالية ، ولكن جميع هذه البنود ، ما عدا واحداً منها ، تقول بأن كل جماعة مسؤولة عن مصاريفها وليس عن مصاريف الجماعات الاخرى المتحدة معها في نطاق

---

(١) حسب الواقدي ٢٩٧،٣١٨ حدثت الواقعتان في ٦٢٨،٧ و ٦٢٩،٨

(٢) راجع . ج . شخت مقالة ميراث في دائرة المعارف الاسلامية ، ج . فلهوزن

Die Ehe bei den Arabern das Nachrichten deskgl Gezellschaft der Wis enschaften Gottigen 1893 , 461, I Lichensta dter dans islamic Culture 1942 47 52

(٣) ابن سعد ١،٣،٢٢١ راجع محمد في مكة س ١٥٤

الامة . ويطبق ذلك على دفــع الديات وفدية الأسرى [1] ، وتكاليف الغزوات [2] . وينص البند ١١ بأن على المؤمنين أن لا يتركوا « مفرحا بينهم ان يعطوه بالمعروف في فداء او عقل » . ولا نرى بوضوح كيف كان النظام يسير عملياً ، ربمــا كان يترك للاغنياء من بين المسلمين أمر الاهتمام باعطاء المساعدة المطلوبة ، فاذا رفضوا تدخل عندئذ محمــد .

وحين قتل عبد الله بن عمرو (من مسلمة) في أحد ترك ديوناً تساوي قيمة محصول سنتين من نخله . وحين شرح ابنه ذلك لمحمد ساعده على تسديد أموال الدائنين (ولا علاقة للقصة كما تروى بمالية الدولة) ، لأن طريقة محمد قامت على مضاعفة محصول التمر [3] بصورة معجزة) ، حتى ولو دفع النبي حقاً الاموال بهذه المناسبة ، فان هذا يدل على وجود مالية بدائية . ولا نرى بوضوح مم كان المهاجرون يعيشون في الفترة الممتدة بين الهجرة ومعركة بدر . ولا نفهم كيف كان بامكانهم مساعدة مالية الدولة ، ولم يكونوا زراعاً ، كما لم يكن في نيتهم أن يعيشوا إلى ما لا نهاية على قرى الأنصار . ولقد قيل بأنهم أملوا فى القيام بغارات على قوافل مكة أو المتاجرة مع الأقطار البعيدة ، وكلا الحلان يثيران النزاع مع مكة [4] . ولقد قام المهاجرون بعمليات تجارية ، ولدينا بعض الأدلة على ذلك . فلقد رفض عبد الرحمن بن عوف عرض أخيه في المــدينة باعطائه نصف ثروته ، وطلب بدلا عن ذلك أن يدلوه على سوق بني

(١) ابن سعد ١٢٢،٣٠١ ، راجع محمد في مكة ص ١٥٤
(٢) الدستور بنود ٢ – ١٠ (٣) ابن سعد ١٠٨،٣٠٢ (٤) محمد في مكة ١٨٩

لاخيه واحدى زوجتيه [١] .

وربما ألغيت المؤاخاة بسبب صعوبات الميراث ، ولكن لا نعرف ما إذا كان ذلك حدث بعد بدر مباشرة أم فيما بعد [٢] . وان كان ابن اسحق [٣] يتحدث كما لو كانت المؤاخاة السابقة على بدر ، هي المثل الوحيد على هذه المؤاخاة ، ولم يكن الحال كذلك . فلقد آخى محمد نفسه أيضاً بين بعض أتباعه المكيين ، كما تطلعنا سير ابن سعد ، وقد جرى ذلك على ما يبدو قبل الهجرة .

وهكذا كان عبد الرحمن بن عوف أخا سعيد بن أبي وقاص وسعد بن الربيع [٤] .

ولقد استمرت المؤاخاة إلى وقت متاخر من الفترة المدنية ، لاننا نسمع عن اشخاص لم يكونوا في المدينة إلا بعد بدر [٥] .

ويقول لنا الواقدي ان زعيم غزوة ، آخى بين رجاله لكي يمنعهم من عدم مطاردة العدو مسافة بعيدة ، وقد أمر الاخوة بعدم الانفصال بعضهم عن بعض ، ولكن أحدهما ، في كلتا الحالتين عضى وطارد العدو

---

(١) ابن سعد ١، ٣، ٨٩ . قرآن ٤، ٣٣-٣٧ نسختها ٣٣، ٦ طبري ، تفسير آية ٣١ - ٣٥ ؛ س . ارندونط مقالة حلف في دائرة المعارف الاسلامية ٠

(٢) نفس المرجع ١٠٠، ١٩ ، ٢٥٠، ١، ٤، ٣، ٢٣، ٧٢ قرآن ٨، ٧٥-٧٦، ٣٣، ٦ وراجع ابو جعفر النحاس ، قرآن : الناسخ والمنسوخ ١٥٩ ، بصدد القرآن : ٨، ٧٥-٧٦

(٣) ابن هشام ٣٤٤-٤٦ راجع جملة « من اهل بدر » في ابن سعد ٢، ٣، ١٣، ٢٤، ٧

(٤) ابن سعد ١، ٣، ٨٩، ابن هشام ٣٤٤، ١ مواخاة مع عثمان بن عفان .

(٥) ابن هشام ٩٣٣ معاوية ، والحتات بن يزيد (من تميم) راجع ابن سعد ١، ٢٤، ١٢، ١٢٠ العباس وابن اخيه ،نوفل بن الحاوث.

قينقاع ، ثم عاد يحمل السمن والجبن اللذين ربحهما من حسه الدقيق التجاري [1] .

حدث ذلك بعد الهجرة بوقت قصير وقبل طرد بني قينقاع . اما الدليلان الآخران اللذين يمكن أن نذكرهما ، فمن المستحيل أن نجد لهما تاريخاً معيناً ولكنهما يقعان حوالى هذه الفترة الاولى للاسلام إذ يقال بأن عمر لم يسمع الامر الذي أصدر محمد لأنه كان مشغولا بصفقة تجارية [2] ، كما حصل علي من أحد الانصار على قصب يبيعه [3] . وقد باع عثمان وعبد الرحمن بن عوف أسرى بني قريظة [4] . كما يقال بأن المهاجرين ، على العموم ، كانوا يقضون أوقاتهم في الاسواق ، بينما كان الانصار يزرعون حقولهم [5] وإن لم يكن الانصار يجهلون التجارة [6] ، ولا شك ان المسلمين فيما بعد ، مهاجرين وأنصاراً ، تاجروا خلال غزوة بدر ٤/٦٢٦ [7] ، كما حاول زيد بن حارثة في ٦/٦٢٦ أن يقود قافلة إلى سورية للتجارة ، ولكنه وقع في كمين نصب له [8] ، وقد حمل دحية بن خليفة الكلبي بضاعة معه حين اختاره محمد لحمل رسالة إلى « قيصر » [9] .

نستلخص من هذه الامثلة ان المهاجرين كانوا يكسبون ما يستطيعون كسبه في التجارة قبل بدر وبعدها . ولا يجب أن نتخيل ان جميع المهاجرين كانوا يكسبون رزقهم بالسهولة التي يكسب بها عبد الرحمن ،

---

(١) ابن سعد ١، ٣، ٨٨ ، البخاري بيوع (٣٤) ١ (٢) البخاري نفس المرجع ٩

(٣) نفس المرجع (شربا) (٤٢) ١٣ — ٣ (٤) الواقدي ٢٢١

(٥) البخاري بيوع (٣٤) ١ (٦) نفس المرجع ٩ (٧) الواقدي ١٦٨

(٨) نفس المرجع ٢٣٨ (٩) ابن هشام ٩٧٦، ٢

فقد كان تاجراً ممتازاً من بين المسلمين ، وأصبح واسع الثراء في أيام الخلفاء . ولما كانت قبيلة قينقاع قد كرست نفسها للتجارة ، فلقد أصبح من الصعب توفير الرزق في هذا الميدان لبعض المسلمين في الايام الاولى بعد الهجرة ، ثم تحسنت الاحوال بعد طرد بني قينقاع .

عاش المهاجرون إذن حتى بدر ، إن لم يكن إلى ما بعدها ، على مساعدة مسلمي المدينة . يشهد على ذلك الوضع شكوى الرجل الذي كلف بقتل كعب بن الاشرف اليه ، وقوله بانه لم يكن هو وأصحابه مسلمين، وشكايته من العبء الذي القي على كاهل أهل المدينة بوجود محمد وأتباعه فيها [1]

ولا شك ان محمداً لم يطلب شيئاً من الانصار بل حثهم على مساعدة المهاجرين بقدر الإمكان . وهو ما يبدو موضوع الآية القرآنية التالية : « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون . للفقراء الذين احضروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الارض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيائهم لا يسألون الناس الحافا » [2] .

ويمدنا القرآن بكثير من الادلة ،على أهمية المساعدات الشخصية في تنظيم الامة الفتية في المدينة ، فيقول بأنه يجب على الناس أن يؤمنوا بالله ورسوله وينفقوا من أرزاقهم [3] « من ذا الذي يقرض الله قرضاً

---

(١) راجع ما سبق ص ٢٥٣ (٢) قرآن : ٢٧٣،٢

(٣) قرآن : ١٠،٢ ١٠١ (؟) ، ٢٥٥.٢ ،٧،٥٧

حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة . . . مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ... و الله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم ... »[1] .

ويلح القرآن منذ البداية على ضرورة الكرم والسخاء[2] . ولم يبدأ بجمع الصدقات إلا في أوائل الفترة المدنية ، وبالرغم من أن الصدقات كانت اختيارية ، وان الاغنياء حثوا على التصدق مع وعدهم بثواب إلهي، فيمكننا أن نفترض بعض الضغط على الاغنياء من المسلمين لحملهم على العطاء ، ولهذا يذم البخل ويعاقب الله صاحبه[3] . ويذكر القرآن بعض الاشخاص من المنافقين أو اليهود بدون شك الذين يتصدقون ، ولكنهم لايتصدقون كالمؤمنين[4] في أمور أخرى .

ولقد حاول بعض معارضي محمد ، في الفترة العصيبة الـتي تلت احداً، أن يمنعوا الناس من دفع الصدقات بالسخرية منهم[5] .

وتذكر النصوص واقعتين تمثلان ما كان يجري غالبا ، اشترى قيس ابن سعد بن عبادة ، اثناء غزوة سيف البحر في تشرين الثـاني ٦٢٩ (٨/٧) عند نقص التموين ، جملاً ثلاثة أيام متتالية (ووعد بدفع ثمنه تمراً حين عودته إلى المدينة) ثم ذبحه لإطعام جيشه[6] وبعد حوالي سنة طلب محمد تبرعات لتجهيز غزوة تبوك الكبرى بالاسلحة والجمال والمؤن الضرورية وقد لبى المسلمون المرموقون نداءه بسخاء[7] .

---

(١) قرآن : ٢، ٢٤٥، ٢٤٦   (٢) راجع محمد في مكة ص ٩٩
(٣) قرآن : ٣، ١٧٥ – ٨٠   (٤) قرآن : ٢. ٢٦٢   (٥) قرآن : ٩، ٧٥
(٦) الواقدي ٧-٣   (٧) نفس المرجع ٣٩١

وقد احتفظ بجدول للمبالغ الضخمة التي تصدق بها عبد الرحمن بن عوف لمحمد أثناء حياة الرسول [1] وقد تصدق أحد أفراد قبيلة النضير بقصر لمحمد [2] . وهذه ولا شك أهم الصدقات ولكن هذه الوقائع تطلعنا على حياة الامة الاسلامية ، إذ كان يجب على الموسرين أن يعطوا ما فاض عنهم للمعوزين . ولكن لم يكن هناك تنظيم للعطاء وقد دفع الرأي العام شيئاً فشيئاً الأتقياء من الأغنياء إلى المشاركة في الأعمال الصالحة . وكان محمد يلمح عند الضرورة، إلى المبلغ الذي يجب دفعه كما فعل في إحدى المناسبات مع عبد الرحمن بن عوف [3] ، وكما فعل أيضاً قبل غزوة تبوك .

يعتمد كل ما قلناه حول هذا الموضوع على آيات القرآن قبل كل شيء ، وهي تحتوي على كلمة « نفقة » أو جمل مثل « ما أنفقتم » .

كما استعنا ببعض الآيات التي تحتوي على « صدقة » لأنه يوجد مقاطع من القرآن تحتوي على هاتين الكلمتين اللتين ، وان اختلف اصلهما ، فهما تعنيان شيئاً واحداً ، ويبدو ان كلمة « زكاة » في مطلع الفترة المدنية ، تعني الصدقة .

ولا شيء يدل على ان الزكاة في هذا الوقت كانت محددة بنسبة مئوية من رأس مال المتصدق أو دخله ، كما أصبحت فيما بعد . وإذا استعرضنا استعمال هذه الكلمة في القرآن نلاحظ انها مرتبطة باليهود وإن لم تستعمل بصددهم . ويمكن أن نستنتج انه كان ينتظر من اليهود في المدينة دفع

---

(١) اسد ج ٣ : ٣١٦ : ٣ وما يليه (٢) طبري ج ١ : ١٥٢٨ : ٤
(٣) ابن سعد ٣:١ : ٩٣

الصدقات ، وكانت هذه الصدقات تتخذ شكل مساعدات تدفع لفقراء الامة ومعظمهم من المهاجرين ، وقد طلب من قبيلة بني النضير ، قبل طردهم، ان يساعدوا في دفع دية قتيل [1] .

وهناك سؤال يعرض لنـــا وهو كيف اتخذت كلمة « زكاة » معنى تقنياً ؟ ولكن هذا يؤدي بنا إلى ما بعد الفترة المحددة بحياة محمد ، ذلك لأن تبدل معناها حدث فيما بعد . ونريد أن نوضح مدى التطور الذي حدث خلال حياة محمد بحيث تحولت الهبات التلقائية إلى صدقات محددة. فاصبح يجب دفع نسبة مئوية معينة من الممتلكات أو الدخل كصدقة لمحمد ، أو أحد عماله . نجد ذلك مذكوراً في نصوص المعاهدات خلال السنتين الاخيرتين من حياة النبي . الكلمة الطبيعية هي صدقة ، وكان يسمى جامعـــها « المصدق » . وهذه هي بداية نظام « الصدقات الرسمية » الذي اطلق عليه اسم الزكاة . بينما ظلت كلمة صدقة تدل على الهبات الاختيارية ، وليس هناك أسس تجعلنا نفترض ان نسباً مئوية معينة فرضت عــــلى جميع المسلمين خلال حياة محمد ، كما لا يقال ان جميع القبائل التي تحالفت مع محمد دفعت الصدقة . بل على العكس نستطيع الافتراض بأن القاعدة الطبيعية عند المسلمين هي الصدقات الاختيارية التي لم تحدد لها نسبة ولا اتفـــاق سابق . تتأكد هذه النظرية بدعوة محمد الى تقديم المساعدات قبل غزوة تبوك . وكان القسم الاكبر مـن دخل معظم المهاجرين والانصار ، بعـد معركة حنين،من نصيبهم من الغنائم خلال مختلف الغزوات ، ولم يكن

---

(١) ابن هشام ٦٥٢ . الواقدي ١٦١ ما سبق ٢٥٤

خاضعاً للزكاة (وكذلك الحال ايام الخليفتين ابي بكر وعمر) . لم يحدث تطور بكل معنى الكلمة حوّل الصدقات الاختيارية الى زكاة ، بل استمر المسلمون الاوائل يدفعون الهبات كما فعلوا في الماضي ، ثم فرضت مبالغ معينة فيما بعد للمساعدة على اقامة نظام الامن الذي أحدثه محمد .

وتتعلق مسالة الهبات العينية بمسألة الصدقات الاختيارية أو المحددة. ويقال ان محمداً ، منذ غزوة الحديبية ، رفض قبول هدية الحليب الذي قدمه الوثنيون ، بل دفع ثمنه [١] .

وجاء في الجعرانة رجل من أسلم ليقدم شاء لمحمد فرفضها ، حتى أكد له انه مسلم ، وانه دفع صدقاته الى المصدق المكلف بجمعها من قبيلته [٢] . وهذه الناحية الاخيرة لها مغزى ، فهي تجعلنا نعتقد ان محمداً لم يكن مستعداً لقبول صدقة اختيارية اذا ما خيل لصاحبها انه معفى من «الزكاة» التي كانت بالتأكيد أهم منها .

كما صرح محمد في مناسبة أخرى ، بدون شك بعد حنين (وان كان الواقدي يضع الحادثة بعد حنين لعلاقتها بعيينة بن حصن) على الملأ انه لا يقبل الهدايا الا من قريش والانصار [٣] . نستطيع الافتراض بذلك ان هاتين الجماعتين كانتا الوحيدتين اللتين سمح لهما بمواصلة دفع الصدقات الاختيارية .

ومن الممكن أن لا يكون هناك الا فرق بسيط بين الزكاة التي يدفعها

---

(١) الواقدي ٢٤٢ (٢) نفس المرجع ٣٧٤
(٣) نفس المرجع ٢٣٢

المسلمون لمحمد ، وما يدفعه العرب المسيحيون .

وقد استعملت في بعض الاحيان كلمة خاصة لما يدفعه المسيحيون وهي « الجزية » وهي كلمة مأخوذة من آية قرآنية (سورة ٩ آية ٢٩) تأمر المسلمين بقتال المسيحيين حتى يهزموا او يدفعوا الجزية ،ويظن ان هذه الكلمة مشتقة من لفظ سرياني مشابه يعني « ضريبة شخصية » وذلك مباشرة أو عن طريق اللغة الفارسية ، كما يمكن أن تكون صيغة عربية تعني « حق » أو « رضي » ، وهذا ما يعنيه تقريباً القرآن [١] .

وكان نفس الموظفين يجمعون الصدقات والجزية ، وان اختلف الاسمان . كما يمكن انه فرض ، في الايام الاولى من الاسلام ، على بعض الجماعات المسيحية دفع ضريبة قائمة على القطعان او الحقول كزكاة وليس اعتماداً على عدد الرؤوس ، كما هو حال الجزية .

وقد استعملت أسماء أخرى لمبالغ من المال معينة أو عينية تدفع لمحمد . وهناك نص يطلعنا على رجل مفوض بجمع العشور . وكانت ضريبة وجدت قبل الاسلام واحتفظ بها في العهد الاسلامي ، ولكننا لا نستطيع التاكد من ذلك [٣] . وهناك كلمة أخرى نجدها في القرآن وهي « السعاية » [٤] ومعناها الدقيق هو « مال يكسبه العبد ويحسب له لعتقه » . نرى هذه الكلمة بصدد بعض القبائل المنهزمة في حنين ، وهي ربما تشير

---

(١) جفري Vocabulary لين . ابن سعد ٢:١:٢٨:٢ جزية ارضها .

(٢) ابن سعد ٢:١:٢٠:٢٨

(٣) الواقدي ٩٣:٦٥ . بل حول القرآن ٩٥:٧ الذي يذكر ان الايات ٦:٨-١٠ تتعلق بالنضير، دنت،المرجع المذكور ٢١ (٤) راجع ما سبق ص ١٢٤

الى انه كان عليها دفع مبلغ معين خلال عدد من السنين كفدية ولكن ليس على طول الزمن .

وكانت الصدقات الاختيارية تذهب مباشرة الى اصحابها ، اذ يمكن التصدق بالسر . اما الزكاة وغيرها من الضرائب ، فكانت تدفع لمحمد نفسه ، لأنها جزء من مالية الدولة .وكان محمد ، منذ وقت قديم، القائم على أموال الدولة ، من دراهم أو سلع ، وكان يحتفظ خاصة بالخمس ، أي خمس مغانم القتال ، ولم يظهر استخدام الخمس الا بعد بدر ، وطبق للمرة الاولى أثناء غزوة بني القينقاع [1] . ولقد حدث في بدر نزاع حول اقتسام الفيء ويقال بأن آية قرآنية (١،٨) نزلت وخولت محمداً سلطة التصرف به كما يشاء . ثم وقع اتفاق فيما بعد . يأخذ محمد خمس المجموع لمالية الدولة ويوزع الباقي بالتساوي بين المشتركين . ويقال بأن الفارس أخذ نصيبين لفرسه ونصيباً له . وقد حل هذا الخمس محل الربع الذي يأخذه عادة شيخ القبيلة [2] . وكان أيضاً لمحمد الحق في الصافي ، كزعيم قبيلة ، قبل القسمة العامة . وكان الصافي في الجاهلية عبارة عن ناقة ، او حصاناً او سيفاً أو فتاة اسيرة ، وقد اختار محمد في بدر سيفاً [3] ، كما كان يأخذ أيضاً نصيبه (وثلاثة أنصبة اذا كان راكباً) كسائر الناس . وكان محمد يلح في مفاوضاته مع البدو لكي يدفعوا له « الخمس » كما يذكر نصيبه الطبيعي والصافي [4] .

---

(١) راجع ما سبق ٢٨٠

(٢) راجع : ابا تمام حماسة ج١:٨٥٥ الاغاني ج ١٦ :٥٠

(٣) راجع لين صافي . الواقدي ٦٧ (٤) ابن سعد ٢:١:٠٣٠

وكان تقسيم المغانم يجري بمهارة كما ننتظر من امة تشتد فيها النزعات التجارية . واذا كانت المغانم تتألف من جمال وشاء كان من السهل اعطاء كل شخص عدداً منها باعتبار ان كل عشرة شاء تساوي بعيراً [1] . اما اذا كانت المغانم متنوعة ، كما حدث في حنين ، فكانت تقسم الى حصص متساوية القيمة وكان بامكان الشخص أن يستبدل حصته بالمال عند التجار المتجولين [2] . وقد بيعت أسلاب الحرب في خيبر بالمزايدة الى الجيش والى التجار [3] . وهكذا شغلت الصفقات التجارية الناتجة عن تقسيم المغانم كثيراً من الناس ، ناهيك بالذين اوكل اليهم مهمة حفظها أو تقسيمها .وقد عين محمد عاملا خاصاً « للخمس » وكان محمية بن زعزع الزبيدي ، وهو صهر العباس عم محمد [4] .

أما المغانم التي تقع في أيدي المسلمين ، نتيجة لاتفاق ، وليس في الحرب فكان محمد يأخذها جميعها ، وهذا ما حدث مع بني النضير . ولم توزع أراضي بني النضير بالتساوي بين المسلمين بفعل اتفاق مع زعماء الانصار بل أعطيت للمهاجرين (والى رجلين فقيرين من الانصار) . ولقد ألح الانصار مع ذلك لكي يعيش المهاجرون الى جانبهم خوفاً من تشتت القوى الذي يضعف مجموع الامة [5] .

ولا نسمع شيئاً عن مساكن القينقاع ، فلربما تقاسم العرب القلاع معهم

---

(١) الواقدي ٢٢٦:٣٨٧ (٢) نفس المرجع ٢٨٢:٢٨٤

(٣) نفس المرجع ٢٧٥:٢٨١ (٤) ابن هشام ٧٨٣ الواقدي ١٧٧:٢٢١ ابن سعد ٤:٢ ١٤٦:٥ (٥) الواقدي ١٦٦

كما لا نعرف شيئاً عن طريقة زراعة المهاجرين لأراضي النضير . ويبدو ان بعض المصادر تلمح الى ان الاراضي في خيبر وفدك كانت من نصيب محمد باكملها [1] .

ومهما كان الوضع الشرعي الصحيح فقد نشأ نظام جديد في خيبر ، وطبق هذا النظام في الفتوحات التي حدثت بعد وفاة محمد ، فقد سمح للملاك السابقين بالاقامة في الارض شريطة أن يدفعوا نصف المحصول للمسلمين ،وكان يقوم بذلك مفتش يعينه محمد . وكان محمد يعطي سنوياً من « الخمس » أو « الثلث » الذي يأخذه كمية من التمر والحبوب الى زوجاته والى أفراد قبيلة هاشم والمطلب . وكانت الكميات تتفاوت بين خمسماية جمل الى مئتين . وقد قسم ما بقي من أراضي خيبر الى ثماني عشرة حصة اعطيت للمهاجرين والانصار . كما وزعت أيضاً أراضي وادي القرى . وهكذا غير الاستيلاء على خيبر حالة محمد المالية ، كما زادت بذلك أعباؤه . وهناك طريقة مسلية لتقدير ثروة محمد المتزايدة بملاحظة عدد الخيول المستعملة في الغزوات المتزايدة باستمرار . كان في بدر ٢/٦٢٤ ٣٠٠ رجل وفرسان ، وفي بدر الموعد ٤/٦٢٦ ١٦٠٠ رجل و ١٠ أفراس ، في خيبر ٧/٦٢٨ نفس عدد الرجال و ٢٠٠ فرس ، في حنين ٨/٦٣٠ ٧٠٠ مهاجر ومعهم ٣٠٠ فرس و ٤٠٠٠ أنصاري ومعهم ٥٠٠ فرس. وفي غزوة تبوك الكبرى ٩/٦٣٠ ٣٠٠٠٠ رجل و ١٠٠٠٠ فرس [3] .

---

(١) نفس المراجع ٢٨٦ حيث يذكر الخمس (٢) ابن هشام ٧٧٣ – ٧٧٦ الواقدي ٢٨٥-٢٩٦

(٣) الواقدي ٣٩-٣٩-١٦٨-٢٨٥-٣٥٨-٣٩٥

ونستطيع تقدير اهمية هذه الارقام من الناحية العسكرية اذا علمنا انه في معركة احد كانت خيالة المكيين، التي قامت بدور فاصل في المعركة، تتضمن ٢٠٠ فرس في جيش مؤلف من ٢٠٠٠ رجل [١] .

وسوف نذكر باختصار موارد رزق اخرى ، قاتل يهودي يسمى مخيرق مع المسلمين في احد وقتل وقد وهب ما يملك لمحمد [٢] . ويبدو أن محمداً استأثر لوحده بثروة الطائف . وكان ذلك بنداً معيناً في المعاهدة التي يرضى بموجبها السكان بتحطيم آلهتهم [٣] . وقد قام محمد بعد فتح مكة بالاقتراض من عدد من أغنياء مكة ، ودفع قسم من المال للتعويض على بني جهيمة [٤] . ولما كان لم يحدث سلب عند فتح مكة فان هذه الطريقة اعتبرت تسوية مفيدة .

تلك هي ، اعتماداً على النصوص ، مختلف مصادر الرزق التي انتهت الى محمد لتصرف من أجل المصلحة العامة [٥]

ولا تتطلب طريقة صرف هذه المبالغ بحثاً طويلا . يحتوي القرآن على سلسلة من التوجيهات بصدد ما يجب انفاقه . وتتشابه جميع هذه التوجيهات وان كانت تتعلق بأمور مختلفة ، بعضها يتوجه للافراد وينظم طريقة استخدام الاموال الخاصة : على الاغنياء ان يعطوا المال الى « ذوي القربى واليتامى ، والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب [٦]

---

(١) نفس المرجع ١٠٢ (٢) ابن ٣٥٤ . الواقدي ١٢٤ (٣) الواقدي ٣٨٤
(٤) نفس المرجع ٣٤٨ : ٣٥٣
(٥) بصدد الاسم « مال الله » الذي يطلق على مالية الدولة . راجع لامنس في
Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth VI 1913 403
(٦) قرآن : ٢ : ١٧٧ ، ٢ : ٢١١ ، ٤ : ٣٦ – ٩ : ٦٠ ، ١٧ : ٢٦

ويتحدث في مكان آخر عن الصدقات ، ولكن ليس بصدد المهاجرين، لأنه يتحدث عن ذوي القربى كمستفيدين من هذه الصدقات الاختيارية وهكذا نستطيع القول بأن نظـــام الصدقات الاختيارية ولد من المبادىء العامة المنصوص عليها لاستخدام الثروة . ومن الغريب انه حين نذكر اصول استخدام «الخمس» فان المستفيدين منه هم نفس الاشخاص: ذوو القربى ، اليتامى، المساكين وأبناء السبيل [1] . واخيراً نجد انه حين ذكرت في القرآن ، في وقت متاخر نسبياً ، اصول استخدام الصدقـات المحددة بمعاهدة نجد ذكر اسماء الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل [2] .

تدل هـــذه التعاليم والتنظيمات بصورة مدهشة على استمرار رسالة القرآن . وكانت الفكرة الكامنة منذ البداية هي ان موقف الاغنيـــاء الخاطىء هو سبب عدد من الشرور الاجتماعية في ذلك الوقت [3] . ولهذا دعي المؤمنون الى السخاء وحورب البخل على انه يؤدي للجحيم ، واذا قرأنا بين السطور رأينا شرور ذلك الزمن مرتبطة بنمو النزعة الفردية. فالناس يعتبرون انفسهم أولا كافراد وليس كأعضاء في قبيلة او عشيرة ، فيصبحون بذلك أنانيين ويهملون واجباتهم التقليدية التي تربطهم الى سائر اعضاء القبيلة او العشيرة حتى الى أعضاء عائلتهم . وكانت الطبـــقات الاجتماعية التي يجب التصدق اليها هي الطبقات التي قاست كثيراً من انهيار النظام القبلي . وكان اليتامى كثيرين لأن الرجال كانوا يموتون غالباً

---

(١) قرآن : ٨، ٤١ — ٤٣ (٢) قرآن : ٩، ٦٠

(٣) راجع محمد في مكة ص ١٠٥

في ريعان الشباب ، ويتركون أطفالا صغاراً. وكان من السهل على الوصي ان يستولي على الاموال التي تركها الاب . وأما ذوو القربى ، من عدا اليتامى فهم الاعضاء المعوزون من نفس القبيلة وهم ، لو استمر النظام القديم ، لتكفل بهم شيخ القبيلة ، أو أحد أعضاء القبيلة الموسرين . أما الآن فعليهم أن يبحثوا بأنفسهم عما يقيم أودهم .

وكان الفقراء ، في اول الامر ، سكان مكة والمدينة الذين لا ينتمون لقبيلة من القبائل ، أو الذين كانت قبيلتهم صغيرة لا تستطيع تقديم العون لهم . وكانت تلك طبقة من الناس لا تتكون الا بمقدار ما تقوم الجماعات على الاقليم وليس على صلة النسب. وقد أوجب ذكر العناية بالآباء والامهات اهمال الرجال النافذين لآبائهم وأمهاتهم في شيخوختهم وضعفهم ، ومن الممكن أن يكون هدف هذه التعاليم معالجة الشر الذي احدثه نظام فاسد للتجمعات العائلية في ظل روابط النسب (وسوف تبحث هذه المشكلة في الفصل الثاني) .

ويثير ابن السبيل ، الذي يتحدث عنه القرآن بعض المشاكل . من الطبيعي أن نفسر هذه الكناية بمعنى « المسافر » ولكن من الصعب أن نرى لماذا هذا الالحاح على مساعدة المسافرين . لا يمكن ان يكون نقص الضيافة مرضاً اجتماعياً في المدينة حيث نزلت معظم الآيات التي تحتوي على هذه الجملة .

وهناك نظرية اخرى تقول بأن ابن السبيل هذا هو « الضيف » اذ ان الضيف حين يقيم أكثر من الايام الثلاثة التي يجب عليك فيها ان تقوم بأوده ،

تصبح الضيافة صدقة [1] . ويصبح حسب هذا التفسير ، قرى الانصار للمهاجرين قياماً بواجب الكرم الذي يدعو اليه القرآن . ويستبعد ان تكون جماعة «ابناء السبيل» بمعنى جماعة معينة . ولهذا فليس من الطبيعي أن لا يبقى أي دليل على ذلك .

تدل أحدث التنظيمات حول الصدقة الى أي حد ازدادت أعباء محمد ، وأصبح الآن بحاجة للعمال لجمع الصدقات من حلفائه ، وكان عليه أن يدفع أجور هؤلاء العمال . كما كانت شؤون الدولة تتطلب المصاريف ، ولما كانت الدولة تيوقراطية ، كان يمكن تصنيف كل هذه النفقات على انها نفقات في سبيل الله . وهذه طريقة لنعت النفقات العسكرية لأن « القتال في سبيل الله » كانت جملة شائقة .

أما (المؤلفة قلوبهم) فكانوا في الاصل أعضاء الوفود التي جاءت الى المدينة بعد معركة حنين . وكان من عادة محمد أن يقدم لكل رجل هدية من عدة مثاقيل من الفضة [3] .

نستطيع أن نعثر على عدد من الملامح ، موزعة بين النصوص التي تمثل خلق محمد . فلقد باع في سورية جزءاً من مغانم قريظة وأسراها ، واشترى بالمال أسلحة وخيولا [4] . كما لاحظنا سابقاً ان محمداً طلب هبات لتجهيز غزوة تبوك ، وبالاضافة الى هداياه لاعضاء الوفود والى النساء اللواتي كن

---

(١) راجع طبري تفسير ج ٢ ، ٥٥٥ بعدد قرآن ١٧٢ ، ٢

(٢) راجع بل Translation I 24N°3

(٣) ابن سعد ٢ ، ١٠٢ (٤) ابن هشام ٦٩٣ ، الواقدي ٢٢١

يصحبن الغزوات ، وهذا سخاء يعتبر ضرورياً في نظر العربي ، فاننا نرى محمداً يرضى بدفع سعايات كبيرة لبعض القبائل . وهكذا أخذت قبيلة بني جعيل السعاية التي فرضها محمد على الجماعات المنهزمة في حنين ، كما وزع الجزية التي دفعها يهود مقنا على رجال سعد من جذام .

وكان هدف هذه السعايات تقوية هذه القبائل في خضوعها للاسلام [1] .

أما فيما يتعلق بدفع الديات فيبدو ان محمداً كان مسؤولا عنها حين يقتل المسلمون ، خلال الغزوات ، شخصاً حليفاً له أو يجرحونه [2] .

ولا يتعارض هذا مع البند القائل في دستور المدينة ان دفع الديات يقع على القبيلة باجمعها . وربما كان محمد يدفع الديات أو الديون حين يثير ترك دفعها للذين هم مسؤولون عنها الخصومات .

أما دفع قسم من الجزية السنوية التي يدفعها يهود خيبر الى نساء محمد وأقربائه، فربما دل ذلك على ميل الى الاستفادة شخصياً من الظروف . ويجب أن نتذكر مع ذلك، ان محمداً كانت له صلات خاصة بقبيلتي هاشم والمطلب وكان هو ، من بين جميع المسلمين ، السيد . ولهذا كان يجب ، حسب تعاليم القرآن ، أن يلجأ اليه أعضاء الامة المعوزون.

يضاف الى ذلك انه بينما كان زعماء سائر قبائل المهاجرين كعبد الرحمن بن عوف مثلا ، يقضون وقتهم في التجارة ، ويوزعون على أقربائهم الارباح التي يكسبونها ، كان على محمد أن يكرس كل وقته لواجباته

---

(١) ابن سعد ٢٤٠١٠٢ . الواقدي ٤٠٥ ما سبق ص ١٤٢

(٢) الواقدي ١٦٠ حول بني عامر . نفس المرجع ٣٣٣ وكذلك بني جزيمة .

السياسية ، فكان يحق له أن يدفع لاقربائه قسما من المال الذي يدفع له .

وكما رأينا ، كان للجماعة القائمة على النسب أن تقوم بدورها في الامة الاسلامية ، فاذا امتلك الانسان متاعاً كان لاقربائه حظ فيه . وليس من المبالغة القول انه إذا كان محمد قد أباح لزوجاته وأقربائه المشاركة في الثروات التي اخذت فيخيبر فلكي يضع موضع التنفيذ المثل الاعلى القرآني في الكرم نحو العائلة والاصدقاء .

الفصل الثامن

إصلاح البناء الاجتماعي

قلنا في كتابنا (محمد في مكة) ان اعلان الدين الجديد كان رداً على (مرض العصر) الذي سببه التطور الذي انتقل بالعرب من حياة بدوية الى اقتصاد حضري . وقد نشأت نزعة من الناحية الاجتماعية تدعو الى احلال النزعة الفردية محل العصبية القبلية . وولدت النزعة الفردية الانانية التي كان من طبيعتها أن تشوه المثل الاعلى للحياة البدوية وعاداتها لمنفعة الذين كان بيدهم بعض السلطة . كما انتشرت موجة من سخط الذين حرموا من السعي وراء السلطة والغنى . ويهدف الفصل الحالي الى دراسة الاصلاحات الاجتماعية التي قام بها محمد [1] . ولا يكفي ، مع ذلك ، مناقشتها على حدة ، بل يجب أن نحاول الحكم عليها على ضوء استجابتها لحاجات العصر ، فنرى في نفس الوقت ، ان هذه الاصلاحات ليست جديدة حقاً ، بل هي اقتباس لافكار وعادات قديمة . يجب علينا اذن

---

(١) راجع روبرت روبرتس « التشريعات الاجتماعية في القرآن » ١٩٢٥ ، حيث جمع معظم الايات القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع ودرسها على ضوء تطبيقها فيما بعد . وقد نشر المؤلف طبعة أولى من هذا الكتاب الذي كتب بالالمانية سنة ١٩٠٨

ان نحلل الصلة التي تربط بين المؤسسات الاجتماعية الجديدة وبين اطارها القديم .

١ ـ حماية الحياة والملكية

كانت المحافظة على الحياة ، قبل محمد ، تقوم على مبدأ الثأر ،وشريعة السن بالسن . ويجب أن نلح على القول بأن هذه لم تكن عـــادة بربرية تتطلب الغاءها بسرعة ، بل هي صورة من صور العدالة ، او هي قوة تهدف الى الاغتيالات الهوجاء. تبدو هذه المبادىء ، في نظر مجتمع حديث ، بربرية ، وذلك لانها تنتمي لمستوى من التنظيم الاجتماعي تجاوزناه. نضيف الى ذلك ان تحقيق الظروف الواجبة لتخطي هـذا المستوى لا تستدعي هدم العادات القديمة ، بل تحويلها .

ينتشر الثأر في مجتمع مكون من جماعات مؤلفة من أعضاء تجمعهم رابطة النسب ، فاذا ماقتل أحد اعضاء الجماعة او جرح على يد عضو من جماعة أخرى ، كان للجماعة المعتدى عليها ان تطبق شريعة العين بالعين والسن بالسن ، والحياة بالحياة . ويعود الاهتمام بالثأر الى أقرب الناس الى المعتدى عليه (من البالغين) بتاييد القبيلة باجمعها . ولئن كان مـــن الافضل ان ينزل العقاب بالشخص المسؤول عن الجريمة أو الجرح ، فانه يمكن أن يحل محله أي فرد من القبيلة . يتضح في النهايـة ان مسؤولية العمل والثأر له تقع على الامة باجمعها .

يشهد على هذه الوقائع امثلة ترجع الى العصر الجاهلي ، وكذلـــك

تصرف المكيين الوثنيين وغيرهم من اعداء الامـة الاسلامية في المدينة .
ولنذكر على سبيل المثال ، ما وقـــع للمسلمين اللذين أسرا في ٦٢٥/٤ في الرجيع فقد حملهما البدو الى مكة فاشترتهما عائلات الرجال الذين قتلوا في بدر . وبقيا في الاسر حتى نهاية الشهر الحرام ثم قتلا ، وقد قتل حبيب بن عدي [١] ، احد الاسيرين ، على يد احد ابناء الحارث بن عمرو (من جمح) وان كان هذا الابن طفلا لا يستطيع القتل [٢] . وبالرغم من انـ حبيباً ورفيقه ربما حضرا بدراً ، فلا يبدو انهما قتلا اي شخص ، ومع ذلك كان عليهما ان يدفعا ثمن ما ارتكبه المسلمون .

فاذا ما دفع أحد أعضاء الجماعة التي ارتكبت الجرم حياته ثمناً للجريمة عاد السلم بين الجماعتين . ومع ذلك فليس هناك قانون نافذ ينظم هـــذه العادات ، حتى لو وجد ، فليس هناك أية سلطة لتنفيذه . بل كانت تلك عادة متعارف عليها . ولا عقوبة لمن لا يحترم هذه العادة سوى استمرار حالة الحرب مع القبيلة الاخرى . وكان الفريقان يتنازعان غالباً حول الدية العادلة • وقد بدأت تسوء الامور في قصة حرب البسوس المشهورة حين دفع كليب (الذي ربمـا كان أقوى رجل في شبه الجزيرة العربية) بكبريائه (صهره) جساس الى قتله . وقـــد التقي أخو كليب ذات يوم بشاب ينتمي لعائلة شريفة من قبيلة جساس فقتله . وقد صرح قريب نافذ الكلمة لجساس ، وقد ظل بعيداً عن الخصام ، بانه اذا كانت حيـاة

---

(١) يخلط عادة بينه وبين حبيب بن أساف (أو يساف) راجع ابن هشام ،الدليل،وأسد، وابن حجر ، اصابة (٢) ابن هشام ٦٤ ، الواقدي ١٥٨

الشاب تعتبر مساوية لحياة كليب، فانه يعتبر القضية منتهية، فأجيب جواباً مهيئاً بأن الشاب لم يكن يساوي شسع كليب . وهكذا سارت الامور من سيء إلى أسوأ وأريق كثير من الدماء من الجهتين سنوات عديدة.

لا يمكن تجنب مثل هذه الأمور حينً لا توجد سلطة عليا وحين تكون كل قبيلة وحدة سياسية مستقلة .

ويقوم الفصل الوحيد في السلم على وساطة رجال اصدقاء للطرفين ، فاذا رضي الطرفان بالتحكيم سنحت فرصة السلم . وبهذه الطريقة انتهت حرب البسوس . ويحسب عادة بعد المعركة عدد القتلى . وكانت القبيلة التي يزيد عدد قتلاها على قتلى الاخرى تتلقى منها عدداً من الجمال عن كل ضحية زائدة . وكانت طريقة الحكم القديمة ترى في قبول الجمال تعويضاً عن الدم المسفوك عملا مشيناً ، ودليلا على الضعف . وكان هـــذا الرأي لا يزال سائداً في أيام محمد . فقد قتل أحد الانصار ، هشام بن صبابة، خطأً على يد أنصاري آخر ، فجاء أخوه مقياس إلى محمد يطلب ديـــة أخيه فدفعت له . ويبدو انه اعتبر ان شرفه لم يسلم بذلك ، فما كادت تسنح له الفرصة حتى قتل الرجل المسؤول عـن موت أخيه ، ثم فر إلى مكة[1] .

ويبدو مع ذلك ان الحكماء وذوي الافكار التقدمية في عصرهم اعترفوا بفوائد استبدال الدية بالثأر ، وهناك قصة ، لا يطمأن اليها ، بطلها عبد المطلب ، جد محمد ، وقد قبل دية ابنه مئة بعير ، وربما أدى ذلك فيما بعد

---

(٢) ابن هشام ٧٢٨ ، الواقدي ١٧٦ راجع بصدد أن قبول الدية كان عيباً ١٠ نيكلسون تاريخ أدبي للعرب كمبردج ١٩٣٠، ٩٣

الى اعتبار مئة بعير بدلا من عشرة، مساوية لحياة بشرية[1] . ونستطيع أن نرى في ذلك ، حتى لو كانت الأرقام غير صحيحة ، دليلا على ان النزعة المتزايدة في زيادة قيمة« الدية » لجعلها مقبولة وذلك بزيادة نفعها . وقد دفع ، بعض أعداء أبي جهل من المكيين ، عتبة بن ربيعة من قبيلة عبد شمس، إلى الاعتراف بأنه مسؤول عن مقتل حليفه عمرو بن الحضرمي الذي قتل في نخلة . وهكذا أمكن تجنب الحرب لأن هذا الدم المهدور كان السبب في النزاع بين المكيين والمسلمين[2] .

ذلك كان نظام الامن الذي يحمي النظام الاجتماعي في شبه الجزيرة العربية أيام الهجرة . وكان هذا النظام فعالا في مكة ، إذ عرف عن القرشيين انهم يتمتعون بالحلم ، وهو مزيج من الحكمة والنظرة الواقعية والسيطرة على النفس . بينما كان النظام في المدينة سيئاً ، وانتهى به الأمر إلى الاضمحلال . وكانت أجهزة هذا النظام مرتبطة بالامة وليس بالفرد من ناحيتين :

أولا : كان يقوم على مبدأ المسؤولية الجماعية عن الجرائم . وحين يشتد الولاء للجماعة ، يصبح من الممكن لقبيلة من القبائل أن تخفي المجرم ولا سيما في الصحراء ، حيث لا يوجد سوى النقل على ظهور الجمال ، ولكنه ليس دائماً من السهل على قبيلة بأكملها أن تختفي إلى الأبد ، والطريقة الوحيدة ، في مثل هذه الظروف ، لإقرار الأمن هي جعل الجماعة مسؤولة

(١) ابن سعد ١، ١، ٥٤ ت.هـ.وير مقالة « دية » في دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) الواقدي ٥٠

عن أفعال أعضائها . وهذا هو موقف الحكومات الحديثة المتمدنة في بعض الظروف المشابهة .

ثانياً : يهدف النظام المذكور في الظاهر إلى المحافظة على قوة كل من القبائل المتهمة في الخصومة. فاذا قتل فرد من أفراد القبيلة فيجب اضعاف القبيلة بالمسؤولية عن قتله بنفس الدرجة . ونجد هذه الفكرة في بعض تشريعات محمد .

وقد كان هذا النظام ، في مجموعه ، متاصلا في المجتمع العربي ، ولم يكن استبداله باي نظام آخر أو تحويله بصورة جذرية موضع بحث ، ونستطيع القول إن محمداً احتفظ على العموم بالمبادىء الاساسية للنظام وإنه حاول إصلاح ما فيه من مظاهر الاستغلال الخطيرة . أي ان التجديد الرئيسي الذي أحدثه محمد ليس تجديداً قط . نريد بذلك اقامة نموذج جديد من الجماعة وهي الامة الاسلامية التي لا تقوم على روابط النسب ، بل على مبايعة دينية . وكما رأينا في الفصل السابق ، فقد كان ينظر للامة على انها قبيلة . والحادث الذي أشرنا اليه بقتل الاسرى المسلمين في مكة للثأر للذين قتلوا في بدر يجعلنا نعتقد، انه في مثل هذه الحالات ، كانت الامة قبيلة في نظر أعدائها ، وهذا استنتاج ليس صحيحاً على الاطلاق ، لأنه يبدو ان الرجلين اللذين يراد الثأر لهما ، قتلا على يد الانصار وان الاسيرين كانا أيضاً من الانصار ، وبالنتيجة يكون الانصار هم المسؤولون وليس الامة . وتدل حادثة الرجلين من بني عامر اللذين قتلهما هارب مسلم من بئر معونة ، وقد دفع محمد عنه الدية ، على أن النبي كان يرضى

أن يعتبر مسؤولا عن أعمال أفراد الامة، ولا سيما تجاه القبائل التي تربطه بها محالفة [1] . فالامة حين تثار من المجرمين كانت تتصرف كقبيلة . دستور المدينة (البند ١٩) . ان المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله » وكانت الآية القرآنية التي تفرض القصاص (سورة ١٧٣،٢) على القتل تطبق على الجماعات غير المسلمة ، حتى ولو شملت منذ البداية القتل الذي يرتكب داخل الامة ، هذا إذا افترضنا ان النصف الثاني من الآية ليس اضافة متأخرة . وتذكر الآية : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب لعلكم تتقون » (١٧٥،٢) بأن الثار واجب ، وان القيام بمثل هذا الواجب صفة المسلم التقي .

وربما لم يدفع محمد الدية إلا للقبائل التي عقد معها محالفة . أما القبائل الاخرى فلا ندرك جيداً ما إذا كان ينظر للامة على انها تخضع للقاعدة التي تطبق في حالة حدوث حوادث قتل داخل القبيلة ، أي انه لا يجب المطالبة بالتعويض إلا بقدر الضرر الذي وقع . وتفترض الآية التي ذكرناها ان هذه القاعدة كانت سارية على حوادث القتل التي تقع خارج القبيلة لأنها تقول : « الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى » فاذا لم يكن محمد حليفاً لقبيلة ، فذلك لأنه كان في حالة حرب معها ، واقعياً أو نظرياً ، ويسمح بكل شيء في حالة الحرب . وكان من الضروري ، للمحافظة على سمعة الامة العسكرية ، بالنسبة للظروف الخاصة لشبه الجزيرة العربية، أن يثار لكل مسلم . وكلما ازداد عدد غير المسلمين الذين تعجز قبائلهم عن

---

(١) راجع ما سبق ص ٤٧

الثار لهم ، كلما عظم شان الامة ، ولم يكن قتل رجال بني قريظة في نظر محمد ومعاصريه ، عملا حربياً ضد عدو ، بل هو عقاب حليف لحليفه خانه . وكان بامكان هذا العمل أن يؤدي بالامة بأجمعها الى الثأر لو أن بني قريظة كان لهم ممثلون أقوياء يقومون بالثار لهم . وكلما ازدادت قوة محمد لم يعد يهتم « بالصلات الطبيعية » على الطريقة القديمة بين الامـــة والقبائل غير المسلمة . فاذا كانت هذه القبائل وثنية كان عليها أن تختار بين الخضوع للاسلام أو معاناة حالة الحرب المستمرة . أمـــا إذا كانت مسيحية أو يهودية ، فبامكانها الخضوع لمحمد مع الاحتفاظ بدينها وذلك بدفع الجزية .

نرى حاصل هذه النظرة للامة كنموذج جديد للجماعة أو القبيلة ، وهو إلغاء الواجبات المتعلقة بقانون العين بالعين والسن بالسن . وكان مثل هذا الاجراء ضرورياً لاعـــادة الامن إلى المدينة . ولذلك وجب تشطيب الحسابات القديمة . وهذا ما يعنيه البند ١٤ من الدستور « ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر » ان كان هذا البند يطبق على حالات أخرى . ويذكر محمد غالباً هذه المسألة . ويعد محمد في رسالة إلى جماء في تهامة انهم إذا أسلموا توضع عنهم واجبات الثار[١] . وكذلك يجب تفسير قول محمد للمغيرة بن شعبة حين أسلم : « الاسلام يجب ما كان قبله »[٢] . ويقول محمد في إعلانه للمكيين عند فتح مكة على ان « كل ماثرة أو دم أو مـال

---

(١) ابن سعد ٢، ١، ٢٩، ١٩ (٤٦)
(٢) نفس المرجع ٢، ٤، ٢٦

يدعى ، فهو تحت قدمي»[1] .

ولا شك أن أسباباً عملية دعت محمداً إلى صياغة مثل هذا المبدأ ، كما انـــه أراد أن يعلم الجميع أن الاسلام ليس فقط تحالف قبائل وبطون موجودة ، بل هو وحدة جديدة ، وبهذا يكون الانتماء للاسلام قطع كل علاقة بالماضي .

وليس هناك من جديد في علاقة الامة بسائر الجماعات . وكان بامكان محمد أن يدخل الاصلاحات داخل الامة . وعندما نقرأ أخبار ما فعل يبدو لنا شيئاً هزيلا . غير أن الاصلاحات التي حار بها محمد ، في الظروف الخاصة بالعصر ، كانت مجدية وحققت هدفها ألا وهو استتباب الأمن داخل الامة .

ونجد بعض الاشارات التي تدل على أن القتل وغيره من الجرائم يجب اعتبارها راجعة للامة بأجمعها . وهاك البند الثالث عشر من الدستور :

« إن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى وسبقه ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وان أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم » .

ويقول البند ٢١ بأنه من اعتبط مؤمناً قتلا عن بينة ... فان المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه . ويمكن أن تقارن هذه التشريعات بآية من القرآن تقول : « من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من

---

(١) الواقدي ٣٣٣ راجع خطبته في حجة الوداع ، ابن هشام٩٦٨
الواقدي ٤٣

قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً » (سورة ٢٥ آية ٢٥) ويعتقد بل ان هذه الآية ربما ترجع إلى الفترة المدنية الاولى وانه حل محلها فيما بعد مقطع آخر .

نستطيع ، اعتماداً على هذه النصوص ، أن نفترض أن محمداً ، في البدء، حاول أن يخرج من نظام الأمن الذي جاءت به الجماعات القديمة المرتبطة بروابط النسب ، لكن قوة هذا المبدأ جعلته يتراجع عن مشروعه . وسنرى ان روابط النسب احتلت ، فيما بعد ، مكانها اللائق في النظام الذي أقامه محمد في المدينة . ويقول القرآن « ان من قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً »[1] .

وهذه الفرضية المذكورة مغرية بالبديهة ، ولكن لا يمكن الأخذ بها لأنها لا تأخذ بعين الاعتبار بعض الوقائع . فقد دلت أقدم بنود الدستور على أن القبائل الاولى المدنية كانت جزءاً من نظام الأمن ، وكانت تتحمل مسؤولية الديات ، ونستطيع افتراض أن ذلك لم يكن يتعلق بجماعات خارجة عن الامة فقط ، وانه لم تكن هناك طريقة لتنظيم الامة بدون أن تكون القبائل مسؤولة عن الديات . يجب إذن ان نفضل على الفرضية المذكورة الرأي القائل بأن البندين ١٣ و ٢١ يجب أن يفسرا سلبياً وإيجابياً . أي انهما لا يقرران أية طريقة لإقامة العدل ، ولكنهما يحرمان على المؤمنين ، اعتماداً على الوفاء الواجب نحو الأقرباء المقربين ،

---

(١) قرآن : ١٧، ٣٥ لتأكيد الحقوق الواجبة لروابط الدم، راجع قرآن : ٨، ٧٦

أن يتدخلوا في سير العدالة . ولما كان محمد لا يملك أية قوة بوليسية تسمح له بمعاقبة المجرمين وجب أن يترك أمر تنفيذ العقوبة بالقوة إلى أقرب الناس للضحية .

اعتمد إذن نظام الأمن القائم في المدينة ، منذ البداية ، وهذه خلاصة رأينا ، على مبدأ الثار للدم بالدم على يد أقرب الناس للضحية . ونُص على قانونين ، أو أعيد النص عليهما ، وقد روعيا تماماً لمنع تراكم الحقد الذي يثيره الثار ، من أن تزداد أهميته فيقضي على النظام بأجمعه .

القانون الأول هو أن العقوبة لا يجب أن تتجاوز الخطأ الذي تعاقب عليه ، فلا يجب أن تعتبر الحياة مساوية للشسع[1] ، كما لا يجب الاخذ بمبدأ الحياة بالحياة بل الأفضل الاكتفاء بعقوبة أقل من الخطأ ، وأفضل من كل ذلك الصفح والغفران[2] . وهكذا يقف المثل الأعلى الاسلامي مقابل المثل الأعلى للجاهلية . كما يتضمن المثل الأعلى الإسلامي مبدأ المساواة بين جميع أعضاء الأمة . يشهد على هذه الفكرة حادثة وقعت أيام الخليفة عمر : فقد ضرب جبلة بن الايهم ، أحد نبلاء الصحراء ، على وجه رجلٌ من قبيلة مزينة ، وكان جبلةَ ينتظر ، بسبب مكانته ، أن تنزل عقوبة قاسية بحق المعتدي ، غير انه كل ما سمح له به هو ضرب الرجل على وجهه ، وقد بلغ من استيائه انه ارتد عن الاسلام وعاد إلى

---

(١) قرآن : ٥، ٤٥، ١٦، ١٢٦ – ١٧، ٢٧، ٣٣، ٤٢، ٣٧

(٢) « : ٥، ٤٥، ١٦، ١٢٦، ٤٢، ٣٧

الدين المسيحي والولاء لبيزنطية [١] .

والقانون الثاني ينص على انه متى تم الثار فيجب اعتبار القضية منتهية. ولا يمكن إنزال أية عقوبة عادلة لمقتل رجل وإن كان مقتله قد وقع اثر انتقام عادل [٢] .

ونستطيع القول ان هذه صورة قديمة للمبدأ القائل بأن الجلاد لا يتهم بالقتل . ونحكم على مدى تأثير النزعة الفردية في الامة الاسلامية من الفكرة التي نشات فيما بعد والقائلة ان القاتل نفسه يمكن أن يقتل بعدل ، وذلك بتأويل قول القرآن بهـــذا الصدد [٣] . وتسمح ألفاظ القرآن بمعانيها البديهية أن يقتل رجل بنفس الأهمية من قبيلة القاتل . كان هذا القانون الثاني معروفاً في أيام الجاهلية. إذ يذكر الواقدي حادثة أجمـــع فيها القرشيون على أن الثار قد انتهى ولكن عـائلة القتيل ألحت على متابعة الثار [٤] .

القانونان في الواقع هما قانونان عربيان قديمان يكررهما القرآن . ولئن كان يبدو أن مفعولهما كان محدوداً ، فقد جلبا الأمن الداخلي للمدينة .وقد أمكن ذلك بعد الهجرة ، وإن لم يكن قبل الهجرة ، لأن محمداً كان الحكم المستمر الذي تحمل اليه الخلافـات . وكان وجود محمد في المدينة عامـلا جديداً أتاح لهذين القانونين أن يطبقا عند اللزوم .

---

(١) نيكلسون : التاريخ الأدبي للعرب ، ٥١ . ابن سعد ٢،١٠٢،٢٠٢
(٢) قرآن : ٢،١٧٣،٢،٤٢،٣٧ . راجع ٢٢،٥٩–٦٠
(٣) راجع : شاخت ومقالة « قصاص » و « قتل » في دائرة المعارف الاسلامية
(٤) الواقدي ٤٣

لا يعني حض القرآن على الصفح ، الذي أشرنا اليه ، الغاء العقوبة بأجمعها . إذ أن الاستعاضة بالجمال عن الحياة البشرية ، في عالم يقول بأن الدم يستدعي الدم ، أي « الاستعاضة بالحليب عن الدم » ، كما يقول العرب ساخرين ، يعتبر خطوة في طريق الصفح ، وهذا ما يفهم من الصفح في هذه الآيات القرآنية ، إذ أنه متى دفعت دية الدم ، لم يعد هناك سبب لسفك دم آخر . ويمكن القول بأن مصلحة محمد كانت استتباب الأمن في المدينة ، ولهذا شجع استعمال دفع المال دية للدم المسفوك . ويبدو كما رأينا ، ان مئة بعير دية للقتيل كانت مقبولة قبل عصر محمد ، ولكن النبي اعترف رسمياً بهذه المعادلة وغيرها ، حيث نجد مختلف الحيوانات وأنواع الحبوب[1] ، و ١٠٠ بعير أو ٢٠٠ شاة ثمن مرتفع . ولا شك ان الاغراء بقبولها كان قويا .

ومع ذلك لم يكن أي إنسان مجبراً على قبول المال تعويضاً عن الدم . ويقول القرآن بوضوح « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل[2] » . وإذا قبلنا صحة خطاب محمد بعد سقوط مكة ، فإن على أهل القتيل أن يختاروا أحد أمرين « دم قاتله » أو « عقله » .

وربما جرت الامور على هذا المنوال في السنوات الأخيرة من حياة محمد حين دخلت قبائل عديدة ، لأسباب سياسية أكثر منها دينية ، في نظام الأمن الذي أقامه النبي . ولا تتفق هذه الفكرة مع ذلك مع آية من القرآن

---

(١) نفس المرجع ٤٢٠

(٢) قرآن ٤٢ ، ٣٩ ولكننا نجد عند الواقدي ٣٦٦ ان قبول الدية إجباري وربما ذلك لأن عيينة لم يكن سوى حليف غير مسلم .

علينا أن نحلها الآن .

تميز هذه الآية[1] بين حـــالات مختلفة : فمن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم ، ومن قتل مؤمناً خطأ فدية مسلَّمة إلى أهله إلا إذا كان مؤمناً وعائلته غير مؤمنة . ويجب على الشخص المسؤول في جميع حالات القتل الخطأ للمؤمنين ، أن يدفع لتحرير رقبة مؤمنة . وهذا البند الاخير مهم لأنه يدل على اهتمام يشبه الاهتمام في الجاهلية بالمحافظة على قوى كل من القبيلتين المتخاصمتين ، وتقوم الصيغة الاسلامية على المحافظة على عدد الرجال الاحرار الذين أسلموا . ويذكر مصير الرجل الذي يقتل عمداً مؤمناً بنظريات القانون الديني القديم ، إذ أن قتل القريب كان جرماً لا يغتفر[2] . وربما كان التمييز بين القتل عمداً والقتل خطأ جديداً ، غير ان تأثيره قليل لانه في كلتا الحالتين يجب دفع الدية . وإذا قتل اليوم في بعض البلدان الاسلامية ، سائق سيارة طفلا ، فان عليه أن يدفع تعويضاً ، حتى لو ثبت أن الطفل كان مخطئاً . ولقد حدث، في حياة ، محمد أن قتل مسلمون على يد مسلمين ، لانهم لم يكونوا يعرفون أنهم مسلمون[3]، يعتبر القتل في مثل هذه الظروف ، قتلا عن عمد ولكن ليس قتل مسلم . ونشعر من خلال هذا المقطع أننا أمام تنظيم يرجع إلى أوائل الفترة المدنية . وربما وضعت بعض التفاصيل جانباً في السنوات الثلاث أو الاربع الاخيرة .

---

(١) قرآن : ٤، ٩٤–٩٥

(٢) *Robertson Smith : Kinship and Marriage in early Arabia* *Cambridge 1885 . 161*

(٣) قرآن : ٤، ٩٤ الواقدي ٢٣٥ ابن سعد ٤، ١–٢٢

ثم نشأ نقـــاش طويل حول تفسير قول القرآن بأن الجحيم عقاب قتل المؤمن عمداً [١] .

كانت الامة ، ولا شك ، حين نزول هذه الآيات لا تزال صغيرة ، كما فسرت الآيات تفسيراً حرفياً .

يمكن أن نذكر هنا وأد البنات ، وإن كان بالنسبة للعرب علاقـــته ضعيفة بالقتل . كانت عادة قديمة عربية (وهي موجودة عنـد غيرهم من الشعوب) تقضي بالقضاء على عدد من الاطفال البنات [٢] . وكان سبب ذلك الفقر [٣] ، يضاف اليه ضرورة المحافظة على مستوى معين من الاعمار والاجناس في القبيلة ، إذ كانت قوة القبيلة تعتمد على رجالها البالغين ، وكان باستطاعة النساء ، كامهات للابناء ، أن يساعدن على تقوية القبيلة ، ولكن الزمن طويل بين ولادة الفتاة وبلوغها ، وكان هناك حد لعـــدد النساء والاطفال والحيوانات الذي يستطيع البالغ القادر على حمل السلاح حمايته بصورة فعالة . ويبدو أن الفتيات الصغيرات كن يقاومن أكثر من الفتيان الصغار . فقد فقد محمد ، من بين الاطفال السبعة الذين أنجبهم من خديجة ، الذكور الثلاثة ، بينما بلغت جميع الفتيات سن الزواج ، وكانت هذه العادة بوأد البنات منذ ولادتهن محرمة أيضاً في الديانة القديمة [٤] .

---

(١) راجع النحاس كتاب الناسخ والمنسوخ ١١٢

(٢) قرآن ٨١،٩ . روبرتسون سميث ١٥٢ . روبرتس ٩٤

(٣) قرآن ١٥٢،٦ ، ١٧ ، ٣٣ ، ١٦ ، ٦٠ – ٦١

(٤) قرآن ١٣٨،٦ راجع تضحيات الاطفال في العهد القديم

ويقول القرآن ان هذه العادة خطأ كبير لأن الله يرزق جميع البشر [1]

ولقد قلت الاسباب الداعية لخشية ازدياد السكان في عهد محمد المتفائل بسبب التوسع السياسي والاقتصادي . وكانت معارضة محمد للوأد، إلا في حالة إعلان الارادة الالهية بهذا الصدد دون اعتبار الظروف الاقتصادية ، دليلا جديداً على مشاريعه الطويلة الامد في توسع الامة . ولا يبدو أنه لسوء الحظ ، بالإمكان تعيين تاريخ دقيق لهذه الآيات القرآنية . ونستطيع أن نكون على ثقة من أن محمداً ، عدا هذه التشريعات التي تهدف لإيقاف مسلك إجرامي مناقض للمجتمع أو تعديله ، كان مشغولا باستمرار بتحقيق العديد من التحسينات التفصيلية التي تساعد بصورة إيجابية على استتباب الامن واستقرار السلم . حتى إذا لم يكن حل المشكلة بديهياً ، كان من عادة النبي أن يبت في المشكلة بدفع الدية بنفسه [2] متبعاً ومقتدياً في ذلك بكبار شيوخ الجاهلية [3] .

كما أن إعلان يثرب حراماً يجعل الاشرار يترددون في سفك الدماء [4] . وكانت عقوبة شديدة جزاء السرقة [5] كما حددت حقوق الملاك الزراعيين وواجباتهم مما سهل فيما بعد تسوية الخلافات بشأن الاراضي [1] .

---

(١) قرآن ١٧، ٣٥

(٢) الواقدي ١٨٨ (حسان بن ثابت) ٣٤٢،٢٩٣ (خزاعة) .

(٣) الواقدي ٥٠ . السمهودي ١٤٦ . دفع بنو زريق لاسباب سياسية الدية حين قتل أحد أبنائهم على يد شخص من بني معلا . (٤) الدستور البند ٣٩ ، راجع ما سبق ص ٢٧١

(٥) قرآن ٥، ٤٢ راجع روبرتس ٩٥ - ٩٤ دائرة المعارف الاسلامية (١)

(٦) ابن سعد ٢،١٠٢، ٢١ (٤٢٩)

ويبدو ان الاصلاحات التي جاء بها محمد في القضايا المتعلقة بسلامة الحياة والممتلكات، قليلة الاهمية ولم تكن، مع ذلك، عديمة الجدوى، بل كانت فعالة. فقد حل محل فترات الهدوء التي اعتاد عليها البدو بين غارتين، نظام ضمن الامن للامة، وأتاح للعرب أن يعملوا معاً خلال قرن من الزمن في إدارة ممتلكات واسعة حتى اليوم الذي ظهر فيه من جديد ان الدم المسفوك أقوى من الروح الدينية. وكان ذلك أفضل ما يمكن في الظروف التي كانت تعيش فيها شبه الجزيرة العربية أيام محمد؛ إذ لم يكن عند محمد شرطة تحفظ الامن. وربما كانت فكرة تنظيم من هـذا النوع مجهولة من العرب. فكان جميع النـاس ضمنياً رجال شرطة أو أشراراً. ولو قلنا بأنه كان يملك سلطة خارقة لما استطاع محمد سوى معاقبة الاشرار، ولكنه خلال الجزء الاكبر من الفترة المدنية، لم يكن له قوات للقيام بهذا العمل.

وكان لا يزال للعصبية القبلية القديمة تأثير قوي فيا يتعلق بمسألة الدم المسفوك. وكان للمزيج الذي استطاع محمد تحقيقه في الحالة الراهنة، بمزج العادات القديمة والتعاليم الجديدة، جاذبـية ألهبتهم حماساً للنظام الجديد. وهكذا فان الطريقة التي عالج بها محمد هذه المسائل، وإن لم تكن ثورية، كانت نتيجتها ثورة فتحت عهداً جديداً في الامـن والسلامة.

---

(١) الواقدي ٢٩٢

٢ـ الزواج والعائلة

أ ـ الحالة السائدة :

يروي لنا الادب العربي كثيراً من الوقائع المتعلقة بالزواج والعائلة في الجاهلية . وليس من السهل مع ذلك أن نحكم على الحالة السائدة في ذلك الوقت ، وليس هناك من رأي مقبول عامة يمكن الاطمئنان اليه . ولكي نفهم ما جاء به في هذا الميدان المشرع القرآني والادارة المحمدية ، ولقدره حق قدره ، من الضروري أن يكون لدينا فكرة عما كان سابقاً . وما سياتي هو فرضية لا تخلو من أساس ، حتى ولو كانت هذه النظريات خاطئة في كثير من تفاصيلها ، فانها تساعدنا مع ذلك على أن نقدر بصورة أفضل عمل محمد .

نجد في الروايات المتعلقة بشبه الجزيرة العربية قبل الاسلام كثيراً من الادلة على وجود نظام اجتماعي قائم على تقديس الأم . ونجد ذكر رجال ونساء ينتمون لقبيلة أمهم . كما نجد قبائل وأفراد يذكرون باسم « أبناء فلانة أو فلانة » . وكان يشرف على الممتلكات التي تخص جماعة سلالة الام الخال (أخ الام) . وكان يتخذ طابعاً خاصاً . فكانت النساء تبقى في مواطن العائلة ويأتي الازواج بين حين وآخر . وهكذا كان للمرأة غالباً عدة أزواج « زائرين » في نفس الوقت . وهناك

نوع من الزواج [١] ، أو المعاشرة المؤقتة ، يصعب تمييزه عن الدعارة . وكانت بعض الزيجات من ناحية ثانية ، مستقرة نسبياً ، لأنه كان للمرأة أحياناً ستة أطفال على الاقل من نفس الرجل . وكان الطلاق يقع غالباً ولهذا يبدو ان كثيرات من المسلمات الاوائل اللواتي وصلتنا سير حياتهن كان لهن زوجان أو أكثر على التوالي .

وبينما كان هذا النظام « الأمي » يسيطر على القسم الاكبر من شبه الجزيرة العربية ، وجد التنظيم الابوي في بعض الاماكن . وكان انتشاره أوسع ما يكون في مكة مع وجود بعض العادات « الامية »، كما نجد له آثاراً في المدينة وغيرها . وكانت العائلة في التنظيم الأبوي تتألف من الاقرباء من ناحية الأب . وكان الافراد يحملون أسماء آبائهم ، كما تسمى القبائل «بابناء فلان أو فلان» . وكانت الممتلكات ، إذا كانت مشتركة ، تخص قبيلة الأب . وإذا كانت الممتلكات تخص شخصاً ، فان أبناءه أو اخوته هم الذين يرثونها (لأن حق البكرية لم يكن موجوداً في شبه الجزيرة العربية) . وربما استمرت النساء المتزوجات في الإقامة في بيت العائلة ، وربما لم يكن للمرأة سوى زوج واحد (يجب ان لا ننسى ان المستندات التي نعتمد عليها في زمن حل فيه النظام « الأمي » ولهذا يميل الكتاب الى المبالغة بالتجديدات التي كانت في عصر محمد . وهكذا الانساب دائماً انساب ذرية الاب ، ولذلك تنقصنا المعلومات عن القرابة من ناحية النساء أو انها تحتل المكان الثاني .

---

(١) النوع الرابع حسب الحديث الذي يرويه البخاري

وجدت حوالى الهجرة عادات أمية وأبوية جنباً إلى جنب في المجتمع العربي ، وكانت في بعض الاحيـــان تختلط فيما بينها . والتفسير الذي سنعتمده، كفرضية أساسية ، هو أن النظام الامي سيطر في شبه الجزيرة العربية ، فترة طويلة من الزمن، بينما كان ظهور النظام الأبوي حديثاً نسبياً ، وقد ارتبط بنمو النزعة الفردية . قلنا في كتابنا محمد في مكة إن ألفاظ القرآن تفترض انهيار العصبية القبلية ونشوء نظريات فردية .

وتتفق هذه الفكرة تماماً مع ظهور العادات الأبوية في النظام الاجتماعي . وتعني النزعة الفردية فيما تعنيه أن الانسان يتملك لاستعماله الشخصي الاملاك التي كانت تعتبر حتى ذلك الوقت ملك الامة ، وإن كان يديرها للمصلحة المشتركة . ولهذا يصبح من الطبيعي بالنسبة إليه ان يهتم ، منذ الآن فصاعداً ، بأولاده[1] ، ويتمنى أن يرثوا الثروة التي يملكها .

كان المجتمع العربي ، أيام الهجرة ، في أوج تطوره . وقد أخذت النزعة الفردية بالازدياد وازدادت معها النزعة للاستعاضة بالنظام الأبوي عـــن النظام الامي ، وقد سنحت الفرص ، في فترة الانتقال ، لرجال فاقدي الضمائر أن يستغلوا أقرباء لهم أضعف منهم ويشتهروا على حسابهم . تلك هي البيئة التي يجب احلال الاصلاحات القرآنية فيها .

ب ـ الاعتراف بالأبوة :

ينتمي الطفل في النظام الامي إلى عائلة أمه ، ولهذا لم يكن لمعرفـــة

---

(١) قرآن : ١٤:٦٨، ١٤:٧٤، ١٣

الوالد الحقيقي سوى أهمية ضئيلة ، حتى إذا ما أخـــذ الرجال بالاهتمام باطفالهم أصبح من الطبيعي أن يحاولوا التأكد من أبوتهم الجسدية، فيما يتعلق بأبناء زوجاتهم . وقد شجع الاصلاح القرآني هذه النزعة ، ومن أهم ما اهتم به « العدة » وهي فترة الانتظار التي يجب عـــلى الأرمل أو المطلق أن تقضيها قبل الزواج مرة ثانية ، وهدف هـذا الانتظار، الذي كان عادة ثلاثة أشهر أو أربعة اكتشاف ما إذا كانت الارمل أو الطالق حاملا من زوجها السابق. ولا يجب على الزوج، عند طلاق زوجه ، أن يتخذ أي إجراء ، خلال فترة العدة ، يحول دون إلغاء الطلاق ، فيما لو أنجبت له زوجه طفلا [1] . وإذا لم يتم الزواج فليس مـــن الضروري مراقبة العدة قبل الطلاق ، والزوج حامل، فان عدتها تستمر حتى بعد ولادة الطفل ، فإذا طلق الوالد بعد ذلك فعليه أن يطعم الام ويكسوها خلال مدة الرضاعة ،أي أثناء سنتين ، إلا إذا اتفق الوالدان على تقصير المدة أو تعيين مرضع للطفل [3] .

جـ ـ تعدد الزوجات :

يقول المسيحيون عادة إن الطابع المميز للزواج الاسلامي هو أن بامكان الزوج أن يتزوج من أربع نساء . وتعتمد هذه العادة على آيـــة غريبة من القرآن (سورة ٤ ، آية ٣) « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى

(١) قرآن : ٢، ٢٢٨ وما يليها (٢) قرآن : ٢، ٢٣٧–٣٨
(٣) قرآن : ٢، ٢٣٣، ٦٥، ٦

فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث وربـــاع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى أن لا تعولوا » .

المسألة المهمة هي أن الآية لا تعين حداً لتعدد الزوجات ، فالقرآن لا يقول للرجـــال الذين يملكون ست أو سبع نساء : « لن يكون لديك أكثر من أربع نساء » . بل هو على العكس يشجع الرجال الذين ليس لديهم سوى امرأة واحدة أو اثنتين على الزواج حتى يبلغ الاربع .

ليست القضية إذن تحديد العادة القديمة ، بل إدخال عادة جديدة والآية لا تتحدث عن سكن النساء ، ربما عليهن أن يسكن عـــند زوجهن . لن يكون في الامر تجديد كبير إذا كان على الزوج ذي الزوجات الكثيرات أن يذهب لزيارتهن . وكانت نساء محمد تسكن معه ، لكل واحدة مسكنها الخاص . وهناك نصوص أخرى غير القرآن تتحدث عن الزواج ، ويفهم منها ان النساء تسكن عند زوجهن . وعلى المرأة المطلقة أن تبقى في عائلة زوجها حتى تمر عدتها [1] ، كما يجب على المرأة التي توفي زوجها ولم يترك لها مسكناً أو مالا أن تظل حيث كانت ، ولا ترجع إلى اخوتها إلا بعد مرور أربعة أشهر [2] . وهذه الناحية الأخيرة متاخرة ، وربما كانت صدى لظروف لاحقة ، ولكنه كان من الصعب ، في مجتمع قائم على ذرية الام ، أن يتزوج الرجل من عدة نساء في نفس الوقت. نستطيع إذن الافتراض ان الآية السابقة غرضها تشجيع الرجال على تأسيس عدة

---

(١) قرآن : ٦٥،٦

(٢) ابن سعد ج ٨ ، ٢٦٨

عائلات حسب النظام الأبوي ، ولا يمنع هذا من تنظيم آخر ممكن [1] .

وقد اعترف علماء أوروبيون ، بأن آية القرآن هي حض وليست تقييداً ، وأكدوا انه لم توجد حالات واضحة لتعدد الزوجات في المدينة قبل الإسلام [2] .

نجد في سير الحياة التي يذكرها ابن سعد أمثلة كثيرة لرجال يملكون أكثر من امرأة ، كما توجد أمثلة لنساء لهن أكثر من زوج واحد. ولا نعلم ما إذا كانت الزيجات عقدت معاً أو على التوالي . أما في حالة النساء فيقال عادة ان زوجاً حل محل آخر ، ولكن هذه الطريقة في التعبير عن الوقائع يمكن أن تكون نتيجة بيئة اسلامية أثرت على الكاتب . ويبدو في بعض الحالات ان رجلا وامرأة من نفس القبيلة تزوجا وانهما عاشا في نفس البيت ، غير أن الزوج كان يذهب في بعض الاحيان لزيارة امرأة من قبيلة أخرى ، بينما كانت الزوجة تستقبل رجلا غريباً . وهكذا نجد في قبيلة دينار بن مالك النجار ان أربع نساء كان لكل واحدة منهن زوجان (وثلاثة في بعض الحالات) ، وكان لكل منهن زوج من نفس القبيلة ، وواحدة كان لها زوج ثانٍ من دينار والاخريان كان لهن زوج ثانٍ أو ثالث من قبائل مجاورة [3] . وهناك أمثلة (بعضها ماخوذ من المدينة) على رجل تزوج اختين ، وهذه خطوة نحو تعدد الزوجات ،

---

(١) فلهوزن *Die Ehe bei den Arabern* * 469

(٢) *Snouck Hurgronje , Verspreide Geschriften I. 233*

(٣) ابن سعد ٨ ، ٢٠ ، ٣٢ الذي لا يذكر هذيله .

وإن كانت المرأة في هذه الزيجات سكنت دائماً عند عائلتها . ويقال بأن أبا أهيهة سعيد بن العاص (من عبد شمس من القرشيين) ، كان أول من جمع بين اختين كزوجتين[1] .

وكانت النساء ، كما كان يحدث في مكة ، تقيم عند الزوج ، ولكننا لا نستطيع أن نكون واثقين من ذلك . ويروى أن رجلا من الطائف كان عنده عشر زوجات وفي نفس الوقت[2] ، ولا نعلم في الحقيقة شيئاً عن النظام الاجتماعي ، في الوقت الذي كانت تحدث فيه هذه الامور ، ومن ومن التهور الاعتماد على هذه الروايات لاصدار حكم عام وهناك أسباب وجيهة تدعو الى الاعتقاد بانه لم يكن من المعتـــاد ، في شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي ، ولا سيا في المدينة ، أن يكون للرجل أكثر من امرأة تعيش معه في بيته .

يتفق هذا الرأي مع الحديث القائل بأن الآية القرآنية حول تعدد الزوجات نزلت بعد معركة أحد ، فقد قتل في هذه المعركة حوالى سبعين مسلماً ، معظمهم من المدينة ، فكان عدد الارامل ، اللواتي تقع مسؤولية العناية بهن على الامة ، كبيراً . وقد نزلت الآية بالتشجيع على تعدد الزوجات لمعالجة هذا الازدياد المباغت في عدد النساء الارامل . ويجب أن نلاحظ مع ذلك ، ان القرآن يربط هذه المسالة بالعدل نحو اليتامى ، ويجعلنا ذلك نعتقد ان المشكلة لم تكن عدد الارامل بل البنات العازبات

(١) الشهرستاني ، كتاب الملل والنحل ، طبعه كورتن ، لندن ١٨٤٦ ، ٤٤٠

(٢) أسد غيلان بن سلمة

اللواتي كن في رعاية اعمامهن ، او ابناء اعمامهن ، او غيرهم من الاقارب ويمكننا أن نتخيل، بفضل بعض الاشارات الموجودة في النصوص[1] ، ما هو مصير النساء والفتيات اللواتي عهد بهن إلى رعاية أناس أنانيين فكانوا حريصين ، لكي يستمر اشرافهم على أملاكهم ، على عدم تزويجهن . وكان من الصعب عليهن إصلاح امورهن دون التعرض لأوصيائهن الشرعيين .

كانت هذه الحالة سيئة ، ولا سيا في المدينة حيث يسود النظام «الامي» لأن العادة الجديدة كانت تعهد بالوصاية إلى الأقارب من جهة الرجال ، تلك كانت الحالة التي حاول القرآن تحسينها بتشجيع تعدد الزوجات .

وربما لم يكن في نية محمد أن يتزوج الاوصياء الفتيات اللواتي في عهدتهن ، وإن كان الامر ممكناً ، إذا لم يكن هناك مانع من جهة القرابة . أن الفكرة الرائدة في القرآن ، هي انه إذا تبنى المسلمون تعدد الزوجات ، فان جميع الفتيات اللواتي هن في سن الزواج يمكنهن الزواج بصورة حسنة .

وزيادة النساء الذي تفترضه عادة تعدد الزوجات يفسر بسهولة بخسارة الرجال في معركة أحد وخلال الغزوات الاخرى . كما يمكن أن يكون ازدياد عدد النساء من خصائص المدينة وشبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت . وكان عدد الرجال الذين يقتلون في الغزوات وحيوية المواليد الاناث تسبب فائضاً من النساء يعوض بدوره عن طريق وأد

---

(١) راجع قصة كبيشة بنت معن ، روبرتسن سميث ٨٤، ٢٦٨

البنات وبيع النساء في الاسواق الخارجية [1] .

ومهما كانت الحالة قبل محمد ، فقد وجد فائض من النساء بعد أحد . كما ان القرآن يشجع الزواج وإنجاب الأطفال [2] . وذلك نتيجة للثقة في نجاح تعاليم محمد وفضائلها ، ولا يجب أن يمنع الفقر الرجال من الزواج ، لأن الله يرزق عباده ، كما لا يجب أن يدفعهم لوأد البنات . ولقد أدخلت انتصارات الاسلام الاولى الثقة في قلوب المسلمين ، وكانوا مع ذلك ، طالما ان نهاية النضال مجهولة ، يقامرون في انجاب الاطفال بكل شيء على نجاح النبي ، ولقد أدرك النبي نفسه الحاجة المتزايدة إلى الرجال لتحقيق مشاريعه الواسعة في التوسع الذي سيدفع بالمؤمنين خارج تخوم شبه الجزيرة العربية . كما يجب أن نذكر أن العرب كانوا يعرفون تجنب الحمل « بالعزل » ولهذا حرم محمد هذه العادة ، ولم يسمح بها إلا في الحالات التي يدعو اليها فيها سبب خاص [3] .

نستخلص من ذلك ان تعدد الزوجات (التي تسكن عند أزواجها) الذي اعتبر مدة طويلة من الزمن في نظر المسيحيين من خصائص الاسلام ، كان بدعة جاء بها محمد . وربما وجدت بعض الامثلة عليه قبل مجيء محمد ، ولكنها كانت أمثلة قليلة الانتشار . وكانت هذه العادة غريبة على تفكير أهل المدينة . وقد عالج هذا التغيير المساوىء التي نتجت عن ازدياد النزعة الفردية إذ أن تعدد الزوجات يسمح للنساء الكثيرات

---

(١) راجع ما سبق ص ٣٢٨ (٢) قرآن ٢٤، ٣٢، ٢، ٢٢٣

(٣) البخاري ، نكاح (٦٧) ٩٦ ، الواقدي ٣٣٦

بالزواج الشريف ، كما يضع حداً لاضطهاد الأرامل اللواتي تحت الوصاية، كما يخفف من اغراء الزواج المؤقت الذي يسمح به مجتمع عربي ذو عوائد (أمية) . ويجب اعتبار هذا الاصلاح ، بالنظر لبعض العادات السائدة آنذاك ، تقدماً مهما في تنظيم المجتمع .

د ــ موقف القرآن من علاقات غير الزواج :

لكلمة « نكاح » العربية التي نترجمها عـــادة بكلمة « زواج » معنى أوسع من مرادفاتها العربية . وقـــد حدد معنى « النكاح » في التشريع الاسلامي على انه عقد يجعل العلاقات الجنسية وانجاب الاطفال شرعياً[1] وتسمى بعض أنواع العلاقات التي كانت تستحسنها عـادات الجاهلية أنواعاً من النكاح ، وإن كانت أقرب إلى الدعارة ، في نظر الغربيين ، منها إلى الزواج وليس من الضروري أن نناقش هنا مفصلا هذه النماذج من تعدد الازواج للمرأة الواحدة . ويكفينا أن نلاحظ ان القرآن يميز بين النساء اللواتي لا يكتفين بذلك (مع موافقة العادات على ذاـــلك) ويمكن تسمية هذين النوعين مـن النساء ذوات الرجل الواحد ، والنساء ذوات الرجال المتعددين وهكذا يسمح للمؤمنين في الآية (٥) من السورة (٧) بالزواج من نساء الانصار أو اليهود شريطة أن يكن « محصنات »، وترجع هذه الآيات بدون شك إلى السنة الاولى لإقامة محمد في المدينة . وتتراءى لنا الصعوبات المالية من جراء منع تعدد الازواج ، بسبب المبالغ الضخمة

A.A.A. Fyzee. *Outlines of Muhamadan Law.* Londres 1949 . 74

التي تدفع للنساء كصداق، في حض الذين لا يجدون نكاحاً على التعفف حتى يغنيهم الله من فضله (سورة ٢٤ ، آية ٣٣) . وتشير نفس الآية إلى جانب آخر من المشكلة المالية : « ولا تكرهوا فتياتكم عـــلى البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا . ومن يكرههن فان الله من بعد إكراههن غفور رحيم » ومن المستحيل معرفة ما يتضمنه حقاً هذا الجزء من الآية .

ويبدو أن السورة (٤) الآيات ٢٤ ـ ٢٨ تجيز الاتصال الموقت بنساء متعددات الازواج . ويقول بعض المثقفين المسلمين القدماء ان هذه الآية تبيح المتعة ، ولكنهم يتفقون على ان هذه الآية قد نسخت .[١]

وإضافة كلمات « حتى أجل مسمى » في بعض نصوص القرآن يؤيد هذا التأويل . وتوصف المتعة عادة بأنها « زواج موقوت » في كتب الفقة الاسلامي وإن لم تكن زواجاً حقيقياً ، ولا يمكن إطلاق لقب زوجة على المرأة[١] ، ولا توجد هذه العادة إلا بين طائفة صغيرة من الشيعة وهو اتصال لأجل مسمى يذكر في العقد ، وبنهايــة الوقت ينتهي الاتصال بصورة آلية وبدون طلاق ، وعلى المرأة أن تنتظر شهرين فقط (العدة) قبل الزواج من جديد ، ويوجب العقد على أن تاخذ المرأة صداقـــاً معيناً[٢]

---

(١) راجع النحاس ، كتاب الناسخ والمنسوخ ، ١٠٥

(٢) *Fyzee, 102*

1 W. Heffening, art Mutah dans E I ef. Fyzee, 100 – 3 J. Schacht. The origin of Muhammedan jurisprudence . Oxford · 1951, 266, cf Nikoh assir qui'est disbuté par I Goldziher « Geheimechen bei den Araben » Globus . 68 - 32 [ref, prises chez S, Kohn Die Eheschliessungin Koran -Londres / 1934/183

وليست عادة المتعة ، كما نجدها هنا ، استمراراً لعادة جاهلية ، بل هي تحويل لهذه العادة حسب النظريات الاسلامية ولا سيما « العدة »، وأسوأ ما في المتعة انها سرية وانها لا تحتاج لأن تستمر أكثر من نهار . فكان إذن من السهل على امرأة تتعلق بالاخطاء القديمة ، والتي تنظر للابوة على أنها قليلة الاهمية ، أن تنحدر إلى درك تعدد الازواج ، فلماذا يجب عليها ، بعد اتصال يوم أو يومين ، أن تنتظر شهرين قبل أن تلبي نداء رجل آخر. يمكن أن تكون عادة الاتصالات الموقوتة قد سمح بها خلال جزء من حياة النبي على الاقل دون الحاجة لمراعاة العدة بين اتصال وآخر [1] .

وعلى كل حال فانه كان من الصعب منع هذه العادة المنتشرة دفعة واحدة . وتقول الاخبار ان عمر منع المتعة . وهذا يدل على انه حتى ذلك الوقت ظل الانتقال غير الشرعي مستمراً ، وكانت المرأة تبقى عند عائلتها [2] ، وربما استمر ذلك فيما بعد .

يبدو ان القرآن أجاز بعض الوقت الاتصالات الموقوتة بنساء متعددات الازواج ، وتسهل الآية (٢٥) من السورة (٤) التي ترجع لنفس الزمن ، أو ربما تاخرت عنه ، ترك تعدد الازواج ، وتجعل من الممكن الزواج الحقيقي للذين لا يستطيعون الزواج ، بسبب فقرهم ، من امرأة ترغب فى أن يكون لها زوج واحد . ولا يجب أن تتم الزيجات مع أمثال هؤلاء النساء المتعددات الازواج إلا بموافقة أهلهن ، وان تعد

---

(١) يقول النحاس ، المرجع المذكور ، انه لم تكن هناك حاجة للعدة .

(٢) « المسلم » صحيح ، نكاح ١٦-١٨ ، راجع دائرة المعارف الاسلامية .

النساء بالامتناع عن تعدد الازواج . ولا يقال شيء عن مدة هذه الاتصالات غير ان هناك مبدأ ينص على أن المرأة إذا عادت إلى اخطائها السابقة فان عقوبتها هي نصف عقوبة المرأة المتزوجة من رجل واحد .

نرى هنا إذن محاولة لجعل المسلمين والمسلمات يتخلون عن العادات القديمة في المدينة ، بالقدر الذي تساعد فيه على إهمال الابوة .

لم تنجح هذه المحاولة ، كما كان ينتظر ، إذ يطلعنا القرآن على أن عدداً من الاشخاص تعلقوا بالاخطاء القديمة . ويقترح القرآن سياسة سياسة التمييز العنصري حيالهم ، فيحكم على الزانية والزاني ، اللذين اتصلا سراً وبدون مراعاة العدة، بضرب كل منهما مئة جلدة، ويحرم عليهما الزواج من المؤمنين [1] .

ويقول القرآن في نفس السورة « الزاني لا ينكح إلا زانية والزانية لا ينكحها إلا زان » ولا شك ان الزاني يساوي هنا الذي يتعلق بالاخطاء الماضية ، وضده المحصن » [2] . وهكذا كان القرآن يأمل في تصنيف الذين ظلوا متعلقين بالعادات القديمة كل طائفة على حدة ان يأخذوا بالمبادىء الجديدة مع مرور الزمن .

هـ ــ درجات القرابة التي تمنع الزواج :

تمنع الشريعة الاسلامية ، اعتماداً على القرآن (٤ ـ ٢٢ ، ٢٦) الرجل

---

(١) قرآن : ٢٤، ٢، ٣، ٤، ١٩

(٢) ٢٤، ٢٦

من الزواج من امه ، وابنته واخته (من ابيه او امـــه ، او اخته في الرضاعة) وعمته وخالته ، وبنت الاخ ، وبنت الاخت ، وام زوجه او ابنتها، وامرأة الأب أو الابن . ولقرابة الحليب نفس اثر قرابة الدم، ولهذا حرم الزواج من الام المرضعة أو الاخت في الرضاعة .

ونفهم من القرآن ان الزواج من امرأة الاب والزواج من اختين معاً وجدا حتى أيام النبي .

ولقد قيل انه لم يحرم الزواج من قريبات من ناحية الاب إلا تحريم الأب من الزواج من ابنته[1] . ويحق لنا تصديق ذلك مع ملاحظة ان هذه القاعدة لا تشمل كل اقسام المجتمع العربي ، ويبدو صحيحاً ، انه من ناحية الام كل صلة اقرب من صلات ابن العم كانت تمنع الزواج . وبهذا تقوم الشريعة القرآنية ، فيما يتعلق بدرجات القرابة المانعة للزواج على تطبيق القواعد السائدة في جهة الام على جهة الاب . اما فيما يتعلق بالمصاهرة فان تحريم الزواج من الربيبة والكنة حدث جديد ، كما كان تحريم الزواج من امرأة الاب .

جاء القرآن إذن ، بعنصر جديد فيما يتعلق بالتجريحات الخـــاصة بالزواج ، وتدخل دراسة هذا العنصر ضمن نطاق عرضنا لإعادة تنظيم الزواج والعائلة على يد محمد . ومن خصائص هذا التنظيم اهمية الابوة وذرية الاب ، وتلح قواعد موانع الزواج على ان القرابة من ناحية

---

(١) روبرتسون سميث ١٦٣ ، ابن سعد ١، ٢، ٨٧

(٢) نفس المرجع

الاب مهمة كالقرابة من ناحية الام . وهكذا يتم الانتقال إلى تنظيم «أبوي» دون التخلي عن النظام «الامي» . وهذا نوع من التسوية، إذ يحافظ على المبدأ ويتوسع به حتى ان قرابة الرضاعة تعتبر كقرابة الدم ، ويمكن أن يعد ذلك تنازلا إلى نظام «الام» . وربما كانت بعض الجماعات ، التي تمارس نوعاً من تعدد الازواج ، تحاول أن تعالج أضرار الزيجات المعقودة داخل الجماعة ، جاعلة من بعض درجات قرابة الرضاعة ، حائلا دون الزواج.

وهناك قصة لها مغزى فقد استغربت عائشة ، وهي امرأة من مكة ان يسمح لها أن تحسر عن وجهها أمام عمها وهو اخ زوج مرضعتها ، قائلة ان التي ارضعتها امرأة وليس رجلا [1] .

وهناك تنازل آخر لعادات الجماعات ذات النظام الامي ، الا وهو « الخلع » او الطلاق بتراضي الفريقين . وهو بقية من العادات الجاهلية حيث كانت المرأة تبقى في منزل والدها ، ويحق لاخيها او لها طرد الزوج. ولقد تحولت هذه السلطة حسب الشريعة الاسلامية وان احتفظت المرأة بحق الانفصال . إذ يمكنها ان تطلب إلى زوجها الطلاق بأن تقدم اليه تعويضاً عن ذلك (كان تتنازل عن صداقها أو تقوم بارضاع طفلها) . ولكن يحق للرجل أيضاً ان يرفض الطلاق [2] .

وربما كانت اهم النزعات التي نجدها في قواعد تحريم الزواج التي

---

(١) البخاري ، نكاح (٦٧) ١١٧ ، راجع شترن المرجع المذكور ١٠٠

(٢) روبرتسون سميث ٩٢ ، شترن ١٢٩ ، فيظي ١٣٩ – ٤٢ ج.هـ. بوسكي ول ، برشي *leStatut personnel du droit musulman Hanafite* تونس ١١٨

تسعى للقضاء على جميع العادات التي تقلل من شأن الفرد . من ذلك تحريم الزواج من امرأة الاب ، لأنه في بعض الجماعات في العصر الجاهلي كان يحق للابن عند وفاة والده ان يتزوج من امرأة ابيه حتى بدون رضاها . وكان يحق لورثة الرجل ، بصورة عامة ، ان يتزوجوا النساء اللواتي في رعايته ومن بينهن نساؤه وبناته[1] . وإذا كان بامكان الوارث ، حسب النظام القديم ، الزواج من المرأة التي كانت في رعايته ، لم يكن يحق لها رفض ذلك ، إذا أراد أن يستفيد من هذا الحق . ويهتم القرآن جداً بهذه المشكلة التي هي اساس حديثه عن اليتامى : « يا ايها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرهاً »[2] . ولا تشير المصادر بوضوح الى ما إذا كان رضى المرأة ، في اول الاسلام ، ضرورياً لزواجها . وهناك عدة حالات يتدخل بها محمد حين زواج المرأة بالرغم عنها[3] . ويبدو ان تحريم الزواج من بنت الاخ او الاخت (وكان ذلك شائعاً في الجاهلية) كان لزيادة حرية المرأة ، وذلك بتحرير النساء من قيود العادات . وربما كان الامر كذلك في تحريم الزواج من اختين معاً .

ولا نعرف إلا القليل عن عادات التبني في العصر الجاهلي ، ونستطيع ان نقول بأن محمداً قضى على هذه العادات . وربما كان الرجل ، إذا تزوج المرأة التي كانت ربة البيت ، يصبح بصورة آلية « أبا » للأبناء والبنات الذين يعيشون في البيت ، وحتى جميع الاشخاص الذين يحملون صفة ابن وبنت صاحبة البيت[4] .

---

(١) روبرتسون سميث ٨٦ (٢) قرآن : ٤، ٢٣ ، راجع ملاحظة بل

(٣) شاترن ٣٢-٣٦ ، ابن سعد ٨، ٣٣٤ (٤) بروتسون سميث ١١٢

وربما اصبح زياد بن حارثة ابن محمد حين تزوج خديجة ، وليس حين اطلقه محمد . وقد عرف باسم زياد بن محمد . وتقول آية من القرآن تتحدث عن زواج محمد مـــن امرأة زياد المطلقة ، زينب : « ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم» تشير هذه الكلمات بدون شك إلى تنظيم امي كان فيه اب الاولاد الحقيقي معروفـــاً ، ولكن الاولاد كانوا يسمون بأبناء زوج امهم للسهولة الاجتماعية [1] . ونجد من بين معاني « دعي » « انه الشخص الذي يدعي صفة البنوة على الشخص الذي ليس والده » او « الشخص الذي يطالب به كابن له من ليس والده » . كل ذلك يجعلنا نعتقد اننا بصدد عادات اجتماعية ، وليس امام تبني شرعي ، وهذه العادات من خصائص التنظيم العائلي القديم التي كانت تعتبر ايام محمد غير مرغوب فيهـــا ويجب استئصالها .

لقد قيل غالباً ان السماح بزواج امرأة الابن المتبني قد شرع فقط لأن محمداً كان يريد الزواج من زينب . وهذا استنتاج خاطيء . وليست هذه هي الحالة الوحيدة التي تتهم فيها العلاقة الجسدية الوحيدة التي يمكن ان توجد . تهاجم الآية التي ذكرنا قسما منها عادة « الظهار » الذي يقوم على ان يطلق الرجل امرأته قائلا لها : أنت علي كظهر امي ، فيقول القرآن « وما جعل ازواجكم اللائي تظاهرن منهن امهاتكم» ولهـــذا

---

(١) قرآن ٣٣، ٤ (٢) لين

عرفت هذه العادة . وهناك قاعدة واقعية تبيح الزواج من الربيبة قبل الدخول بامها [1] . ويبدو ان محمداً هاجم من كل جهة القرابات الخيالية او القرابات الاجتماعية الصرفة التي تحد من حرية الفرد .

وربما استوحى محمد ، في بعض الافكار المتعلقة بروابط القرابة التي تحرم الزواج ، من الديانة اليهودية ، ولكن النبي يختلف عـــن اليهود بتحريم الزواج من ابنة الاخ او الاخت [2] . وكان يرغب حقاً في ان يتفق الوحي الذي ينزل عليه مع الوحي القديم ، وكان في نفس الوقت على اطلاع واسع على مشاكل بيئته ، فهو لم يتبن بصورة عمياء التشريعات اليهودية حباً بالاتفاق ، بل لان التشريعات الماخوذة كانت تلائم الظروف في المدينة . ولقد ساعد تشابه حاجات المدينة مع حاجات الإسرائيليين الذين كتبت من أجلهم تعاليم سفر الاحبار اللاويين (كانت الامتان حضريتين مع اساس بدوي) على تشابه النتائج ، ولا حاجة إلى ذكر تقليد متعمد .

ولنشر إلى ناحية اخرى ، وهي أن المرأة في الإسلام تعامل كفرد اي انها تأخذ صداقاً يدفعه الزوج ، ووثائقنا حول العصر الجـــاهلي مجزأة ويمكن أن يكون الإسلام اكتفى بتمكين نزعة اجتماعية كانت آنذاك سائدة . إذ كان يدفع المهر في النظام الامي لوالد الزوجـــة او لوصيها أحياناً . وهناك مع ذلك مثل جاهلي على زواج تعيش فية المرأة

---

(١) قرآن ٤، ٢٧

(٢) روبرتسون سميث ١٦٦ ؛ سفر الاحبار اللاويين ١٨. قرآن ٤، ٢١

عند زوجها كما دفع للزوجة الجديدة مال صامت وكان يقال في الاسلام ان المهر كان ملك المرأة ولكن لم يطبق ذلـــك . ولا يذكر القرآن المهر الا بصورة عارضة عند حديثه عن الطلاق ، ولا شك ان «الاجور» التي يجب دفعها للنساء (قرآن ٢٨،٤) تختلف عن ذلك . ونعلم من الاخبار ان محمداً دافع عن الشغار وهو أن يتبادل رجلان او جماعتان من الرجال بدون مهر بناتهم واخواتهم من أجل الزواج[1] .

وليس هناك ما يقال حول جوانب الزواج الاخرى الشرعية في مطلع الاسلام . فقد كانت مضاجعة الجواري والاسيرات مباحة ومنظمة . كما نظم الطلاق الذي كان منتشراً في العصر الجاهلي (اذا لم نقل ان معظم الزيجات كانت موقتة) . وكان هناك قانون يقول بأنه لا يحق للرجل بعد طلاق زوجته ثلاث مرات ان تعود اليه الا بعد ان تضاجع رجلا آخر . وقد وضع هذا القانون للمحافظة على سلامة المرأة ، وذلك اما لمنع الازواج من الطلاق بسرعة أو لمنع الرجل من أن يقطع علاقاته الزوجية بدون أن يسمح للمرأة بالزواج مرة ثانية .

و ـ الجوانب الاجتماعية لزيجات محمد :

بينما يحتل الجانب النفسي من زيجات محمد مكانته في الحديث عن خلقه فان الجانب الاجتماعي لهذه الزيجات يجد هنـــا مكانه المناسب لأن دراسة هذا الجانب ستكون شاهداً على ما قلناه ، كما سنوضحها ببعض الوقائع التي

---

(١) البخاري نكاح (٦٧) . روبرتسن سميث ٩١ . راجع لين شاغر

ذكرناها سابقاً [1] .

الطابع المميز لزيجات محمد ، هو تأسيس عائلة متعددة تقيم فيها زوجات النبي ، وقد حدث في مطلع الفترة المدنية . كان عند محمد امرأة واحدة عند الهجرة وهي سوادة . فلما بني منزل النبي في المدينة ، وتسميه المصادر المسجد ، جعل لسوادة مسكن فيه ، ثم اضيفت غرف اخرى للزوجات الاخر . ويفترض ان عائشة ، وهي أول زوجة في المدينة ، سكنت في « المسجد » . وهناك رواية اخرى تقول بأن الزواج تم في بيت والد عائشة [2] .

ويمكن أن تكون عائشة ، نظراً لصغر سنها ، قد بقيت مدة من الزمن عند امها ، وعلى كل حال لا يمكن أن تكون اقامة زوجات الرسول في المسجد قد حدثت بعد نزول الآية عن تعدد الزوجات ، اي حوالي ٣/٦٢٥ . وتقول الرواية ان محمداً كان ينام على التوالي عند كل زوجة من زوجاته .

ونعلم من بعض الوثائق ان محمداً ، بالاضافة الى زيجاته الشرعية ، واتصالاته بالجواري ، كانت له علاقة مع نساء أخريات ، وذلك حسب النظام الامي القديم . وتسمح آية في القرآن (سورة ٣٣ ، آ ٤٩) لمحمد بالزواج « من كل امرأة مؤمنة وهبت نفسها اليه » . ويبدو ان كثيرات من النساء فعلن ذلك . ولكن ليس لدينا الدليل الواضح على ذلك .

وهناك طابع آخر لزيجات النبي ، وهي المكانة السامية التي منحت

---

(١) راجع ما يلي (٢) طبري ج١ ، ١٢٦٣

لنساء النبي . وكانت الخطوة الاولى لتمييزهن عـــن سائر النساء فرض الحجاب عليهن ، وكانت كلمة الحجـاب تعني في الاصل « الستار »[1] .

وهاك الآية القرآنية بصدد ذلك : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا أن يؤذن لكم ··· ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذي النبي ··· واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن »[2] .

وربما تَرجع هذه الآية الاخرى الى نفس الوقت : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى ان يعرفن فلا يؤذين »[3] .

تفسر لنا عدة روايات اسباب هذه التشريعات[4] . فقد بقي بعض المدعوين أثناء حفلة زفاف زينب بنت جحش وقتـــاً طويلا . وكذلك لامست أيدي بعض الرجال ايدي نساء محمد . وكانت نساء النبي يخرجن في الليل لقضاء حاجاتهن فيهينهن بعض المنافقين، وكان ذلك مقصوداً غير ان المنافقين كانوا يعتذرون بأنهم حسبوا نساء النبي جواري .

والسبب الرئيسي لفرض الحجاب ، هو ان منزل محمداً اصبح بسبب ازدياد اهمية النبي شيئاً فشيئاً، مكاناً عاماً . وكان النـــاس يجتمعون باستمرار في الساحة التى تطل عليها مساكن النساء . وكانت احـــدى

---

(١) راجع شترن ١١١ ، كل . هوارب مقاله « حجاب » في دائرة المعارف الاسلامية(١) سنوك هورجرونخ *Verspeide Geschriften* ج ١ ، ٣٠٩

(٢) قرآن ٥٣،٣٣ (٣) قرآن ٥٩،٣٣

(٤) ابن سعد ١٢٤،٨ ، راجع ابوت : عائشة ٢٠ – ٢٩

الوسائل لنيل رضى النبي اقناع احدى نسائه بتقديم الطلب اليه . وكان ينظر بحذر الى كل لقاء خاص بين امرأة ورجل ليس قريباً لها ، وكان لا بد من حماية النساء تجنباً للفضيحة . وتدل حادثة « حديث الافك » التي لاكت فيها ألسنة السوء اسم عائشة في المدينة، وهي حادثة وقعت بعدوقت قصير من فرض الحجاب ، تدل هذه الحادثة على مدى حاجة محمد الى الحذر. ومن بين الشائعات التي انتشرت لتشويه سمعة عائشة ، شائعة تقول بأنها قبل فرض الحجاب ، تحدثت عدة مرات مع الشاب الذي عاد بهـا الى المدينة [١] .

وقد نزلت آيات أخري تدعو المؤمنات الى التواضع . « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن او آبائهن [٢] ».

كما يُنصح المؤمنون :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تسأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون » [٣] .

ولئن كانت هذه الاوامر تدل على انحطاط في مستوى الاخلاق ، وانه كان بحاجة الى السمو به، فانها تنبيء بنزعة فردية متزايدة تدعوا الى احترام الحياة الخاصة .

ونلاحظ مرحلة اخرى في الاجراءات المتخذة لجعل نساء محمد فوق

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مقالة « عائشة » ابوت ٣٢

(٢) قرآن ٢٤، ٣١ (٣) قرآن ٢٤، ٢٧

سائر النساء ، ونجد هذه الفكرة في « آية التخيير » (سورة ٣٣ ، آية ٢٨) وان كانت هذه الآية أقدم [١] . وربما كان سبب هذه الآية غنى محمد السريع الذي أثار الحسد عند زوجاته. فكانت لا تكف عن تعذيبه بطلب الالبسة ووسائل الرفاهية ، وقد أحست زينب بنت جحش بالغيرة حينما خيل اليها ان عائشة أعطتها أقل من نصيبها ، كما غارت عائشة وحفصة من مارية القبطية [٢] .

ومهما كان السبب فقد حدث النزاع وهجر محمد نساءه مدة شهر كامل وهدد بطلاقهن ثم نزل عليه أخيراً الوحي :

« يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما » (سورة ٣٣ ، ٢٨ـ٢٩) .

وكان هذا تخيير النساء بين الطلاق أو استمرار الزواج بالشروط التي يراها محمد . وتشير آيات أخرى إلى المسلك الذي ينتظره محمد من زوجاته : « يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ، ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كبيرا . يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا

---

(١) ابن سعد ٨ ، ١٢٩ . ابوت ٤٩ ، ٥٩

(٢) قرآن ٦٦ ، ١ . ابوت ٥٠ ، ٥٩

معروفاً . وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى » (سورة ٣٣،٢٨،٣٣) . ويقال بأن عائشة وثماني زوجات أخر اخترن الله ورسوله وربما انفصل محمد بهذه المناسبة عن بعض نسائه اللواتي يذكرن في المصادر « زوجات محمد المطلقات » . ويقال بأن زوجته من بني عامر اختارت التسريح ولا نعرف شخصيتها حقيقة [١] .

وقد احتلت نساء النبي منذ ذلك العهد المكانة اللائقة بهن في الامة . ولم يكن في نية محمد أن يقلد ملوك فارس وغيرها من البلدان الشرقية الذين كانوا يفكرون بزيادة تعظيم أنفسهن باحاطة نسائهن باصول التشريفات الخاصة . وقد كان مع ذلك لكل هذه التشريعات نفس الأثر . فكان محرماً على المؤمنين الزواج من نساء النبي [٢] . ولو سمح بذلك لزاد التفسخ في الامة . ولربما دعيت نساء النبي « أمهات المؤمنين » تعويضاً عن ذلك .

وآخر ما يلاحظ على زيجات النبي ، انه كان يستخدمها كما ، كان يستخدم زيجات أصحابه الخلص، لأغراض سياسية ، وكان ذلك استمراراً لعادة عربية قديمة . فقد سعت جميع زيجات محمد لتسهيل بعض العلاقات السياسية حمات السيه خديجة ثروتها ونفوذها اللذين فتحا أمام محمد أبواب السياسة المكية . أما سوادة، التي تزوجها النبي في مكة ، فقد كان هذا الزواج وسيلة لتامين معيشة أرملة مسلم مخلص ، وكذلك شان زينب بنت خزيمة ، ولكن زوج سوادة كان أخ رجل أراد محمد منعه بذلك من

---

(٢) ابن سعد ج ١٣٨،٨ (٢) قرآن ٣٣

أن يصبح معارضاً قوياً [1] . وكان زوج زينب من قبيلة المطلب التي كان محمد مسؤولا عنها ، كما كانت علاقاته طيبة بقبيلة زينب عامر بن صعصعة.

وكانت زوجتاه الاوليان في المدينة، وهما عائشة وحفصة، ابنتي رجلين يعتمد عليهما محمد كل الاعتماد وهما أبو بكر وعمر . وقد تزوج عمر حفيدة محمد أم كلثم بنت علي . ولم تكن أم سلمة أرملة مستحقة فقط ، بل كانت أيضاً قريبة زعيم قبيلة مخزوم المكية .

وكانت جويرية ابنة شيخ قبيلة المصطلق التي كانت بينها وبين محمد مشاكل خاصة . أما زينب بنت جحش فهي، بالاضافة إلى انها ابنة عم النبي ، فقد كانت تنتمي لقبيلة موالية لقبيلة عبد شمس المكية . أما مسألة زواجها من محمد فيمكن أن يكون العامل الاجتماعي قد تغلب على العامل السياسي ، إذ أراد أن يبرهن على انه قطع كل علاقة بالمحرمات القديمة . ومع ذلك فانه كان يفكر بقبيلة عبد شمس ، ولا سيما بأبي سفيان ، لأن أبا سفيان كانت له ابنـــة مسلمة ، أم حبيبة ، متزوجة من أخ لزينب بنت جحش ، فلما توفي زوجها في الحبشة ، أرسل محمد رسولا الى الارمـــلة يعرض عليها الزواج منه ، كما كان على الزواج من ميمونة ان يساعد أيضاً على اقامة علاقات طيبة مع عمه العباس وربما كانت هناك أسباب سياسية لزواجه من اليهوديتين صفية وريحانة . واذا افترضنا ان النصوص قائمة على معلومات صادقة، فانها حين تتحدث عن زيجات النبي أو مشاريعه في الزواج من نساء من « القائمة الاضافية » فان السبب الرئيسي هو دائماً

(١) سهيل بن عمرو ، راجع محمد في مكة ص ١٧٩ وما سبق ٧٦ – ٨٤

سبب سياسي ، فقد كانت جميع هؤلاء النسوة من قبائل بدوية أو من مواطن بعيدة .

ويجب أن نلاحظ ان محمداً لم يتزوج من نساء المدينة . ويقال بأن ليلى بنت الخطيم (من ظفر) نظمت مشروعاً للزواج من محمد ولكن قومها جعلوها تتخلى عنه [١] . كما تقول النصوص بأن محمداً فكر في الزواج من حبيبة بنت سهل (من مالك بن النجار) ولكنه أحجم عن ذلك بسبب الانصار [٢] ، فلقد أدرك انه لا يستطيع النجاح في المدينة ما لم يكن حياديا وان مثل هذه الزيجات تؤثر على حياده بشكل خطير.

ولقد تزوج أبو بكر في آخر أيامه امرأة من الخزرج ، وهي أخت سعد بن الربيع ، وكانت زوجة عمر من قبيلة الاوس .

وعلى العموم كان عدد الزيجات قليلا بين أهل مكة وأهل المدينة ، وربما سبب ذلك الاختلاف القائم بين التنظيم الاجتماعي .

وقد تزوج صحابيان مهمان من صحابة محمد ، وهما علي وعثمان ،ابنتي محمد فاطمة ورقية (ثم ام كلثوم) كما تزوج علي حفيدة محمد ، ابنةزينب وهي امامة بنت ابي العاص [٣] .

وتزوج الزبير بن العوام من اسماء بنت أبي بكر . كما تلقى عبد الرحمن بن عوف،حين قيادته لغزوة في دومة الجندل ٦/٦٢٦، الامر بالزواج من ابنة شيخ القبيلة اذا استسلم • نرى إذن انه ليست زيجات محمد هي

---

(١) ابن سعد ج٨، ١٠٧ (٢) نفس المرجع ٣٣٦

(٣) نفس المرجع ١٦٩

التي عادت عليه بمحالفات مفيدة ، ولكنه لما كان زعيم الامة ، فان هناك أسباباً خاصة جعلته يدخل الاعتبارات السياسية في مشاريع الزواج .

و ـ الخلاصة :

لقد قام محمد في ميدان الزواج والعلاقات العائلية ، بتنظيم عميق واسع للبناء الاجتماعي . وقد وجدت قبله نزعات جديدة فردية ، ولكن أثرها كان هداماً اكثر منه بناء . وكان عمل محمد بهذا الصدد يقوم على استخدام هذه النزعات الفردية لتكون بناء جديد . فقد انهارت عادات المجتمعات القبليةوتقاليدها ، فأنقذ محمد منها ما يمكن انقاذه ، وحوله الى المجتمع الفردي الجديد . وهكذا استطاع توليد نظام عائلي ظهر مرضياً ومغرياً في مجتمع ينتقل من مرحلة الجماعية إلى مرحلة الفردية .

وكان كثير من العادات القديمة فاحشاً ، حسب مبادىء أوروبا المسيحية ، ومبادىء الاسلام . ولهذا كان التنظيم الذي أراده محمد تقدماً أخلاقياً من هذه الناحية ولقد ظل النظام البدوي القديم صالحاً في ظروف الصحراء الخاصة ، طالما انه بقي سليما لا يمس . حتى اذا ما بدأ التفسخ أصبح النظام غير فعال ، فكان لا بد من ازالته . ويعود الفضل الى محمد انه استطاع ان يحل محله نظاماً قابلا للحياة .

٣ ـ الميراث

تحدد بعض آيات القرآن [١] باختصار ، مع ذكر بعض التفاصيل ،

---

(١) قرآن ٤، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٧٥

القواعد المتعلقة بتقسيم ميراث الميت. وقد استمد الفقهاء من هذه القواعد فيما بعد ، نظاماً معقداً للتقسيم ، وتؤدي مناقشته بدقة الى بعض الخلط ، ولا يوضح لنا شيئاً . ولكن يجب علينا أن نحاول فهم اصوله [1] . فنرى ان القوانين التي شرعها محمد تهدف الى ازالة المساويء التي يؤدي اليها الانتقال من نظام الملكية الجماعية الى نظام الملكية الفردية .

يخيم بعض الغموض حول عادات الميراث أيام الهجرة . وهناك مع ذلك بعض الميزات الواضحة . فلم تكن تستطيع المرأة في المدينة – حيث يسود النظام الامي – ان تملك ممتلكات . ويمكن أن يعني ذلك ان ممتلكاتها في النظام الجماعي ، كان يديرها خالها أو أخوها أو ابنها ، وإذا مات أحد المشرفين خلفه الرجل الاصلح من ناحية الام . ولو وجد جماعات يقوم فيها نظام أبوي حيث الملكية مشتركة لقامت منظمة مشابهة تسمح للمشرف الراحل ان يكون خليفته من بين أحد اخوته أو أحد أبنائه ويقوم بادارة ممتلكات الجماعة ، حتى اذا ما كانت الجماعة كبيرة توزعت الملكية بين عدد من المديرين . ويحدث نفس الشيء تقريباً ، حين يوجد عـــدة ورثة لهم نفس الحقوق ونفس المكانة . ولما كانت الادارة الفعلية للممتلكات هي الشاغل الاعظم ، فلا يمكن اعتبار شخص ميت وارثاً أو لم يبلغ بعد سن الرشد .

وكان من السهل ، بتسرب الافكار الفردية ، الانتقال من هذا النظام

---

(١) *S Vesey—Fityzerald : Muhammedan Law. Londres 1931, I I I Feyzee outlines of Muhammedan law 331 F. peltier et G:H Bousquet les successions agnatiques mitigès. Paris 1935*

للادارة الجماعية الى نظام الملكية الفردية . وكان يعني هذا من الناحية العملية أن يستولي الاقوياء على كل شيء . حين توفي جد محمد ، كان والد محمد متوفى ، ولم يكن محمد بالغاً فلم يرث شيئاً ، لأن والده الميت لم يكن له حق في الميراث ، ومحمد كان صغيراً ليكون له الحق بنصيب مساو لنصيب أعمامه. وهذا سبب لالحاح القرآن على حسن معاملة اليتامى . ولكن هذا المبدأ القائل بأن الاموات لا يرثون ، وان الاحياء لا يمكن أن يمثلوا الاموات ، كان متاصلا بعمق ، بحيث أن القرآن لا يحاول تغييره البتة .

تلك كانت الحالة التي كان على القرآن تغييرها .وقد ظهرت النزعات الجديدة والمساويء الناتجة عن هذه الحالة.ورضي القرآن بالنزعات وحاول أن يصلح المساويء . فهو لا يصرح بأن الملكية يجب أن تكون فردية ، ولكنه يلمح الى ان ذلك هو الواقع . وهو يقر أن تمتلك المرأة ممتلكات كالرجل . وتدل قصة خديجة ، رغم ما يعتريها من غموض ، على ان تلك كانت العادة في مكة ، بينما كانت بدعة في المدينة ، ومن الممكن أن تكون قد ظهرت في أول الامر معارضة من ذوي العقول المحافظة .

كانت التشريعات القرآنية تهدف الى ان لا يعتدي الوصي على حقوق اي قاصر أو امرأة في الميراث الطبيعي ، ولهذا تقول هذه التشريعات انه انه قبل أن ينتقل الميراث الى أيدي الورثة الطبيعيين (عصابات) يجب توزيع بعض الاسهم على بعض الأشخاص في بعض الظروف . وكان هؤلاء الاشخاص يسمون « اصحاب الفرائض » .

والموصى لهم الرئيسيون هم : الارمل أو الارملة ، الام والأب ، البنات ، وبنات الابن في بعض الحالات ، الاخوة والاخوات . ويذهب الباقي ، بعد دفع هذه الاسهم ، الى الابناء ، فالاب ثم الاخوة بهذا الترتيب.

وهاك زيادة في التدقيق المقاطع الرئيسية من آيات القرآن التي تعالج هذا الموضوع :

« يوصيكم الله في أولادكم ، للذكر مثل حظ الانثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد ورثه أبواه فلامه الثلث فان كان له اخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين » .

« ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد ، فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم » « وان كان رجل يورث كلالة او امرأة وله أخ او اخت فلكل واحد منهما السدس ، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث » (قرآن : ٤ : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥) .

« ان امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد ، فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين » (قرآن : ٤،١٧٥).

وبدلا من ان نبين كيف يطبق الشرع الاسلامي هذه القوانين ، نرى

من الافيد أن نعطي أمثلة لتقسيم الممتلكات حسب الحالات التي تعرض غالباً .

زوجة ، ابن ، ١/٨ ، ٧/٨ لكل منهما

زوجة ، ابن ، بنت ، ١/٨ ، ٧/١٢ ، ٧/٢٤

زوجة ، ابنان ، ابنتان ، ١/٨ ، ٧/٢٤ (٢) ٧/٤٨ (٢)

زوج ، ابنان ، بنتان . ١/٤ ، ١/٤ (٢) ، ١/٨ (٢)

بنتان ، أب ، موصى لهم ١/٣ (٢) ١/٣

بنتان ، أب ، أم ١/٣ (٢) ١/٦ ، ١/٦

أب ، أم ٢/٣ ، ١/٣

أب ، أم ، أخ ٥/٦ ، ١/٦ ، لا شيء

أب ، أم ، زوجة ، ابنان ، بنتان ، ١/٦ ، ١/٦ ، ١/٨ ، ٣/٧٢ (٢) ١٣/١٤٤ (٢) .

زوج ، ابن ، ١/٤ ، ٣/٤

زوج ، أب، ١/٢ ، ١/٢

جد ، اخوان ٢/٣ ، ١/٦ (٢)

اخت بدون أولاد ١/٢

اخ ، اخت بدون أولاد ١/٣ ، ١/٦

وهناك مسائل اخرى عديدة يجدر بنا ملاحظتها . فالنظام أمي في الاساس . والورثة الطبيعيون هم الابن ، الأب ، الاخوة وأبناء البنت لا يرثون لأنهم ليسوا أعضاء في الجماعة الابوية . وليس لبنات الفقيد ، حتى

ولو لم يوجد أبناء ولا أب ، الحق إلا بثلثي الملكية . ويذهب البـــاقي الى موصى لهم بعيدين . ويبدو ، مع ذلك ، أن هناك تنازلا لصالح عـادات النظام الامي حيث نجد انه اذ هلك رجل وليس له ورثة مباشرون(ابن ، ابن الابن ، أب ، جد) يرث اخوته وأخواته الثلث يوزع بينهم بالتساوي ونلاحظ في مثل هـــذه الحالة الاخيرة ، ان الرجال والنساء لكل منهم نصيب واحد ، بينما الرجال عادة يأخذون ضعف نصيب النساء . هـذه الامور قائمـــة على تأويل القرآن حسب المذهب الحنفي للتشريع السني . ويوجد فروق بسيطة في نماذج أخرى مـــن التشريع الاسلامي . مثلا الوالدان من ناحية الام ينالان أكثر في تشريع طائفة الاثني عشرية عنـد الشيعة اعتماداً على المبدأ القائل بأن القرابة من ناحية الام مهمة كالقرابة من ناحية الاب [1] .

وكان من تأثير تشريعات القرآن انها قسمت الملكية داخل العائلة العادية ، أو داخل جماعة أوسع منها قليلا ، ويحمل النظام الذي تؤدي اليه هذه التقسيمات سمة الاصل الذي صدر عنه أي انه ولد في بيئة القـــافلة والصحراء . اذ من السهل توزيع قطيع جمال أو غنم أو كمية من السلع التي يمكن ان تقدر بالمال . وليس توزيع الاراضي بهذه الصورة مرضياً ، بل يسعى لتاخير التقدم الزراعي . كما ان القوانين المتعلقة بالميراث وما تؤدي اليه من تقسيم ، تدل على ان النزعة الفردية لم تستأصل من العادات العربية كل العادات الجماعية . إذ كان يمكن للفرد أن يكون له نصيبه المحدد من

---

(١) Fyzee.381 - 406.403

أملاك الاب أو الاخ ، غير أن العائلة كان لها دائماً بعض الحق في ملكية كل فرد من الجماعة . لا نشعر بذلك في طريقة تحديد نصيب كل فرد بدقة فقط بل نشعر به أيضا في أن حق الوصية خارج العائلة قد حدد بثلث الممتلكات [1] . بينما لا يسمح باية وصية للاشخاص الذين يرثون بصورة طبيعية [2] .

تعتمد هاتان القائمتان على السنة وليس على القرآن ، ولكنهما تتفقان وروح القرآن ، وهما تعبران عن الفكرة التالية : بالرغم من أن الانسان يملك ممتلكاته في حياته ، ويستطيع التصرف بها كما يشاء فهو مسؤول عنها أمام عائلته. وهكذا نرى الى أي حد يذهب القرآن في الاستجابة للنظريات الفردية في عصره ، وان لم يكن فردياً صرفاً .

٤ ـ إصلاحات أخرى

الموضوعات التي عالجناها حتى الآن هي : تنظيم الامن ، الزواج ، الميراث ، هي المسائل الوحيدة التي أحدث فيها محمد اصلاحاً واسعـــاً . وهناك مع ذلك اصلاحات أقل شاناً يجب ذكرها .

أ ــ الرق

موقف القرآن من الرق يشبه الى حد ما موقف العهد الجديد. فكلاهما يرضى بالرق ويحاول التخفيف منه . وربمـــا كان سبب الرق في العصر

---

(١) (مقطع) FyZee VI

(٢) نفس المرجع ٧٢ (مقطع)

الجاهلي حالة الحرب المستمرة بين القبائل العربية [١] ، اذ كانت النساء والاطفال يحملون في هذه الحروب والغارات الى اماكن بعيدة ويستعادون اذا كانت القبيلة تستطيع دفع الفدية . وكانوا يباعون غالباً كرقيق . وهكذا أخذ زيد بن حارثة ،وهو لا يزال يافعاً وبيع في عكاظ [٢] . وكان من بين ٨٦ مهاجراً ،يذكرهم ابن سعد كمحاربين في بدر وعشرة على الاقل طلقاء أو رقيقاً . وكان بين الانصار أربعة طلقاء وأرقاء . ويقال بان معظم المهاجرين كانوا اما مولدين او استرقوا وهم اطفال ، وكانت غالبيتهم من اصل عربي ، وان كان بينهم على الاقل فارسي وحبشيان . وقد ولد هؤلاء في الاسر . كما حارب الارقاء في صفوف أهل مكة الوثنيين . ولا اساس للنظرية القائلة بأن قوة مكة الحربية كانت تقوم على هؤلاء الارقاء الاحباش ولا يجب الاخذ بها [٣] .واذا جاز لنا الاعتماد على المهاجرين فان أكثر الرقيق كانوا عرباً وليسوا أغراباً [٤] . ولم يكن شيء يمنع مبدئياً بيع البالغين من جنس الذكور . يدل على ذلك بيع بني لحيان للمسلمين الى اهالي مكة سنة ٦٢٥/٤ . وكان من الصعب مع ذلك ، عملياً ، الاحتفاظ بالاسير البالغ ، لانه سيحاول الفرار متى سنحت له الفرصة . واذا ولد الانسان عبداً فلن يجد قبيلة تأويه عند فراره . وكانت هناك فائدة في الابتعاد بالعبيد عن موطنهم الاصلي . ويبدو انهم على العموم كانوا يعاملون معاملة حسنة ، فكانوا ، بالرغم من حالتهم كعبيد ، يتمتعون

---

(١) روبرتس : القوانين الاجتماعية ٥٣ (٢) ابن سعد ١ ،٣ ،٢٦

(٣) محمد في مكة ، ملحق أ ص١٩٧ (٤) راجع ر . برنشفيك مقالة : « عبد » في دائرة المعارف الاسلامية (٢) ويبدو انه من رأي لامنس .

بنظام معترف به، كما كانوا يقاسمون سيدهم سراءه وضراءه وقد حارب عبد محمد صالح شكران في بدر، بين صفوف المسلمين، وكان ايضاً عبدان مع المسلمين[1]. ولم يكن الموالي يتركون أسيادهم الذين كانوا يعتمدون على حمايتهم، حسب التنظيم الاجتماعي الجاهلي، فقد اختار زيد بن حارثة بعد إطلاقه ان يبقى مع محمد على ان يعود لعائلته[2].

وكانت مكانة العبيد لا تمنعهم من ان يسلموا، وقد اعتنق بعضهم الاسلام منذ أيامه الاولى. واشترى ابو بكر العبيد ثم أعتقهم، فاعتبر ذلك دليلا على التقى. وقد أمر القرآن بعتق العبد المؤمن كتعويض نحو الامة، إذا قتل مسلم مسلماً خطأ[3]. كما يدلي القرآن بمعلومات لعتق العبيد بطريقة ترجع بدون شك إلى العصر الجاهلي[4]. إذ يعقد عقد بين العبد وصاحبه، يدفع بموجبه العبد مبلغاً من المال لعتقه ويستطيع أن يكسب المال للحصول على حريته اثناء عبوديته ولم يكن عتق العبيد حتى المؤمنين منهم فرضاً، كما يدل عليه وجود صالح بن شكران عبد محمد، في بدر. ولم تعتق جارية النبي مارية القبطية قط وكذلك كان شأن جواري المقاتلين حسب قول ابن سعد. تدل القوانين المتعلقة بزواج العبيد في القرآن على ان الرق ينظر اليه على انه شيء دائم[5]. ففي السورة (٤) الآية (٤٠) يحتل العبيد مكانهم بين عدة فئات من الذين يتعلق بعضهم ببعض أو المستضعفين والمحتاجين الذين يجب العطف

---

(١) ابن سعد ١، ٣٤، ٣ (٢) نفس المرجع ٢٨ (٣) قرآن ٤، ٩٤

(٤) قرآن ٢٤، ٣٣، لين : كاتب (٥) قرآن : ٢٤، ٣٢، ٢، ٢٢٠

عليهم .

وربما قال النقاد انه كان على محمد في آخر حياته ، بعد أن بلغ ذروة السلطة السياسية، ان يفعل أكثر مما فعل لتخفيف مصير العبيد ويقوم مثل هذا الماخذ على تقدير خاطيء للحالة التي وجد فيها محمد فقد كان هناك أشياء كثيرة يجب تقويمها بسرعة ، ولم تكن مشكلة الرق من بين هذه الأشياء

ولم يكن العبيد على العموم تساء معاملتهم ، وكان الضيق الوحيد الذي يعانون منه ، هو منعهم من ترك الجماعة التي ينتمون اليها وكانت حالة العبد، في شبه جزيرة العرب في مطلع القرن السابع، أقل سوءاً منها في أي مجتمع آخر اقرب إلى النظريات الفردية وبالرغم من أننا في هذه الدراسة أظهرنا تاثير الاسلام في تكوين النزعة الفردية ، فاننا يجب ان ندرك ان هذه النزعة الفردية كانت في أول عهدها . فلقد كان للعائلة وللقبيلة أهمية أعظم من أهميتها في اوروبا الغربية خلال القرن العشرين .

وكان الرجال والنساء يعتمدون في حمايتهم وفي كسب عيشهم ، على الجماعة التي ينتمون اليها وكان بامكان الرجل الواثق من نفسه ان يغادر جماعة أو يجعل من نفسه سيداً لجماعة صغيرة . ومع ذلك فان مسألة ترك الجماعة لم تكن تخطر على بال الفرد العادي ، حتى ان المرأة إذا تزوجت ، وذهبت لتعيش في عائلة زوجها ، كانت ترتبط دائماً ، إلى حد بعيد، بعائلتها . وإذا علمنا ان الرقيق كان اما نساءاً أو رجالا ولدوا في الرق أو رجالا اختطفوا من قبيلتهم العائلية وهم صغار السن ،

كان من البديهي انهم لا يختلفون في عجزهم عن الانفصال عن الجماعة ، إلا قليلا عن سائر الاشخاص المتعلقين ايضاً بالقبيلة . ولن يكون للحرية قيمة بالنسبة اليهم ، إلا إذا أدت إلى التحاقهم بجماعة يتمتعون فيهـا بامتيازات افضل ، أو أتاحت لهم الحصول عـلى امتيازات أوسع في الجماعة التي كانوا عبيداً فيها . وكانت هذه الحالة هي المقصودة عـند عتق عبد عملياً ، فلم يكن الطليق الجديد يترك الجماعة التي كان ينتمي اليها كعبد بل كانت تتغير حالته داخل الجماعة، فيصبح زعيم الجماعة الذي كان « سيده » « رئيسه » .

وهناك مسالتان يمكن أن يقال بصدد هما ان محمداً حسن حـالة العبيد في شبه الجزيرة العربية . فقد كان الرق متأصلا في العـادات الحربية للبلاد في ذلك الوقت . فإذا هزمت قبيلة، ولم يكن لديها ما تبادل به أسراها أو تدفع فديتهم ، كان المنتصرون يقتلون الرجال ويبيعون النساء والاطفال كرقيق . ولهذا كان الذى وقع لبني قريظة على يـد المسلمين متفقاً مع العادات العربية ، وإن حدث ذلك بشكل واسع ،لأن المسلمين كانوا أقوى من أية قبيلة . ومع ذلك فان امتداد السلم الاسلامية قد قلل من الحروب والغارات ، وقضى بذلك على فرص الحصول على الرقيق ، كما اصبح يستحيل على المسلم ان يسترق مسلماً آخر . وكان ذلك نتيجة لمفهوم الامة ، ويتحدث الحديث عن ذلك بصراحة [1] .

A.J, Wensink A Hand book of Early Muhammadan Tradi tion Leyde 1927 s:v·u«Slave»

كما كان يدعم هذا النقص الفعلي في الرق في شبه الجزيرة العربية ، بفضل رسالة محمد ، الفكرة الكامنة في القرآن وفي تعاليم النبي والتي كان يعبر عنها بصراحة ، وهي أخوة جميع المسلمين . ولا شك ان القول بأن اختلاف حظوظ الناس ، هو في طبيعة الاشياء ، قد عوض عن هـــذه الفكرة[1] . ومع ذلك فقد كان لفكرة أخوة البشر تاثير قوي على الاسلام وساعدت على تخفيف الرق وإزالته .

ب ـ الربا

لربما خيل الينا أن تحريم الربا في الإسلام ، جـــاء نتيجة للموقف الخاطىء الذي اتخـــذه تجار مكة الاغنياء من ممتلكاتهم، ولكن الفحص الدقيق للقرآن يرينا بوضوح ان الأمر ليس كذلك ، وان هذا التحريم نزل في أول الفترة المدنية ، وانه موجه ضد اليهود[2] . وليس التاريخ الذي يحدده ريشارد بل للآيات المتعلقة باصحاب الربا دقيقاً كما يجب أن يكون . ويرى «بل» انه ليس من آية من هذه الآيات ترجع إلى العهد المكي ، ويمكن أن يجعلنا ذلك نعتقد انه لا آيـــة ترجع لزمن متاخر على حصار المدينة . والآية المقنعة بهذا الصدد هي الآية التالية :

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس

---

(١) قرآن ١٦ ، ٧٥ — ٧٧

(٢) شاخت ، مقالة « ربا » في دائرة المعارف الاسلامية (١)

الباطل »[1] . وربما كان هناك مقطع آخر يتعلق باليهود يشير أيضاً إلى الربا[2] .

من الطبيعي بعد أن أقمنا هذه الصلة بين اليهود والربا ، ان نفكر بأن التهديد بالحرب ضد المرابين المسلمين ، يقصد في الحقيقة اليهود[3] . ويقول القرآن « ان الذين يا كلون الربا هم أصحاب النار وان الله يمحق الربا و يربي الصدقات »[4] .

وإذا حاولنا اعادة استعراض الوضع فهاك ما نجده : كان محمد في السنوات الاولى التي قضاها في المدينة حليف اليهود رسمياً ، ولكنه اضطر فيما بعد إلى أن يرسل نداء في طلب المال ، اما لمساعدة المهاجرين المعوزين حتى يحصل على مغانم جديدة يقسمها بينهم ، أو في سبيل الاستعدادات الحربية (وهذا هو الاقرب) ولا سيما في الفترة بين بدر وحصار المدينة ، في انتظار هجوم المكيين ارسل هذا النداء إلى اليهود والمسلمين . وقد رفض معظم اليهود ، وقالوا بانهم على استعداد لقرض المال بفائدة[5] .

وقد أدرك محمد أخيراً ان الشريعة اليهودية تحرم قرض الربا للأخ في الدين وكان يعتبر اليهود والمسلمين اخوة في الدين ، ولهذا يجب على اليهود أن يساعدوا النبي بالمال ، وأن يقرضوه المال على الاقل بدون

---

(١) قرآن ٤، ١٥٨، ١٥٩ (٢) قرآن ٥، ٦٧ (٣) قرآن ٢، ٢٧٦

(٤) قرآن ٢، ٢٧٥ – ٢٧٦، ٣، ١٢٧ – ١٢٨، ٣٠، ٣٨

(٥) الواقدي ١٦٤ ادان يهودي انصارياً ٨٠ دينار بفائدة ٥٠ /١٠٠ لسنة، البخاري، بيوع «٣٤» ١٤ اشترى محمد حبوبا من يهودي وترك له زردا رهينة حتى يدفع له الثمن .

فائدة .

وهكذا أصبحت مسألة الربا جانباً من الخصومة التي نشأت بين محمد واليهود ، إذ رفض هؤلاء الاعتراف بنبوته .

ولئن كان تحريم الربا موجهاً قبل كل شيء ضد اليهود فهو يخص بعض العرب في المدينة ويحيط الغموض نهاية هذه المسألة نظرياً وعملياً[1] ، فلقد دارت مناقشات عديدة حول معنى الربا الحقيقي ولتحديد المعاملات المحرمة ، إذ أن المعنى العام لهذه الكلمة هو تقريباً « أن تسترد أكثر مما اعطيت » وتدل طبيعة المناقشات التي قام بها الفقهاء على أن الربا في أيام محمد كان نسبياً محدوداً . ويقال بأن النبي ذكر الربا في الخطبة التي ألقاها بعد فتح مكة[2] ويقول في رسالته إلى بني جهينة انه يجب ترك ربا المال وأخذ رأس المال فقط[3] .

ولا شيء يدل على ان محمداً حاول أن يوقف المعاملات التجارية في المدينة . فقد استمرت تجارة القوافل الخاصة بمكة والمدينة ، فترة من الزمن ، ثم توقفت بصورة طبيعية . فقد توجه نشاط رجال الاعمال إلى استغلال المناطق المفتوحة وإمكانيات الغنى فيها ، وأتاح فتح العراق وسورية ، اتخاذ طريق أسهل للمجيء من البلاد الهندية الواقعة تحت الرقابة العربية . وربما حاول محمد نفسه القضاء على قروض الاموال الاستهلاكية ليميزها عن القروض المخصصة لتمويل الانتاج ، وربما كانت

---

(١) شاخت المرجع المذكور (٢ ابن هشام ٨٢١ الواقدي ٣٣٨

(٣) ابن سعد ٢ ، ١ ٢ ، ٢٥ ، ٣

التحريمات التي وضعت فيما بعد والتي أعاقت في العصور الحديثة تمويل مشاريع التجارة والصناعة ، من وضع نظريين بعيدين عن كل تجارة مزدهرة .

وليس هدفنا ، على كل حال ، أن ندرس هنا هذا التطور اللاحق ، ولا يبدو انه كان في نية محمد نفسه أن يقيد التجارة العادية أو يغير تقاليد مكة في المعاملات المالية . يبدو ذلك أكيداً ، رغم الآيات القرآنية التي تنتقد موقف الوثنيين المكيين من المال . والفكرة المسيطرة على تحريم الربا هي فكرة اخوة المؤمنين التي تؤدي إلى تعاون متبادل في المسائل المالية ، أو غيرها من المصاعب .

وليس هناك من فكرة يمكن أن توصف بالاصلاحية المطلـــقة في التشريعات القرآنية الاخرى حول الاموال والتجارة ، فهي حض على الولاء في الاعمال وأن تكتب العقود ، وكان ذلك بدعة .

ج ــ الخمر

تحريم المشروبات المسكرة ميزة معروفة للحضارة الاسلامية وهو يعتمد على هذه الآيات القرآنية :

« يسالونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما » .

« يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم

العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون • وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا »[1] .

ويقال بأن محمداً رفض هدية خمر عند فتح مكة ورمى بهـــا[2] .

والسؤال الوحيد الذي يجب مناقشته هو سبب هذا التحريم للخمر ، لا سيما إذا كان الميسر في نظر مسلمي عهد متاخر يشمل كل أنواع اللعب . ويدل مضمون الآيات القرآنية على ان موقف المسلمين الاوائل يشبه موقف بعض البيئات المتطرفة في التقوى في اوروبا الحالية . وهنـــاك وقائع أخرى تؤيد هذا الافتراض . إذ أن المزاج السامي فيه نزعـة إلى الزهد . ولهذا وجد، قبل أن يبدأ محمد دعوته، رجال في مكة أمثال عثمان بن مظعون[3] امتنعوا عـــن شرب الخمر . وتروى بعض القصص حول تاثير السكر السيء وقد أزعج صحابة النبي[4] .

وهناك أسباب تجعلنا نعتقد ان هذه الاعتبارات لا تصل بنـا إلى الحقيقة التامة حول الموضوع . كان معنى الخمر موضوع مناقشات عديدة قام بها مشرعو عهد متاخر ، ولا نستطيع أن نعرف بثقة ما إذا كانت هذه الكلمة تعني في الاصل أي مشروب مسكر ،أو كانت تعني الخمر بالمعنى الدقيق للكلمة ، أي عصير العنب المخمر . فإذا كانت كلمة خمر تعني هذا المعنى الاخير ، فربمـــا تدخلت اعتبارات سياسية بموضوع التحريم ،

---

(١) قرآن : ٢، ٢١٦، ٥، ٩٢، ٩٣ (٢) الواقدي ٣٤٨

(٣) ابن سعد ١، ٣ ، ٢٨٦

(٤) البخاري ، شربا «٤٢» ١٣ . راجع بصدد أمثلة اخرى ج .فنسنك مقالة « الخمر » في دائره المعارف الاسلامية .

لأن الخمر ، أي عصير العنب الصافي ، كان يستورد من سورية والعراق . ولهذا فان شرب الخمر يؤدي إلى إفادة العدو . وليس لهذا السبب للتحريم ثقل سبب آخر : نجد في آيات القرآن الخمر دائماً مرتبطاً بالميسر . وكان الميسر يقوم على أن يشتري عشرة بعير ثم يذبح ويقطع ويجعل حصصاً ثم تسحب السهام ، وكانت هناك ثلاثة أسهم بدون حصص ، فمن يسحب هذه السهام يدفع ثمن البعير . فاذا كان القرآن يحرم هـذه العادة ، فليس لأنها ضرب من لعب القمار ، بل لأن الميسر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين الوثني القديم . وذلك لأن السهام كان يعهد بها إلى حارس الكعبة في مكة [1] . يبدو إذن من الممكن ان السبب الرئيسي لتحريم الخمر كان على صلة بالدين الوثني نجهلها [2] .

د ــ عدة الشهور

الغاء الاشهر الكبيسة هو تغيير بسيط أدخله محمد في عدة الشهور ، وطبع بصفة خاصة الحضارة الاسلامية . وكانت عدة الشهور العربية في الجاهلية تتضمن شهوراً قمرية ، ولكنها كانت تسير حسب السنة الشمسية بواسطة الاشهر النسيئة التي تضاف عند اللزوم . وتشير إلى ذلك آية من القرآن :

« ان عدة الشهور اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والارض، منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيها أنفسكم وقاتلوا

---

(١) كرادوفو مقالة « ميسر » دائرة المعارف الاسلامية

(٢) *J. Welhausen, Reste Arabischen Heidentums, 2e edition Berlin 1897 . 114*

المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين . انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحللونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ، زين لهم سوء اعمالهم[1]»

ويقال بأن محمداً أعلن هاتين الآيتين في خطبة ألقاها في حجة الوداع[2] .

يحيط بمسألة الشهر النسيء غموض يجعل من الصعب ذكر الاسباب العميقة التي دعت لاعتماد السنة القمرية[3] .

يقول القرآن ان النشاط الانساني يعارض بالنسيء سنة الله ، وتظهر الآيات التعارض بين استمرار سنة الله وتغيير القرارات الانسانية ، وهذا يؤكد لنا ، رغم بعض الروايات ، ان العرب لم يكن لديهم نظام محدد للنسأ . أما أسباب هذا التحريم ، فهناك فرضيتان رئيسيتان : يمكن ان تكون طريقة نسأ الشهور على علاقة بالوثنية بصورة نجهلها . وكانت هذه الطريقة تتعلق بمراقبة الاشهر الحرام[4] . كما ان صعوبة تحديد الاشهر الحرام يمكن أن تؤدي إلى مصاعب تهدد السلم الاسلامية . ومهما كانت الاسباب فإن اعتماد السنة القمرية يدل على طابع الاسلام غير الزراعي . ويقال غالباً إن الاسلام يؤثر في جميع نواحي الحياة . وليس الامر كذلك فيما يتعلق بالحياة الزراعية لملايين الفلاحين الذين

---

(١) قرآن ٩،٣٦-٣٧ (٢) ،ابن هشام ٩٦٨ ، الواقدي ٤٣٠

(٣) راجع كايتاني ج ١،٣٥٦ . بهل : محمد ٣٥٠ ، بلسنر مقالة «محرم» في دائرة المعارف الاسلامية . (٤) ما سبق ٢١ ، — *H, Winckler dans Arabisch - Sémitisch Orientalisch , 85 - 90 Ber'in Mitterlungan der Voderasiatischen Geseel scha ft 1910 . 14*

هم مع ذلك مسلمون صالحون إذان عاداتهم القروية و بعض أفكارهم الدينية لا تزال كما هي بالرغم من الاسلام . ولا يمكن أن نتصور وجود كتاب اشعار قروية في الادب الاسلامي .

٥ ـ الخلاصة

كان لتحريم الربا والخمر وأشهر النسيء ، تاثير كبير في طبع البلاد الاسلامية بهذا الطابع الأخلاقي الذي يراه المسافر ولكن المسائل الاخرى التي عالجناها في هذا الفصل لها أهمية أعظم في إصلاح البناء الاجتماعي من هذه التحريمات الثلاث. يبقى علينا أن نقول بضع كلمات حول صلات هذه الاصلاحات بالجانب الاجتماعي من مرض العصر . كان أساس الاضطرابات الاجتماعية التي شاعت في الحجاز حوالى مطلع القرن السابع الميلادي انهيار النظام الجماعى ، أو القبلي الذي كان يسود في الصحراء ، و قد انتقل هذا الانهيار بالعرب إلى حياة حضرية كحياة مكة والمدينة .

ولم تكن أسباب هذا التحول واحدة في كلتا البلدتين ،فقد ولد الاقتصاد التجاري في مكة النزعة الفردية ، بينما كان استقلال كل قبيلة في المدينة عاملا لعدم الاطمئنان الذي جعل الحياة لا تحتمل .

أدت النزعة الفردية إلى اضطهاد الضعفاء على يد الاقوياء الذين كانوا يهملون واجباتهم التقليدية نحو العائلة والقبيلة وكذلك كان الحال في المدينة ، ولكن هذه الحالة السيئة كانت شائعة في مكة وكان طابع البناء الاجتماعي في المدينة نزعته إلى تكوين جماعات أوسع عن طريق المحالفات أو اعتماداً

على أواصر القرابة أوالاواصر الاصطناعية. وكان معظم الناس يشعرون، وسط هذا التفسخ الاجتماعي، بعدم الاطمئنان و بالعزلة .

ولا يبدو انه حدث بين القبائل البدوية أية أزمة اجتماعية ، ما عدا نجاح محمد الذي يعتبر تهديداً لاستقلالهم فقد عانت هذه القبائل دائماً من مصاعب الحياة البدوية ، ومن الغارات والثار وخطر المجاعة المستمر .

من المهم بعد أن رأينا ذلك ، أن ننظر كيف جمع محمد بين النزعة الفردية والروح القبلية . كانت تهدف الأمة إلى إقامة السلم بين أعضائها والمحافظة عليها. وكان على محمد، الذي يمسك بالسلطة التنفيذية، أن يعمل على تحقيق هذا الهدف . ولكن الامة كانت أكثر من وسيلة لحفظ السلم كانت مجموعة من الافراد لأن الاسلام رضي بهذه النزعة الفردية وكان يشجعها (لدينا المثل الشاهد في تنظيم العائلة الجديدة) . وكانت عقوبة الاسلام الكبرى ، وهي النار تلحق بالفرد عقاباً على أفعاله كفرد . كما تخلص الفرد من بيئة القلق والعزلة ، وآمن بفكرة الانتماء إلى الامة . و ربما بدت العادة القديمة في المؤاخاة مصطنعة ، غير ان الشعور بالاخوة أصيل عند العرب ، مثال ذلك في أيامنا جماعة « الاخوان المسلمين » كانت الامة جماعة متحدة جداً كالقبيلة وانتقل اليها كثير من تقديس أواصر الدم .

وظلت مع ذلك الجماعات المتحدة بأواصر القرابة تقوم بدور في بناء المجتمع الاسلامي ، كانت الامة جماعة مؤلفة من قبائل وبطون متحالفة فيما بينها . وكان عليها أن تضمن لأفرادها سلامة الحياة والملكية ، كما ان حقوق عائلة المتوفى محفوظة في تنظيم مسائل الميراث .

كما تجنب الاسلام مساوىء النزعة الفردية المغاليه .

ولا شك ان شعور الاخوة بين المؤمنين قد خف بعد فتح مكة ومعركة حنين وتزايد عدد المؤمنين بسرعة .

وكان محمد شخصياً ، لاسباب سياسية واستراتيجية، يرغب في تحسين علاقاته مع أعدائه السابقين من قريش . وهكذا عادت أواصر القربى القديمة الى احتلال مكان الصدارة في الامة وأصبحت لها أهمية جديدة[1] .

وكانت العداوة التي تكنها بعض القبائل العربية نحو الاخرى عاملا فعالا ، فيما بعد ، في سقوط الدولة الاموية .

لكل من الروح الفردي والروح القبلي إذن نصيبه في بناء المجتمع الاسلامي . وقد ظلت الجماعات المؤلفة على أساس أواصر القربى مهمة من ناحية الضرورات الاجتماعية والادارية ، أما في الميدان الديني فقد حل محل الانتساب للقبيلة الانتساب إلى الامة الاسلامية ، حل محل النزعة الانسانية القبلية[2] الدين الاسلامي .

---

(١) قرآن : ٨ ، ٧٦ ، ٣٣ ، ٦

(٢) راجع محمد في مكة ص٨٤ ، بشر فارس: الشرف عند العرب قبل الاسلام، باريس ١٩٣٢

الفصل التاسع

الدّين الجديد

١ ـ المؤسّسات الدّينيّة في الإسلام

من السهل أن ننسى ، حين ننظر إلى صفات محمد كرجل دولة ، وإلى الاصلاحات الاجتماعية والسياسية التي حققها، انه كان قبل كل شيء زعيما دينياً . وسوف تكون كل دراسة لحياته ناقصة إذا لم يدرس الدين الذي أسسه . غير ان تاريخ المؤسسات الاولى للاسلام موضوع غامض لسوء الحظ ، ويصعب عرضه من جديد . يجدر بنا أن نترك جانباً التفاصيل ، فلا نهتم إلا بالخطوط الكبرى لمؤسسات الاسلام .

جعلت الهجرة محمداً على اتصال أوثق باليهود ، وقد حددت علاقات النبي باليهود ، منذ ذلك العهد ، تطور الدين الاسلامي فيما بعد . ومرت فترة كان فيها الدين الجديد ينقل عن اليهودية ، ثم جاءت فترة أخرى أخذ فيها يعارضها[1] فاذا كان اليهود ، في البدء ، يصومون ، فكذلك يجب على المسلمين ، ثم أصبح ، فيما بعد ، إذا صام اليهود بطريقة ، فعلى المسلمين أن يصوموا بطريقة أخرى .

---

(١) راجع ما سبق ص ٢٣٨

وهكذا نجد في الاسلام أوجه شبه مع اليهودية ، كما نجد أوجه خلاف ، وقد أدخل كل من أوجه الشبه والخلاف عن عمد . إذ ان هذا الموقف المزدوج ، نحو الدين القديم الموحد ، وإن كان أشد وضوحاً في الفترة المدنية ، يلاحظ منذ بداية الاسلام . وكانت الديانتان تحتويان على جوانب سياسية لا ترضي محمداً . فكان هدفه إذن أن يقيم ديناً موازيا لليهودية ، ولكنه مرسل للعرب خاصة . حتى إذا ما رفض اليهود الاعتراف بدين محمد على انه مواز لدينهم ، أدى هذا الرفض إلى تحويل الدين الجديد الذي لم يصبح ديناً خاصاً بالعرب بل أصبح ديناً ذا طابع عربي صرف .

ولم يكن اسم دين محمد الاسلام دائماً . ويبدو ان الاسم الذي أطلق عليه في الفترة المدنية كان « التزكي »[1] . ولا يذكر اسم الدين وأتباعه إلا قليلا في النصوص ونجد بعد الهجرة عدة اشارات الى « المؤمنين » ويشمل في بعض الاحيان هذا اللفظ اليهود . حتى إذا ما قطع محمد علاقاته بهم صرح بانه يتبع دين ابراهيم « الحنيف » وسمي دين محمد، فترة من الزمن، بالحنيفية ، وكانت هذه الكلمة يقرأها ابن مسعود في القرآن في السورة الثالثة الآية ١٧ [2] . وربما كانت تمثل القراءة الأصلية ، ونجد هذه الكلمة في كتب الحديث حين يقول بانه أدخل إلى المدينة دين الحنيفية [3] . وكان هذا الاسم شائعاً ، لأنه عثر في مصر على وثيقة مسيحية

---

(١) راجع محمد في مكة ، ملحق « د » ص ٢٠٧

A. Jeffrey . Materials for the History of the texte of the Quranc Leyde 1937.32

(٣) ابن هشام ٤١١ ، ابن سعد ٢ / ١ ، ١٢٨ ، ١٣٠ . الواقدي ١٩١ ، ١٩٠ ، ابن هشام ٩٩٥ «١»

ترجع الى القرن الثالث عشر المسيحي . وتتحدث هذه الوثيقة عن العصر الذي « جاءت فيه الامة الحنيفية وأذلت الرومان » [١] . ومن الصعب القول متى حلت كلمتا « مسلم » و « إسلام » محل « حنيف » و « حنيفية » ويقول ريشارد بل ان هـــاتين الكلمتين لا توجدان قبل السنة الثانية للهجرة [٢] ، وانهما لم تحلا رأساً محل التسميات الاخرى . وتذكرنا رواية ابن مسعود ان الآيات الاولى المدنية للقرآن قد نقحت لتتفق مع الالفاظ الجديدة . ولا شك ان لفظ « الاسلام » هو أفضل تسمية وهذه الكلمة معنى ديني أعمق يعني « الاستسلام والخضوع لإرادة الله » . لقد قيل ان استعمال هذه الكلمة يرجع الى القصة التي تروي تضحية ابن ابراهيم في القرآن حيث يقول « بان ابراهيم وابنه أسلما » [٣] . فإذا كان ذلك حقاً فمن الممكن أن يكون قـــد حدث انتقال بين التعبير « دين ابراهيم » و « اسلام » [٤] .

ومن بين مؤسسات الاسلام المسماة « أركان الاسلام » أهمها الصلاة ، وهذه الكلمة تعني « دعاء » [٥] . ولقد كانت الصلاة منذ الأيام الاولى

---

(١) أبوصالح ، الكنائس والاديرة في مصر طبعه وترجمه B,T,A,E Evaits ص٢٣٠ ، وهو نص مأخوذ عن Le Browne ، افول المسيحية في آسية . كمبردج ١٩٣٣، ص٤٠

(٢) المدخل الى القرآن ، ادنبورج ١٩٥٣، ٨٠٨ راجع :

J. Horowity, Koranisch Untersuchungen· 54

(٣) قرآن : ١٠٣،٣٧ ، H. Rniggren « islam » aslama , and Muslim Horae Soder blomanianae , I I .[Upsaal 1949]27 . etc G. Robson « islam en tant que terme d,appellation Muslim World XLiv 1954 101 – 9

(٤) قرآن ٢٩،٩ يتحدث عن « دين الحق »

(٥) ا . اكلفرلي : العبادة في الاسلام ، مدراس ١٩٢٥، ٣

ميزة لدين محمـد ، كما كانت المحاولات لمنع أتباعه من إقامـة الصلاة الدلائل الاولى على المعـــارضة[1] ، ولم تكن الصلاة طلباً لرحمة الله، بل كانت اعترافاً بقوته وعظمته[2] .

وتقوم هذه الصلاة على سلسلة من الحركات تتكرر مرتين أو أكثر ، وتبلغ حدها الأقصى في السجود حين يمس المؤمن الأرض بجبهته . ويجب ترديد بعض الصيغ أثنـــاء القيام بالعمل الجسدي ، فيجب القول أثناء السجود « الله أكبر » ، غير أن الحركات كانت مهمة والاقوال ثانوية .

و تبدو الفكرة التي تكمن وراء هذه الصورة من الصلاة غريبة للغربيين ، ولكن اعترافها بإله قوي قدير تتفق مع أول آية نزلت على محمد . ولمـــا نظمت الصلاة ، فيما بعد على أيدي الفقهاء الدينيين ، أصبح على كل مسلم أن يؤديهـا خمس مرات في اليوم ومن الممكن أنـه خلال سنوات النبي الاخيرة لم يحترم فرض الصلوات الخمس بانتظام فقـــد حذفت صلاة العشاء ، العزيزة على قلوب المكيين من أتباع محمـــد في المدينة[3] . وتدل جملة في القرآن انــــه كان يجب تادية ثلاث صلوات في اليوم[4] ، ولا شيء يطمان اليه عـــدا ذلـــك . وكانت الدعوة إلى الصـــلاة يطلقها صوت إنساني . وكان بلال العبد الطليق الحبشي أول مؤذن لمحمد وكانت تؤدى الصلاة باتجاه القبلة . وقد اتجه المؤمنون أول الأمر إلى

---

(١) قرآن ٩٦، ١٠

(٢) سنوك هورجرونج Verspride Geschriften I, 213

(٣) قرآن ؛ ٧٣، ٢٠ والتفاسير

(٤) ما سبق ص ٢٣٩ ، كذلك كايتاني حولبات ج١، ٢٠٥ ، ٤

القدس ، وبعد القطيعة مع اليهود تحولوا إلى مكة [١] ، ويسبق الصلاة الوضوء [٢] . وينظم حركات الصلاة قائد ديني ، الإمام ، يقف أمام صفوف المصلين ، وكان من نتيجة حركات التقوى هذه التي يؤديها معاً الكثير من المؤمنين ، أن تولد عند المسلمين شعور قوي بالتعاون .

وكان يمكن أن تؤدى الصلاة في أي مكان ، ولم يكن من الضروري التوجه من أجل ذلك إلى الجامع . وكان يطلب ، مع ذلك ، الاجتماع في مكان عام [٣] لصلاة الظهر يوم الجمعة . ثم اعتاد المسلمون في المدينة ، الصلاة في ساحة محمد . وكان يحضر في بعض الأحيان صحابة محمد للصلاة مع النبي . ولنشر هنا إلى انه إذا أمكن للأغراب في بعض الأحيان الالتجاء إلى صفة هذه الساحة ، فإن القصص المتأخرة ، المتعلقة بجماعة من المسلمين الاتقياء المعروفين باسم أهل الصفة ، والذين كانوا يعيشون باستمرار . هناك ما ليس تاريخية [٤] . ولقد حاول محمد حين بنى مسكنه أن يجعله مناسباً لاجتماع المسلمين للصلاة أو غيرها ، ولكن مسكنه في حياته لم يعتبر مكانا مقدسا أو معبداً ، كما كانت الكعبة في مكة [٥] . وكان محمد في بعض المناسبات الخاصة يذهب للصلاة في المصلى (؟) في أراضي بني سلمة وربما كان ذلك المشجد الذي أسس على التقوى كما يقول القرآن [٦] . وبعد

(١) راجع ما سبق ص٢٤٣،٢٣٨ (٢) قرآن : ٤٦.٤ (٣) قرآن : ٩،٦٢
(٤) راجع مقالة : اصل الصفة في دائرة المعارف الاسلامية (١)
(٥) ابن هشام ٧،٣٣٣ ، الطبري ج ١٢٥٩،١ ، كايتاني ج ٣.٧٦،١،٨٠،٤٣٢–٤٧، بهل محمد ٢٠٤
(٦) قرآن ١٠٩،٩ ، ا.ج. فنسنك « المصلى » في دائرة المعارف الاسلامية ، س . بكر Zur Geschichte des islamischen kultus Der islam , 1912 . 374 /99 (Islam stndien 1 . 272 -- 500

وفاة محمد ودفنه في بيت عائشة ، تحول منزله إلى مسجد المدينة . ويقال بان النبي أمر ببناء مسجد عند بني عمرو بن عوف في قباء [1] . ولقد روينا قصة مسجد الضرار [2] .

الركن الثاني من أركان الاسلام الخمسة هي الزكاة ، ويستعمل القرآن غالباً هذه الجملة « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة » لوصف المسلم الصالح . ولقد تحدثنا عن الجانب المالي من الزكاة ومكانتها في ميزانية محمد . ويبقى علينا أن نضيف بعض التفاصيل حول طابعها الديني ، وإن كنا قد أشرنا إلى هذه المسألة خلال مناقشتنا لكلمة « تزكى » [3] .

ولا شك انه وجد توارد في الافكار بين تزكى وزكاة ، ولكننا نستطيع بصعوبة تحديد ذلك . وليست الزكاة مع ذلك دفع ضريبة ، وإن خيل ذلك إلى العقول القليلة التدين . فقد كان « لزكاة » معنى ديني ، وكانت هذه الكلمة تشمل أفكاراً قديمة سامية حول التضحية ، وكانت تعبيراً عن عواطف غامضة . ولهذا ظلت الزكاة أحد أركان الاسلام ، حتى بعد ان لم تعد جزءاً من موارد الدولة المالية ، وتعتبر الصدقة في البلاد الاسلامية واجباً دينياً .

والركن الثالث من أركان الاسلام هو صيام رمضان . ولقد قلنا سابقاً [4] كيف فرض الصيام ،خلال الفترة المدنية ، ليكون المسلمون على

(١) ابن هشام ٣٣٥ ج بدرسن مقالة مسجد ١ في دائرة المعارف الاسلامية .
(٢) راجع ما سبق ص ٢٣٩ (٣) محمد في مكة ملحق « د »
(٤) راجع ما سبق ص ٢٣٩

قدم المساواة مع اليهود حتى إذا ما وقعت القطيعة معهم حل محل الصيام اليهودي المسمى صوم عاشوراء صيام رمضان .

والركن الرابع هو الحج ، ويسمى في بعض الاحيان «الحج الأكبر» تمييزاً له عن «العمرة» أو الحج الاصغر [1] .

ويبدو أن العمرة كانت في العصر الجاهلي متصلة بالكعبة بينما الحج هو زيارة الاماكن المقدسة المجاورة لمكة . حتى إذا ما جاء الاسلام أصبح الحج أشد اتصالا بالكعبة ، ولم تعد العمرة سوى بعض الطقوس تضاف إلى الحج . وترجع آية القرآن التي تدعو إلى الحج (سورة ٢ آية ١٩٢) حسب رأي بل إلى زمن سابق على بدر . وقد حدث تبني الاسلام لعادة عربية قديمة في الوقت الذي وقعت فيه القطيعة بين محمد واليهود ، ومع ذلك فقد كان القرآن يحتوي ضمنياً ، منذ وقت طويل ، على مثل هذا الشيء . ولهذا نجد احدى الآيات المكية الاولى (سورة ١٠٦ آية ٣) ، تسمى الكعبة «بيت الرب» . كما كان يري بعض المسلمين ، الذين بايعوا النبي في العقبة ، في الحج إلى مكة عملا دينياً ، وليس فقط تعللا سهلا لزيارة النبي [2] . وتقول النصوص ان سعد بن معاذ حج في الشهر الأول من الحج بعد الهجرة ، وكان ضيف أمية بن خلف [3] ، ثم

---

(١) أ.ج. فنسنك مقالة « حج » في دائرة المعارف الاسلامية ، ر.باريت مقالة «عمرة» نفس المرجع
C . Snouk Hurgronje Het Mekkanische Feest Layde 1880 (dans Verspreide Gescriften 1 . I — 124
م . جودفرادي مومبين « الحج إلى مكة » باريس ١٩٢٣

(٢) راجع رفض البراء بن معرور ان يدير ظهره، للكعبة ابن هشام ٢٩٤ ما سبق ص ٢٠٣ – ٢٠٤

(٣) البخاري مغازي (٦٤) كايتاني ج١ ص٤٢٥

وقعت معركة بدر فمنع جميع المسلمين من دخول مكة .

وقد بقي محمد مع ذلك يهتم بالحج . وكان الهدف الرئيسي لغزوة الحديبية في ٦٢٨/٦ اتمام العمرة ، ولا مجال للشك في رغبة محمد الصادقة في القيام بهذه المظاهرة الدينية ، وإن كانت تراوده الأهداف السياسية .

وقد حج في السنة التالية ، كما نصت المعاهدة ، وروينا ذلك ثم حج في السنة التي تليها بعد معركة حنين . وفي سنة ٦٣١/٩ قام الحج الاسلامي الاول الصرف ، وقاده أبو بكر ، وقد حرم على الوثنيين الاشتراك فيه[1] .

قاد محمد ، سنة بعد ذلـــك ، في آذار سنة ٦٣٢ (١٠/٧) الحج بنفسه في « حجة الوداع » ، ووضع طقوس مراسيم الحج في خطوطها الرئيسية . وقد أصبحت تفاصيل هـــذه الطقوس موضوع نقاش بين مختلف مذاهب الفقهاء .

نستطيع القول ان هذا الحج يحصر في نقطة واحدة من المكان والزمان الشكر الذي يوجهه العالم الاسلامي بأجمعه إلى عظمة الله وقدرته ،

وكان الاعتراف بالكعبة على انها أول بيت لله في شبه الجزيرة العربية (دون التنكر لقدسية القدس) واتخاذها قبلة يعني ان عبادة الله في شبه الجزيرة العربية ، محصورة في نقطة واحدة من المكان ، كما ان محمداً قد حصر عبادة الله في الزمان في محافظته على الحج ضمن الطقوس الاسلامية بصورة مختلفة وذلك لأن الحج يجري في أيام معينة من الشهر المخصص

(١) ابن هشام ٩١٩، ٩٢٠ ، الواقدي ٤١٦ سنوك هورجرونج المرجع المذكور ج ١ ، ٤٧ يقول بأن هذا الاجراء أدى بالاضافة إلى الضغط الاقتصادي إلى إسلام الوثنيين .

للحج ، وهو شهر ذو الحجة . كما ان انتشار الاسلام ، واستحالة الحج على القسم الأكبر من المسلمين ، لم يقللا من أهمية هذه الزيارة لمكة ، ومكانتها السامية في الاحتفالات الدينية عند المسلمين . إذ ان رحيل الحجاج وأوبتهم حدثان مهمان بالنسبة لكثير من المدن الاسلامية . ويمكن المؤمنون الذين لا يستطيعون السفر الاشتراك بعيد الاضحى ، فيقتدون في ذلك بمحمد الذي كان يحتفل ، خلال الوقت الذي لم يكن يستطيع الذهاب فيه إلى مكة ، في كل سنة بـ[؟] العيد في مصلى بني سلمة [1] . والمرحلة القصوى في الحج هي الوقوف على جبل عرفات الواقع مسافة مسيرة جمل أي أربع ساعات إلى الشرق من مكة . ويقع ذلك في اليوم التاسع من الشهر من الظهر حتى غروب الشمس . ولقد اجتمع في هذا المكان ، في السنوات الاخيرة ، نصف مليون شخص في بعض الاحيان ، ويعمل هـــذا الحج بصورة مهمة على جعل المسلمين ، يدركون انهم أمة تربطها أواصر أخوة متينة .

الركن الأخير من أركان الإسلام هي الشهادة : أي القول : «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» . ولا نجد هذه الصيغة في القرآن ، وإن كانت الفكرة التي تعبر عنها نجدها في كل آية من آياته . والقولان هما اللذان أعلنها محمد حين خاطب الذين يريدون أن يصبحوا من أتباعه ، وقد استعملت هذه الصيغة في أواخر حيـــاة النبي ، وكان الذي يقولها يصبح مسلماً .

(١) طبري ج١ ، ١٣٦٢ . كايتاني ج ١ . ٥٢٥ ، دائرة المعارف الاسلامية سقالةمصلى

يجدر بنا أن نلاحظ في خاتمة هذا الفحص لمؤسسات الإسلام الدينية الروح الفردية التي تتصاعد منها [١] . إذ ان الصلاة، في نظر المسلم ، هي شيء يخص الفرد الذي يقوم بها . فإذا اجتمع نفر من المؤمنين كان من الطبيعي أن يؤدوا الصلاة جماعة ، وإذا صلى شخص بمفرده فانه يؤدي بذلك واجباته نحو الخالق ، كما لو كان في جماعة من المؤمنين . وهكذا يمكن تطبيق كل قوانين العبادة الإسلامية ، حتى ولو لم يوجد سوى مسلم واحد في العالم . وهذا نتيجة للعقيدة القائلة ، بأن الله يحاسب في اليوم الآخير كل إنسان بمفرده . ويوجد ، بالرغم من ذلك ، في الدين الاسلامي ، كما رأينا ، نزعة متممة تظهر وحدة الامة الإسلامية ، وتدفع المؤمنين إلى تنظيم احتفالات تطبع فكرة الوحدة في نفوس المؤمنين . وربما كان بامكاننا القول باختصار ، ان الإسلام أمة مؤلفة من أفراد ذوي أفكار فردية ، أو انه أخوة يجمع بين أعضائها واجبات مشتركة ، وإن لم يحتج أي منهم الآخر .

٣ ـ موقف الإسلام من الوثنية العربية

من المفيد أن نحلل موقف محمد والقرآن من الوثنية العربية القائمة في شبه الجزيرة العربية . وهو موقف معقد أكثر مما يبدو لأول وهلة . ولقد كانت القوة الدينية التي تسري في حيـــاة معظم العرب، هي « النزعة الإنسانية القبلية » [٢] . وكانت الوثنية القديمة قـــد انقرضت

---

(١) G, H, Bousquet .Les grandes Pratiques rituelles de l, Islam, Paris 1949 , 116 - 20

(٢) راجع محمد في مكة ص ٤٨

تقريباً . ولم يبق منها سوى طقوس سحرية واحتفالات فقدت معناها .

ولقد قلنا في كتابنا « محمد في مكة » أن أقدم الأجزاء في القرآن لا تحتوي على أي هجوم على الوثنية ، بل يبدو انها كانت تقول بوجود « توحيد غامض » [١] عند أتباع محمد . ثم أخذ الإلحاح يشتد على وجود إله واحد مع اشتداد النقد لعبادة الأصنام [٢] .

وقد ظل هذا الموقف ، منذ ذلك الحين ، الميزة الخاصة بالاسلام . وأدى أثناء الفترة المدنية إلى تحطيم الاصنام في القبائل المدنية التي أسلم بعض أفرادها ، وفي أهم معابد الحجاز .

وكان يرسل في بعض الأحيان فرق خاصة لتحطيم الأصنام ، وفي أحيان أخرى، كما هو الحال في الطائف ، كان يشترط تحطيم الصنم على يد عابديه ، كشرط من شروط قبولهم في الامة الاسلامية [٣] ، وقد أزيلت كل بقايا الوثنية بطرق مختلفة ، كما تحولت الأسماء الوثنية [٤] .

وهكذا كان اسم عبد الرحمن بن عوف في الأصل عبد عمرو أو عبد الكعبة . وهناك عبد الرحمن آخر كان يدعى عبد العزا [٥] . هكذا كانت أسماء عبد الله كثيرة في مثل هذه الحالة [٦] . ولربما كان سبب زوال اسم عبد الرحمن الخوف من تشجيع الوثنية . وقد استعمل هذا الاسم بعض الوقت أثناء الجزء الأخير من الفترة

C. Brockelmanu (Allha und die Gotzen der ursprung islamischen Monothismus) Archiv fur Religions Wissenshaft 21 (1922) 99 - 121

(٢) ض ١٠٨،٦٣ (٣) راجع ما سبق ص ١٢٧،٨٩

(٤) ابن سعد ٨٧،٣،١ . أسد ج ٣١٣،٣ (٥) ابن سعد ١٨،٤١،٣،٢

(٦) مثال : عبد الله ذو البجادين ، كان في الاصل عبد العزا (اسد ١٢٢،٣)

المدنية، أكثر من الله للدلالة على الإله (ربما كان لازدياد الاهتمام بعفو الله وطيبته)[1]. ثم لم يعد يستعمل هذا الاسم قط، فلا نجده إلا في مطلع السور. إذ ان استعمال « الرحمن » كاسم وليس فقط كصفة يمكن أن يؤدي إلى بعض الخلط في عقول البسطاء، ولا سيما بسبب الجمع بين هذا الاسم وبعض المناطق، كالجنوب العربي واليمامة[2].

وقد بقيت، رغم هذا النضال ضد الوثنية، بعض الأفكار والطقوس الوثنية. وبالرغم من أننا لا نستطيع نفي إمكانية إفساد المصادر، إلا انه من الممكن أن محمداً نفسه كان يؤمن بالفال من بعض الأسماء. فكان يتفاءل بالنصر من أسماء القلاع في خيبر[3]. ويقال بأنه غير في مناسبات عديدة أسماء شؤم بأضدادها مثلا: مطيع بدلا من عاص وهكذا دواليك[4].

وكان ينظر للقسم على أنه عقد بين الإنسان والله. حتى ولو كان القسم جزءاً من عادة حرمها الاسلام فان من يخل به يجب عليه التكفير عن هذا الخطأ[6].

---

(١) هـ. جريم: محمد ٢، ٣٩. بل: مدخل ٢٤٣

(٢) ما سبق ص ١٦٢. قرآن: ١٧، ١١٠ يفترض بعض الخاط

(٣) الواقدي ٢٧٢، ٢٦٦، اختيار الطريق

(٤) « عاصية » الى « مطيعة »، ابن سعد ج٨، ٢٥٧، ٢. « بنو الصماء » الى « بني السامعة » السمهودي ج١، ١٣٨. « خربى » الى « صالحة » نفس المرجع ص ١٤٢. « العابر » الى « اليسيرة » « برة » الى « جويرية » « جمال » الى « عمرو »، الواقدي ١٥٢، ١٧٣، ١٩٣

(٥) راجع قرآن: ٢، ٨٣ للعنات الانسانية راجع قرآن: ٧، ٣٦، ٢، ١٥٤، راجع أيضاً استعمال اللعنات في وثيقة شرعية ابن سعد ٢، ١، ٢٢، ٢ مقالة (٩) ٣ « لعنة الله والملائكة والناس جميعاً »

(٦) قرآن: ٢، ١٥٦

وهكذا فان قسم محمد في الحديبية بأن يضحي فرس أبي جهل منعه، كما تقول النصوص ،من استبدال عشرة جمال به [١] .

ويقول القرآن بصراحة ان المسلمين استمروا في الاعتقاد بوجود كائنات خارقة أقل من الآله كالجن والشياطين . ولكن طبيعة الجن وعلاقاتها مع الشياطين غامضة ، وليس من الضروري الحديث عنها أكثر مما فعلنا . وكانت الفكرة الاولى للارتداد عن عبادة الآلهة الوثنية جعلها في عداد الكائنات الخارقة الثانوية ، ثم قيل عنها بانها مجرد أسماء [٣] .

وكان سبب تحريم الالتجاء إلى الكهان الاعتقاد بأن هؤلاء الكهان كانوا يستمدون الوحي من الجن [٤] .

وقد احتفظ بالفكرة السامية القديمة حول الطابع المقدس لبعض الأماكن وذلك بصورة مختلفة .

وقداسة الكعبة التي تعترف بها آية من أوائل الآيات (١٠٣ ، ٣)

---

(١) الوقدي ٢٥٨

(٢) *I. Goldziher, Abhandlungen Zur arabischen Philologie, Leiden1896 i, 106-17.Eickmann, Die Angelologie und Damonologie des korans. New york - Leipzig 1908 P, A, Eichler. die Dschinn. Teufel und Engel in koran, leipzig 1928 S, Zwermer « the Worship of Adam by Angels » Moslem World 27 « 1937 » 115–27 For the connected idea of spirit cf D.B. Macdonald : the developoment of the idea of Spirit in islam Acto Orientalia 9 1931 6–15 T,O, Shanghnessy The development of The meaning of Spirit in koran Rome 1953*

(٣) راجع محمد في مكة ص ١٤١ ، قرآن ٢٣،٥٣ (٤) الواقدي ٣٤٨

حيث يسمى الله « رب هذا البيت » . قد تأكدت حين اتخذت قبلة يجب على المؤمنين التوجه نحوهـــا للصلاة ، والحج اليها . وتقوم قدسية « المسجد الحرام » على مقطع مـن القرآن (سورة ٢٢،٢٦–٢٧) يروي وحي الله لابراهيم « وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود » كما ان الله جعل منه « حرماً آمناً » في منطقة مكة [١] . بينما معابد الآلهة الوثنية ليست مقدسة في رأي القرآن ، حتى إذا ما حطم المسلمون موضوع العبادة وعبثوا بأماكنها فلن يصبهم سوء . نحكم بذلك على عدم وجود الآلهة المزعومة بصورة بديهية . نرى من ذلـــك استمرار فكرة قداسة بعض الأماكن ، وأن هذه الفكرة قد تطورت قليلا ، فلم تعد الأماكن مقدسة بذاتها وليست محرمة بالآلهة الوثنية ، بل هي تصبح مقدسة بتأثير الفعل الإلهي . ونجد في البند ٣٩ من دستور مكة توسعاً في هذا المبدأ ، إذ يقول عن جوف يثرب (أو المدينة) بأنـــه حرام باسم رسول الله والامة الاسلامية [٢] .

وتنتمي مسالة تحريم المطاعم إلى علاقات الإسلام بالوثنية . ونجد في القرآن الحث على أن يأكل المسلمون الطيبات ، ولا يمتنعوا عن أكل ما حلل الله [٣] . ويقول بعض المفسرين ان هذه الآيات موجهة ضد التزهد [٤] . ولكن نص الكثير من هذه المقاطع يدل على أنها تقصد قبل كل شيء

---

(١) قرآن : ٢٨ ، ٥٧ ، ٢٩ ، ١٧ ، بصدد الكعبة ٨ ، ٩٨

(٢) راجع عكس ذلك الموقف بصدد الشهر الحرام ، ما سبق ٣٠٤–٣٠٥

(٣) قرآن : ٢ ، ١٦٣ ، ٥ ، ٨٩ ، ٦ ، ١١٨ ، ١١٩

(٤) راجع حول السورة ٥ آية ٨٩ « sale » Wherry

محرمات الوثنيين[1] . وكان وجود تشريعات عند اليهود تخص المآكل عنصراً من عناصر الاضطراب ، لأن محمداً كان يصرح بتماثل الوحي عنده مع وحي اليهود ، وقد أزيلت مع ذلك الصعوبات جزئياً في القول بأن التحريمات فرضت عقاباً لليهود[2] وتحليل بعض المحرمات بعد تغييرها . فقد كان يحرم مثلاً أكل الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله[3] . تذكرنا هذه القائمة من المحرمات ، ولاسيما تحريم المنخنقة[4] ، بمسيحيي القدس منـــذ الايام الاولى للكنيسة المسيحية . إذ كان عليهم الامتناع عن أكل ما ذبح للانصاب والدم والمنخنقة[5] .

وتجعلنا أوجه الشبه هذه نعتقد ان ما كان مشتركاً بين المسيحية ، كان ينظر اليه على أنه جزء من وحي صحيح .

لا نجد أية دلائل جدية على أن القرآن أو محمداً آمنا بايـــة عقيدة تتعلق بطقوس السحر ولا شك أن القرآنـ أبقى على بعض الطقوس التي كانت في الأصل سحرية ، ولكن القرآن لا ينم عـــن أية إشارة للاعتقاد بفعاليتها ، ولقد استمر في الاعتقـــاد بالسحر ، كما أدخلت قصص الطقوس السحرية في النصوص التقليدية المتعلقة بمحمد .

وتدور إحدى هذه القصص حول حادثة وقعت في معركة بدر .

---

(1) قرآن ٢ : ١٤١٠ ، ١١٦ ، ١٤٨ (٢) قرآن : ٦ ، ١٤٦ – ١٤٧ ، ١٦ ، ١١٨ ، ١١٩

(3) قرآن ٢ ، ١٦٧ – ١٦٨ ، ٦ ، ١٥٥ ، ١٦ ، ١١٥ (٤) قرآن : ٥ ، ٤

(٥) راجع أعمال ١٥ : ٢٠ ، ٢٩

إذ يقال ان رسول الله أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً ثم قال : « شاهت الوجوه » ثم نفحهم بها [1] وأمر أصحابه فقال « شدوا » فكانت المزيمة . ولا تستحق هذه القصة كثيراً من الاهتمام لولا أن القرآن ، كما يقولون، يشير اليها بهذه الكلمات : « فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » [2].

ولا يتعلق هذا المقطع ، بالضرورة ، بقصة الحصباء ، لأن الكلمة المستعملة في هذا المقطع « رميت » تختلف عن الكلمة المستعملة في القصة التقليدية وهي نفح ويمكن أن تطلق على السهام [3].

ويبدو أن كثيراً من المفسرين الذين يروي البخاري آراءهم يجهلون هذه القصة [4]. لا تبرهن إذن الآية المذكورة على أي شيء فيما يتعلق بعقيدة إسلامية في السحر.

إذا حاولنا الآن تحديد المبادىء التي قام عليها قبول الطقوس الوثنية أو رفضها ، فهناك بعض الخلاصات التي يمكن عرضها . احتفظ بالافكار الوثنية كالملائكة والجن والشياطين حين تكون متأصلة بعمق ولا تتعارض بصورة بديهية مع فكرة الإله الواحد.

أما فيما يتعلق بالعقيدة التي تضفي على بعض الأماكن طابعاً مقدساً فقد قبل الإسلام هذه العقيدة لأنه وجد فيها فائدة اجتماعية تكمن في العادات والنظريات المتعلقة بهذه العقيدة ، كان يتيح المكان المقدس

---

(١) ابن هشام ٤٥٤ . الواقدي ٥٨ (٢) قرآن : ٨، ١٧
(٣) لين . الواقدي ١١٦ حيث يستخدم محمد قوساً (٤) تفسير ج ٠ ، ٧٠

الفرصة للعرب لاجتماع هادىء يدركون فيه وحدتهم وتضامنهم . ويبدو ان هذين السببين ، وهما تاصل العقائـــد العميقة والفائدة الإجتماعية يفسران لنا لماذا احتفظ الإسلام ببعض الافكار والعقائد القديمة . حتى إذا لم يتوفر أحد هذين السببين تركت الطقوس القديمة كالعادات المتعلقة بالجمال والتي يذكرها القرآن (سورة ٥،١٠٢،١٠٣) .

ومن المفيد أن نلاحظ أن هذه البقايا من العهود القديمة حين تتسرب إلى الإسلام تتحول دائماً . وهكذا مهما كانت التبريرات الوثنية للاعتقاد بقداسة بعض الأمكنة ، فان القرآن يجعل هذه القدسية نتيجة الإرادة الإلهية . وهكذا أصبحت ملائكة الوثنيين عبـــاد الله الذين ينفذون أوامره . كما أن تاثير اللعنات نسب إلى العمل الإلهي . ورجم أعمـــدة الحجارة الذي احتفظ به في الحج أصبح رجم الشياطين ، كما استخدمت الافكار القديمة في التضحية التي بقيت في الزكاة لأهداف اجتماعية مفيدة ، كتخفيف الشقاء أو تمويل الدولـــة الاسلامية . وتضحية الأضاحي الحقيقية كما احتفظ به الاسلام (وكانت تحدث في الحج وفي مناسبتين أخريين) لا تحتوي على أفكار التكفير والشفاعة التي كانت تحتوي عليها في الديانة اليهودية والمسيحية . وهذه التضحية مفيدة في نظر الاسلام من النـــاحية الاجتماعية لأن نظريـــة التضحية تفرض استهـــلاك الأضحية [1] .

---

(١) راجع بوسكي الكتاب المذكور ١١٤ ويقول لي صديق مسلم ان القسم الاكبر من لحم الاضاحي لا يستهلك اليوم .

نجد آثاراً بسيطة لهذه الأفكار في الصدقة [١] ، ثم ظهرت فيما بعد فكرة مكافأة الله في العالم الآخر [٢]

ولقد رأينا ان موقف الإسلام غريب من الأيمان والأماني التي تكون عقوداً يجب التكفير عن عدم الوفاء بها . ويعتبرها الإسلام بدون أهمية، كان اليمين حسب الوثنيين هو الخروج من حماية الإله الحامي أو التعرض لعقاب هذا الإله . غير أن الله ، كما يتصوره المسلمون، لا يمكن أن يتأثر بهذه الطريقة بالكلام أو الأفعال الإنسانية . فإذا ما رأى شخص بوضوح ان ما اقسم بفعله يتعارض مع الإرادة الالهية حق له أن يفسخ القسم ولا يبعده ذلك عن الله ، ولا يعرضه لعقابه كما لو عصى الله [٢] .

ولقد اهتم الاسلام ، على العموم ، بالتعبير الخارجي عن هذه العادات الوثنية فإذا ما كان يجب التخلي عن نظرية قديمة (كالاعتقاد بالآلهة) كان لابد من القيام بعمل خارجي لوضع المسلم الجديد في الطريق المناقضة . لا بد من تحطيم الأصنام ، أصنام القبائل وأصنام العائلات والمعابد الكبرى . وكان على المسلمين الجدد أن يشتركوا علانية في العبادة الاسلامية . فقد امتنع شيخ قبيلة ذات يوم عن أكل قلب الحيوانات المقتولة ، لسبب الموانع الدينية الخاصة ، فأنذر بانه لن يعترف به محمد شيخاً للقبيلة إلا إذا أكل قلباً في حضرته [٣] . حتى أن

---

(١) قرآن : ٢٨١:٢، ٢٧٣، ١٩٢، ١٩٦، محمد في مكة ص ١٠٧

(٢) J. Pedrsen, Der bei dem Semien, Strasbourg 1914.194

(٣) ابن سعد ٢، ١، ٦٢

زواج محمد من زينب، مطلقة ابنه بالتبني زيد، ربما كان لاظهار ان مثل هذا الزواج الذي تحرمه العادات الجاهلية لا يكون له أية نتائج سيئة.

وإذا كانت العادة الوثنية لا تتضمن في شكلها الخارجي مظهراً وثنياً واضحاً كان من السهل على الاسلام تبينها والاستسلام لارادة الله، الذي يعتبر مثال العمل الاسلامي، يقلد استسلام ابراهيم واستعداده لتضحية ابنه في طاعة الله، وإن لم يكن لهذه التضحية فائدة بديهية[1]. وهكذا أمكن الاسلام أن يتبنى طقوساً ترجع إلى العصر الجاهلي دون أن يغيرها بشكل ظاهر. ولم يكن من الضروري، كي تصبح إسلامية، أن يكون لهذه العادات معنى خاص بل يجب عليها أن ينظر إليها على أنها تعبير عن إرادة الله.

٣ـ الإِسْلام وَالمسِيحيّة

كان موقف الاسلام من الديانتين الموحدتين القديمتين مرتبطاً بمسائل عملية وقد درسنا صلات الاسلام باليهود والديانة اليهودية كفاية في الفصل السادس. كما تحدث الفصل الرابع عن جوانب من علاقات محمد بالقبائل المسيحية، غير أن مسالة موقف محمد من المسيحية عامة، ولاسيما كما يظهر هذا الموقف في القرآن، تستحق دراسة أعمق.

من المهم أن نتساءل لماذا لم يعتنق محمد المسيحية، وسنوضح في محاولتنا الاجابة على هذا السؤال، بعض المسائل المهمة التي كانت ستبقى غامضة.

---

(١) Eop . 37 , 103 aslama

ربما بدا انه طالما أن محمداً قد شغل بالقلق الاجتماعي والأخلاقي في عصره ، واعتبر أن هذا القلق يرجع لسبب ديني فان أسهل شيء بالنسبة اليه هو اعتناق الديانة المسيحية أو الديانة اليهودية ، فلماذا لم يفعل ذلك ؟ القسم الأول من الجواب على هذا السؤال هو أن محمداً لم يعتنق الديانة المسيحية ولا الديانة اليهودية . فهو منذ البداية كان يعتبر أن التوحيد الذي يؤمن به والذي يدعو اليـــه مماثل للتوحيد اليهودي والمسيحي الذي كان في عصره (١)

ولم تكن غقيدة النبي المكي جديدة بذاتها ، بل كانت جديدة في تبنّي المكيين لها وتطبيقها . وقد أصبحت فكرة محمد عن الصلات بين عقيدته والعقيدة المسيحية واليهودية ممكنة لقلة الاتصالات المباشرة مع المسيحيين أو اليهود . فقد كان المسيحيون قلة في مكة . ويمكن أن يكون لأحدهم، ورقة بن نوفل ، وهو ابن عم خديجة، تأثير كبير على محمد ، ولكن معظم المسيحيين الذي يمكن الاتصال بهم كانوا عبيداً حبشيين ، وكان اطلاعهم على ديانتهم قليلا وسيئاً (٢) .

ولا شك أن محمداً رأى بعض المسيحيين حين ذهب للتجارة فيسورية كما انه لم يتصل باليهود حتى مجيئه إلى المدينة ، وكان يأمل خلال الاشهر

---

(١) قصة ميلاد المسيح « قرآن ١٩ – ٣٥ » تتفق مع هذه الفكرة .

(٢) لامنس « مسيحيو مكة قبل الهجرة » في « شبه الجزيرة العربية قبل الهجرة » بيروت ١٩٢٨ ، ١–٤٩ .

C, A, Nallino · Racolta di Scitti 1914 . 111 87 – 156 « Ebri e christiani mell, Arabia péislamica » R. Devreese Le chistianisme dans La Province d. Arabie . Vivre et Penser 2o serie Paris 1947 , 110 - 46

الاولى لاقامته في المدينة أن يهود المدينة سوف يعترفون بنبوته . كان الدافع الذي حمله على الاتصال بالقبائل المسيحية ، قبل الهجرة [1] ، نفس نفس الاصل بالاعتراف بنبوته .

ولهذا لم يسأل محمد نفسه مثل هذا السؤال : « هل يجب علي أن أعتنق المسيحية ؟ ولو أن محمداً ، خلال الفترة المكية ، بعد أن أعلن نبوته عرض له هذا السؤال لأجاب بأنه يعترف بيسوع المسيح كنبي . وان مهمته دعوة شعب مكة وشبه الجزيرة العربية باجمعها إلى رسالة مماثلة »

وكان بامكان السؤال أن نعرض له ، قبل نزول الوحي ، على الشكل التالي : هل يجب علي أن أذهب للقاء فقيه مسيحي لأعلم منه كفاية عن الله ؟ . وليس هناك أي سبب للاعتقاد بأن محمداً لم يحاول الاطلاع قدر إمكانه عن طريق المحادثات مع المسيحيين كورقة ، ولكن يستحيل أن يكون قد أقام مدة طويلة في دير سوري أو عند أحد الرهبان ، إذ ان لمثل هذه الزيارات ، ناهيك بالصعوبات المالية ، صدى سيئاً ، ويتهم كل من يقوم بهـــا من الناحية السياسية [2] . إذ ان المسيحية كانت في نظر عرب الحجاز ، قبل كل شيء ، ديانة الاحباش والبيزنطيين . وطلب الأطلاع والعمادة يفتح الباب لدخول التأثيرات الاجنبية . ولهذا نرى أن معارضة الاسلام، التي وجدت عند وفاة محمد كان مركزها الديني عدد من الانبياء العرب الذين كانوا مستقلين عن كل سلطة دينية غريبة [3] .

---

(١) محمد في مكة ص ١٨٠ (٢) نفس المرجع ص ٢٨

(٣) ما سبق ص ١٧٧

أصبح يستحيل على محمد ، بعد نزول بعض الآيات عليه ، أن يرضى بمجموع التعاليم المسيحية واليهودية ، دون أن يثير الشك في حقيقة الوحي الذي ينزل عليه [1] . ومع ذلك فقد ظل على علاقات طيبة ، زمناً طويلا مع المسيحيين . ولقد ساعد نجاشي الحبشة المسلمين الذين هاجروا الى بلاده وحماهم . وتقول لنا بعض آيات القرآن هذا الأمر .

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون ، واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق . يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ، فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين » (٥،٨٥،٨٨) .

وبينما رفض معظم اليهود الاعتراف بنبوة محمد ، اعترف به جماعة من المسيحيين بعد خيبر مما سبب نزول الوحي (٢٨،٥٢ ٥٤) [2] . فاذا كان المسيحيون قد رأوا في محمد نبياً في ذلك الوقت ، فمن الاقرب أن تكون الآية المذكورة سابقة على ذلك الوقت وهي تتعلق ببعض اليهود الذين أسلموا [3] .

والفكرة التي نجدها في القرآن ، في الوقت الذي تلا الهجرة ، هي ان

---

(١) قرآن : ٢،١١٤٠١ (٢) البيضاوي ، لا يوجد في الطبري

(٣) طبري تفسير ج ٢٠،١٠،٥ يذكر رفاعة بن القرظي ، « ربما ابن سحوال ، راجع اسد ٢ ، ١٨١) وعبد الله بن سلام .

المسيحية دين لوحده ، مواز لليهودية والاسلام [1] ، ولم يؤد ازديـــاد العداوة بين اليهود والمسلمين ، الى تدهور العلاقات الطيبة بين المسيحيين والمسلمين،بل نجد،على العكس، ان القصص عن « عيسى المسيح » تستعمل في القرآن لمهاجمة اليهود .

ولقد جاء عيسى ، كما يقول القرآن ، الى أبناء اسرائيل برسالة يحملها اليهم من عند الله مؤيدة بالبينات فرفضها الكثيرون منهم [2] , من الجدير بالملاحظة ان الرسل الاثني عشر يسمون «الانصار» أو «حواريي عيسى » [3] وهو اسم أطلق على عرب المدينة الذين أيدوا محمداً وعارضوا اليهود .

ولا شك أن الذين كانوا يتكلمون العربية احسوا بالصلة بين كلمة « الانصار » والكلمة التي يستعملها القرآن للاشارة للمسيحيين ، هي كلمة « نصارى ». وتدل دراسة دقيقة لآيـــة القرآن التي تتحدث عن صلب المسيح بأنها لا تنفي عقيدة المسيح ، بل تنفي ادعاء اليهود بانهم انتصروا على المسيحيين ، ويؤكد القرآن نحو الامل المسيحي .

« وقالوا قتلنا المسيح عيسى بن مريم ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم .

يجب علينا أن نستنتج، على ضوء موقف المسلمين الطيب من المسيحيين في وقت كان فيه المسلمون أعداء لليهود ، ان كثيراً من الآيات التي ترجع لاول الفترة المدنية والتي تنتقد اليهود والمسيحيين كانت في الأصل موجهة

---

(١) قرآن : ٥ ، ٥٠ ، ٧٢، ٧٣ (٢) قرآن : ٤٣ : ٦٣ : ٩٥ : ٦١ : ٦ : ٥٠ : ١٠٩
(٣) قرآن ٣، ٥٢، ٤٧، ٤٨

ضد اليهود [١] . ففي السورة الثانية مثلا الآيات ١٢٩ ـ ١٣٥ و ١٤١ يمكن حذف الاشارة إلى المسيحيين بحذف بعض الكلمات ، وهناك شك قوي في أن تكون هذه الآيات قد « نقحت » فيما بعد حتى يمكن تطبيقها على اليهود والمسيحيين . ويحتوي القرآن ، طبعاً ، على انتقادات للعقائـــد التي كان المسلمون يعتقدون انها مسيحية . والمسالة الأساسية التي يوضحها القرآن هي ان المسيح وامـــه ليسا إلهين [٢] . لأن المسيح كائن مخلوق كسائر المخلوقات [٣] .

والفكرة التي ينفيها القرآن هي أن يكون المسيح إلهاً أو الله نفسه . ولا نجد في الآيات المذكورة سابقاً ذكر المسيح على أنه « ابن الله » كما أن هذه الصفة الاخيرة للمسيح لايعترف بها القرآن ، ولكنه يعطيها أهمية أقل . ويقول القرآن « ما كان لله أن يتخذ من ولد » [٤]

وتتأكد هذه النظرية بنقد لفظ « بنات الله » الذي كان يطلق على آلهة الوثنيين ، أما فيما يتعلق بالآيات التي تنفي أن يكون الله أنجب ولداً ، فان أقرب الفرضيات هي أن تكون هذه الآيات تتعلق في الأصل بالوثنية ، إلا اذا ذكر المسيح [٥] ، وتاريخ هذه الآيات التي تنتقد المسيحيين غير مؤكد. وتقوم الصعوبة في تحديد زمنها في أننا نجهل الى أي حد كان المسلمون على اطلاع على عقائد المسيحيين قبل فتح مكة . ولعل المسلمين لم يلاحظوا أن

---

(١) قرآن ٢ : ١٠٥ – ١١٤ : ١٢٠ : ٣ : ١٨٠٥٠٦ – ٢١ : ٢٦
(٢) قرآن ٥ : ١١٦ – ١٣٠ : ١٧ – ١٩ (٣) قرآن ٣ : ٥٢ – ٥٩ : ٤٣
(٤) قرآن ١٩ : ٣٥ – ٣٦ : ٤ : ١٦٩
(٥) قرآن ١٠ : ٦٨ – ٦٩، ٤٧، ١٤٩، ٣٩، ٣ – ٥، ٤٣، ١٦ – ١٥، ٨١

نظريات تشبه التي تذكر كان يؤمن بها المسيحيون ، أو انهم اعتقدوا ان مثل هذه النظريات لم تكن سوى أوهام أقلية ، وان مجموع المسيحيين لم يكونوا يوون في المسيح سوى نبي ، وانه لحق ، بمعنى من المعـــاني ، ان المعتقدات التي يرفضها القرآن، ولاسيا عقيدة آلهة الثالوث المتميزين وصفة الابن الجسدي المنسوبة للمسيح ، همـــا وهمان غريبان على الارثوذكسية المسيحية. ولهذا لايمكن اعتبار الآيات التي تنتقد هذه المعتقدات ، حتى ولو كانت ترجع الى الفترة الاولى الاسلامية ، دليلا على موقف عام عدائي نحو المسيحيين . بل يحق لنا على العكس أن نعتقد أن محمداً أقام علاقات طيبة مع نجاشي الحبشة حتى عودة المسلمين أيام غزوة خيبر على الاقل .

وقد تغير الوضع بعد فتح مكة ومعركة حنين . فقد اتصل محمـــد بالجماعات السياسية المسيحية باجمعها أو باكثر منها . ولقد احتفظ لـــنا برسالة من النبي الى راهب ضغاطر [1] . وتبدو هذه الرسالة على انها محاولة لتحديد موقف الاسلام كي يفوز بتاييد الراهب ، ثم لم يعتم ان ظهر بوضوح ان بعض المسيحيين وان كانوا على استعداد للخضوع لمطالب محمد السياسية، فإنهم لا يرضون قط الاعتراف به كنبي يقودهم . وهكذا يمكن أن تكون الانتقادات التي يوجهها القرآن لمعتقدات المسيحيين مناسبة لهذا الوقت .

ولربما أوحت الاعتبارات السياسية لمحمد هذا الموقف من المسيحيين فلقد عقدت القبائل المسيحية في جنوبي شبه الجزيرة العربية ووسطهـا معاهدات مع محمد ودفعت القبائل الضعيفة منها جزية للمدينة . كما ازداد

---

(١) ابن سعد ٢٨٠،١،٢ (٤٣)

النفوذ البيزنطي على طول الطريق المؤدية الى سورية . ولم يستطع محمد كسب الاتباع في هذه الناحية بالرغم من أن التوسع نحو سورية والعراق ، كان بالنسبة اليه ضرورة استراتيجية . ولقد تحدد موقف الاسلام العام من المسيحيين على ضوء موقف قبائل الشمال التي كانت في غالبيتها مسيحية وحلت العلاقات الطيبة محل العداوة . ونزل الوحي على النبي يأمره بمحاربة هذه القبائل حتى الخضوع التام .

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الله الهاً واحداً لا اله الا هو سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون »[1] .

ولربما نزلت بعض أجزاء هذه الآيات في عدة مناسبات مختلفة ، على ان هذه الآيات تعني ،على العموم ، بداية سياسة عدائية نحو المسيحيين والتي وجدت التعبير عنها في غزوة تبوك الكبرى ٩/٣٦٠[2] . واستمرت هذه السياسة بقية حياة محمد ومن بعده حتى خضوع سورية با كملها. ولقد استمرت هذه الآية ، التي تقرر العداء نحو الامبراطورية البيزنطية ونحو

---

(١) قرآن ٩ ، ٢٩ – ٣٢ (٢) راجع ما سبق ص ١٤٢

المسيحيين عامة ، تؤثر في المسلمين زمناً طويلا في علاقاتهم مع الكنيسة المسيحية .

ومن خصائص العلاقات بين المسيحيين والمسلمين انه لا يبدو أن محمداً أو أي صحابي من أصحابه كان على اطلاع على معتقدات الديانة المسيحية الاساسية . فالقرآن ، عدا اشارته للصلب ، وقد أدخلت هـــذه الاشارة لاظهار خطأ ادعاء اليهود ، وذكر الرسل الاثني عشر الذين هم حواريو عيسى ، وبعض المعجزات المتعلقة بشفاء المرضى وبعث الاموات، لايقول شيئاً عن حياة المسيح العامة ولا عن تعاليمه كما يرويها العهد الجديد. وكان المسلمون الاول يطلقون على عيسى لقب « المسيح » ولم يكونوا يدركون ان هذا اللقب يعني « الذي مسحه الله بالزيت ». ولم يكونوا يفهمون مهمة المسيح الخاصة التي تجعل منه المخلص الذي جاء ليكفر عن خطايا العالم .

ولم يدركوا ان الروح القدس كان، في نظر المسيحيين، الشخص الثالث في الثالوث المقدس . وانه لعجيب حقاً أن يكون قد وجد بين المسلمين ووسط بلاد شاسعة مثل هذا الجهل بالمسيحية . وربما كان المسؤولون عن هذا الجهل هم المسيحيون الذين اتصل بهم محمد وأصحابه والذين كانوا هم أنفسهم يعرفون هذه العقائد معرفة سيئة . وعلى كل حال فقد كان الجهل بديهياً ولم يحاول معالجة هذا الجهل خلال القرون الثلاثة عشر التي انقضت منذ عصر محمد ، سوى القليل من المسلمين .

الفصل العاشر

عظمة محمد الانسان

١ ـ خَلق محمد وخُلقه

حفظت لنا عدة روايات تعطينا فكرة عن خلق محمد ، وتتفق هذه الروايات عامة ، فهي بذلك قريبة من الحقيقة ، وان كان بعضها يعبر عن نزعة لرسم صورة لمحمد الرجل الكامل (المثالي)[١] . كان محمد ، حسب هذه النصوص ، متوسط القامة أو فوق المتوسط قليلا ، عريض المنكبين واسع الصدر قوي البنية على العموم . وكان طويل الذراعين ضخم اليدين والرجلين . وكان مرتفع الجبين ، أقنى الانف ، له عينان واسعتان سوداوان ، وكان شعره طويلا كثاً سبطاً أو جعداً . وكان كث اللحية أيضاً وكان خط من الشعر الخفيف يحيط بعنقه وصدره ، وكان ناحل الخدين ، واسع الفم ، حلو الابتسامة ، شاحب اللون ، ويمشي وكأنه يسرع من منحدر حتى ليصعب اللحاق به ، وكان اذا غير اتجاهه يدور بكل جسمه في الاتجاة الذي يسير فيه .

وكان محمد ميالا للكآبة ، يستطيع البقاء وقتاً طويلا لا ينبس ببنت

---

(٢) ابن سعد ٢، ١٠٢، ١٢٠ . الواقدي ٣٤٩

شفة اذا استغرق في تاملاته ، وكان لا يستريح قط دائم المشاغل بطرق مختلفة ، ولم يكن يتفوه بكلمات لا طائل تحتها : وكان ما يقوله دقيقاً واضحاً سهل الفهم خالياً من البلاغة . وكان كلامه دائماً سريعاً ، يعرف كيف يسيطر على عواطفه [1] . واذا رأى معارضة ما أدار وجهه للناحية الاخرى , فاذا رضي غض بصره . وكان يعرف كيف يقسم وقته بدقة بين مشاغله الكثيرة ، وكان يظهر في علاقاته مع أقرانه كثيراً من اللباقة . وكان يستطيع أن يكون قاسياً في بعض الاحيان ، ولكنه كان على العموم لطيفاً ، وكان ضحكه في معظم الاحيان ابتسامة [2] .

ونجد كثيراً من القصص التي تدل على دماثته وحساسيته ، حتى ولو كان بعض هذه القصص غير صحيح ، فإنها في مجموعها ترسم صورة صحيحة

وليس هناك كما يبدو أي سبب مثلاً للشك في صحة القصة التي تروي كيف أعلن النبي وفاة جعفر بن أبي طالب لارملته ، أسماء بنت عميس، ويبدو ان القصة روتها الى حفيدتها [3] . كانت أسماء ذات صباح مشغولة بأعمال البيت وهي دباغة أربعين جلداً وصنع عجينة الفطائر حين دخل عليها محمد . فجمعت أطفالها الثلاثة التي أنجبتهم من جعفر وغسلت وجوههم وعطرتهم فطلب محمد رؤية أولاد جعفر ، فجاءت بهم ، فاحاطهم محمد بذراعه

---

(١) الواقدي ٣٧٣ حيث نرى ان محمداً ضرب ذات يوم رجلا لأنه لم يعد يسيطر على اعصابه ثم قدم له هدية فيما بعد .

(٢) يمكن ان تتضمن قصص كراهيته للشعر وعجزه عن إنشاد بعض الاشعار شيئاً من الحقيقة ولكنها مشبوهة لميلها إلى إظهار اعجاز القرآن . راجع قرآن : ٦٩،٣٦ ابن هشام ٨٨٢ ، الواقدي ٣٧٦ ، ابن حنبل مسند ج١، ١٣٤، ١٤٨، ١٩٨ لم يكن محمد يثني على الشعراء المعادين له ، ولكنه كان يشجع الشعراء المناصرين له أمثال حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة(ابن سعد ج ١، ٣ »٨٠ «)

(٣) ابن سعد ج ٨، ٢٠٦

وشم رائحتهم كما تفعل الام مع طفلها الصغير . ثم اغرورقت عيناه بالدموع وأخذ بالبكاء فسألته أسماء : هل وصلتك أخبار من جعفر ؟ فأجابها النبي عندئذ انه قتل . وأمر فيما بعد أهله أن يعدوا طعاماً لعائلة جعفر « لانها مهمومة لا تستطيع التفكير بطعامها» . كما جاءت الى محمد في نفس الوقت ابنة زيد بن حارثة ، الذي قتل مع جعفر ، وهي تنتحب ليعزيها ، فأخذ النبي ينتحب معها ، وقد سئل فيما بعد عن هذا الموضوع ، فقال انه بكى بسبب حبه لزيد [1] . وكانت ذكرى زوجه الاولى خديجة تحزنه دائماً . وقد كان بين أسرى بدر زوج ابنته زينب ، فأرسلت اليه زينب فدية ، عقداً كان لخديجة، وبلغ من تأثر محمد لرؤيته العقد انه أطلق سراح زوج زينب بدون فدية [2] .

ويبدو ان محمداً كان يشعر بحنان خاص نحو الاطفال وكانوا دائماً يحبونه [3] وربما كان ذلك عنده تعبيراً عن أسف رجل مات كل أطفاله في سن مبكرة .وقد أضفى كثيراً من عطفه الابوي على ربيبه زيد الذي تحدثنا عنه .

كما كان شديد التعلق بابن عمه علي بن أبي طالب الذي عاش بعض الوقت في عائلته . ولا شك ان محمداً أدرك ان علياً لم يكن يملك صفات رجل الدولة الناجح . ونجد بين القصص التي تدل على حبه للاطفال قصة عن حفيدته امامة بنت أبي العاص (ابنة زينب) فكان يحملها بعض

---

(١) ابن سعد ١٠٣٠١:٣٢:٥ (٢) الواقدي ٧٧
(٣) اشكر السير هـ . جب الذي اثار انتباهي لهذه الناحية

في بعض الاحيان على كتفيه أثناء الصلاة ويضعها على الارض متى سجد ثم يعود فيرفعها. وقد داعب مرة أزواجه فاراهن عقداً وقال بأنه سيعطيه لأعز الزوجات عنده , فلما تأكد من اثارة الغيرة فيهن اعطى العقد الى امامة [1] . وكان يحب أيضاً ابن زيد، أسامة ، وقد أخذه معه على جمله حين عودته من معركة بدر [2] .

وكان النبي يشارك الاطفال ألعابهم ويتخذ منهم الاصدقاء . وكانت عائشة فتاة صغيرة حين تزوجها وظلت تلهو بلعبها . فسألها ما هي ألعابها؟ فأجابته : « أفراس سليمان » مما أضحك محمداً [3] . ويقال بأنه لعب لعبة « البصق » مع أحد الاطفال [4] . وكان يلهو مع الاطفال العائدين من الحبشة ويتحدثون بلغة هذه البلاد [5] . ويتحدثون عن بيت في المدينة فيه طفل صغير كان من عادة محمد المزاح معه . وقد وجد صديقه ذات يوم حزيناً ، فسأله عن السبب فأجابه الطفل ان بلبله قد مات ، فبذل محمد كل جهده لتعزيته [6] .

وربما كانت القصة التي سنقرأها صحيحة نظراً لطيبة محمد وحبه للاطفال ، حتى ولو كان لها قيمة خاصة في التشريعات . جاء طفل صغير ذات يوم الى محمد فأخذه بين يديه وبعد لحظة بلله الطفل فلما ضربته امه لمعاقبته وبخها محمد قائلا : « لقد أسأت الى ابني » (وهنا تتدخل

---

(١) ابن سعد ٨ ، ٢٦ (٢) الواقدي ٧٢
(٣) ابن سعد ٨، ٢، ٤، ١٦ راجع كتاب ن · ابوت عائشة حول خصائص اخرى ص ٨
(٤) اسد ج٥: ٣٩٣ (٥) ابن سعد ١، ٤، ٧٢:٤
(٦) ابن سعد ٢، ٣، ٥، ٦٦، ١٢

النظرية التشريعية) ورفض أن يغير ملابسه وأن يغسلها لأن ذلك كان من طفل صغير [١] . وكانت طيبته تشمل الحيوانات . وهذا شيء رائع في العصر الذي كان يعيش فيه في هذا الجزء من العالم .

فقد رأى حين سار إلى مكة قبل فتحها ، هو وجنوده ، كلبة مع صغارها ولم يكتف محمد باصدار الاوامر لعدم اخافتها بل كلف أحد رجاله بالاشراف على تنفيذ أوامره [١] .

تلك ملامح مفيدة في شخصية محمد تساعدنا على إتمام الصورة التي نتخيلها له من سلوكه في الشؤون العامة . كان يكسب احترام الناس وثقتهم ، بسبب الدوافع الدينية التى كانت أساس عمله وبصفات امتاز بها كالشجاعة والعزم وعدم التحيز والصلابة التي تقارب القسوة يلطفها كرمه وسخاؤه . يضاف الى هذه الصفات ان السحر المنبعث من تصرفاته كان يضمن له محبة المقربين منه واخلاصهم .

٢ ـ مآخذ أخلاقية مزعومة

ليس بين كبار رجال العالم رجل كثر شانئوه كمحمد . ومن الصعب فهم السبب الذي دعا الى ذلك. فلقد كان الاسلام خلال قرون عدة العدو الاكبر للمسيحية ، ولم تكن المسيحية ، في الحقيقة ، على اتصال مباشر بأية دولة أخرى منظمة توازي الاسلام في القوة . فلقد هوجمت الامبراطورية البيزنطية بعد أن فقدت مقاطعاتها في سورية ومصر في آسية الصغرى ،

---

(١) ابن سعد ٨ ٠ ٤ ٢٠ (٢) الواقدي ٢٣٧

بينما كانت أوربا الغربية مهددة في اسبانيا وصقلية .

وأخذت الدعاية الكبرى في العصور الوسطى ، حتى قبل أن توحد الحرب الصليبية اهتمام المسيحيين حول طرد العرب من الأرض المقدسة ، تعمل على اقرار فكرة « العدو الاكبر » في الاذهان ، ولو كانت تلك الدعاية خالية من كل موضوعية .

وأصبح محمد ما هوند « أمير الظلمات » حتى اذا ما حل القرن الحادي عشر كان للافكار الخرافية المتعلقة بالاسلام والمسلمين والقائمة في أذهان الصليبيين تأثير يؤسف له : فلقد أنذر الصليبيون بأن ينتظروا أسوأ الامور من الاعداء، ولما وجدوا بين هؤلاء الاعداء كثيراً من المحاربين الفرسان شعروا بالريبة من السلطات الدينية المسيحية . ولهذا حاول بطرس الراهب أن يعالج هذا الوضع باذاعة معلومات أصدق عن محمد والديانة التي يدعو اليها . وقد حدث فيما بعد تطور كبير في هذا السبيل ولا سيما منذ قرنين من الزمن وان ظل كثير من الاوهام عالقاً في الاذهان [١] .

من الضروري في العالم الحديث حيث تتزايد الاتصالات الوثيقة بين المسيحيين والمسلمين ، أن يحاول كل منهما الوصول الى نظرة موضوعية عن

G. Pflannmuller , Handbueh der Islam literatur, Berlin 1932 , 133 - 197 Montgomery Watt carlyle and Muhammad • Hibbert journal L 111

وقد درس نظريات الاسلام التي جمعها كتاب لاتيتون في القرن الثاني عشر ن.أ. دنيال في رسالة دكتوراه في الفلسفة في جامعة ادنبورج .

خلق محمد. فلقد كان التشهير الذي لقيه من الكتاب الاوروبيين يتبعه غالباً تعظيم رومانطيقي لشخصيته، وهو تعظيم قام به غيرهم من الاوروبيين والمسلمين، وهدف الدراسة التي نقوم بهـــا أن تعمل على تكوين موقف واقعي من الانتقـــادات المتعلقـة بالاخلاق وكان موضوعها محمـداً وقد خلفتها لنا القرون الوسطى. وتدور هذه الانتقادات حول ثلاث مسائل رئيسية: الخداع، الشهوانية، عدم الوفاء.

لقد نفى كارليل منذ أكثر من مئة سنة تهمة الخداع، ومن ثم جعل العلماء يرفضونهـا أكثر فأكثر، ومع ذلك لا تزال، في بعض الاحيـان، يتهم بها محمد. وأقصى ما يصل اليه هذا الرأي القول بأن محمـــداً لم يكن يؤمن بما يوحى اليه، وانه لم يتلق الوحي من مصدر خارجي عنه بل انه الف الآيات عن قصد ثم أعلنها للناس بصورة خدع بها النـــاس وجعلهم يتبعونه فضمن لنفسه بذلك من السلطة ما يرضي طموحه وحبه للمتعة.

ومثل هذه النظرة للامور غير معقولة. وذلك لأنها لاتفسر لنا بصورة مرضية لماذا كان محمد، في الفترة المكية، مستعداً لتحمل جميع صنوف الحرمان، ولماذا فاز باحترام رجال شديدي الذكاء ذوي أخلاق مستقيمة. كما ان ذلك لا يجعلنا نفهم كيف نجح في تأسيس ديانة عالمية أنجبت رجالا قداستهم واضحة للعيان. لا يفسر كل ذلك بصورة مرضية الا اذا افترضنا صدق محمد أي ان نعتقد بأنه كان مقتنعاً حـــقاً بأن القرآن ليس ثمرة خياله بل ان كل ما نزل عليه كان من الله فهو بذلك حق.

يمكن ان تؤدي هذه النظرة لصدق محمد الى سوء التفاهم فيجب علينا

توضيحها . فالقول بأن محمداً كان صادقاً لا يعني ان القرآن وحي حق وانه من صنع الله . اذ يمكن أن نعتقد ، بدون تناقض ، ان محمداً كان مقتنعاً بأن الوحي ينزل عليه من عند الله ، وأن نؤمن في نفس الوقت بأنه كان مخطئاً ، فاذا ما أدركنا جيداً هذا الاستدلال ، كان من الواضح انه , حتى لو صح الاتهام القائل بأن الوحي كان يتفق مع أغراض محمد، وانه كان يخدم رغباته الانانية ، فانه لا يبرهن على فقدان الصدق ، بل يبرهن على انه كان يستطيع أن يخيب أمله بنفسه . والآيات التي تذكر عادة كمستندات الاتهام بالخداع هي الآية ٣٧ من سورة ٣٣ التي تبرر زواج محمد من زينب بنت جحش والآيتان ٤٩ ــ ٥٠ من نفس السورة اللتان تضفيان عليه امتيازات خاصة بصدد زيجاته. وسوف ندرس مسألة زواجه من زينب فيما بعد ، وسوف نرى ان محمداً لم يستسلم في ذلك لرغباته الانانية . ويقال بأن عائشة لاحظت بصدد الآية الاخرى بأن الله يسرع في تلبية رغباته [١] . حتى ولو كانت عائشة قد تلفظت بهذه الكلمات ، (وانها ليست من اختراع اللاحقين) فان هذا يدل على شكها بالصلة القائمة بين الوحي ورغبات محمد . وتدل هذه الملاحظة على انها كانت تشعر بالغيرة ، ولا يمكن بذلك أن تعتبر شاهداً عدلا . بل على العكس اذا أمكن ان نوجه مثل هذه الملاحظة الى محمد دون ان نزعزع ثقته فإنها تدل على صدقه .

---

(١) ابن سعد ٨، ١، ١١٢، ٥، ١٤١ . ابن حنبل ٦، ١٣٤، ١٥٨ . البخاري تفسير (٦٥) حول الآيتين ٤٩ - ٥٠ سورة ٣٣

والرأي الذي تقدم به ريشارد بـل وغيره والقائل بأن محمداً قـــد « نقح » بعض سور القرآن لا يتعارض بالضرورة مع صدقه . ويقوم « التنقيح » على إضافـــة بعض الكلمات أو الجمل أو المقاطع الطويلة أو حذفها . ويمكن أن نفترض أن محمداً اعتبر هذه التغييرات قد أملاها عليه الله لمسايرة التطور الذي حدث . وتعترف الارثوذكسية المسلمة بأن بعض الآيات قد نسخت لأنها لم تعد تطبق على المسلمين ، فالعقيدة تعترف إذن بحدوث النسخ . وكذلك يمكن تبرير الاضافات بنفس الطريقة ، إذ كان يمكن ، مثلا ، لله أن يوحي لمحمد بان كلمة « والمسيحيون » يمكن أن تضاف إلى آية حول اليهود ، وتبرير هذا التغيير هو ان المسلمين ، في أول الأمر ، لم يتصلوا إلا باليهود ، ثم اتصلوا فيما بعد بالمسيحيين ، ولن يكون لاضافة كلمة « والمسيحيون » من أثر سوى زيادة الاختلاط في النص لو انها ادخلت في الوحي الأول ، في وقت لا تغني فيه الناحية العملية شيئاً.

وربما كان محمد يتبع تقنية شخصية « يستمع » بها لآية ناسخة أو « ينتظرها » وربما استخدم هذه الطريقة أيضاً حين كان يرى مـــن المناسب نزول آية للتغلب على صعوبة من الصعوبات . ومهما كانت طريقته ، على كل حال، فقد كانت لديه وسيلة ما ، بدون شك ، لمعرفة ما إذا كان الوحي الذي ينزل عليه هو من عند الله حقاً. ويعني القول بأنه كان صادقاً انه إذا كان ينظر للكلام الذي يسمعه على انه نازل من عند الله ، فذلك لأنه كان يعتقد ذلك حقاً ، ولا يخلط بينه وبين أفكاره الشخصية .

ليست هناك إذن أسباب كامنة لاعتبار محمد دجالا بل هناك على

العكس أسباب قوية تؤكد صدقه . ونستطيع في مثل هذه الحالة الخاصة أن نبلغ درجة عالية من اليقين ، لأن النقاش حول هـــذه المسألة ، على عكس النقاش حول المسألتين الاخلاقيتين ، يعتمد على وقائع ولا يمكن آن يتضمن خلافاً في التقدير حول الاخلاقية ، أي انه إذا أمكننا التدليل ان محمداً ، رغم معرفته الجيدة بأن مضمون القرآن كان ثمرة تفكيره ، قد أكد بان ذلك وحي من عند الله . فان ذلك دجل أكيد يعترف به الجميع على انه انتقاص خطير من الاخلاق .

أما فيما يتعلق بالادعائين الآخرين وهما الاتهام بعدم الوفاء والشهوانية عند محمد ، فإن النقاش لايدور فقط حول الوقائع بل حول قواعـــد الاخلاق التي يجب الحكم على الافعال بموجبها . أما الوقائع الدقيقة فهناك اتفاق حول مسالتين ، وهما نقض معاهدة الحديبية وزواجه من زينب مطلقة ربيبه زيد ، غير ان الظروف التي رافقت هاتين الواقعتين ميدان واسع للخلاف . أما القواعد الاخلاقية فهناك إمكانيتان رئيسيتان : «هل كان محمد فاضلا حسب مبادىء شبه الجزيرة العربية الاخـــلاقية التي يعترف بها أفضل الناس أخلاقاً عام ١٩٥٠ ؟ »

فلنبدأ بمحاولة الاجابة على السؤال الاول معتمدين عـــلى الخطأين المزعومين :

يتضمن الاتهام بعدم الوفاء عـــدة انتقادات وجهها لمحمد كتاب أوروبيون ، وهو ينطبق على أفعال كنقض اتفاقاته مع اليهود ونقضه

من جانب واحد للمعاهدة المعقودة في الحديبية مع المكيين [1] . ويمكن أن يتضمن هذا الاتهام بعدم الوفاء خرقه للشهر الحرام أو الارض الحرام أثناء غزوة نخلة حيث سال لأول مرة دم المكيين ، وكذلك قتل يهود قريظة بالجملة ، واخيراً أمره أتباعه وتشجيعهم على القضاء على أعدائه الخطيرين بواسطة الاغتيال [2] .

ولم يكن في كل ذلك ، ما عدا حوادث نخلة ، ما يمكن أن يقلق ضمائر اتباع محمد . وربما بدا هذا القول غير معقول للاوروبيين . وهكذا يمكننا أن نقدر البون الشاسع بين المثل الاعلى الاخلاقي في شبه الجزيرة العربية القديمة ومثلنا . فقد كان للعرب البدو مثل أعلى رفيع حول نوع من السلوك ، ولكنهم لم تكن لديهم أية فكرة حول أقل العناية الواجبة نحو الكائنات البشرية ، لأنها كائنات بشرية . فقد كانوا يجهلون كل شيء عن قانون أخلاقي عام كالذي قال به « كانت » .

وكان يوجد داخل القبيلة واجبات يجب أن يقوم بها على السواء جميع الذين يتصلون بالقبيلة كحلفاء أو موالين أو أرقاء . على مثل هذه الواجبات يقوم المثل الاعلى العربي في السلوك الشريف . ولا يعود هناك أي واجب خارج القبيلة . ويستطيع الانسان أن يتصرف بكل حرية مع غريب لا حامي له.فاذا ما نشبت الحرب بين القبيلة والاخرى نقطت القيود نحو العدو أو الغريب ، ما عدا التي تفرضها خشية الثار والخوف

---

(١) راجع ما سبق ص ٢٥١
(٢) « « « ٢٠،٢٥٩،٢٨

من القوى الخارقة .

وكانت الأمة تعتبر بمثابة قبيلة . وكان عليها القيـــام بواجبات نحو القبائل التي تربطها بها اتفاقات حسب شرائع العصر . ولقد رضي محمد أن يدفع دية الدم مكان رجل كان المسؤول الحقيقي عن موت عدة مسلمين ولكنه لم يكن الوسيلة إلى ذلك [1] . فاذا مــا نشبت الحرب بين قبيلة والمسلمين ، أو لم تكن تربطها بهم اتفاقات لم يكن على المسلمين أي واجب نحوها ، حتى الواجب الذي تفرضه المبادىء الانسانية الأولية . فإذا ما دهش معاصرو محمد لقتل جميع رجال قريظة ، فسبب تلك الدهشة أن محمداً لم يكن يخشى مغبة مثل هذا العمل . وكان ينظر لتصرفات قريظة خلال حصار المدينة ، على أنها وضعت حداً لكل اتفاق مع محمد ، كما أن المكيين قد نقضوا نصوص معاهدة الحديبية قبل ، وأن يفعل محمد مثل ذلك . وكان يقال ان الاشخاص الذين قتلوا جعلوا من المستحيل المطالبة بحسن معاملة محمد لهم ، وذلك بسبب الدعاية التي لفقوها ضده . ولقد بلغ من عـــدم شعور المسلمين الذين قتلوا المكيين بجريمتهم أن أحدهم وصف العودة من القتل بقوله (انهم عادوا يحملون رؤوس ضحاياهم وكانوا خمسة رجال شرفاء بلا خوف ولا تثريب ، وكان الله سادسهم) [2] . وتتفق هذه القصة مع روح العصر الجاهلي ، فهي بذلك تكاد تكون صحيحة ، وإذا لم تكن فإنها تدل على موقف المسلمين الأوائل .

---

(١) راجع ما سبق ص ٨٤

(٢) الواقدي ١٩٠ . قرآن ٨، ٥٨

ولقد أثارت ، مع ذلك ، غزوة نخلة ، الاستنكار التام لعمل محمد والمسلمين ، ولم يكن الدافع لهذا الاستنكار سوى أسباب أنانية أساسها ديني وليس أخلاقياً ، فلقد نقض اتفاق ديني ، وكان يخيف الذين يعبرون عن سخطهم فكرة عقاب غير طبيعي . ولقد قرر محمد ، بهذه المناسبة ، أن يتحدى الرأي العام معتقداً انه بذلك يتبع أوامر الله ، وانه يحارب الأوهام الوثنية . كان مسلك محمد في هذه الظروف مسلك مصلح للقيم الاخلاقية وليس مسلك رجل لا ضمير له .

وكذلك شان الايمان . فقد كان الجانب الديني أهم في نظر المسلمين من الجانب الاخلاقي الصرف . فلقد سمح القرآن (٢،٦٦) نقض الايمان ، ولهذا فقدت الأيمان أهميتها في الاسلام[1] ، للأسباب المذكورة آنفاً .

ولما كان واجب الوفاء بالعهد مرتبطاً ، في العصر الجاهلي، بالآلهة الوثنية ، ولما كانت الأيمان بذكر اسم الله لا تحل محل الأيمان الوثنية القديمة تماماً ، فربما يكون قد حدث نوع من الاستمرار الخالي من كل عقوبة في حالة عدم الوفاء بالأيمان

وهناك اتهام أوروبي مسيحي لمحمد بانه شهواني أو انه،بلغة القرن السابع عشر ، الفظة« فحاش مسن» غير أن هذه التهمة تسقط إذا فحصناها على ضوء الأفكار السائدة في عصر محمد . كان الفكر الاسلامي في أول ظهور الاسلام يميل إلى تضخيم شخصية النبي ورفعها فوق مستوى البشر ، ويوجد حديث يقول ان محمداً قد أعطى من قوة الرجولة ما يجعله

---

(١) راجع ما سبق ص٣٨٢

يستطيع أن يقسم ليلته بين جميع نسائه [1] .

ولا شك أننا هنا بصدد حديث موضوع لأن الحديث العادي يقول بأن محمداً كان يخصص ليلة لكل واحدة من نسائه ، ونستطيع على كل حال أن نحكم من وراء ذلك على موقف بعض أتباع محمد منه . كان المسلمون الاول سيئي الظن بالعزوبية ، وكانوا يعارضونها في كل مناسبة حتى الزهاد في الاسلام كانوا عادة متزوجين ، وإذا قارنا النبي بالمرحوم الملك عبدالعزيز ، ملك العربية المعروف باسم ابن سعود ، فإن محمداً معتدل مع زوجاته . ولم يكن رأي معاصريه فيه سيئاً بسبب هذه الزيجات المتعددة . بل كان ذلك في نظرهم ما يوافق رجلا له مثل هذه القوة السياسية ، ويبدو أن معاصريه وتابعيهم المباشرين أخذوا ينمقون القصص حول علاقاته بالنساء كغيرة الحريم أو حبه من النظرة الاولى لزينب .

وكان الانتقاد الوحيد الذي وجهه معاصرو محمد من المسلمين اليه ضد زواجه من زينب بنت جحش . وكانت زينب ابنة عمته ، وكانت عند الهجرة اما غير متزوجة أو أرملا . وقد ذهبت إلى المدينة مع اخوتها وزوجها محمد بالرغم عنها من ربيبه زيد بن حارثة . وقد ذهب محمد فيما بعد حوالي السنة الرابعة للهجرة (٦٢٦) إلى بيت زيد للتحدث اليه وكان زيد غائباً فشاهد زينب وهي عارية فاحبها ، كما يقولون ، لتوه . فمضي وهو يقول لنفسه : « سبحان الله مقلب القلوب » أخبرت . زينب زيداً بزيارة محمد ورفضه الدخول وما قاله . فتوجه زيد رأساً إلى محمد

---

(١) ابن سعد ١٠٢ ، ٩٦

وعرض عليه أن يطلق زينب ، فقال له محمد بان يحفظ امرأته . ولكن الحياة أصبحت فيما بعد مع زينب لا تطاق فطلقها زيد . وبعـــد مرور العدة تم زواجها من محمد وقد نزل الوحي بتبرير هذا الزواج[1] .

لا نكاد نستطيع الشك في الخطوط الكبرى لهذه القصة ، وإن كان النقاش يدور حول بعض التفاصيل . وهناك شيء أكيد تقريباً ألا وهو السبب الذي سبب انتقادات معاصري محمد . فهم لم يصدموا من الجانب الشهواني الذي ينم عليه هـذا المسلك ، كما يصدم أهل أوروبا اليوم ، بل كانوا يعارضون الزواج لأنه كان في نظرهم زني . وكانت هذه النظرة تعتمد على القرآن[2] ، كما كانت تستوحي المبدأ القديم القائل بأن الولد الربيب (المتبنى) كالابن الحقيقي . ولا نستطيع أن نكون واثقين من كل ما سبب هذا الاستهجان . غير أن تفسير آيات القرآن المذكورة هو انه لا يجب اعتبار الولد المتبنى كالولد الحقيقي ، ولهذا كان يستحسن التخلي التام عن النظريات القديمة[3] . وينم القرآن عن أن محمداً في أول الامر كان لا يريد الزواج مـن زينب لأنـه كان يخشى استهجان الرأي العام ، ثم رأى أن هذا الزواج واجب يفرضه الله عليه . فقد دلل زواجه

---

(١) ابن هشام ١٠٠٢ ، ابن سعد ج ٨، ٨١،٧١ ، قرآن ٣٣، ٣٧ ، كيتاني ج١، ٦١٠ ، ابوت ، عائشة ، ١٦ – ١٨

(١) قرآن ٤، ٢٧ ، ما سبق ص ٣٤٠ كذلك فلهوزن : ٤٤١ ، ملاحظة ٣

Die Ehebeiden . arabern

(٢) راجع قرآن ٣٣، ٤ ، *S – Kohn . die Eheschliessung · im Koran*
ويلاحظ انه لو أراد محمد مجرد الزواج من زينب لجعل هذا الزواج خالصة أو ميزة خاصة به، ولما كان قد سن بهذه المناسبة قانوناً عاماً . فذلك لوجود أسباب أخري . راجع هـ . بوسكي في دراسات اسلامية ج٢، ٧٨

من زينب للمؤمنين انه لا مانع الزواج من زوجة الولد المتبنى المطلقة[1].

وكان النقد الموجه لمحمد بهذا الصدد يعتمد على النظريات الجاهلية التي لا يعترف بها الاسلام ، وكان من أهداف محمد في عقد هذا الزواج أن يقضي على سيطرة هذا الوهم القديم على سلوك الناس .

ولنبحث الآن عن أهمية هذه الفكرة بالنسبة للافكار الاخرى التي ربما أثرت على محمد .

ليس من المبالغة القول بأن جميع زيجات محمد كان لها هدف سياسي[2] . لنا الحق إذن في القول بان محمداً في قصة زينب بنت جحش لم يذهب ضحية حب عنيف ، بل رأى بوضوح الفوائد السياسية لهذا الزواج . ويجب النظر في مسألتين مهمتين : كانت زينب قريبة لمحمد ، وكان أهل قبيلتها حلفاء والد أبي سفيان ، ولما كان زواج زينب قد حدث قبل زواج محمد من بنت أبي سفيان بوقت طويل ، بينما كان أبو سفيان يقود حملة مكة ضد النبي ، فان هذا الجانب من الزواج لا يمكن أن يكون قد خفي على محمد ، كما يتضح من النصوص أن محمداً استخدم زيجاته من قريباته ، كما استخدم زيجات بناته ، لأغراض سياسية ، فزوج فاطمة من علي ثم رقية ، كما زوج فيما بعد أم كلثوم من عثمان بن عفان كما زوج حمنة بنت جحش من طلحة بن عبيد الله بعد أحد ، وزوج حبيبة بنت جحش من عبد الرحمن بن عوف . ولا شك أن زواج زينب من زيد كان جزءاً من هذا المخطط للتحالف، لأن زيداً كان رجلا

---

(١) قرآن : ٣٧،٣٣ (٢) راجع ما سبق ص ٣٥٠

مرموقاً في الامة كابي بكر من بعض النواحي .

ويعظم الشك بعد هذه الحقائق . لماذا عارضت زينب زواجها من زيد ؟ لا يمكن أن تكون قد فكرت بانه لا يليق بها ... ومهما يكن فقد كانت طموحة وربما أخذت تفكر منذ ذلك الوقت في الزواج من محمد ، أو ربما أرادت الزواج من رجل لا يهتم محمد بالتحالف معه بصورة قريبة.

ولقد عملت زينب، بعد حادثة زيارة محمد، بوضوح المزواج من محمد . فما هي الاسباب التي دفعت محمداً لهذا الزواج في هذا الوقت بالذات ؟ لا يمكن أن يكون ذلك ضعف حـــبه لزيد لأن زيداً كان في ٦/٦٢٧ وفي السنوات التالية على رأس عدة غزوات ، ومن بينها غزوة مؤتـــة الكبرى التي توفي فيها .

ربما أدرك محمد أن زينب ملت زيداً ، وليس هناك من رجل يليق بأن يصبح زوجاً لها . أو ربما شعر بأن الفرصة سنحت ، وقد أصبح له من القوة بحيث يستطيع مجابهة الرأي العام ،لعقد هذا الزواج المستحسن من الناحية السياسية والاجتماعية . وبالرغم من القصص العاطفية ، من البعيد أن يكون محمد قد أسر بمفاتن زينب الجسدية . ويقال بان زوجات محمد الاخريات كن يخشين سيطرة جمالها . ولكن زينب حين تزوجت محمداً كانت في الخامسة والثلاثين أو الثامنة والثلاثين من عمرها . وهي سن متقدمة بالنسبة لعربية [١] .

---

(١) ابن سعد ج ٨١،٧ يقول بأنها كانت في الخامسة والثلاثين حين تزوجت محمداً في السنة الخامسة من الهجرة كما يقول بأنها كانت في الثلاثين وبضع سنوات عند الهجرة ، وانها كانت في الثالثة والخمسين حين توفيت في السنة العشرين من الهجرة .

والزوجة الوحيدة، من بين زوجات محمد، التي كانت أكبر منها سناً حين زواجها هي خديجة.

لم يكن إذن في حياة محمد الجنسية على العموم ما يحمل معاصريه على الحكم عليه بانه لا يتفق مع نبوته. فلم يكن ينظر اليه على أنه شهواني أو تبع نساء. وتقول المصادر انه كان موضع النقد. غير ان هذا النقد لم يكن يعتمد على معيار أخلاقي بل نظريات قديمة قريبة من الاوهام.

وبالرغم من أن الكتاب المسلمين رووا فيما بعـــد قصصاً ممتعة حول حساسية محمد أمام سحر النساء، وبالرغم من أنه ليس لدينا أي سبب للافتراض بانه كان يهمل تماماً تأثير الجاذبية الجسدية، فانه من الاكيد انه كان يسيطر تماماً على عواطفه أمام الجنس اللطيف، وانه لم يكن يتزوج إلا إذا كان هذا الزواج مستحسناً سياسياً واجتماعياً.

ومن الممكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك معتمدين على المبـــادىء المقبولة في زمن محمد فنحول الامثلة الدالة على عدم الوفاء والشهوانية إلى موضوعات مدح وثناء. فقد كان محمد في عصره وجيله مصلحاً للشؤون الاجتماعية وللقيم الاخلاقية. فقد أوجد نظاماً جديداً يساعد الامـــة الأسلامية على الشعور بالامن والطمأنينة، كما افتتح تنظيما اجتماعيا جديداً، وكانت هاتان البدعتان، بالنسبة لما كان يجري سابقاً، تحسيناً كبيراً.

وهكذا اقتبس محمد لتلبيته حاجات المجتمعات الحضرية كل ما رآه حسناً عند البدو. وقد أقام إطاراً دينياً تجري ضمنه حياة سدس الجنس البشري اليوم. وليس ذلك عمل خائن أو فاحش.

ولنلاحظ الآن أنه لا يوجد أي سبب جدي للاعتقاد أن شخصية النبي انحطت بعد الهجرة . ولقد قيل كثيراً ان السلطة تفسد ، وان السلطة المطلقة تفسد إطلاقاً . وتعود اتهامات النقص الاخلاقي إلى وقائع تنتمي للعهد المدني وليس للعهد المكي. وإذا كان العرض الذي أتينا على ذكره حقاً مع ذلك فان هذه الوقائع ليست ، بالنسبة لمحمد ، عجزاً عن الظهور بمظهر الجدير بمثله الأعلى ، بل هي على العكس ، تتفق مع مبادئه الاخلاقية . فقد كان سيد المدينة رجل عصره ، كما كان كذلك شأن الداعي المضطهد في مكة . وإذا لم يبق لنا شيء من هذا الاخير ليظهر لنا لم كان موقفه مختلفاً عن موقف أوروبيي القرن التاسع عشر فلا ينتج عن ذلك ان المثل الاعلى عند الداعي في مكة أرفع من المثل الاعلى عند الزعيم والمصلح في المدينة . وعكس ذلك أقرب للواقع لأن الداعي كان أقرب للعناصر الوثنية . وكان معاصرو محمد في الفترتين المكية والمدنية ينظرون اليه على أنه رجل فاضل ومستقيم وقد وجد التاريخ فيه مصلحاً للقيم الاخلاقية والاجتماعية .

لم ننظر حتى الآن في شخصية محمد إلا حسب المبادىء الاخلاقية في عصره . ولكن هناك طريقة أخرى للحكم على النبي وذلك حسب المبادىء الاخلاقية العامة . ولا أهدف إلى إصدار مثل هذا الحكم ، بل أكون راضياً لو استطعت أن أقدم بصورة كاملة تقريباً الشواهد التي تسبب هذا الحكم . سوف يكون قرائي من المسيحيين والمسلمين ، وبالرغم من وجود إمكانيات كبرى للتفاهم بينهم ، فهناك اختلافات تجعل مثل

هذا الكتاب يعجز عن دحض كل الاعتراضات التي يثيرها مثل هذا الحكم حقاً.

وهناك دائماً شيء نقوله بهذا الصدد : يسعى العالم أكثر فأكثر نحو التوحيد في العادات وسوف يأتي يوم ، بسبب هذه النزعة ، لا تعود فيه بعض المبادىء الاخلاقية قيمة للعالم أجمع ، بل يعترف بها عامة كذلك .

يعلن المسلمون ان محمداً هو مثال الوفاء والاخلاق للانسانية جمعاء.

وهم بذلك يدعون الرأي العام العالمي إلى الحكم على محمد . ولم تثر هذه المسألة حتى الآن سوى اهتمام ضئيل في الرأي العام العالمي ، ولكن هذه المسألة ، بسبب قوة الاسلام ، يجب أن تكون في النهاية موضوع فحص جدي . فهل نستطيع أن نستخلص من حياة محمد وتعاليمه مبادىء تستطيع المساعدة على تكوين أخلاق المستقبل الموحدة ؟ لم يجب العالم حتى الآن على هذا السؤال ؟ ولا يمكن أن ينظر لمـــا قاله المسلمون لدعم تقديسهم لمحمد ، إلا انه عرض أولي للدفاع لم يقنع سوى القليل من غير المسلمين . وتبقى المشكلة مع ذلك بأكملها . وسوف تتأثر الطريقة التي سيحكم بها العالم على محمد بالطريقة التي يتصرف بها المسلمون اليوم .

ولا تزال لهم إمكانية في تقديم دفاعهم بشكل أفضل وأكمل لسائر العالم . فهل بامكانهم الالتفات إلى حياة محمد ، واستخلاص القيم العامـــة بعد فصلها عن التأثيرات الخاصة ، واكتشاف مبادىء أخلاقية تكون إضافة فعلية لتحسين حالة العالم اليوم ؟ أو هل يستطيعون ، على الأقل ، إذا كان ذلك كثيراً عليهم ، أن يظهروا أن نبيهم يقدم ، بحياته ، أحـــد

النماذج الممكنة للانسان المثالي الذي يعيش في عالم موحد القيم الاخلاقية؟ إذا قدم المسلمون دفاعاً بارعاً ، فهناك مسيحيون على استعداد للاستماع اليهم والاخذ عنهم كل ما يمكن أخذه .

لا حد للصعوبات التي تعترض المسلمين . وهم بحاجة إلى مزيج من المعرفة المتينة والحدس الاخلاقي الحاد . وهذا المزيج نادر . ولن أخفي آرائي الشخصية : ولسوف ينجح المسلمون بصعوبة في جهدهم للتاثير على الرأي العام العالمي ، على الأقل فيما يتعلق بالمبادىء الاخلاقية . وربما أمكنهم ، في ميدان الافكار الدينية الاوسع ، أن يساعدوا على إغناء العالم لأنهم احتفظوا بقوة كبرى في التعبير عن بعض الافكار كحقيقة الله ، تلك الافكار التي اهملت ونسيت في كثير من الطوائف الاديان الاخرى الموحدة .

أما بالنسبة لي ، فاني أعترف بسرور بالدّين الذي أدين به نحو كاتب كالغزالي . ولم يُعمل إلا القليل في سبيل اقناع أوربا المسيحية بالقيمة الاخلاقية التي تفوح من محمد .

٣ـ عظمة محمّد

ساعدت محمداً ظروف زمانية ومكانية مواتية . فقد عملت قوى مختلفة لاعداد المسرح الذي يظهر عليه واتاحة الفرصة لانتشار الاسلام : فهناك الاضطراب الاجتماعي في مكة والمدينة ، والدعوة إلى التوحيد ورد فعل سوريا ومصر ضد الهلينية ، وأفول الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ، وهناك أخيراً النزعة المتزايدة عند العرب البدو لانتهاز كل فرص السلب والنهب التي تسنح لهم فيما حولهم مــــن المجتمعات الحضرية .

ولا يمكن ، مع ذلك ، لكل هذه القوى ، وما يمكن أن يضاف اليها أن تفسر بنفسها إنشاء امبراطورية كالخلافة الاموية ، أو التطور الذي جعل من الاسلام ديانة عالمية . وليس توسع العرب شيئاً محتوماً أو آلياً وكذلك إنشاء الامة الاسلامية . ولولا هذا المزيج الرائع مــــن الصفات المختلفة الذي نجده عند محمد لكان من غير الممكن أن يتم هذا التوسع ، ولاستُنفذت تلك القوى الجبارة في غارات على سورية والعراق دون أن تؤدي لنتائج دائمة . ونستطيع أن نميز ثلاث هبات مهمة أوتيها محمد . وكانت كل واحدة منها ضرورية لاتمام عمل محمد بأكمله .

لقد أوتي أولا موهبة خاصة على رؤية المستقبل . فكان للعــــالم العربي ، بفضله ، أو بفضل الوحي الذي ينزل عليه حسب رأي المسلمين ،

أساس فكري (ايديو لوجي) حُلت به الصعوبات الاجتماعية ، وكان تكوين هـــذا الاساس الفكري يتطلب في نفس الوقت حدساً ينظر في الاسباب الاساسية للاضطراب الاجتماعي في ذلـك العصر ، والعبقريـة الضرورية للتعبير عن هذا الحدس في صورة تستطيع إثارة العرب حتى أعمق كيانهم .

وربما أحس القارىء الاوروبي بالحيرة أمام القرآن ، غير ان النص قد أخرج بشكل رائع موافق لحاجات الزمن وظروفه .

وكان محمد ، ثانياً ، رجل دولة حكيما . ولم يكن هدف البنـــاء الأساسي الذي نجده في القرآن ، سوى دعم التدابير السياسية الملموسة والمؤسسات الواقعية . ولقد ألححنا خلال هذا الكتاب غالباً على استراتيجية محمد السياسية البعيدة النظر وعلى اصلاحاته الاجتماعية . ولقد دل على بعد نظره في هذه المسائل الانتشار السريع الذي جعل مـــن دولته الصغيرة امبراطوريـة ، وتطبيق المؤسسات الاجتماعية عـلى الظروف المجاورة واستمرارها خلال أكثر من ثلاثة عشر قرناً .

وكان محمد، ثالثاً ، رجل إدارة بارعاً . فكان ذا بصيرة رائعة في اختيار الرجال الذين يندبهم للمسائل الادارية . إذ لن يكون للمؤسسات المتينة والسياسة الحكيمة اثر إذا كان التطبيق خاطئاً متردداً . وكانت الدولة التي أسسها محمد، عند وفاته ، مؤسسة مزدهرة تستطيع الصمود في وجه الصدمة التي أحدثها غياب مؤسسها ، ثم إذا بها بعد فترة تتلاءم مع الوضع الجديد وتتسع بسرعة خارقة اتساعاً رائعاً .

كلما فكرنا في تاريخ محمد وتاريخ أوائل الاسلام ، كلما تملكنا الذهول أمام عظمة مثل هذا العمل . ولا شك أن الظروف كانت مواتية لمحمد فأتاحت له فرصاً للنجاح لم تتحها لسوى القليل من الرجال، غير أن الرجل كان على مستوى الظروف تماماً . فلو لم يكن نبياً ورجل دولة وإدارة ولو لم يضع ثقته بالله ويقتنع بشكل ثابت ان الله أرسله، لما كتب فصل مهم في تاريخ الانسانية . ولي أمل ان هذه الدراسة عن حياة محمد يمكنها أن تساعد على إثارة الاهتمام، من جديد، برجل هو من أعظم رجال « أبناء آدم » .

ملحق أ
ملاحظات أخرى على المصادر

لن نضيف إلا القليل على ما قلناه حول المصادر في مدخل كتابنا «محمد في مكة [1]» وهناك مسالة أو اثنتان تحتاجان إلى شيء من التوضيح.

المسألة الاولى هي علاقة القرآن بالمصادر الاخرى. وقد اعتمدت على القرآن بقدر الامكان. غير ان قلة الاعتماد عليه توضح انه يجب على المؤرخ الاعتماد على مصادر أخرى وعلى كل حال يبقى القرآن الشاهد الأول، ولا سيما على مشاعر مسلمي الامة بصدد الحوادث المختلفة. كما أنه الشاهد الرئيسي على إصلاح النظام الاجتماعي. ويمكن غالباً تاريخ الآيات التي نزلت في المدينة على أساس البديهة الداخلية، وأتم محاولة وأدعاها للرضى في ذلك هي محاولة ريشارد بل في ترجمته للقرآن. وقد أدى البحث عند كتابة هذا الكتاب إلى تاكيد النتائج التي وصل اليها «بل» في عدة أماكن لم يكن فيها تاريخ الآيات واضحاً، وقد اعتمدت لهذا الموقف القائل بأن تاريخه على العموم يمكن الأخذ به [2].

ويمكن تسمية المصادر الاخرى عدا القرآن بمجموعها «المصادر

---

(١) ص ١١ – ١٦ (٢) ص ١٤

التاريخية التقليدية » وقد أخذت بهذه المصادر في كتابي «محمد في مكة» على العموم، ورفضتها حين وجدت تناقضاً داخلياً فيها وصححتها بقدر الامكان حين رأيت فيها نزعة مغرضة.

وربما كان الانسجام في سرد حياة محمد حجة أخرى لصواب هذه الطريقة. ولذا كان أهم تطبيق لهذا المبدأ هو قبول رسائل محمد ومعاهداته على انها صحيحة (ما عدا السبع الاولى) حسب رواية ابن سعد (١/٢).

وبينما ينظر للمواد التاريخية التقليدية على انها صادقة، فانه يجب التمييز فيها بين المواد المتعلقة بمسائل يدور حولها النزاع. والمواد التي لا يدور حولها النزاع. وهذا التمييز يمكن وصفه إجمالا، على أنه تمييز بين المواد التشريعية والمواد التاريخية.

فحينما كانت قصة حول محمد تتضمن نتائج تشريعية متخاصم عليها بين المدارس المتنازعة، فان من المنتظر أن تستشهد بها كل مدرسة لدعم آرائها.

حدث ذلك غالباً في الحديث (عندما يكون المعنى تشريعياً) ولكننا نجده أيضاً حينما تكون المسألة المتنازع عليها فقهية أو سياسية. وهكذا نجد في قصة دعوة محمد[1] انه قال « ما أقرأ » وهذا يعني أما انه لا يعرف القراءة أو « ماذا يقرأ » ؟ وربما كان المعنى الاخير هو المعنى الاصلي. غير ان بعض الفقهاء المتأخرين ألحوا على عجز محمد عن القراءة كتأكيد لعقيدة اعجاز القرآن، ولذلك نجد روايات تبدلت فيها الكلمات ليعني قوله

(١) محمد في مكة ٤٦

« لا أستطيع القراءة » (ما أنا بقارىء) .

وهكذا استغلت القصة لتأييد نظرة فقهية . كما استغلها فقهاء آخرون لتشهد في اتجاه آخر باحلال « ماذا » محل « ما » فيعني قوله عندئذ « ماذا أقرأ » . وكذلك قول محمد عن سعد بن معاذ حين كان يصدر حكمه حول قضية بني قريظة « قوموا لسيدكم » يمكن أن يستخدم لتبرير القول بأن الانصار كان بامكانهم حكم قريش . وهكذا استخدمت القصة بطرق مختلفة لاظهار هذا المعنى [1] .

وحيثما كانت القصة لا تحتوي على مسألة من هذا النوع فهذا دليل على انها ليست مصطنعة . كأن تحتفظ القبيلة أو العائلة باعمال جدها أيام حياة محمد ، فتظهر ما يمجد أحفاد هذا الجد وتخفي ما يعيبهم . ومن السهل تصحيح هذه الامور أكثر مما هو في القصص المتعلقة بالتشريع أو غيرها من المنازعات . ولقد قام نقد الاحاديث الاسلامية على يد العلماء الاوروبيين ، ولا سيما انياس جولدزيهر في كتاب « دراسات محمدية » ، ويوسف شخت في كتابه « أصول التشريع المحمدي » على نقد الاحاديث الشرعية الموجودة في كتب البخاري ومسلم وغيرهما ، أكثر مما قام على نقد الاحاديث التاريخية حيث يظهر الوضع والاصطناع . ولهذا فليس من الغريب أن تظهر نظريات خاصة حول الاحاديث . وإذا نظر المرء مع ذلك إلى القسم المتفق عليه أو القسم التاريخي الصرف من المواد التاريخية

---

(١) مونتجمرى وات : الحكم على يهود بني قريظة « مجلة العالم الاسلامي » ٩٢، ١٩٥٢، ١٦٤

في الحديث يبدو له وجود نواة صلبة من الواقع [1]

ويمكن تصور عملية نقل الحديث كما يلي :

أخذت فئة قليلة من الاشخاص ، منذ نهاية القرن الاول الاسلامي بجمع كل الاخبار التي تستطيع جمعها عن حياة محمد ومغازيه ثم كتب بعضهم ما جمعوه . ومهما بدا ان هؤلاء الجامعين الاوائل للاخبار قد فحصوا مصادرهم بعناية ، فانهم لم يذكروا في جميع الحالات الاسناد الكامل أو سلسلة الرواة التي تعود بنا القهقرى إلى شاهد العيان للحوادث . ثم أصبح الاسناد الكامل شيئاً فشيئاً ضروريا .

ويذكر ابن اسحق ، الذي ألف كتابه في النصف الاول من القرن الثاني للهجرة ، (منتصف القرن الثامن الميلادي) عادة ، رواته ، ولكن لا يذكر السلسلة كاملة ، وهو لم يردد أقوال الرواة حرفياً .

ويشبهه في طريقته الواقدي الذي جاء بعده بنصف قرن ، غير ان كاتبه ابن سعد ، وهو أصغر منه بحوالى عشرين سنة ، يحاول أيضاً أن يذكر سلسلة الرواة كاملة . ويجب أن نربط الالحاح على سلسلة الرواة الكاملة بتعليم الشافعي [2] الذي كان معاصراً للواقدي . حتى إذا ما عم ذكر ذكر الاسناد الكامل ، اندفع المحدثون إلى العودة بالاسناد حتى معاصري محمد . حتى انهم حين أضافوا إلى الرواة فان إضافتهم كانت صحيحة

---

(١) راجع مونتجمري وات ، المرجع المذكور ص ١١٨ اشار الى هذا التمييز
J. Horovitz « Der islam » [Alter und Ursprung des isnad]
في ٨ ، (١٩١٨) ٩٣

(٢) شخت : المرجع المذكور ،

لأنهم عرفوا من اين استقى سابقوهم معلوماتهم .

وهذا يعني فقط اننا لا نستطيع وصل الحلقات الاولى من السلسلة كما هو الشأن في الحلقات المتأخرة [1] .

---

(١) راجع : لمعرفة النقاش Muslim.World حول المراجع راجع Muhammad. J, Fuk b. Ishaq فرنكفورت ١٩٢٥ J. Horositz « سير النبي الاولى ومؤلفوها » الحضارة الاسلامية ج ١ (١٩٢٧) ٥٣٥ - ٥٩ J. Schacht عن موسى بن عقبة في مجلة Acta Orientalia ج ٢١ ، ١٩٥٣ ، ٢٨٨ - ٣٠٠ ، a fort comming - volume في A, Guillaume on ib . ishaq

ملحق ج
العبيد والأحرار من المهاجرين في بدر

١ ـ زيد بن حارثة (٣٦١) [1] : عربي أسر وهو صغير ، وبيع كعبد وأعتقه محمد .

٢ ـ أنسة (٣٣) : أعتقه محمد وقد ولد رقيقاً ، ويقال انه من أب فارسي وأم حبشية [2] .

٣ ـ أبو كبشة (٣٣) : أعتقه محمد ، ولد رقيقاً ، وربما كان عربياً .

٤ ـ صالح شقران : (٣٤) ، عبد حبشي اشتراه محمد من عبدالرحمن بن عوف وولاه مهمات ثقة (وتقول الملاحظة انه وجد عبيد آخرون في بدر لعبد الرحمن ، حاطب بن أبي بلتعة ، ومن الانصار ، سعد بن معاذ) .

٤ ـ سالم (٦٠) أعتقه وتبناه أبو حذيفة ، من أصل فارسي .

٦ ـ سعد (٨١) : أعتقه حاطب بن أبي بلتعة ، ويقال انه سعد بن خولي ، من قبيلة كلب أو مذحج وانه وقع في الرق بسبب الاسر .

٧ ـ خباب بن الارت (١١٦) ، ولد حراً وبيع في مكة بعد أسره .

---

(١) التفاصيل مأخوذة عن ابن سعد ج ٣.١ ، ويشير الرقم الذي يتبع كل اسم الى الصفحة عند ابن سعد

(٢) طبري ج ١ ، ١٧٨٠، ٧

٨ ـ صهيب بن سنان (١٦١) عربي أسره البيزنطيون ، إما أن يكون قد بيع إلى بني كلب وهم باعوه إلى عبد الله بن جدعان، الذي أعتقه ، أو فر إلى مكة وجعل نفسه في حماية عبد الله بن جدعان .

٩ ـ عامر بن فهيرة (١٦٤) ولـــد رقيقاً (حسب أسد، ٢، ٩٠) فاشتراه أبو بكر وأعتقه .

١٠ ـ بلال بن رباح (١٦٥) : من أصل حبشي ، ولد رقيقاً وأعتقه أبو بكر .

١١ ـ مهجع بن صالح (٢٨٥) من اليمن (عربي) أسر وأعتقه عمر بن الخطاب .

ملحق د

رسائل محمّد الى الأمراء

الموقف الذي اتخذناه [1] هو ان المواد التي جمعها ابن سعد في الجزء ٢/١ من ١٥ ـ ٨٦ يجب النظر اليها على انها صحيحة ، ويجب مع ذلك استثناء القصة التي تبدأ بها المجموعة والقائلة بأن محمداً حين عودته في أيار ٦٢٨ (٧/١) من الحديبية أرسل ستة رسل إلى حكام المناطق المجاورة داعياً اياهم إلى قبول الاسلام ، وكان الرسل هم عمرو بن امية الضمري ، دحية بن خليفة الكلبي ، عبد الله بن حذافة السهمي ، حاطب بن أبي بلتعة ، شجاع بن وهب الاسدي وسليط بن عمرو العامري . وقد ارسلوا إلى كل من نجاشي الحبشة ، حاكم بصرى ، كممثل للامبراطور البيزنطي ، الامبراطور الفارسي ، المقوقس حاكم الاسكندرية وإلى أمير غساني يسمى الحارث بن أبي شمر وإلى هوذة بن علي من قبيلة حنيفة في اليامة [2] .

لا يمكن قبول هذه القصة كما هي [3] ، لأن محمداً كان رجل دولة

---

(١) راجع ص ٣٣٦

(٢) قصة فروة بن عمر هي قصةمتأخرة لأن محمداً لم يفعل شيئاً بصدده . راجع فلهوزن Skizzen ج٤ ١٠٢ يلاحظ البتر بعد السابعة .

(٣) راجع كايتاني ج ١ . ٧٢٥-٣٩ ، بهل ، محمد ، ٢٩٤-٩٨

حكيما بعيد النظر ، ولم « يفقدعقله » بعد النجاح الذي أصابه في الحديبية.

ودعوته هؤلاء الامراء في هذا الوقت إلى اعتناق الإسلام تسيء اليه أكثر مما تفيده، كما يــدل الفحص الدقيق لبعض هذه البعوث على أنها سبقت الحديبية . فقد حدثت بعثة دحية إلى بصرى في صيف ٦٢٧ لأن قبيلة جذام هاجمته حين عودته فارسلت غزوة لمعاقبتهم حوالى تشرين الأول ٦٢٧ [١] (٨/٨) .

ويبدو أن الجاريتين اللتين جلبتهما معها بعثة المقوقس كانتا في المدينة بعد كانون الثاني ٦٢٧ (٨/٥) لأن محمداً قــدم إحداهما هدية لحسان بن ثابت عند نهاية « حديث الإفك » [٢] . ويمكن أن نتبين هدفاً فقهياً من تغيير القصص . ويجعل ابن اسحق محمــداً نفسه يشير إلى إرسال عيسى للرسل ،(ويصل بين ذلك وهبة الكلام في العهد القديم) (؟) يبدو الغرض من ذلك تأييد القول بأن محمداً نبي لجميع الامم وليس للعرب فقط [٣] .

والخلاصة التي نصل اليها ليست ان قصص البعثات لا قيمة لها بل انها تحتوي على شيء من الواقع تضخم أثناء النقل بسبب الفائدة الفقهية.

يبدو هذا الأساس الواقعي بوضوح في بعثة الحبشة فقد كان عليها أن تسوي زواج محمد من أم حبيبة . وربما تعمل على إعادة جعفر بن أبي طالب إلى شبه الجزيرة العربية وسائر المكيين الذين ظلو هناك ٠ أما فيما يتعلق بالبعثات الاخرى فمن الثابت أن هدف هــذه البعثات كان عقد

---

(١) راجع ص ٤٣ مما سبق (٢) راجع ص ١٨٦ مما سبق

(٣) ابن هشام ٩٧٠ ،طبري ج ١٥٦٠،١ ، بهل ٢٩٥ ، مع اشارة الى مقالته في islamica ج ٢

اتفاقات صداقة بين محمد والحكام . وكانت هذه الاتفاقات سياسية في الأصل وربما ورد فيها ذكر الدين كما في رسالة محمد إلى الضغاطر [1] وتنشأ الصعوبة في تحديد شخصية المقوقس والحارث بن أبي شمر [2] . وليس ذلك بعجيب ، وقد حدث في زمن خروج الفرس من مصر وقبل عودة البيزنطيين إلى السيطرة التامة عليها . ومن المشكوك فيه أن تكون قد أرسلت بعثة إلى بلاط الامبراطور الفارسي ، والشيء الواقعي في هذه القصة هذا الاتفاق مع الحاكم الفارسي في اليمن [3] .

وانه لمن المفيد دراسة الأخبار الاولى حول هذه البعثات الموجودة عند ابن هشام وابن سعد والطبري بالتفصيل .

وتثير هذه المصادر بعض الأسئلة حول الدوائر المسؤولة عن التغيير الفقهي للقصص الأصلية وحول العلاقة بين مجموعة ابن اسحق على يد ابن هشام والطبري . ويكفي الإشارة هنا إلى المجرى العام لصياغة المواد المغرضة .

يبدو أن ابن اسحق قد وضع لائحة باسماء البعثات التي أرسلها محمد في مختلف الأنحاء إلى ملوك العرب والعجم ، داعياً إياهم إلى عبادة الله في الفترة بين الحديبية ووفاته [4] . وتحتوى هذه اللائحة على البعثات الست المذكورة وعلى ثلاث بعثات أرسلت إلى عمان والبحرين ، اليمن [5] .

---

(١) راجع ما سبق ص ٣٥٨ (٢) كايتاني ج١ ، ٧٣٠ ، ٧٣٤ ، بهل ٢٩٦

(٣) راجع ما سبق ص ١٢٢ (٤) طبري ١٥٦٠

(٥) ابن هشام ٩٧١ يذكرها الطبري ما عدا بعثة اليمن ١٥٦٠ — ٧١

وكان ابن اسحق مطلعاً على المقارنة مع عيسى ولكنه لايبدو أنه ألح على ذلك ولا حمل القصص على موافقتها . واما أن يكون الواقدي قد اختصر لائحة الست بعثات أو كانت له لائحة خاصة به[1] . وكانت البعثات الثلاث المحذوفة – وهي بعثات عمان والبحرين واليمن –مرسلة إلى أمراء عرب صغار ، وكان من المعروف أنها لم ترسل حتى بعد حنين . ويبدو أن ابن هشام اختصر رواية ابن إسحق ، وانـــه أصلح خطأ أو خطأين وانه وضح المقارنة مع عيسى .

وربما كان الغرض من قصة فروة الموجودة عند ابن سعـــد أولا (وربما عند الواقدي) هو إعادة قصة بعثة السليط إلى هوذة لأن الأخير كان يحـــكم في شبه الجزيرة العربية الشرقية الوسطى (وكان بذلك حاكما غريباً) بينما كان فروة في الامبراطورية البيزنطية[2] .

---

(١) طبري ١٥٥٩، ١٣ – ١٦٥٠ ، ابن سعد ٢، ١ ، ١٥٠

(٢) نفس المرجع ١٨، ١، ٣١

ملحق هـ
المؤلفة قلوبهم

تطلق هذه الجملة المأخوذة من القرآن (٩،٦٠) على زعماء المكيين الذين ما زالوا وثنيين أو دخلوا الإسلام حديثاً ، وأخذوا ٥٠ أو ١٠٠ بعير من محمد عند توزيع الغنائم في الجعرانة. واستعمال هذه الجملة يرجع إلى أيام ابن إسحق الذي كتب يقول « وأعطى رسول الله المؤلفة قلوبهم ، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس ، يتألفهم ويتألف بهم قومهم »[١] .

ولنا أن نقول ان هذا العطاء السخي هو الذي جعل هؤلاء الناس يدخلون في الاسلام ويروى أن صفوان بن أمية قال (وربما لم يقل) « كان محمد أكره الناس إلى قلبي ، فلما منحني هذا العطاء أصبح أقرب الناس إلى قلبي »[٢] .

وترينا دراسة آية القرآن على أنها لا يمكن أن تطبق على رجال الجعرانة والمعنى الطبيعي « للمؤلفة » هو « الذين تألفت قلوبهم » وأما معنى « الذين سوف تؤلف قلوبهم » فهو ، وإن كان ممكناً إلا انه غير

---

(١) ابن هشام ٨٨٠ ، راجع ابن سعد ٢،١ ، ١٠ ، ١٠٠

(٢) الطبري تفسير حول الجملة (١٠،٩٨ - ٩٩) الحديث الثالث

مستعمل . يضاف إلى ذلك أن القرآن لو كان يشير إلى جماعة مترددين لما أشار اليهم بلفظ يوحي بحط من قدرهم لأن ذلك يقضي على الغرض من كسبهم. والمسألة القاطعة هي أن القرآن يتحدث عن الصدقـــات المتوجبة على المسلمين بينما الهبات التي اعطيت لرجال الجعرانة هي إما من خمس السبي الخاص بمحمد أو من الفرائع المتبقية بعد عطاء كل جندي أربعة جمال أو ما يعادلها . هذا ما يقوله الواقدي ويتحدث البخاري عن نفس الموضوع تحت عنوان : « الخمس »[1] .

ويقف الطبري في تفسيره إلى جانب الرأي القائل بأن الجملة تشير إلى رجال الجعرانة ، غير أن الأحاديث التي يرويها لا تؤيد رأيه

ترينا هذه الخلافات أن آية القرآن لا تشير بوضوح لا لبس فيه إلى عطايا الجعرانة . ويتفق الحديث الاول مع العطايا التي وهبها محمد لمختلف الوفود التي جاءت اليه منذ السنة الثامنة للهجرة وما بعدها . ومهما كان المعنى الاصلي للجملة فهي لا يمكن أن تكون تبريراً لتصرف محمد مع أبي سفيان ومع الآخرين في الجعرانة .

فهل هناك ضوء آخر نرى على نوره ما حدث لرجال الجعرانة الذين يسمون « المؤلفة قلوبهم » . ليس الموضوع واضحاً ، ولكن يمكن رسم بعض الدرجات . ولا سيما ان عيينة بن حصن والاقرع بن حابس وهما سيدان بدويان كانت لهما مكانة عالية . فقد كتب البيضاوي في القرن

---

(١) الواقدي ٣٦٧ . البخاري خمس (٥٧) ١٩

الثالث عشر الهجري السابع عشر الميلادي يقول : « والمؤلفة قلوبهم قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة فيه فيستالف قلوبهم ، او اشراف قد يترقب باعطائهم ومراعاتهم اسلام نظرائهم . وقد اعطى رسول الله (صلعم) عيينة بن حصن والاقرع بن حابس والعباس بن مرداس لذلك . وقيل اشراف يستألفون على ان يسلموا فانه (صلعم) كان يعطيهم من خمس الخمس الذي كان خاص ماله » . يجب ان نقارن ، ذلك بقول الطبري بانهم كانوا قوماً استألفوا للاسلام . ولكن لم يكن لهم الحق في اخذ شيء لأنهم لم يكونوا محتاجين ، امثـــال ابي سفيان وعيينة والأقرع واتباعهم من شيوخ القبائل .

ويجب أن نربط مكانة عيينة والاقرع (والعبـــاس بن مرداس) بالقصة التي يرويها كل من ابن اسحق والواقدي . فقد كان عيينة بن حصن (من فزارة) زمناً طويلا ، شوكة في جسم محمد .

وقد صحب كل من حصن والاقرع بن حابس (من تميم) ، اللذين يظهران لأول مرة ، محمداً في غزوته ضد مكة وحنين . وربما كمراقبين أكثر منهما حليفين ، لأنهما لم ياتيا بقبيلتيهما معهما ، ومع ذلك فقد عاملهما محمد في الجعرانة كشيوخ قبائل مكة وأعطى كلا منهما مئة بعير . وقـد شكا على أثر ذلك العباس بن مرداس (من سليم) ، الذي أرسلت قبيلته أكثر من ٩٠٠ رجل ، من أنه لم ياخذ سوى أربعة جمال ومن أن أجداده لا يقلون في النبل عن أجداد حصن وعيينة والأقرع . وربما كان سبب ذلك أنه عومل كرجل عادي وليس كزعيم . غير انه (إذا افترضنا أن

١٠٠ بعير كانت نصيب زعيم قبيلة غير مسلمة متحالفة مع محمد) يبدو أن سليما كانت قبيـلة حليفة. ولا شك أن ذكرى الحرب القريبة بـين غطفان (التي تنتمي اليهـــا فزارة) وبين سليم جعلت العباس يشعر بالاحتقار بشكل حاد [١] . فعبر عن سخطه بالشعر. فلما وصل الخبر إلى محمد أمر بأن يقطع عنه لسانه فاعطي مئة بعير.

يمكن أن يكون لهذه القصة أساس من الواقع لأنها لا تؤثر في الحجة الحاضرة. ونجد عندالبخاري حديثاً يبدو أنه يشير إلى هذا الحادث دون أن يسمي العباس. يقول ابن مسعود بعد أن لاحظ عطف النبي الخاص على الاقرع وعيينة وآخرين (لا يذكر أسماءهم) أن رجلا جاء إلى النبي واتهمه بأنه لم يكن عادلا، فقال النبي : « ويحك إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون ؟ » .

ومن الجدير بالملاحظة ان إحدى حلقات الاسناد المهمة سلمي وهو منصور بن المعتمر (ت ١٣٢ هـ) الذي كان يميل للشيعة [١] .

وهناك رواية أخرى يشار فيها إلى نفس الزعيمين [٢] . فقد سأل أحدهم محمداً لماذا أعطى هذين السيدين وترك جعيل بن سراقة (من ضمرة) . فأجاب « لجعيل بن سراقة خير من طلاع الارض كلهم مثل عيينة بن حصن والاقرع بن حـــابس ولكني تالفتهما ليسلما ووكلت

---

(١) كوسين دوبرسفال ج ٢ ص ٥٥٦ — ٦٤

(٢) خمس ، ٨٬١٩ (٣) ابن هشام ٨٣٣ (طبري ١٦٨١) ابن سعد ١٨١ ، ٤٬١ عن الواقدي .

جعيل بن سراقة إلى إسلامه » . (وقد سمح لجعيل بالاقامة زمناً داخل مسجد المدينة الذي كان منزل محمد) و كلفه النبي ببعض المهات [١] ، وقد أقام بالمدينة قبل أن يسلم وكانت قبيلته من أوائل القبائل التي تحالفت مع محمد . و يبدو أنه كان منحط الاخلاق في معركة أحد لأنه أخبر محمداً أنه رآه يقتل في المنام ، ويعتقد أنه نادى فيما بعد بأن محمداً قتل) .

يروي ابن اسحق هذه القصة عن محمد بن ابراهيم بن الحارث (١١٩ – ٢١) وهو مشرع مدني ينتمي لقبيلة تيم من قريش والابن الاكبر لاحد أوائل المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة . لا شك ان مثل هذا الرجل ينتمي « للمعارضة التقية » في المدينة . ولا شك ان غاية القصة واختيار جعيل هو إظهار سمو العقيدة على متاع الدنيا وتهدف بعض القصص الاخرى عن سخط الانصار من توزيع السبي في الجعرانة إلى نفس الغاية . ويوحي لنا استعمال نفس الالفاظ « أوجدتم يا معشر الانصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم » . في قصة أخرى عن الانصار بأن إحدى القصتين موضوعة.

ومع ذلك فربما كان صحيحاً ان عطايا محمد لعيينة والاقرع كان هدفها استمالتهم للدخول في الاسلام . ولهذا يحق لمجاهد بأن يفسر آية القرآن إنها تعني « الذين تالف قلوبهم بالعطاء أمثال عيينة ومن معه » [٢] .

---

(١) الواقدي ٤٠٢٠٤، ٢٧٧٢، ٤٠٧ ، ابن سعد ١

(٢) الطبري ، تفسير ، الحديث الرابع .

وبما يعقد الامور القصة التي تقول بان محمداً وهب بعض الذهب الذي أرسله اليه علي من اليمن إلى أربعة زعماء وهم الاقرع وعيينة وزيد الطائي وعلقمة بن علاثة العامري . فلما شكت قريش وشكا الانصار قال محمد « أتالفهم »[٣] . يضاف إلى ذلك رواية أخرى للقصة عن اتهام محمد بانه لم يعدل. والقصة الاخيرة مشبوهة لانه يوجد منها عدة روايات وتستخدم كدعاية ضد جماعة الخوارج، ولكن ربما كان توزيع الذهب صحيحاً .

والمرحلة التالية في محاولتنا الخلاص من هذا المأزق هي جمع السيدين البدويين مع أبي سفيان وقرشي آخر أخذوا خمسين أو مئة بعير في الجعرانة . ولقد رأينا كيف أن الطبري في مختصره السابق يذكر فقط أبا سفيان لوحده مع عيينة والأقرع ، ونجد في صحيح مسلم ما يشبه نفس القول[١] . تقول رواية بان محمداً أعطى مئة بعير لأبي سفيان وصفوان بن أمية وعيينة والأقرع ، وأقل من ذلك للعباس بن مرداس، ولا تذكر روايات أخرى صفوان أو تضيف اسم علقمة . وإسناد بعض الروايات هو كوفان مع عمر بن سعيد بن مسروق ، أخي سفيان الثوري كشخصية رئيسية ولرواية إسناد مدني يتضمن عمرو بن يحيى بن عمار (ت ٧٥٧/١٤٠) وتحتوي هذه الرواية لوحدها على هذه الكلمات « وأعطى المؤلفة قلوبهم » .

---

(١) البخاري انبياء (٦٠)٦٠، مسلم ، زكاة ١٤٣

(٢) زكاة ١٣٧-٩

وأخيراً توجدالقوائم الكاملة(نوعاً ما). يوجد اثنتان عندابن هشام [1] الاولى يرويها عن ابن اسحق لوحده، والاخرى عن رجل لا يذكره يرويها عن ابن شهاب الزهري عن عبيدالله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس. وترجع الروايـــة الثانية في تفسير الطبري حول جملة « المؤلفة قلوبهم»، والتي تذكر قائمـــة ثلاثة عشر اسماً، إلى معمر (بن رشيد) (ت ٧٦٩ - ٧١/١٥٢ ـ ٤) ويحيى بن أبي كثير (ت ٧٤٦ ـ ٥/ ١٢٩ ـ ٣٢) ولا يذكر الواقدي أي مرجع لقـائمته وإن كانت بعض تفاصيلـها ماخوذة عن الزهري [2]. وهكذا يشير كل شيء إلى القول بأنـ تعيين شخصية « المؤلفة قلوبهم» في الرجال الذين أخذوا العطايا في الجعرانةقد حدث في المدينة بين « المعارضة التقية » حوالى السنوات الاولى من القرن الثاني للهجرة. ويلاحظ أن معمراً كان من أشد أنصار أفكار الزهري، وكان يحيى ينتمي لنفس الفئة.

ولا شك أن الزهري ورفاقه، وكان كثير منهم أنصار ثورة عبد الله بن الزبير، وكانوا لا يزالون معادين للامويين، قد سروا بنشر القصص التي تسيء لأجداد الامويين وأنصارهم. ولا شك أنـ الشعور المعـادي للامويين هو الذي أدى إلى تغير تفسير جملة « المؤلفة قلوبهم».

وإذا كان الزهري يشوه سمعة الامويين، فانه يبذل جهده لتجنيب رفاقه ذلك. فهو لا يستطيع أن ينكر أن حكيم بن جزام، زعيم أسد، (قبيلة الزبير) أخذ ٣٠٠ بعير، ولكنه يخبرنا أنه نتيجة لأقوال محمد بهذا الصدد،

---

(١) ٨٨٠ - ١،٨٨٢ - ٣ (٢) الواقدي ٣٧٥ - ٦

قد كره متاع الدنيا ولم يقبل أية عطية ، أما فيما يتعلق بمخرمة بن نوفل ، وهو من قبيلة زهرة ، فإنه ينكر أن يكون قد أخذ أي عطاء بهـــذه المناسبة [1] .

يمكن أن نرسم التطور الذي توحي به هذه الدراسة للأحاديث كما يلي : شاعت قصتان في الفترة الاولى . ولا يعنينا ما إذا كانتا صحيحتين ، ولكن يبدو أنهما ربما كانتا صحيحتين . تدور الاولى حول شكاية العباس بن مرداس ضد عيينة والاقرع في الجعرانة . وتدور الثانية حول هدايا الذهب لهذين الزعيمين وغيرهما وربما لم يكن ذلك في الجعرانة . ويقال في جزء من القصة الثانية أن محمداً قال « تالفت » وقـــد حدث تداخل بين القصتين ، فاطلقت كلمة « تالفت » على عيينة والاقرع بعد الجعرانة ، ثم أطلقت على كل الذين أخذوا عطاء كبيراً هناك · ولم يكن ذاك موافقاً للبعض فادى إلى صعوبات لغوية . ولما كانت كلمة « مؤلفة » مشتقة من الجذر كان من السهل القول بأن جملة القرآن تعني رجال الجعرانة ، ولا نفس سيما حين لم يعد لها أي تطبيق عملي .

ولا ينكر أن محمداً في كل هذا كان عالماً باهمية العوامل المادية في جذب الناس إلى الاسلام ، فكان يستخدمها غالباً من أجل ذلك وكان ذلك شان الكثيرين من المستفيدين في الجعرانة . غير أنه من الخطأ القول بان هذا كان العامل المسيطر في خضوع زعماء قريش ، لانه يمنعنا من تقدير جانب من جوانب رسالة محمد ، ألا وهو انه لما كان يقود جيشاً يضم هؤلاء المكيين فانه تجنب خطراً من عدو مكة القديم بقوة طاحنة .

(١) نفس المرجع ، راجع البخاري ، خمس ١٩ ، ج١

ملحق و
وثائق مختارة

ما يلي بعض أهم الوثائق والرسائل التي حفظها ابن سعد:[1]

وثيقة لبني ضمرة

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وإن لهم النصرة على من رامهم ، إلا أن يحاربوا في دين الله ، ما بلّ بحر صوفة ، وان النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه ، عليهم ذمة الله وذمة رسوله .

وثيقة لبني غفار

إنهم من المسلمين ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، وان النبي عقد لهم ذمة الله وذمة رسوله على أموالهم وأنفسهم ، ولهم النصر على من بدأهم بالظلم ، وان النبي إذا دعاهم لينصروه أجابوا ، وعليهم نصره إلا من حارب في الدين ، ما بل بحر صوفة ، وان هذا الكتاب لا يحول دون اثم .

وثيقة لبني زرعة وبني الربعة

انهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وان لهم النصر على من ظلمهم أو

(١) ٢/١٥٠١–٨٦

حاربهم إلا في الدين والأهل، ولأهل باديتهم من بر منهم واتقى ما لحاضرتهم، والله المستعان .

وثيقة لبني الحرقة

من أسلم منهم وأقام الصلاة وآتى الزكاة وأطاع الله ورسوله وأعطى من الغنائم الخمس وسهم النبي الصفي ومن أشهد على إسلامه وفارق المشركين فإنه آمن بأمان الله وأمان محمد وما كان من الدين مدونا لأحد لأحد من المسلمين قضي عليه برأس المال وبطل الربا في الرهن وان الصدقة في الثمار العشر ومن لحق بهم فإن له مثل ما لهم .

وثيقة للعتقاء

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لعباد الله العتقاء : انهم إن آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فعبدهم حر ومولاهم محمد، ومن كان منهم من قبيلة لم يرد اليها، ومن كان فيهم من دم أصابوه، أو مال أخذره، فهو لهم، وما كان من دين في الناس رد اليهم ولا ظلم عليهم ولا عدوان، وان لهم على ذلك ذمة الله وذمة محمد . والسلام عليكم .

كتابه إلى بني أسد

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي إلى بني أسد، سلام عليكم فإني أحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فلا تقربن مياه طي وأرضهم فإنه لا تحل لكم مياههم ولا يلجن أرضهم إلا من أولجوا وذمة محمد بريئة ممن عصاه وليقم قضاعي بن عمرو وكتب خالد بن سعيد .

وثيقة لنعيم بن مسعود

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما حالف عليه نعيم بن مسعود بن رخيلة الاشجعي حالف على النصر والنصيحة ، ما كان أحد مكانه ، ما بل بحر صوفة ، وكتب علي .

لرفاعة بن زيد الخزاعي

بسم الله الرحمن الرحيم (هذا كتاب) من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد اني بعثته إلى قومه ومن دخل فيهم يدعوهم إلى الله ورسوله فمن أقبل منهم ففي حزب الله وحزب رسوله ومن أدبر فله أمان شهرين .

إلى ضغاطر الاسقف

سلام على من آمن . أما على أثر ذلك فإن عيسى بن مريم روح الله ألقاها إلى مريم الزكية (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) والسلام على من اتبع الهدى .

وثيقة لأهل مقنا وبني جنبة

أما بعد فقد نزل علي أنكم راجعون إلى قريتكم ، فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون ، لكم ذمة الله وذمة رسوله ، وان رسول الله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم ، وان لكم ذمة الله وذمة رسوله ، لا ظلم عليكم ولا عدى ، وان رسول الله جاركم مما منع منه نفسه .

فان لرسول الله بزكم، وكل دقيق فيكم الكراع والحلقة إلا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله ، وان عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخلكم وربع ما صادت عروكم وربع ما اغتزل نساؤكم وانكم برئتم بعد من كل جزية أو سخرة ، فإن سمعتم وأطعتم فان على رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم .

أما بعد فإن المؤمنين والمسلمين من اطلع من أهل مقنا بخير فهو خير له وقد اطلع عليهم بشر فهو شر لهم وان ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل رسول الله والسلام .

وثيقة لبني زهير

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد النبي لبني زهير بن أقيش حي من عكل . انهم ان شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وفارقوا المشركين واقروا بالخمس في غنائمهم وسهم النبي وصفيه فانهم آمنون بامان الله ورسوله .

وثيقة لأساقفة نجران

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد النبي إلى الاسقف أبي الحارث وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم :

ان لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير ، من بيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم ، وجوار الله لا يغير اسقف من اسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته ، ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم ولا شيء مما كانوا عليه (على ذلك جوار الله ورسوله أبداً) ما نصحوا

وصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين . وكتب المغيرة .

وثيقة لأهل نجران

بسم الله الرحمن الرحيم . هـــذا ما كتب النبي رسول الله محمد لنجران إذ كان عليهم حكمه في كل ثمرة وصفراء وبيضاء وسوداء ورقيق فافضل عليهم وترك ذلك لهم : الفي حلل الأواقي في كل رجب الفاصلة ، وفي كل صفر الفاصلة ، كل حلة أوقية ، ومـــا زادت حلل الخراج أو نقصت عن الاواقي فبالحساب ، وما نقصوا من درع او خيل او ركاب او عرض اخذ منهم بالحساب ، وعـــلى اهل نجران مثواة رسلي شهرا فدونه ، ولا يحبس رسلي فوق شهر ، وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً ، إذا كان (كيد) باليمن ذو مقدرة ، وما هلك جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم واموالهم (وبيعهم ورهبانيتهم واساقفتهم) ورغائبهم وشاهدهم (وكل ما تحت ايديهم من قليل او كثير) وعيرهم وبعثهم لا يغير ما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم وامثلتهم . لا يفتن اسقف من اسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا واقه من وقاهيته على ما تحت ايديهم مـــن قليل او كثير ، وليس عليهم رهن ولا دم جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ ارضهم جيش . من سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين بنجران (على ان لا ياكلوا الربا) ومن اكل منهم ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة (وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا غير مظلومين ولا معنوف عليهم) ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر ، ولهم على ما في

هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي أبداً حتى ياتي أمر الله، مانصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مكلفين شيئاً يظلم . شهد أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف من بني نصر والأقرع بن حابس الحنظلي ، والمغيرة وكتب .

وثيقة لخالد بن ضماد الأزدي

ان له ما أسلم عليه من أرضه على أن يؤمن بالله ولا يشرك به شيئاً ويشهد أن محمداً عبده ورسوله وعلى أن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويصوم شهر رمضان ويحج البيت ولا يؤوي محدثاً ولا يرتاب ، وعلى محمد النبي أن يمنعه مما يمنع منه نفسه وما له وأهله وان لخالد الازدي ذمة الله وذمة النبي ان وفى بهذا .

إلى الهلال صاحب البحرين

سلم أنت ، فاني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو ، لا شريك له ، وأدعوك إلى الله وحده ، تؤمن بالله وتطيع ، وتدخل في الجماعة فانه خير لك ، والسلام على من اتبع الهدى .

الى المنذر بن ساوى

أرسل رسول الله بعد مغادرته الجعرانة العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي في البحرين يدعوه للاسلام وكتب اليه رسالة . فأسلم وكتب اليه :

« أما بعد يا رسول الله فإني قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه فلم يدخل فيه

وبارضي يهود ومجوس . فاحدث إلي أمرك في ذلك . فاقره النبي على عمله وكتب اليه :

سلام أنت . فاني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله والرسول ، فمن أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ومن أبى فان عليه الجزية .

إلى المنذر بن ساوى

أما بعد ان رسلي قد حمدوك وانك مهما تصلح أصلح اليك واثبك على عملك وتنصح الله ورسوله . والسلام عليك .

مُلحق ز
وَثائِق دُومَة الجَندَل

حفظت لنا عدة روايات عن المفاوضات بين محمد وعدة جماعات من سكان دومة الجندل ، ولا يحتاج بعضها الى مناقشة خاصة . غير أن هناك وثيقتين تحتاجان لفحص مفصل ، لأن صحتهما كانت موضع تساؤل حول ما اذا كانتا صحيحتين كلياً أم جزئياً فإن ذلك يثير مسائل مفيدة .

كتب لاكيدر

هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب الاسلام وخلع الانداد والأصنام مع خالد بن الوليد في دومة الجنول وأكنافها . ان لنا الضاحية من النخل والبور والمعامي واغفال الأرض والحلقة ، ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور بعد الخمس ، لا تعدل سارحتكم ولا نعد فاردتكم ، ولا يحظر عليكم النبات وتقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها . عليكم بذلك عهد الله وميثاقه .

وثيقة لأهل دومة

هذا كتاب من محمد رسول الله لأهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب ، مع حارثة بن قطن ، لنا الفاجية من البعل ولكم الضامنة من النخل على الجارية العشر ، وعلى الغائرة نصف العشر لا تجمع سارحتكم ولا تعدل فاردتكم ، تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها لا يحظر عليكم النبات ولا يؤخذ منكم عشر البتات ، لكم بذلك العهد والميثاق، ولنا عليكم النصح والوفاء ، وذمة الله ورسوله شهد الله ومن حضر من المسلمين.

مُلحق ح
قائمة عُمّال محمّد

(تحتوي هذه القائمة على أهم المراجع عند ابن هشام والطبري ، مع مرجع أو مرجعين آخرين ، ولا ندعي انها كاملة) .

(أ) الولاة الذين أرسلوا الى الجنوب :

١ ـ المهاجر بن أبي أمية (قريش ـ مخزوم) ، ارسل الى صفاء (ابن هشام ٩٦٥ ـ الطبري ج ١، ١٧٥٠ ، راجع ابن هشام ٩٧١ الاسفل) الى بني معاوية بن كندة ، ولكنه لم يذهب حتى خلافة أبي بكر (طبري ٨٥٣) .

٢ زياد بن لبيد (الأنصار ـ بياضة) ، أرسل الى حضرموت (ابن هشام ٩٦٥ ـ طبري ١٧٥٠) كما أرسل أيضاً لمنطقة المهاجر (بني معاوية)؟ (طبري ١٨٥٣ ف) .

٣ ـ علي ابن أبي طالب (قريش ـ هاشم) ، أرسل الى نجران لجمع الصدقات والجزية (ابن هشام ٩٦٥ ـ طبري ١٧٥٠) .

٤ ـ معاذ بن جبل (الانصار ـ سلمة) ، أرسل الى حمير (ابن هشام ٩٥٦) ، والى اليمن (ابن سعد ٢/١، ٢٠) ، للتعليم في اليمن وحضرموت في مناطق يحكمها عدة عمال (طبري ١٨٥٢ ف) .

٥ ـ عبد الله بن زيد (الانصار ـ بالحارث) ، أرسل الى حمير (ابن هشام ؟ وفي طبري ١٨٥٣) .

٦ ـ مالك بن عبادة (حمدان) أرسل الى حمير (ابن هشام ٩٥٦) .

٧ ـ عقبة بن نمير (حمدان) ارسل الى حمير (ابن هشام ٩٥٦).

٨ ـ مالك بن مرة (أو مرارة) الرهاوي (مذحج) ، ارسل الى حمير (ابن هشام ٩٥٦ ، راجع ابن سعد ٢/١،٢٠) .

٩ ـ شهر بن باذام ، (فارسي) اعترف به حاكما لصنعاء (طبري ١٨٥٢) .

١٠ ـ عامر بن شهر الهمداني ، أرسل الى همدان (طبري ١٨٥٢) .

١١ ـ أبو موسى (عبد الله بن قيس) الاشعري ، أرسل الى مأرب (طبري ١٨٥٢) .

١٢ ـ خالد بن سعيد بن العاص (قريش ÷ عبد شمس) أرسل الى منطقة بين نجران ورفا وزبيد (طبري ١٨٥٢ ، اليعقوبي ج ٢ ، ٨١ ، الى صنعاء) .

١٣ ـ الطاهر بن أبي هلة (تميم ، موالي عبد الدار من قريش) الى عك وأشعر (طبري ١٨٥٢) .

١٤ ـ يعلا بن أمية (تميم ، موالي نوفل من قريش) أرسل الى الجند (طبري ١٨٥٢) .

١٥ ـ عمرو بن حزم (أنصار النجار) ارسل الى نجران (طبري ١٨٥٢) والى اليمن (ربما الى بني الحارث بن كعب) (ابن هشام ٩٦١ ف

ـ ابن سعد ٢/١،٣) .

١٦ ـ عكاشة بن ثور الغوثي ، ارسل الى سكاسك ؟ والى معاوية بن كندة (طبرى ١٨٥٢ ف) ملاحظة : أكثر الذين يرد ذكرهم في طبري ١٨٥٢ ف يردايضاً في ١٩٥٢ ف) .

١٧ ـ أبو سفيان بن حرب (قريش ـ عبد شمس) أرسل الى جرش في اليمن (البلاذري ٥٩) ، والى نجران (اسد ٧٥) .

(ب) الولاة الذين أرسلوا الى الشرق :

١٨ ـ العلاء بن الحضرمي (مولى قريش ـ عبد شمس) ارسل الى البحرين (ابن هشام ٩٤٥ ، ٩٦٥ ، طبري ١٧٥٠ ، ابن سعد ٢/١ ، ١٩ ، راجع اليعقوبي ج ٢ ، ٨١ ، الغتيف بالبحرين) .

١٩ ـ الأقرع (؟ بن حابس) (تميم) ، مصدق الى هجر (البحرين)

(ج) الذين أرسلو الى ضواحي المدينة :

٢٠ ـ الوليد بن عقبة بن أبي معيط (قريش ـ عبد شمس) أرسل الى المصطلق فطرد (ابن هشام ٧٣٠ ف ، الواقدي ٣٨٧) .

٢١ ـ عدي بن حاطم (طيء) ، أرسل الى طيء وأسد (ابن هشام - طبري ١٧٥٠) .

٢٢ ـ مالك بن نويرة (تميم) ارسل لجمع الصدقات من بني حنظلة من تميم (ابن هشام ٩٦٥ ـ طبري ١٧٥٠) .

٢٣ ـ الزبرقان بن بدر (تميم) ارسل الى قسم من بني سعـــد من تميم (ابن هشام٩٦٥) راجع ص ١٣٩ مما سبق .

٢٤ – قيس بن عاصم (تميم ـ منقر) ارسل الى قسم من بني سعدمن (ابن هشام ٩٦٥) راجع ص ١٣٩٠ مما سبق .

٢٥ ـ بريدة بن الحسيب (اسلم) أرسل لجمع صدقات اسلم وجفار (الواقدي ٣٨٥) ودعا أسلم الى تبوك (نفس المرجع ٣٩١) .

٢٦ = كعب بن مالك (الانصار ـ سلمة) روايـــة أخرى للسابقة (نفس المرجع ٣٨٥) .

٣٧ ـ عباد بن بشر (الانصار ـ عبد الاشهل) أرسل لجمع صدقات سليم ومزينة (الواقدي ٣٨٥) والمصطلق بعد الوليد بن عقبة (نفس المرجع ٣٨٧) دعا أسلم (نفس المرجع ٣٩١) .

٢٨ ـ رافـــع بن مكيث (جهينة) ارسل لجمع صدقـــات جهينة (الواقدي ٣٨٥) دعا القبيلة مع أخيه ؟ (نفس المرجع ٣٢٦،٣٩١) .

٢٩) عمرو بن العاص (قريش) أرسل لجمع صدقـــات فزارة ، (الواقدي ٣٨٥) .

٣٠ ـ الضحاك بن سفيان (كلاب) أرسل لجمـــع صدقات كلاب (الواقدي ٣٨٥) .

٣١ ـ بسر بن سفيان (كعب) أرسل لجمع صدقات كعب (الواقدي ٣٨٥) دعا كعباً مع بديل بن ورقاء وعمرو بن سالم (نفس المرجـــع ٣٢٦ ، ٣٩١) .

٣٢ ـ نعيم بن عبد الله النحام (قريش ـ عدي) روايـــة أخرى لجمع صدقات كعب (الواقدي ٣٨٥) .

٣٣ ـ ابن اللتبية (أزد) أرسل لجمع صدقات ذبيان (الواقدي ٣٨٥) .

٣٤ـ عيينة بن حصن (فزارة) أرسل لجمع صدقات تميم في نيسان - أيار ٦٣٠ ـ ١/٩ (ابن سعد ٢/١١ ، ١١٥ ، ٩١ ، ربما يشير إلى غزوة العرج ، قائمة الواقدي ٣٨٥ ، مكررة هنا) .

٣٥ ـ قضاعي بن عمرو (عذرة) أرسل الى اسد (ابن سعد ١/٢ ، ٣٢ ، ٢٢ ف راجع ص ٣٥٧ مما سبق) .

مُلحق ط

زكاة وصدقة

تعني عادة كلمة صدقة، كما هو معلوم في الاستعمال الاسلامي المتأخر، « الهبة الارادية » بينما تعني كلمة زكاة « الهبة الواجبة » التي تحدد قيمتها، ويمكن أن يكون عطاؤها تلقائياً من الناحية العملية، وبهذا المعنى تكون الزكاة أحد أركان الاسلام الخمسة. ويثير، مع ذلك، استعمال الكلمة في القرآن صعوبات جدية. ويوجد واحد وثلاثون ذكرلها وفي كل مرة نقع على صيغة لهذه الجملة « يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة »[1] فهي بذلك جملة تقنية على البديهة. ولهذا ننتظر أن نجدها مستعملة خاصة حوالى نهاية الفترة المدنية حين أخذت القبائل البدوية تعقد المعاهدات مع محمد فيحدد لها محمد مقدار الزكاة. غير انه حسب توقيت ريشارد بل، فان كل الاستعمالات المدنية للكلمة (باستثناء ١٨، ٨٠ ـ ٨١، ١٩، ١٣ ـ ١٤ حيث يختلف المعنى) معظمها يقع في وقت متقدم من الفترة المدنية. فكيف نفسر ذلك؟ هل فرضت الزكاة منذ وقت متقدم؟ أم ان كلمة « زكاة » استعملت بمعنى

---

(١) أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، ما عدا ١٨، ٨٠ – ٨١، ١٩، ١٣ – ١٤ حيث يمكن أن يكون معناها « الطهارة » ٢٣، ٤ لها نفس المعنى، غير أن صلاة تذكر في ٧، ١٥٥ – ١٥٦، ٣٠، ٣٨، ٣٩: ٤١، ٦ – ٧.

« هبة ارادية » فاذا كان الامر هو القول التالي فهل هناك تميز عن النفقة ، ما تنفقون وما اليها تترجم عادة بعطاء ؟

يجب أن نعثر على جزء من تفسير ذلك في أن كثيراً من الآيات الاولى التي تذكر فيهـــا كلمة زكاة تشير الى اليهود أو عرب المدينة الذين كانوا أصدقاء لليهود . وتستحق المسالة الاستشهاد عليها بالتفصيل :

٧ : ١٥٥ ـ ١٥٦ يعد الله ، جواباً على موسى في سيناء ، بالرحمة للذين يتقون ويؤتون الزكاة ويؤمنون بآيات الله .

٥ : ١٢ ـ ١٥ : يأخذ الله ميثاق بني اسرائيل بمكافأتهم ان أقـــاموا الصلاة وآتوا الزكاة وآمنوا برسله وأقرضوا الله قرضاً حسناً .

٢ : ٧٧ ـ ٨٣ : يأخذ الله ميثاق بني اسرائيل ويأمرهم بان يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة .

٢١ ـ ٧٣ : يوحي الله الى اسحق ويعقوب فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة (راجع ١٩ ، ٣١ ـ ٣٢) .

٥٥ ـ ٥٦ حيث يوصي عيسى بالصـــلاة والزكاة (لنفسه ؟) كما كان اسماعيل يأمر أهله بالصلاة والزكاة .

٩٨ : ٤ ـ ٥ : أمر أهل الكتاب أن يعبدوا الله مخلصين للدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة .

٢ : ٤٠ ـ ٤٣ ؟ دعوة اليهود الى اقام الصلاة وايتاء الزكاة .

٤ : ١٦٠ ـ ١٦٢ ؟ بعض اليهود يؤمنون بالله وباليوم الآخر يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة سيؤتيهم الله أجراً عظيما .

٣٠ : ٣٨ ـ ٣٩ : الله يثيب على الزكاة وليس على الربا (الاشارة للربا ربما هي اشارة لليهود)[1] .

٢٤ : ٣٧ ؟ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة (يفسر بل ذلك بتجار مكة ويعتقد ان ذكر الصلاة والزكاة قد اضيف فيما بعد ، ولكنها تشير الى اليهود فهي من الآيات المدنية الاولى ولا سيما ان أماكن الصلاة ذكرت في الآيات السابقة) .

٢ : ١٠٤ ـ ١١٠ ؟ حض على اقام الصلاة وايتاء الزكاة (يحدث ذلك كانذار ضد تأثير اليهود وبهذا فالكلام موجه الى أصدقاء اليهود) .

٢٤ : ٥٥ ـ ٥٦ : أمر باقام الصلاة وايتاء الزكاة واطاعة الرسول . (يحدث ذلك في آية موجهة الى الاشخاص الغاضبين ، ولكنها لا تتفق مع النص ، ولهذا فربما نزلت منفصلة) .

٢٢ : ٤١ ـ ٤٢ : سيمكن الله في الارض الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة .

٥ : ٥٥ ـ ٦٠ : ولي المؤمنين (ليس اليهود) الله ورسوله والذين آمنوا والذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة (ربما كانت موجهة الى اصدقاء اليهود) .

٤ : ٧٧ ـ ٧٩ : الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، اذا فريق منهم يخشون القتال (ربما نزلت في أصدقاء اليهود ، لأن الآيات السابقة واللاحقة من العهد اللاحق على أحد ، ولهذا يمكن أن تكون

---

(١) راجع ص ٢٩٧ مما سبق

هذه الآية من نفس الوقت غير ان بل يعتقد بأنها مدنية متقدمة) .

وستة من الاستعمالات الباقية للكلمة (٩ : ٥ ، ١١ ، ١٨ ، ٧١ ـ ٧٢، ٣٣ ، ٣ ، ٥٨ ، ١٣ ـ ١٤) متأخرة . واحد منها (٢٣ ، ٤) مدني متقدم ومعناه « الطهارة » ويأتي اقام الصلاة في الآية المجاورة (وكانت تلك آخر سورة نزلت قبل مغادرة محمد مكة) . ويبدو ان استعمالين (٢ : ١٧٢ ـ ١٧٧ ، ٢٢ ، ٧٨) يرجعان لحوالى الوقت الذي تغيرت فيه القبلة ، وربما كان لهذا الامر مغزاه ويعتقد بل ان ذكر الزكاة في الاول اضيف عن طريق التنقيح ، وربما لم يكن ذلك ضرورياً بالنظرة للصلة مع اليهود الذين ندرسهم الآن .

وهناك أربعة استعمالات أخرى (٢ ، ٢٧٦ ـ ٢٧٧ ، ٣١ ، ٣ ـ ٣، ٤١، ٦ ـ ٧ ، ٧٣ ، ٢٠) توصف بأنها مدنية وربما كانت او لم تكن متقدمة .

تدعو نتائج هذا البحث للاستغراب أكثر مما كان ينتظر . فقد كان المرء يأمل ان تتخذ « زكاة » معناها التقني ، في أواخر العهد المدني ،حين عقدت المحالفات مع القبائل البدوية . ولكن ليس هناك سوى ست أمثلة تنتمي بوضوح لهذه الفترة وينتمي عدد أكبر الى الفترة المتقدمة حين كان محمد على اتصال وثيق باليهود يحاول كسب تأييدهم . ويظهر ان نظرية الزكاة قد اقتبست وتطورت في القرآن لانها كانت معروفة عنداليهود[١] وعند الذين تأثروا بهم . ويبدو ان هذه هي مسالة الاشارة الى ميثاق سيناء فلقد ألح محمد على انه يجب على اليهود ايتاء الزكاة . ويدعم القرآن طلبه

---

(١) ربما كان اصلها آرامياً ، جفري ***Vocabulary***

باظهار ان ذلك يتفق مع ما طلبه الله منهم ووافقوا عليه .

على ضوء هذه الصلة المتينة بين الزكاة واليهود ربما كانت كلمة « يزكي » تعني « يؤتي الزكاة » وان لم تخل من معنى الطهارة [1] .

وتؤدي دراسة استعمال « صدقه » (جمعها صدقات) في القرآن الى الى نتيجة مماثلة . ولا نجد كثيراً من الامثلة كما وجدنا في كلمة زكاة . ولا تأتي الكلمة مضافة الى « الصلاة » . وهناك مثال (٢ : ٢٧٦ ـ ٢٧٧) تناقض فيه الصدقات الربا [2] . كما رأينا بصدد الزكاة . وتشير الامثلة الاربع المتقدمة (٢ ، ٢٦٣ ـ ٢٦٥ ، ٢٦٤ ـ ٢٦٦، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٤، ١١٤) ما عدا المثال الثالث، الى اليهود أو المنافقين . وتوجد أمثلة أخرى متأخرة. وتفضل الصدقة على الزكاة في رسائل محمد ومعاهداته التي نقلها ابن سعد (١/٢) .

ولا تزال هناك أمور كثيرة غامضة . كيف يتحدث القرآن أحيانا عن الزكاة ، وأحيانا أخرى عن الصدقة وتارة عن « النفقة » أو ماأنفقتم ؟ فهل هناك فرق (في الفترة المدنية الاولى) فيما تعنيه ، أم انها موجهة الى جماعات مختلفة من الشعب ؟ يجب أن نقول بأن النفقة وما اليها هي المساعدات لاغراض الحرب، غير أن الآية (٢ : ٢٦١ ـ ٢٦٣)لاتفرق بين الصدقات والنفقات ونتحدث عن الصدقات التي تعطى خفية وتقول آيات (٢ : ٢١١ ـ ٢١٥) بأن النفقات للوالدين والاقربين واليتامى والمساكين

---

(١) ابن سعد ١، ٣٠١ ، ١٦٠،٩٣ ، اعمال الاحسان على يد عبد الرحمن .
(٢) ٢ : ٢٨٠

وابن السبيل . وهكذا لا يوجد أي مستوى محدد في أية طبقة من اتباع محمد . وعلى الذين لديهم ما ينفقونه ان يساعدوا المعوزين، وقدكان كثير من المهاجرين من بين هذه الفئة في اول الامر . واذا كانت زكاة في الفترة الاولى مرادفة لصدقة فلم تفرض اية ضريبة على اليهود ، غير انه كان ينتظر منهم ان يساعدوا المحتاجين بالعطاء وليس باقراض المال واخذ الربا [1] .

---

(١) راجع ص ٢٩٧ رقم ٤

مُلحق ي
الزواج والعائلة في الجاهلية

فسر علماء القرن التاسع عشر امثال Robertson · w Smith و G · A Wilkan ، متبعين افكار علم طبائع الانسان في ايامهم ، حالة شبه الجزيرة العربية ، أيام محمد ، بواسطة فرضيات عصر سيطرت فيه الام .

غير انه اصبح من المعترف بهأننا ، لتحديد وضع تاريخي سابق ، لا نستفيد إلا القليل من تفسير الاحداث التي نشاهدها أو نسمع عنهابواسطة علم طبائع الانسان الاجتماعي بل من الافضل تحليل الظاهرة لاكتشاف المبادىء الحاضرة التي تكون هذه الظاهرة. ولدينا عن شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي كمية ضخمة من المواد الصالحة وان كان معظمها قدوجد في شبه الجزيرة فقط. كما يمكن تأويل معظمها بشكل مرض على يدشخص ضليع في علم طبائع الانسان . وليس موضع البحث الدقيق في هذه المواد في سيرة عن محمد . وقد قلت خلال هذه الدراسة ما فيه الكفاية لفهم قصة اصلاح النظام، بينما هذاالملحق يوضح بعض الوقائع التي تبرر ما قيل سابقاً .

أ ــ ملامح الانتساب للأب

نجد في معظم المجتمعات البدائية مبادىء الانتساب للاب والام تعمل

معاً ، وتعتبر مكة في شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي ، اوضح مثال على سيادة الانتساب للاب . ويجب ان نتذكر ان المواد التي بين ايدينا لم تكتب الا بعد مرور قرن على وفاة محمد . وقد قضى نظام الانتساب للاب خلال هذه الفترة ، على معظم آثار نظام الانتساب للام من المجتمع الاسلامي .

وهكذا لم يدرك الذين سجلوا هذه المواد معنى بعض الطقوس التي حاولوا وصفها ، ومع ذلك فقد كانت صلات الانتساب للاب مهمة في مكة ، لأن الوحدات الاجتماعية الرئيسية كانت القبائل المتحدرة عن الآباء التي تذكر بعد الجد الذكر فقط. يضاف الى ذلك انه منذ ايام قصي وما بعده يبدو هؤلاء الجـــدود انهم اشخاص حقيقيون وليسوا مجرد اسماء في سلسلة الانساب . وهذا على عكس المدينة حيث نجد الانساب ، حتى وقت قريب من الهجرة ، تعتمد على ذكر اسماء لا نعرف شيئاً عنها . وجرياً على هذه التسمية للقبائل في مكة ، فان الرجال والنساء يعرفون بآبائهم الذين تحدروا عنهم فهم ابناء او بنات الذكور وليس الاناث ، حتى الكنية ايضاً نجدها في مكة « ابا فلان ، ام فلان » وفلان دائماً ابن .

ومن بين الشواذ الاسم الذي يطلق عادة على محمد « ابن ابي كبشة » غير ان هذا يؤكد القاعدة . وكان « كبشة » اسم مؤنث مشترك في المدينة كما نرى عند ابن سعد (ولا سيما ٣/٢ ، ٨ ومن الدليل) ولم يوجد في مكة . ولما كان يوجد أمثلة اخرى في المدينة على كنية بالمؤنث (مثال : أبو لبابة) فالاقرب ان يكون هذا الاسم متصل بالمدينة . وليس هناك ما يدل على

وجود أية قرابة بعتيق محمد ، أبي كبشة ، الذي حارب كمسلم في بدر . ولا بد أن إطلاق هذا الاسم على محمد يعني أن اباه او احد اجداده لأمه كان يكنى بأبي كبشة . والفظاظة في استعمال أبي أحيحة وغيره من المعارضين (إذا ثبت ذلك) لهذه التسمية هي تذكير محمد بصلته بالمدينة وأساليبها الغريبة [1] . ويبدو أن أحد رجال القبائل ، ينتسب للأم ، استعملها بلباقة تامة [2] .

ويوجد ، مع ذلك ، مثال أو مثالان بين قريش على رجلين عرفا باسم أميهما . كان لعلي ولد يعرف بمحمد بن الحنفية ، ولكن ربما كان ذلك لتمييزه عن ولدين لعلي يدعيان محمداً [3] . ويوجد مثال لا يمكن تفسيره وهو مثال معارض محمد ، أبي جهل ، الذي كان يعرف أحياناً بابن الحنظلية اثر امه أسماء بنت المخربة من قبيلة حنظلة وهي فرع من تميم [4] وتظهر أسماء فيما بعد تاجرة عطور لحسابها مما يدعو للاعتقاد بان الانتساب للام كان لا يزال قوياً في هذه العائلة . كما يقال بأن أم الجلاس بنت مخربة ، التي يقال عنها بأنها خالة أبي جهل ، هي التي أودع عندها وثيقة مقاطعة بني هاشم [5] ، كما يقال في مكان آخر ان ام الجلاس كانت كنية أسماء . (وهناك مع ذلك خلط بين أم أبي جهل وابنة أخيها التي زوجتها ابنها عياشاً ، أسماء بنت سلامة من مخربة ، وفي بعض النصوص مخربة تصحف

---

(١) ابن سعد ١،٤١/٦٩،٣ . الواقدي ٤٨/١٣٧ ، طبري ١، ١٥٦٥ محمد في مكة ١٠٣

(٢) نفس المرجع ص ٢،١/١٤٥، ٢٧ (٣) نفس المرجع ١،٢/٢١

(٤) ابن هشام ١ ٤٤١ ، ابن سعد ٧ ، ٢٢٠ ، اسد ٥،٣٩٣ ، اسماء بنت سلمة (كذا) ، الواقدي ٦١ (٥) ابن سعد ١،١/١٤٠

إلى مخرمة) .

ويلاحظ الانتساب للاب أيضاً بصدد الوراثة والثار ومكانة الزواج . ويبدو أن الوراثة في الذرية الذكور كانت مشتركة في مكة دون أية قاعدة للبكورة . وقد انتقلت سلطة قصي إلى أولاده ثم أحفاده وهكذا دواليك . ويمكننا الافتراض بأن انتقال السلطة كان يعتمد إلى حد ما على غنى موروث . وكذلك انتقلت السلطة ، في قبيلة مخزوم ، من المغيرة إلى ابنه الوليد ثم إلى أبناء أخيه المتاخرين أبي جهل . كما تقع مسؤولية الثار على الشخص التالي في النسب من الذرية الذكور . وربما كان ذلك في الجماعات التي تنتسب للام . فقد ثأر ابن كليب ، زعيم تغلب الكبير ، بقتل خاله جساس ، غير أن قرب جساس بن كليب يرينا أن كليباً ذهب ليعيش مع قوم زوجته الذين كانت أراضيهم تحت سيطرة جساس ، وهكذا ربما كان النظام نظام سيطرة الأم[1] . وتبدو الجماعات المسؤولة عن الديات حسب دستور المدينة قائمة على أساس الانتساب للأب .

ولا نملك سوى القليل من المعلومات عن مكان إقامة الزوج والزوجة ، غير أن الشعور بأن الزواج كان غالباً في مكان إقامة الذكر يدعمه أسماء مثل : « شعب ابي طالب » « بيت الارقم » ، كما أن بعض الذين هاجروا إلى الحبشة صحبتهم زوجاتهم . ويوجد مع ذلك عدة حالات لقيام الزواج في محل إقامة المرأة ، وهذا يقع في معظم المجتمعات التي تنتسب للاب .

---

(١) كوسين دوبرسفال ج ٢٦٦٦٢ ، اغاني ج ٤ ، ١٥٠ روبرتسون سميث kinship ١٥٥

فقد ظلت والدة محمد عند أهلها ، وكان عبد الله يزورها هناك وظل محمد معها ، عدا الوقت الذي قضاه في الصحراء ، حتى وفاتها وعندئذ فقط انتقل إلى بيت جده عبد المطلب[1] . ونسمع بصدد ميلاد محمد ان النبوة كانت في قبيلة زهرة (قبيلة أمه) ، كما نستنتج من أن أول من نقلوا هذا الحديث كانوا من بني زهرة ان افكار الانتساب للام، عدا الإقامة عند أهل الزوجة ، كانت قوية في هذه القبيلة[2] .

وربما أقام محمد نفسه ،عند زواجه من خديجة، حيث كانت تقيم . فقد كانت خديجة امرأة على جانب من السلطة والغنى وقد تزوجت محمداً بنفسها . وهناك قصص حول تزويج أبيها أو عمها اياها غير ان تناقض هذه الروايات يدل على أنهما لم يفعلا ذلك وانها تعكس عادات متاخرة[3] .

أما كيف استطاعت خديجة أن تحتل مكانتها الخاصة فهذا غامض جداً . وانه لمن المستحيل ، لولا نمو النزعة الفردية ، على خديجة وأسماء بنت المخربة أن تتاجرا باسميهما .

ويبدو ان هناك صلة ، على العموم ، كما سنرى ، بين نمو النزعة الفردية وبين انتشار نظام الانتساب للأب ، وإن كان يوجد بعض الطقوس الجاهلية التي يعتمد فيها الإلحاح على الابوة على وحدة الجماعة من ناحية نسب الذكور وليس على النزعة الفردية .

ويعبر عن وحدة الرجل الأساسية وأخيه من أمه وأبيه (ووحدة

---

(١) ابن سعد ٨، ٥٨، ١٧، ٧٤ (٢) نفس المرجع ١، ٥١، ٢٣

(٣) ابن سعد ١، ١، ٥٨ ، روبرتسون سميث ٢٧٤، ٩٩

قبيلة الأب) بالقول العربي المأثور « العم صنو الأب » . وتعني كلمة صنو أحد اثنين أو ثلاثة وتستعمل للنخيل الذي ينمو من جذع واحد . وتعني الأخ من نفس الدم أو الرحم ، او الابن . واستعمالها لشجر النخيل (وربما كان ذلك الأصل) يدل على ان الكلمة تعبر عن وحدة المجموع [1]

ومن بين العادات القائمة على هذه الفكرة زواج الاخوة من نفس المرأة . ونجد على ذلك عدة أمثلة في المدينة [2] وربما كان ذلك صوراً من العادة اليهودية التي تجبر أخـا المتوفى من غير عقب على الزواج من أرملته .

وهناك إشارة إلى ذلك في مكة عند أسماء بنت المخربة ، والدة ابي جهل ، التي تزوجت والد أبي جهل هشام بن المغيرة وأخاه الأصغر أبا ربيعة [3] . وهناك أمثلة على زواج الأب والابن من نفس المرأة ، أي زواج رجل من امرأة ابيه وهـــذه الامثلة موجودة في مكة والمدينة

---

(١) راجع لين ، ابن حجر العسقلاني ، تهذيب التهذيب ، حيدر أباد (١٩٠٧) ١٣٢٥ ، ١١٩،٨ حول عمرو بن يحيى بن عمارة .

(٢) هند بنت سماك (بلي ، حليفة قواقلة) — سعد واوس بن معاذ (عبد الاشهل) ، ابن سعد ٢٠٣،٩٩،١٦،ج٧٠١٠٢٣ سهيمة (واقف) — سـلامة ورومي بـن وقش (عبدالاشهل) ابن سعد ج٨،٢٢٥،١٩،٢٣٦،٧ .

بريدة بنت بشر (ظفر) — عباد وأبو معاقل بن نهيك (حارثة) : ابن سعد ج ٨، ٢٤٠ ١٤،١١ . ام الحارث بنت مالك (سلمة) - جبار وثابت بن صخر (سلمة) ، ابن سعد ج٨، ٢٩٢،٢٣،٢٩٧،٥ ليلى بنت أبي سفيان (ضبيعة) — معاذ وبكير بن عامر بن جاريــة ؟ (ضبيعة) ابن سعد ١٦،٢٥٣—١٠

(٣) ابن سعد ج ٨، ٢٢٠

وغيرها [١] .

والفكرة الكامنة وراء ذلك هي أن قدرة المرأة على انجاب الاطفال من حق قبيلة الوالد، وانـــه يحق لابن المتوفى أو أخيه، أو بالاحرى يجب عليه، أن يحقق هذه الامكانيات [٢] . ويروى أن محمداً بن كعب القرظي (ت ١١٨/٧٣٦) قال انه حين يموت الرجل ويترك زوجـة، فان ابنه هو « الاحق بها ان ينكحها » ،(وليس يناكحها) إذا أراد ذلك

---

(١) مختى بنت حارثة (من ساعدة) — المنذر بن حرام، ثابت بن المنذر (من مغالة) ابن سعد ج ٣، ٦٣،٣ . هند بنت اوس (من خطمة) النعمان بن امية ،ثابت بن النعمان (عمرو بن اوس) ابن سعد ٢، ٣٤،٣، ٥٤،٥،٢٥ .

مليكة بنت خارجة زوجة علي تزوجت فزاريا وابنه . روبرتسون سميث ٨٩ ، ٢٧١ ، راجع الاغاني ج ١٠، ٢٦١ (نقلها فروخ *Das bild des Fruhislam* ١١٦) تهجي الاسماء بصور مختلفة .

آمنة (والدة أبي معيط) تزوجت امية عبد شمس وابنه ابا عمرو ،روبرتسون سميث، ٨٩ ، نفيل (جد عمرو) ترك زوجة من بني فهم وتزوجها ولده ،روبرتسون سميث ٨٩

كبيشة بنت معن — ابو قيس ، حصن بن ابي قيس ، روبرتسون سميث ٢٧١ عن الواحدي حول تفسير قرآن : ٤، ٢٦

ام عبيد بنت ضمرة — الاسلت ، ابو قيس بن الاسلت روبرتسون سميث ٢٧١ عن الطبري حول تفسير قرآن : ٤، ٢٦ .

بنت ابي طلحة (من عبد الدار) — خلف ، الاسود بن خلف (من جمح) ، روبرتسون سميث ٢٧١ عن الواحدي والطبري .

فاختة بنت الاسود (من اسد) — امية بن خلف . صفوان بن امية (جمح) روبرتسون سميث ٢٧١ عن نفس المصدرين ،

(٢) *A.R. Radclitte - Brown and C.Daryll Forde . African Systems of Kinship and Marriage London 1950. 50 FRobertson Smith, 187*

ولم تكن أمة [1] .

ويجب ان نذكر مسألة اخرى غامضة بهذا الصدد ، لأنه كان فيها خلاف بين مكة والمدينة ، وهي الموقف من الغيلة او الغيل اي الاتصال بالمرأة اثناء رضاع ولدها ويبدو ان المكيين كانوا يعتقدون ان ذلك مضر بالطفل ، فكانوا يعترضون على هذه العادة ولم يكن ذلك هو الشان في المدينة [2] .

وهناك حديث يقول بأن محمداً نوى أن يمنع الغيلة حتى تذكر ان الفرس واليونان يمارسونها بدون الإساءة إلى أطفالهم [3] . وبالرغم من هذا الحديث فان محمداً لم يتم زواجه من ام سلمة ، حتى انتهت من إرضاع زينب ابنتها من أبي سلمة [4] . كما ان امرأة رفضت الزواج من محمد لأن لديها طفلين من رجل سابق لا يزالان يرضعان [5] . والامثلة تدل على تجنب الاتصال بالمرأة اثناء إرضاعها طفلا من رجل آخر . ولا تتضح مع ذلك الفكرة الكامنة وراء ذلك ، كما لا يتضح ما إذا كان نفس الاعتراض يحدث حين تكون المرأة ترضع طفل الرجل نفسه أو طفل اخيه . ولقد اشتد الشعور بعد الهجرة ضد الاتصال بالمرأة الحامل من رجل آخر ، وكان يقال عن ذلك : « سقاية حصاد رجل آخر » .

---

(١) ابن سعد ٢ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ٩٠ ، ٢٧

(٢) *G,H, Stern Marriage in Early islam 96 f, lane S.V. ghilah*

(٣) لين ، نفس المرجع ، ابن سعد ج ٨ ، ١٧٧ ، ١٦

(٤) ابن سعد ج ٨ ، ٦٣ – ٦٦ (٥) نفس المرجع ١٠٩ ، ٣

اما معرفة ما إذا كان هذا الشعور قبل الهجرة فلا نستطيع ذلك [١] .

ب ـ ملامح الانتساب للأم :

بالرغم من سيطرة أفكار الانتساب للأب ، حين سجلت مصادرنا فقد نقلت الينا عدة مسائل تتعلق بنظام الانتساب للام . فقد كان التعمق في نسب الام ، اهم نسبياً في المدينة منه في مكة ، وهكذا حملت بعض القبائل كبني حديلة و بني مغالة اسم امرأة ، وكانت الأوس والخزرج معاً قبل ان يصبحوا الانصار باعتناقهم الاسلام ، تدعى بني قيلة نسبة لجدة مشتركة لهم . وكان الأفراد ايضاً يعرفون بأمهاتهم ، ومن اشهر الامثلة المعروفة معاذ ، معوّذ ، وعوف ، ابناء عفراء ، كما ان عبد الله بن أبي كان يسمى احياناً ابن سلول نسبة إلى ام ابي . وكان كعب بن الاشرف يعرف بانتمائه لقبيلة امه اليهودية بني النضير . وكان والده من قبيلة بدوية عربية [٢] ويلاحظ ابن سعد في حديثه عن « الصحابة » المدنيين ان رجلين كان كل منهما ابن خالة الآخر ، اي انهما ابنا اختين مثال : عبد الله بن أبي ، وابو عامر الراهب ، سعد بن معاذ واسعد بن زرارة .

ومن المناسب كمقدمة للحديث عن صورة قرابة الزواج ومكان إقامة الزوجين ان نذكر القصة عن الزواج الجاهلي كما يرويها البخاري [٣]

---

(١) ابن هشام ٧٥٩ ، الواقدي ٢٨٢

(٢) ابن هشام ٥٤٨، ٣١٥ م (٣) ٦٧ . ١٠٣٨

في حديث يرويه ابن شهاب (الزهري) عن عروة بن الزبير الذي اخبره بأن عائشة زوج الرسول ، اخبرته بأن الزواج في الجاهلية كان اربعة انواع .

(١) ان يزوج رجل اخته او ابنته لرجل آخر يعين لها صداقاً معيناً ثم يتزوجها .

(٢) وان يقول الرجل لامرأته إذا طهرت من حيضها : ارسلي الى فلان فاستبضعي منه ، ويفعل ذلك رجاء نجابة الولد فيامرها بالاستبضاع من ذي شهرة او فصاحة او نحوهما .

(٣) حينما يزور رهط من الرجل ، أقل من عشرة ، نفس المرأة ويجامعونها فاذا حملت ووضعت ولداً ارسلت في طلبهم حتى إذا ما حضروا جميعاً نسبت الطفل لأحدهم ولا يحق له أن يرفض ذلك .

(٤) ان تضع المرأة على بيتها راية فيدخل عليها من يريد وقاعها ، فاذا اتت بولد ألحقته بأشبه الناس به .

يمكن اعتبار هذا الوصف صحيحاً نوعاً ما ولكنه يحتوي على بعض الثغرات ، فهو لا يخبرنا مثلا ما إذا كان الزواج من النموذج الاول تقيم فيه الزوجة عند زوجها او ان الزوج يقيم عند زوجته . ومع ذلك فمن المفيد ان نذكر هذا التصنيف حين النظر في مختلف جوانب المشكلة .

يمكن ان نبحث في مكان االزواج اولا ، فهو في النموذج الثالث والرابع عند البخاري عند الزوجة ، وربما كان كذلك في النموذج الثاني . وهذا يتفق مع الصورة التي نجدها في الشعر العربي ، إذ ان

الطريقة الطبيعية لبداية القصيدة هي الحديث عن الحب المفقود حتى إذا ما جعلنا الشاعر نشعر بحبه العنيف استمر في حماسه طالما أن قبيلتي العاشقين متجاورتان ثم يسكت فجاة حين ترحل قبيلتها . والرجل في معظم الحالات العاطفية يستطيع فقط أن يزور المرأة في الليل خلسة وفي الحالات الاخرى يقيم مع قبيلتها زمناً طويلا .

وهذا زواج من النوع الثالث ، ولكننا لا نستطيع القول ما إذا كان الرجال الآخرون من قبيلة غريبة او من نفس قبيلة المرأة . والنوع الثاني من الزواج هو مع رجل غريب نبيل . ويبدو ان زواج هاشم في المدينة كان قريباً من زيجات الصحراء فلم يمض سوى وقت قصير مع زوجته وبقي ابنه ، جد محمد ، عبد المطلب ، في المدينة ، ولم يعد إلى قبيلة ابيه في مكة إلا بصعوبة [١] .

وحيثما أقام الرجل باستمرار وقتاً طويلا او قصيراً مع قبيلةزوجته يصبح مرتبطاً بها كحليف . ولاشك اننا عن هذا الطريق يمكننا ان نفسر كيف ان الاخنس بن شريق ، وهو حليف من الطائف ، أصبح على رأس قبيلة زهرة في مكة وهناك ، كما رأينا ، أسباب أخرى للاعتقاد بأن الانتساب للام كان معتبراً في هذه القبيلة [٢] .

ونجد في مكة المثال الاوضح على الانتساب للام في العائلة . إذ نعلم من الحديث عن زواج محمد من ميمونة أثناء حجة الوداع ٧/١٢٩ ان

---

(١) ابن هشام ٨٨ ، روبرتسون سميث ٦٩ ف

(٢) راجع ص ٣٧٥ مما سبق

ابنة حمزة عمارة (أو امامة) اخذت للمدينة وكانت حتى ذلك الوقت في مكة مع امها سلمى بنت عميس . وليس هناك من سبب مناسب للجمع بين الحديثين غير أن قليلا من البحث يكشف لنا ان ميمونة بنت الحارث وسلمى بنت عميس كانتا اختين لأنهما ابنتا امرأة حميرية هند بنت عوف، ويبدو ان كلا من ميمونة وسلمى عاشتا في عائلة عم محمد العباس الذي كان زوج أخت ميمونة ، أم الفضل ، وهكذا كانت عائلة العباس تتكون من زوجته وأولادها ومن أختيها وأولادهما . وإذا كانت المصادر صادقة في قولها ان العباس زوج ميمونة ، فذلك يعني انه كان المسؤول عن العائلة وذلك لأنه في أنظمة الانتساب للام من الطبيعي أن تكون مسؤولية الاشراف بين يدي أخي المرأة أو خالها . ولم يكن ،بالإضافة إلى ذلك ، كل أولاد هند في هذا البيت فقد أصبح ابنها محميه بن جزأ مسلماً في وقت مبكر، وذهب إلى الحبشة وعاش هناك في بيت أسماء،زوج جعفر بن أبي طالب ، وأخيراً عاد المدينة قبل سنتين من عودة جعفر وولاه محمد منصباً هاماً . وهناك اخت اخرى وهي ام خالد بن الوليد ، وقد أقامت مع زوجها . فلما جاءت ابنة حمزة عمارة إلى المدينة نشب الخلاف حول من يحرسها ، فوضعها محمد تحت حماية جعفر ، ليس لأنه كان أبا أخيها بل لأنه كان زوج (خالتها) . وقد عبر محمد باتخاذه هذا القرار عن مبدأ يبين وحدة الجماعة التي تنتسب للام وهو ان « الخالة والدة »

نستطيع ان نستخلص إذن ان هذه كانت جماعة يقوم تنظيمها على اساس الانتساب للام ، ولكن الامر لم يكن كذلك اطلاقاً .

---

(١) ابن سعد ٨،٣٣٣،١١٣،٩٤ – ٩٨،٢٠٢ – ٩ الواقدي ٣٠٢.حول محميه راجع ابن سعد ١،٤،١٨٥ف الواقدي ١٧٧ (يختلف عن ابن هشام ٧٨٣) أيضاً ابن سعد ١،٤٠،٤،٢٦،٢،٣،٤ ٨:٢٠:٣٧:١٧ راجع بصدد خالد ابن سعد ٨:٢٠٩:١٨ وأسد .

فحيثما يكون الزواج في مكان إقامة المرأة تحت سيطرة افكار الانتساب للام تزداد سلطة المرأة ذات الشخصية القوية . ويقول كتاب الاغاني بأن النساء كن في الجـــاهلية ، أو بعضهن ، يملكن حق تسريح رجالهن . وطريقة التسريح هي أنهما إذا كانا يعيشان في خيمة أدارت الخيمة . فاذا كان الباب باتجاه الشرق يصبح باتجاه الغرب ، وحين يرى الزوج ذلك يعرف انه سرح فلا يجرأ على الدخول .

وهذا يعني ان الخيمة كانت للمرأة أو لعائلتها ، وبهذا تسمح له في الإقامة فيها طالما أرادت ذلك [1] .

وقد تزوجت سلمى بنت عمرو ، المرأة المدنيه ، من هاشم بشرط أن تفسخ الزواج حينما تريد [2] .

واشتهرت نساء المدينة عامـة بكبريائهن وغيرتهن عـــلى شرفهن ومكانتهن . ويروى عن محمد انه قال انه لن يتزوج من امرأة مـــن الانصار بسبب غيرتهن ولأنهن لا يتحملن الضرائر ، وإذا لم يكن ذلك هو كل السبب في عدم زواج محمد من امرأة من المدينة ، فما لا شك فيه أن هذا بعض السبب ، وان الفرق بين المواقف الاجتماعية في مكة والمدينة يفسر لنا ندرة الزواج بين المهاجرين والانصار . ويروى عن الخليفة عمر انه قال بأن قريشاً كانت تتحكم بنسائها حتى إذا ما اختلطت بالانصار

---

(١) روبرتـــون سميث ٦٥ معتمداً على الاغاني ج ١٦–١٠٦ حيث تسرح ماوية حاتماً .

(٢) ابن هشام ٨٨ ، ولكن انظر زواجها واقامتها مع زوجها احيحة بن الجلاح ، في ابن الاثير ، الكامل ج ١، ٤٠٣

الذين تتحكم بهم نساؤهم أخذت نساؤها تقلد عادات نساء الانصار [١] .

وبالرغم من تاثير النساء الكبير فان نساء المدينة كن عاجزات عن امتلاك الاملاك ، وهذا يعني ان الملكية كانت تخص العائلة المنتسبة للام وكان يشرف على ادارتها اخوة المرأة او اخوالها او ابناؤها ، ولم يكن هذا التدبير لينزل الضرر بالمرأة طالما كانت الأفكار الجماعية هي المسيطرة، حتى إذا ما ازدادت النزعه الفردية أخـــذ الرجال يطالبون ، في بعض الاحيان ، بان الملكية تخصهم كأفراد . ولا شك ان النزعة الفردية في مكة قد مكنت النساء من الظهور كخديجة وأسماء بنت مخربة ، وامتلاك الاملاك والتجارة باسمهن .

وبينما يجب جمع الكثير من مواد التفاصيل من قصص الجاهلية وسير المسلمين الاول ، فاننا نجد القليل حول الأفكار الكامنة . ولهذا يساعدنا في ذلك المقارنة مع افريقيا اذ نجد بين بعض القبائل المنتسبة للأم في وسط بنتو ، انه يوجد درجة رائعة من الوحدة في المبادىء التي تتحكم في الذرية والوراثة وغيرها من مختلف الافكار التي يفسر بهـــا الشعب انتاءهم إلى نسب الام وليس للاب . ويتوسعون في مصالح جماعتهم مع مع أقربائهم من ناحية الام . ويعتقدون بأن الدم يتسرب من المرأة وليس من الرجل . وتشد استعارات القرابة مـــن الروابط بين الناس الذين ولدوا من نفس الضلع أو رضعوا من نفس الثدي . ويقوم دور الأب الجسدي في بعض القبائل عـــلى أن يهب الحيـــاة للجنين المتصور في

---

(١) البخاري ٧، ٨٣٦٧

الرحم[1] .

لا نستطيع التاكيد بان هذه الافكار وجدت في شبه الجزيرة العربية ولا سيا إذا كان الثار من واجب قبيلة الاب . ومع ذلك فهناك اوجه شبه . نجد في اللغة استعمال كلمة « رحم » التي تعني « الضلع » للدلالة على « القرابة » و « بطن » للدلالة على فرع القبيلة[2] . ونجد في التشريع الإسلامي فيما بعد نفس درجات التحريمات في قرابة الحليب كقرابة الدم .

وهذا يبرر ان يكون ذلك نتيجة لأهمية قرابة الحليب في الازمنة القديمة بين الجماعات التي تنتسب للام لأنها قرابة عن طريق الإناث .

ولا نستطيع القول ما إذا كان العرب يعتقدون، كبعض قبائل بنتو ، بأن اثر الوالد في وراثة الولد ضئيل لا يذكر ، ولا شك ان بعض البيئات كانت لا تهتم كثيراً بالابوة الجسدية ، ويدل إلحاح القرآن على العدة أو فترة الانتظار قبل الزواج من جديد (للتأكد انها غير حامل من زوجها القديم) على انها لم تكن تراقب غالباً . ويوجد ، ولا شك ، النوع الثالث والرابع من أنواع الزواج في الجاهلية اللذان ذكرهما البخاري ، كما أن الاهتمام في النوع الثاني للتأكد من ان الطفل قد انجبه رجل غريب ينم عن تسجيل إسلامي جديد لعادة قديمة . ويتفق هذا مع المبدأ الذائع الانتشار وهو ان « الولد للفراش » ، وكان يعترف بطفل المرأة ، في

---

(١) Radcliffe and Forde : op cit P. 207

(٢) روبرتسون سميث ٢٨ – ٣٤ ، راجع بصدد امه. جفري «مفردات» Vocabulary

بعض الحالات ، على انه ولد الرجل الذي كان زوجها حين ولادته بالرغم من الاعتراف بأنه ليس والده جسدياً [1] . وكذلك نجد في الإسلام أن مالك الجارية يعتبر اب طفلها وإن كان من المعروف أن رجلا آخر أنجبه [2] .

وحيثما سادت افكار الانتساب للام اشتد الشعور بأن الطفل ينتمي لجماعة امه . فقد اتفق رجل يدعي عجل بن لجيم حين زواجه من امرأة حامل ، مع زوجها السابق أن يسلم الطفل لقبيلة والده ، ولكنه حين جاء ليرسل الطفل ، كان من شدة شعور قبيلة عجل بخطأ هذا التصرف انه هو والوالد اتفقا على التخلي عن هذا التدبير [3] .

وتقترب بعض صور الزواج ، أحياناً ، حين يقل الاهتمام بالابوة ، من الدعارة ، كما انها تؤدي في حالات اخرى الى زواج دائم ، ولكننا مع ذلك نجهل الكثير من الامور المتعلقة بالطقوس العربية وتفسير بعض الامور التي نقلت الينا ، ولهذا فليس من الحكمة البت في هذه المسائل .

وهكذا لا يوجد أية بديهة مباشرة تدعونا للافتراض مثلا بأن النساء مع أطفالهن في جماعة تنتسب للام يقمن باستبدال اطفالهن من أجل الرضاعة .

وكان من نتيجة التحريمات القائمة على قرابة الحليب ان تحول دون الزواج الشديد داخل الجماعة . كما نجد شاعراً يستعمل كلمة « كنه »

---

(١) روبرتسون سميث ١٠٩ ، ١١٠ (٢) شترن ٩٣

(٣) روبرتسون سميث ١١٥ ، اعتماداً على الميداني ، مجامع الامثال ، بولاق (١٨٦٧) ١٢٨٤ ج ١ ، ١٦٠ (طبعة ج فريتاج ، بون ١٨٣٨ - ٤٣ ج ١ ، ٣٢١)

للاشارة إلى زوجته بينما هي تعني عادة زوجة الاخ أو زوجة الابن .

ويمكن تفسير ذلك بأنه يرجع إلى جماعة تعيش فيها المرأة مع عدة أزواج حيث يعيش الاخوة مع نفس المرأة ، ولكن لا يمكن التـــاكد من ذلك [(١)] .

وكذلك يصعب معرفة ما يعنيه « الزنا » في العصر الجاهلي . فقد قيل لعتبة زوجة أبي سفيان حين استسلمت لمحمد مع بعض النساء الاخريات ، بان لا يرتكبن الزنا فأجابت محتجة : « وهـــل ترتكب المرأة الحرة الزنا ؟ » [(٢)] . وتفسير ذلـــك في نظر الاوروبي هو ان المرأة الحرة من الاعتزاز بنفسها والطهارة بحيث لا ترتكب مثل هذا الاثم ، ولكن يمكن ان تكون هند قد عنت بذلك بان المرأة لا تقوم باتصال يطلق عليه الزنا طالما انها تملك حق تسريح زوجها متى تعبت منه .

وتعني كلمة الزنا في العهد الاسلامي « الزنا » بمعنى واسع ، ولكن ليس من الواضح ما إذا كانت تعني ذلك في السابق . وهي كسائر الالفاظ الدالة على الاتصال الجنسي الاباحي يمكن أن تعني عادة سوية في النظام الاجتماعي السابق . فقد شكا رجال الطائف إلى محمد أن الزنا ضروري لهم طالما انهم تجار [(٣)] ، فقد كانت بالنسبة اليهم عادة لا تجريح فيها وتقوم

---

(١) ابو تمام ، الحماسة ، بولاق (١٨٧٩) ١٢٩٢ ، ج٢، ٣٣٢(طبعة ج فريتاج ،بون١٨٢٨ ٤٧ ، ج ١ ٢٥٢) .

(٢) ابن شعد ج ٨، ٤، ١٨، ١٧٢، ١٧ ، روبرتسون شميث ١٠٦ ،شترن ٧٣

(٣) شترن ، نفس المرجع ، راجع أسد ج ٥ ، ٢٨٢ ، قصة عن ابي كبير الهذلي في تفسير الايات عند ابن هشام ٦٤٦ مصادر أخرى عند فروخ ، المرجع المذكور ١١٣ راجع فلهوزن: *Die Ehe bei den Arabern* رقم ٤٧٢

على الاتصال الموقت بالغريبات .

وكان الاتصال بعدة رجال معاً ، الذي يصفه البخاري بانه النوع الرابع من الزواج قبل الاسلام، عادة أخرى بدائية يتوجب على كل حضارة عالية أن تحاربها .

تترجم عادة كلمة « بغـــاء » الموجودة في سورة النور (٢٤،٣٣) « بدعارة » ويروى ان الآية تشير إلى بعض الرجال - ومن بينهم ابن ابي - الذين حموا بعض النساء واستغلوهن كومسات [١] ، ولا تستحق هـــذه القصص سوى القليل من الاحترام . ولعل الاقرب أن البغاء يشير إلى شكل من الزواج الذي يهمل الابوة ويشارك فيه رب البيت الذي تنتمي اليه المرأة بالهدايا التي تعطى لها . وربما كان النوع الرابع من الزواج عند البخاري . وهذا يختلف عـن الدعارة كما تفهم في الغرب أو في الاسلام الحديث لأنه لا يوجد أي حد فاصل واضح بين مثل هذا الزواج والانواع الاخرى، وكانت جميعها حسب مبـــادىء نظام الانتساب للام في العصر الجاهلي في شبه الجزيرة العربية محترمة ، ويجب علينا أن نذكر حين نبحث مثل هذه المسائل ان ما يعتبر صحياً واخلاقياً في نظام اجتماعي ما يعتبر جرماً بغيضاً في نظام آخر .

ج ــ دلائل الانتقال :

لا نجد تماماً في شبه الجزيرة العربية ، ما يمكن ان يسمى بالجماعات

(١) طبري ، تفسير ج ١٨، ٩٣ *Wherry Sale*

(٢) راجع الفصل الثامن ، مقطع ٢ سابقاً .

المنتسبة للاب أو للام . وهناك مع ذلك دلائل تشير إلى مبادىء الانتساب للاب كانت ، في بعض الاحيان ، تحل محل مبادىء الانتساب للام . وقد شجعت الديانة الاسلامية مبادىء الانتساب للاب [١] ، فاذا ما انقضى قرن من الزمن سادت هذه المبادىء بين العرب . وقد بدأ الأنتقال مع ذلك قبل أيام محمد . ودلت بعض الحالات التي ناقشناها على وجود مزيج من النوعين من المبادىء . وهاك بعض الامثلة الاخرى :

يروي روبرتسون سميث هذه القصة [١] :

« بينما يقول الاب للذي يطلب يد ابنته : « نعم ، إذا كنت اسمي كل أطفالها وأزوج كل بناتها ، فيجيب الآخر : كلا ، سوف نسمي أبناءنا بأسماء آبائنا وأعمامنا ، وسوف نزوج بناتنا لأسياد بمستوى مكانتهن ، وستكون ممتلكات ابنتك في كندة وأعد بأن لا ارفض لها طلباً تتقدم به من قومها .

يمثل هنا طالب يد الفتاة مبادىء الانتساب للأب بينما يمثل والد الفتاة مبادىء الانتساب للام ، ولكنها ليست مبادىء صرفة لأن خال الفتاة سوف يسوي هذا الزواج . وهناك قصة مناقضة ترجع للعصر الاسلامي وهي قصة الخنساء بنت خِذام (أو خُذام) من قبيلة أسد البدوية التي قتل زوجها الأول في أحد ، فحاول والدها حينئذ تزويجها من رجل آخر . ولكنها رفضت قائلة ان عم ولدها أفضل فسمح لها محمد بالزواج

(١) *Kinship* ١٠٢ ، اعتماداً على ابن عبد ربه في العقد الفريد ، بولاق (١٨٧٦) ١٢٩٣،ج٣،٢٧٢

ممن تحب . وكان الرجل الذي اختارته قريباً لزوجها الاول ولكنه ليس الآن أخاً . (وهذا ما تتضمنه كلمة « عم » العربية) [(١)] .

وتبدو المرأة هنا تفضل مبادىء الانتساب للاب . ولكن أباها هو الذي زوجها واعترض على الانتساب للاب . ولكن يبدو ان هناك مسائل شخصية نجهلها تدخلت في الامر .

نجد جانباً آخر لمشكلة الانتقال في شكوى نساء المدينة إلى محمد من سيطرة ابناء عمومتهن [(٢)] . يشبه ذلك حالة زوجة سعد بن الربيع، فقد قام أخوه، عند وفاته ، (وهو عبد الرحمن بن عوف الذي آخـــاه معه محمد) بالإشراف على أملاكها فشكت زوجة سعد إلى محمد ان حقوقها وحقوق بناتها هضمت وانه من الصعب أن تجـــد الازواج لبناتها [(٣)] . وتدل كلتا الشكويين على ان افكار الانتساب للاب آخذة في الانتشار في المدينة . وربما أشرف الاقرباء من ذرية الذكر ، في حالات خاصة، (ويمكن أن يعد عبد الرحمن منهم) على إدارة ملكية مشتركة موروثة عن طريق ذرية الانثي ، وذلك بسبب عدم وجود أقرباء صالحين من ناحية الام. وربما ساعدت على ذلك مجزرة بعاث وغيرها . ويعني بالنسبة للمرأة اشراف الزوج أو الاقرباء من ناحية الأب ان الملكية انتقلت من

---

(١) ابن سعد ج ٨٣ ، ٣٣٤ ، ٢/٣ ٣٥ (اشدية) أسد ج ٥ ، ٤٤٠ (انصارية) ج ٢ ، ١١٥

(٢) ذكره روبرتسون سميث ٨٤ عن مخطوطة الواقدي حول القرآن ٤ : ١١ — ٢٣

(٣) ابن سعد ٢/٣،٨٧ الواقـــدي ٣٢٠ — ٣ ، روبرتـسون سميث ٩٦ ، شترن ١٦٥ ، كيتاني ج١، ٥٦٩

اشراف عائلة الام التي كانت تتجسد فيها ، ويعني ذلك ايضاً بالنسبة لنساء المدينة المتكبرات فقدان الثروة والجاه والنفوذ ، وبالرغم من الحقوق التي منحهن إياها الإسلام فانهن (أو المحظوظات منهن) لم يكن يشعرن بالطمانينة كما كن في الماضي .

ويجب أن نذكر بهذا الصدد قصة قيس بن الخطيم وإن كان تفسيرها غامضاً . تزوج قيس ، وكان شاعر قبيلة ظفر المدنية وتوفي قبل الهجرة [1] ، كلا من عقرب وابنتها (من رجل آخر) حواء [2] ، ويبدو أنـه كان أيضاً يعيل أمه لأنه حين خرج للثار لأبيه ترك حديقة نخيل إلى قريب له شريطة أن يساعد أمه إذا ما قتل (وهي قريبة بنت قيس من سلمة) [3] من محصول الحديقة [4] .

ولا علاقة بين هذين الأمرين ، ولكن إذا كان الامر كذلك ، فانه من الغريب ان امه لا يعيلها وريثه (من ناحية الأم) كالعادة . وإذا كان قيس يشرف على إدارة ملكية عائلتها ويعيش في بيتها ، فقد خشي ان خليفته في الادارة سوف يستغل الملكية لأغراضه الشخصية ولن يعيل قريبته كما يجب ، وإذا كان قيس يعيش مع زوجتيه في بيتها ويعيل امه فانها لن تبقى هناك بعد وفاته . وأخيراً إذا كان قيس يدير شؤون ملكية زوجتيه ، فان هذا يعني دور الانتقال إلى نظام الانتساب للاب . ولاشك

---

(١) أشد ج١ ، ٢٢٩ ، ثابت ابن قيس ، ابن هشام ، دليل ، ابن قتيبة ، كتاب الشعر والشعراء ، طبعة جوي ، الدليل ،

(٢) ابن سعد ٨، ٢٣١، ٢٣٧ (٣) نفس المرجع ٦ ، ٢٤ ، ٢٢

(٤) الاغاني ج ٢ ، ١٦٠ ، روبرتسون سميث ٩٦ ، شاتن ١٦٥

أنه وجدت نزعات للانتساب إلى الاب في عائلة زوجته لأنه يبدو أن اخا عقرب سعداً ورث سلطة أبيه معاذ بن النعمان .

ويود المرء أن يعرف إلى أي مدى تكون الحالات التي يتزوج فيها الرجل من امرأتين من نفس البيت المنتسب لـلام دلـيلا على ميل نحو الانتساب للأب . وهناك بعض الأمثلة على زواج من اختين من مكة والمدينة . ولكنا لا نعرف ما إذا كان ذلك معاً أو على التوالي .

ولا شك ان مثل هذا الوضع يزيد من نفوذ الرجل القوي ، ولا سيما إذا كان أقرباء المرأة من ناحية الام ضعفاء . وليس من الواضح أيضاً ما إذا كان النزاع بين زوج المرأة وأخيها له علاقة بالانتقال من الانتساب للام إلى الانتساب للاب . أم ان مثل هذا النزاع يوجد أيضاً في مجتمع ينتسب للام ، وان إلحاح جساس على قتل زوج اخته كليب [(١)] ، ومناصرة سلمى بنت عمرو (والدة عبد المطلب) لاخوتها ضد زوجها [(٢)] من الامور التي وقعت قبل الهجرة بكثير .

د ــ الخلاصة :

يظهر لنا البحث القليل عن أفكار الجاهلية بصدد الزواج والعائلة إلى أي حد تظل هذه الافكار غامضة تحتاج إلى المزيد من الدرس . ولكن لسوء الحظ ، يجب علينا ، كي نحكم على ما فعله محمد في هذا الميدان ، ان نكون فكرة عن طبيعة ما وجده امامه ، ونشير إلى هذه الفكرة هنا .

---

(١) كوين دو برشفال ج ٢ ، ٢٨٦ – ٨ نيكلسون التاريخ الادبي للعرب ٥٦
(٢) ابن الاثير ، الكامل ج١ ، ٤٠٤

بواسطة فرضية تقول بان الحالة كانت في دور الانتقال من نظام الانتساب للام إلى نظام الانتساب للاب كلياً أو جزئياً ، وانه كان يصحب هذا الانتقال نمو النزعة الفردية .

يبدو ذلك أنسب من القول بانه منذ العصور القديمة كانت بعض القبائل تنتسب للام والبعض الآخر للاب ، كما يتفق مع نظرة هذا الكتاب الذي يرى في نمو النزعة الفردية، منذ حوالى منتصف القرن السادس، سبباً مهما في القلق الذي تصدى له الدين الاسلامي . ولا نستطيع أن نقدم أي دليل دقيق على هذه النظرية ولكنها ليست بعيدة كتفسير للاحداث كما انها تؤدي إلى سرد معقول للاصلاحات التي أنجزها محمد .

ليست المسالة المهمة في معرفة أن يكون الزواج ، لأن الاقامة عند المرأة توجد في نظام الانتساب للاب ، ويمكن ان تكون استمرت بعض الوقت بعد اصلاحات محمد .

المسالة الاساسية هي تكوين الجماعة التي تملك وترث الملكية ، ونؤكد بانه حتى نهاية القرن السادس ، كانت الجماعة تنتسب للام ، وكانت الملكية ينظر اليها على انها مستودع منفعة الجميع ، وكان يشرف عليها اخوة المرأة . ولما ظهرت النزعة الفردية وأخذ الناس يفكرون في انفسهم على انهم أفراد اكثر منهم اعضاء في جماعة وان المصالح الفردية فوق مصالح الجماعة نشات عند الانسان نزعة التملك لاستعماله الشخصي من الملكية الجماعية التي يصرف عليها ، وقد حدث ذلك اثناء نظام الانتساب للام . ثم جاء دور الانتقال لنظام الانتساب للاب إذا ما حاول

المرء نقل هذه الملكية التي يملكها إلى ابنه الخاص وليس إلى ابن اخته .

ويوجد بدون شك طرق أخرى تم فيها الانتقال ، حين تكثر الوفيات (كما حدث في المدينة قبيل الهجرة) . كان على الرجل أن يشرف على ملكية عدة عائلات ، ولما كان العديد من الزيجات بين عائلات وثيقة الصلة بعضها بالبعض ، كان بامكان الرجل القوي أن يعرف كيف يستفيد من هذه الفوضى .

وإذا كنا نخمن حول الطريقة الدقيقة التي تم بها التحول من نظام الانتساب للام إلى نظام الانتساب للاب ، فانه من الاكيد ان ذلك نشأ قبل الهجرة وان نظام الانتساب للام قد زال تماماً بعد قرن من الهجرة .

مُلحق ق
الألفاظ التقنية في السور

٤ : ٢٤ ـ ٢٨ ، ٥ : ٥ – ٧ ، ٢٤ : ٣٣

هذه المقاطع الثلاثة مهمة لفهم موقف محمد من بعض عادات الزواج في محل إقامة المرأة في المدينة ، غير ان المعنى الاصلي للالفاظ فيها قدضاع بعدقرون من التأويل ليجعلها تتفق مع العادات الإسلامية. حتى ان القواميس لا تساعدنا كثيراً إذ ان المعاني التي تطلقها عليها هي المعاني التي تطلق على هذه الكلمات بعدعملية التأويل هذه :

والمقاطع هي التالية :

٤ : ٢٤/٢٨ (حرمت عليكم) والمحصنات من النساء ، إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم ، واحل لكم ما وراء ذلك ان تبتغوا بأموالكم محصنين غير سافحين . فما استمعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ان الله كان عليما حكيما . ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بايمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن باذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا

متخذات اخـدان فاذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف مـا على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم . وان تصبروا خير لكم والله غفور رحيم .

٥ : ٥/٧ : اليوم أحل لكم الطيبات . . . والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن اجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان

٢٤/٣٣ : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله . والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » .

الكلمة الاولى التي تثير انتباهنا هي « محصِنات » والنص العادي هو « محصَنات » لأنه اسم المفعول بينما النص الاول هو اسم الفاعل . ويبدو ان هناك مقارنة بين « محصِينات » « غير مسافحات » و « محصِنين » « غير مسافحين » ولكننا نجد في الجملة الأخيرة اسم الفاعل المذكر ، ولهذا فمن الافضل ان تكون صيغة المؤنث أيضاً . ويذكر « لين » معـاني الكلمة كما يلي : عفيفة ، طاهرة ، ممتنعة عن المحرمات ، متزوجة لهـا زوج ، متحررة ، أصبحت امرأة مسلمة . وتدل صيغة اسم المفـعول « محصَن » على ان زوجها هو الذي جعلها عفيفة وطاهرة . واصل معنى الجذر « صعب المنال كالحصن » ، وربما اتفق هذا مع معنى الطهارة ، وربما كان معنى « متزوجة » مشتقاً من بداية الآية القرآنية الاولى .

ويوافق القرآن على الفعل أو الحالة التي تعبر عنها كلمة محصنين أو محصنات لكل من الرجال والنساء بينما لا يوافق على عكسها . ويكون المعنى الاقرب ، على ضوء ما نعرفه عن الحـــالة السائدة والاصلاحات الاسلامية « يحافظن على صفاء الابوة » ويعني هذا أن تراعي المرأة «العدة» أو فترة الانتظار بعد انفصالها عن « زوج » وقبل أن تتصل برجل آخر ، وإذا كانت المرأة حاملا امتدت العدة حتى بعد ولادة الطفل ، وربما حتى تتوقف عن إرضاعه. هذا ما يجب على امرأة لها رجل واحد ، ويمكن أن يشار اليها بوحدانية الزوج بينما تعني « المحصن» ذات الزوج الواحد ولا يجب ان تاخذ الكلمة في المثال الأول على انها تعني وحدانية الزوج بل زواجاً حالياً . ولا توجد أية صعوبة في تطبيق هذه في وحدانية الزوج على الأمثلة الأخرى على اسمي الفاعل أو المفعول او المصدر « تحصن » ، وهـــذا النوع من المعنى اقرب لأن يكون المعنى الاصلي من المعـــاني الغامضة التي تطلق عادة على هذه الكلمات . ويمكن أن تكون هناك معان دقيقة ــ ربما كانت نتيجة لزواج الاقامة مع الرجل ــ غـــير ان المعنى المذكور يتفق مع جميع الأمثلة(١) . ويمكن ان يوصف الفعل المناقض الذي يقوم بـــه « المسافحون » و« المسافحات » على انـــه « تعدد في الازواج » .

وان كان يوجد أنواع أخرى من تعدد الازواج، وكان ذلك يعني

---

(١) لمعرفة المعنى الشرعي الحديث راجع

Snouck Hurgrone. Zeitschrift der deutschen morgen landischen Gesellschaft 53 , 168 Verspreide Ges chriften.

في المدينة ان تتصل المرأة بعدد من الرجال دون أن تراعي « العدة » مما يحول دون التاكد من والد الطفل الذي تنجبه . ونجـــد في القواميس « سافح » بمعنى « زنى » . والمعنى الاصلي للجذر الاول للكلمة « اسال » (للسائل) أو « وقع » كالبعير يقع على الارض . وهكذا « سافح » تصلح لوصف تعدد الازواج غير المحدود الذي ذكره البخاري . وتؤكد هـــذا المعنى الجملة المتممة « ولا متخذات أخدان » لأن أخدان تعني «الاصدقاء السريين أو الخصوصيين » لأن المرأة بعد عدة « زيارات » مـــن مثل هؤلاء الاشخاص لا تستطيع مراقبة « العدة » . ولا نستطيع أن يميز هذه العادة عن الدعارة في مظهرها الخارجي (في حالاتها القصوى) ولكنها تختلف عنها في أساسها الاجتماعي وأفكارها الكامنة وراءها . وتشير كلمة « بغا » في ٢٤،٣٣) إلى نفس الشيء .

ويقال عن الفتيات في (٤ ، ٢٥ ، ٢٩ و ٢٤ ، ٣٣) انهن السبايا ، ويمكن للكلمة ان تعني بالتاكيد السبايا من الاناث . وإن كان معناها الاصلي هو « صغار النساء » . غـــير ان الامر بنكاحهن باذن اهلهن يعني أنهن لشخص آخر ، والنكاح من سبية رجل آخر لم يكن مستحباً في ذلـــك الوقت ، ويبدو ان كلمات « ممـــا ملكت أيمانكم » التي تؤكد التفسير التقليدي ، قد اضيفت بعد نزول الوحي الاصلي للآية ، حـــين كثرت السبايا من النساء ، ولم تحذف « باذن اهلهن » . ولهذا فمن الافضل أن ننظر الى « الفتيات » على أنهن طبقة من النساء في عـــائلات تنتسب للام ، وهن أخوات سيدة العائلة الصغيرات أو قريباتها اللواتي لا يسمح لهن

باتخاذ زوج دائم يقيم في بيت العائلة ، بل يسمح لهن باستقبال الرجال كما يردن . اما انهن طبقة متميزة فذلك يبدو واضحاً من العقاب الخفيف في (٤ : ٢٥ ـ ٣٠) . ولما كان الزواج من إحدى هؤلاء النساء ارخص فقد كان الرجل يذهب ليعيش (بعض الوقت فقط) في بيت عائلة المرأة . وكان يحرم عليها الاتصال باي رجل آخر طالما هي زوجة له ، وكان يدفع لها أجر بعض الزيارات فقط . وربما كان يرجع السبب في ضآلة العقاب إلى تغير وضع المرأة الحديث من انتقال من حالة تعدد الازواج إلى حالة « وحدانية الزوج » إذ تعود إلى إقامتها المستمرة في بيتها القديم والحنين إلى العودة إلى الطرق القديمة .

ويبدو ان كلمة « فاحشة » ، وتعني شيئاً مكروهاً ، لا تطبق على الزنا خاصة ، بل على أية عادة كانت سوية في الماضي وأصبح الآن الإسلام لا يرتاح اليها . والزواج من امرأة الأب في (٤ : ٢٢ ـ ٢٦) فاحشة .

إذا كانت هذه المعالجة للالفاظ التقنية صائبة فان الآيات التي ناقشناها يمكن أن تعني شيئاً كالتالي :

تسمح الآيات الاول بالزواج الموقت مع المرأة المتعددة الأزواج وتقرر انها ستتخلى عن تعدد الازواج . والآية التالية مماثلة للاولى ، غير أن الزواج ليس مؤقتاً بالضرورة ، ويجب موافقة أهل المرأة ، ولهذا لا يمكن

---

(١) مونتجمري وات : الحكم على يهود بني قريظة « مجلة العالم الاسلامي » ٩٢، ١٩٥٢، ١٦٤

أن يكون الزواج سريا ، ويبدو أن هذه الآية متاخرة قليلا عن الآية التالية أقدم من الاربعة السابقة لانها تتحدث عـــن « أهل الكتاب » ، وربمـــا كانوا من اليهود وتسمح بالازواج مـــن النساء ذوات الزوج الواحد منهم ومن المؤمنين عامة . وتدلل الآية الاخيرة على ان المصالح المكتسبة تحاول المحافظة على النظام القائم .

ولم يطلق سراحهن (مثل جويرية) . ويقال عن ريحانة أحيانا انهـا تنتمي لهذه الفئة. وكذلك ماريـة القبطية وإن لم تؤسر في الحرب بل كانت هدية أرسلت لمحمد .

وتتالف الفئة الثالثة من بنات العم والخال والعمة والخالة . وليس من الواضح ما إذا كانت جملة « اللاتي هاجرن معك » هي تحديد لحق الزواج من هؤلاء أم هي فئة رابعة . وكان عبد الله بن مسعود يقرأ « واللاتي هاجرن معك » باضافة « الواو » مشيراً إلى انهن طبقة متميزة . وتنتمي لهذه الطبقة زينب بنت خزيمة التي هاجرت للمدينة بصحبة زوجهـا عبيدة بن الحارث من قبيلة المطلب . وتروى قصة عن ابنة عم محمد أم هانيء بنت أبي طالب تشير إلى أن البندين الثالث والرابع هما طبقة واحدة فقد رفضت عرضاً للزواج من محمد على أساس انها لم تهاجر مع محمد [1] . وليس أمراً بديهياً لا يحتمل الخطا لأن هناك قصصاً أخرى عن رفضها الزواج من محمد لا تذكر هذه المسالة . ويتعلق حل مشكلة البندين الثالث والرابع بالنظرة إلى الهدف من القاعدة المتضمنة فيها ، والنظرة الاقرب هي ان هؤلاء النساء ، سواء كن فئتين أم فئة ، لا ياخذن « اجورهن » مثل الطبقة الاولى ، ويمكن أن يكون سبب ذلك اما ان محمد قد أعطاهن كبنات عمه أو كزوجات من أمته) [2] ، او انه ممثلن الذكر الرسمي ولم ولم تكن له ممتلكات خاصة .

---

(١) ابن سعد ج ٨ ، ١٠٩ ، ٩ – ١١ ، ١٥ – ١٩

(٢) كام هاني ، نفس المرجع ٢ ،١٣

ولم يكن الزواج من بنات العم والخال محرماً في الإسلام ولا يمكن أن تكون الآية تحريماً على محمد من الزواج فيما بعد [١]. لأنه حين وفاته كان يقوم بتدبير زواج من قتيلة بنت بنت قيس [٢].

والفئة الاخيرة هي فئة المؤمنات اللاتي وهبن أنفسهن لمحمد. وهن بدون شك النساء اللواتي تزوجن من محمد على أساس المبادىء القديمة (وربما كان على أساس تغييرها في القرآن: ٤، ٢٩/٢٧ [٣]. وتذكر عدة أسماء ينتمي لهذه الفئة. ويبدو انه لم يكن لأية واحدة منهن مسكن في بيت محمد في المدينة ما عدا ميمونة.

ومن المفيد أن ميمونة من ضمن هذه الفئة لأنها تتحدر من عائلة تنتسب للام [٤]. وتقول بعض الروايات ان العباس دبر أمر زواجها، من محمد، مما يعني ان العباس كان دوره ثانوياً في هذا التدبير [٥]، وان المرء ليعجب كيف انها، حين جاءت المرة الاولى إلى المدينة لوحدها مع ابنة أخيها جعفر، أقامتا في بيت أختها مع جعفر بن أبي طالب.

فلما تم زواجها من محمد، أثناء عودته للمدينة من العمرة القاضية، كانت لها قبتها الخاصة [٦]، وربما كان ذلك شيئاً عادياً بالنسبة لنساء محمد

---

(١) على عكس الطبري، تفسير ج ٢٢، ١٥ أعلى الصفحة.

(٢) ابن سعد ٨، ١٠٥ (٣) راجع ما سبق ص ٣٩١

(٤) راجع ص ٣٨٠ مما سبق، عن تزويجها نفسها ابن سعد ج٨، ٩٨، ٣

(٥) ابن سعد ج ٨، ٩٥ بصدد الجملة: جعلت أمرها إلى نفس المرجع ٩٥ (ميمونة للعباس) ٨٢، ١٥ (زينب بنت خزيمة لمحمد).

(٦) ابن سعد ج ٨، ١٠٠، ١

ملحق ل
زيجات محمد

تاثر تصنيف زيجات محمد بالآية القرآنية (٣٣، ٤٩٥/٥٠) ويوجد لسوء الحظ بعض الصعوبات في تفسير هذه الآية أوحتى في ترجمتها . فلقد تغيرت الظروف في السنوات المئة بعد وفاة محمد فلم يعد الناس يهتمون بكثير من وقائع النظام الاجتماعي الذي ترجع اليه هذه الآية . ولهذا يجب فحصها بالتفصيل . وهذه هي الآية :

(يا أيها النبي انا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين .

تتكون الفئة الاولى من زوجات محمد بمعنى الكلمة الدقيق . وتفسر عادة كلمة « اجور » بمعنى « مهور » (مفردها مهر) ، وهي إما أن تكون « مهراً » أو ما يحل محله في الايام الاولى كالمساعدة في المؤن من خيبر .

والفئة الثانية هي السبايا المحظيات من النساء اللواتي أسرن في الحرب

ولا يعني ان الزواج كان حيث تقيم المرأة .

وكان زواج محمد « من اللائي وهبن أنفسهن له »،ما عدا ميمونة ، في محل إقامة المرأة . ويتفق ذلك مع العادة السائدة في هذه البيئات من المجتمع العربي حيث كانت تسود مبادىء الإنتساب للام .

يبقى تفسير البند الاخير « خالصة لك من دون الله » وتفسر هذه الكلمات بانها تعني ان ذلك امتياز من دون المؤمنين ،والامتياز الخاص هو الزواج من امرأة وهبت نفسها لمحمد دون وجود « الولي » أو «المهر »[1] ويتفق هذا التفسير مع محاولة عمر وغيره لإيقاف زواج « المتعة » وأن تكون بمثابة صلة لدعم تحريم المتعة . وإذا كان هذا التفسير غير مستحيل فان هناك تفسيراً طبيعياً أكثر وهو ان تكون « خالصة » نعتاً « للمرأة ».

وهكذا يعني هذا البند : تحفظ نفسها خاصة لك ، ولا تتصل اتصالا جنسياً باي رجل آخر من المؤمنين . ويتفق هذا مع الإلحاح على النساء اللواتي أصبح لهن رجل واحد .

وقد أثرت هذه الفئات من النساء المذكورة في هذه الآية بعض التاثير على الروايات التالية حول نساء النبي :

ولهذا كثيراً ما نجد هاتين الجملتين « مما أفاء الله عليك » « واللاتي وهبن أنفسهن للنبي » ونجد في الجزء الثامن من كتاب ابن سعد إلى جانب « نساء النبي » لوائح باسماء النساء اللواتي تزوجهن رسول الله دون إتمام الزواج، والنساء اللواتي طلقهن ، وكذلك باسماء النساء اللواتي عرض

(١) راجع قتادة . طبري تفسير ج ٢٢، ١٤، ٢٤

عليهن النبي الزواج دون اتمامه ، والنساء اللواتي وهبن أنفسهن لرسول الله، ولا تتفق بعض الحالات المذكورة آنفاً مع الحالات الاولى . وهكذا لا نجد أية كلمة حول رغبة محمد في الزواج من امامة بنت حمزة ، وقد اقترح بعضهم ذلك فاجاب محمد بأن ذلك مستحيل لأن حمزة أخوه في الرضاعة .

يقال عادة ان محمداً كان عنده أربع عشرة زوجة بكل معنى الكلمة ، وعاشت بعد وفاته تسعة منهن . غير ان هناك خلافاً حول شخصية هؤلاء هؤلاء الاربع عشرة[1] .

١ ـ خديجة بنت خويلد (قريش ـ اسد) تزوجها حوالى ٥٩٥ وكان عمرها ٤٠ سنة[2] .

٢ ـ سودة بنت زمعة (قريش ـ عامر) تزوجها حوالى ٦٢٠ وكان عمرها ٣٠ سنة (؟) ، وكانت زوجة السكران بن عمرو وهو من المسلمين الاوائل، هاجرت معه إلى الحبشة وعادت الى مكة وكان أخوها وثنياً كبيراً كما بقي أخوها في الحبشة[3] .

٣ ـ عائشة بنت أبي بكر (قريش ـ تيم) تزوجها في سنة ١/٦٢٣ وكان عمرها تسع سنوات[4] وهي العذراء الوحيدة التي تزوجها محمد .

---

(١) نفس المرجع ١٥٦ ـ ٩ ، ابن هشام ١٠٠١ ـ ٥ يذكر اسماءهن مع اسماء عمرة ، وأم شريك .

(٢) ابن سعد ج ٨، ٧، ١١، ١، ١، ٨٥، الطبري ج ١، ١٧٦٦، كايتاني ج١، ١٦٦ ـ ٧٣

(٢) ابن سعد ج ٨، ٣٥ ـ ٣٦ ، طبري ج ١، ١٨٦٧ ـ ٩ ، كايتاني ج ١ ، ٣١٢

(٤) » « ٣٩ ـ ٥٦ ، « » ١، ١٧٦٩ « « ١ ، ٤٢٤

٤ ـ حفصة بنت عمر بن الخطاب (قريش ـ عدي) تزوجها في ٣/٦٢٥ وكان عمرها ١٨ سنة ، وكانت زوجة مسلم قتل في بدر [١] .

٥ ـ ام سلمة (هند) بنت المغيرة (قريش ـ مخزوم) تزوجها ٤/٦٢٦ وكان عمرها ٢٩ سنة ، وقد توفي زوجها أبو سلمة اثر جروحه في احد [٢] .

٦ ـ زينب بنت خزيمة (عامر بن صعصعة) تزوجها ٤/٦٢٦ أو السنة السابقة ، وكان عمرها ٣٠ سنة ، وتوفيت بعد أشهر قليلة ، وبعد طلاقها من الطفيل بن الحارث (قريش ـ المطلب) تزوجت أخاه عبيدة الذي قتل في بدر [٣] .

٧ ـ جويرية (المصطلق من خزاعة) وهي ابنة شيخ القبيلة اسرت في الهجوم عليها في كانون الثاني ٦٢٧ (٥/٨) تزوجها محمد بعد اسلامها ، واطلاق سراحها ، وكان عمرها ٢٠ سنة ، وربما كانت في اول الامر محظية ولكن قبل وفاتها أصبحت زوجة بكل معنى الكلمة [٤] .

٨ ـ زينب بنت جحش (أسد بن خزيمة) تزوجت محمداً في ٥/٦٢٧ بعد طلاقها من زيد بن حارثة ، وكان عمرها ٣٨ سنة ، وكانت امها خالة محمد ، وكان أبوها مولى قبيلة عبد شمس من قريش [٥] .

---

(١) ابن سعد ج ٨ ، ٥٦ ـ ٦٠ ، طبري ج ١ ، ١٧٧١ . كايتاني ج ١ ، ٥٤٠
(٢) « « ٨ ، ٦٠ ـ ٦٧ ، « ١ ، ١٧٧١ ، « « ١ ، ٥٨٨
(٣) « « ٨ ، ٨٢ « ١ ، ١٨٧٥ « « ١ ، ٥٨٨
(٣) « « ٨٣ ـ ٨٥ ، « ١٧٧٢ « « ١ ، ٦٠١
(٥) « « ٨ ، ٧١ ـ ٨٢ ، « ج ١ ، ١٧٧٢ « « ١ ، ٦١٠

٩ ـ مارية القبطية : وهي محظية جارية قدمها لمحمد حاكم مصر في ٦٢٨/٦ أو قبل ذلك ، وقد ولدت له طفلا اسمه ابراهيم وظلت محظية [١] .

١٠ ـ أم حبيبة (رملة) بنت أبي سفيان (قريش ـ عبد شمس) ، تزوجها حين عودته من خيبر في ٦٢٨/٧ ، وعمرها حوالى ٣٥ سنة ، كانت زوجة عبيد الله بن جحش الذي هاجرت معه إلى الحبشة [٢] .

١١ ـ صفية بنت حيي (يهودية ـ النضير) أسرت في خيبر ٦٢٨/٧ وكانت من نصيب محمد ، عمرها ١٧ سنة ، وربما كانت محظية في أول الأمر ثم اعتنقت الاسلام وأطلق سراحها [٣] .

١٢ ـ ميمونة بنت الحارث (عامر بن صعصعة ـ هلال) ، تزوجها حين عودته من (عمرة القاضية) في ٦٢٩/٧ ، وعمرها ٢٧ سنة وهي أخت زوجة العباس [٤] .

١٣ ـ ريحانة بنت زيد (يهودية ـ النضير) أسرت في بني قريظة الذين كان ينتمي اليهم زوجها في ٦٢٧/٥ ، أصبحت محظية محمد وظلت كذلك وتوفيت قبله ٦٣٢/١٠ [٥] .

هؤلاء هن النساء اللواتي يمكن اعتبارهن نساء محمد أو محظياته . وقد توفيت ثلاث منهن قبل وفاته ، وظلت مارية محظية له . وقد أصبحت

---

(١) ابن سعد ج ٨ ، ١٥٣–٥٦ . طبري ج ١ ١٧٧٥ ، كايتاني ج ١ ، ٧٣٠
(٢) « « ٨ : ٦٨ – ٧١ . « « ١:١٧٧٢. « ج ١:٢٠:٥٥
(٣) « « ٨ : ٨٤ – ٩٢ . « « ١:١٧٧٣. « ج ٢:٣٤:٣٩
(٤) « « ٨ : ٩٤–١٠٠ . « « ١:١٧٧٣. « ج ٢:٢:٦٦
(٥) « « ٨ : ٩٢ – ٩٤ . « « ١:١٧٧٥. « ج ١:٦٣٤ ج ٢:٣٦٩

التسع الباقيات « أمهات المؤمنين » . وهناك حوالى عشرين امرأة يقال بأنهن كن زوجــات لمحمد . ويحوم حول بعضهن الغموض والشك . ولا شك أن كثيراً من القبائل كان يهمها أن تدعي قرابتها لمحمد عن طريق الزواج. وهكذا يقال بأن محمداً تزوج بامرأة من بني كلاب ،ولكن روايات عدة مختلفة تذكر حول اسمها . والشيء الأكيد انه ما من واحدة من هذه القائمة الاضافية ارتبطت بمحمد ارتباطاً مستمراً[1] .

١ ـ أسماء بنت النعمان (كندة ـ جون) يقال بأنها تزوجت من محمد في حزيران ٦٣٠ (٣/٩) وطلقت ، حسب بعض الروايات ، قبل إتمـــام الزواج (ولكن قصة الطلاق تروى بصدد عدة نساء أخر) كما يقال بأنها لزمت الحجاب واعتبرت (إحدى أمهـات المؤمنين) ، ولكن روايات أخرى تنفي ذلك ويقال بأنها تزوجت بعد تركها محمداً[2] .

٢ ـ قتيلة بنت قيس (كندة)، اخت الاشعث بن قيس ، الذي ثار على أبي بكر ثم أصبح من كبار القادة المسلمين، كانت على وشك الزواج من محمد حين وفاته .

٣ ـ مليكة بنت كعب (ليث) يقال بأنها طلقت محمداً قبل إتمام

---

(١) راجع المر شترن : الزواج في أوائل الاسلام ١٥١ – ٧. كايتاني ج ٢، ٤٧٨ ، فلهوزن *Die Ehe bei den Arabern* ٤٦٤ ف

(٢) ابن سعد ج ٨ ، ١٠٢ — ١٠٥ : ١٥٨ : ١٣ : ٢٥. طبري ج ١ : ١٧٧٥ : ٣ ابن هشام ١٠٠٤ ف .

(٣) ابن سعد ج ٨ : ١٠٥ : ١٥٨ : ١٦ . الطبري ج ١ . ١٧٧٦ : ٥ ابن هشام ١٠٠٤ .. ١٥ (؟) .

الزواج ، أو تزوجته في كلنون الثاني ٦٣٠ (٨/٩) ثم توفيت ، غير أن هناك من ينفي أن يكون محمد تزوج أية امرأة من كنانة التي تتفرع منها ليث[١] .

٤ ـ بنت جندب ، ضمرة (كنانة) هناك من يؤكد ، وهناك من ينفي زواجها من محمد[٢] .

٥ ـ فاطمة ، بنت الضحاك (كلاب) أحد الاسماء التي تذكر عن المرأة من كلاب التي كانت بين زوجات محمد ثم طلقت ، تاريخ الزواج هو آذار ٦٣٠ (١١/٨)[٣] .

٦ ـ عمرة بنت يزيد (كلاب) ربما كانت رواية أخرى عن السابقة[٤]

٧ ـ عالية بنت ظبيان من (كلاب) رواية اخرى[٥] .

٨ – سبأ بنت سفيان (كلاب) رواية اخرى[٦] .

٩ ـ نشاة بنت رفاعة (كلاب) وهي رواية اخرى ، ولكن يقال بأن قبيلتها كانت موالية لقبيلة قريظة اليهودية[٧] .

١ ـ غزية بنت جابر ، أم شريك (كلاب ، او كندة ، او قريش ـ عامر او دوس او الانصار) هناك اجماع واسع ان البند الخامس من الآية

---

(١) ابن سعد ج ٨:١٠٦:١٥٨:٨ ج ٢ (٢) ابن سعد ج٨ :١٠٦

(٣) ابن سعد ج ٨ : ١٠٠:٢٤:١٠١:٦:١٥٨:٩:٢٦

(٤) ابن سعد ج ٨:١٠٠:٢٥:١٠٢ . طبري ج ١:١٧٧٧:٣. ابن هشام ١٠٠٤

٥) ابن سعد ج ٨ : ١٠٠:٢٦:١٠٢:١٠ طبري ، ح ١ : ١٧٧٦:٢

٦) ابن سعد ج ٨ : ١٠١ : ج١ : ١٠٢:٥

٧) طبري ج ١ : ١٧٧٤ : ٣

القرآنية التي ناقشناها سابقاً (بصدد النساء اللاتي وهبن أنفسهن للنبي) ، يشير إلى امرأة تسمى أم شريك وهي في بعض الاحيان غزية . ولكن هناك رواية أخرى تقول بأن عرض الزواج جاء من قبل محمد وان غزية طلقت قبل إتمام الزواج [١] .

١١ – فاطمة بنت شريح ، ربما كان هذا الاسم تصحيفاً لاسم آخر لأنا لا نجد أي معلومات عنها [٢] .

١٢ ـ سنا او سبا بنت (اسماء بن) الصلت (سليم) ماتت قبل أن يتم زواجها من محمد [٣] .

١٣ ـ الشنباء بنت عمرو (جفار ، موالي قريظة أو قريظة)طلقت لأنها تحدثت بصدد وفاة ابن محمد ابراهيم [٤] .

١٤ ـ خولة بنت الهذيل (تغلب)، ابنة أخ دحية بن خليفة الكلبي، تزوجت محمداً وماتت وهي في الطريق اليه [٥] .

١٥ ـ شرف بنت خليفة (كلب) وهي خالة خولة ، حلت محلها عند وفاتها [٦] .

١٦ ـ خولة بنت حكيم (سليم) ابنة امرأة من قبيلة عبد شمس المكية تربطها صلة القرابة بقبيلة هاشم وكانت احدى اللاتي وهبن أنفسهن للنبي

---

(١) ابن سعد ج ٨ : ١١٠–١١٢ : طبري ج١ :١٧٧٤ :١٥ :١٧٧٦ :٧ ابن هشام .
(٢) طبري ح١ :١٧٧٦ :٧
(٣) ابن سعد ج ٨ :١٠٦ . طبري ج١ :١٧٧٤ :٦
(٤) طبري ج ١ : ١٧٧٤ .١٠
(٥) ابن سعد ج٨ : ١١٤ .طبري ج١ :١٧٧٦ :١٢
(٦) ابن سعد ج ٨ :١١٥ : طبري ج ١٧٧٦ :١

فأرجاها فقامت بخدمته ، وذلك بعد وفاة زوجهاعثمان بن مظعون حوالى أيام معركة أحد (وكانت تزوجت عثمان منذ وقت طويل لأن ابنها السائب بن عثمان حارب في بدر [٣] ، وربما أسكنها محمد في بيته لأنها زوجة أحد المسلمين الاوائل ولكنه رفض الزواج منها لأنها كبيرة السن او لسبب آخر) .

ويوجد أخيراً سبع نساء جرى بينهن وبين محمد حديث بصدد الزواج دون أن يتم ذلك . اثنتان منهما امرأتا الانصاري الذي دبر أمر الزواج ولكنهما أجبرتا على التخلي عنه خوفاً من أن يتخلى محمد عن حياده .

١ ـ حبيبة بنت سهل (الانصار ـ مالك بن النجار) [٢] .

٢ ـ ليلى بنت الخطيم (الانصار ـ ظفر) [٣] .

٣ ـ ام هاني بنت ابي طالب (قريش ـ هاشم) [٤] .

٤ ـ ام حبيب بنت العباس (قريش ـ هاشم) [٥] .

٥ ـ ضباعة بنت عامر (عامر بن صعصعة) [٦] .

٦ ـ صفية بنت بشامة (تميم ـ العنبر) [٧] .

٧ ـ عمارة (او امامة) بنت حمزة (قريش ـ هاشم) [٨] .

---

(١) ابن سعد ج ٨ : ١١٣
(٢) ابن سعد ج ٨ : ٣٢٦
(٣) ابن سعد ج ٨ : ١٥٧ . طبري ج١ : ١٧٧٦ : ١٤
(٤) ابن سعد ج ٨ : ١٠٨ : طبري ج١ : ١٧٧٧ : ٥
(٥) طبري ج ١ : ١٧٧٧ : ١٥
(٦) ابن سعد ج ٨ : ١٠٩ . طبري ج ١ : ١٧٧٧ : ٧
(٧) ابن سعد ج ٨ : ١١٠ . طبري ج ١ : ١٧٧٧ : ١٣
(٨) ابن سعد ج ٨ : ١١٣

فهرست الموضوعات